سِيَرُ المُلوك

أو

سِياسَت نامه

تأليف

نظام الملك الطوسي

وزير السلاجقة المشهور

٤٠٨ - ٤٨٥ هـ

ترجمة عن الفارسية

الدكتور يوسف بكار



سِیَرُ المُلوک

یا

سِیاسَت نامه

سِيَرُ المُلوك

أو

سِيَاسَتْ نامه


بسم الله الرحمن الرحيم



دار المناهل
للطباعة والنشر والتوزيع

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 9953 - 448 - 48 - 0

طبعة دار المناهل الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

عنوان الكتاب: سِيَرُ الملوك أو (سياست نامه)

تأليف: نظام الملك الطوسي

ترجمة عن الفارسية: الدكتور يوسف بكّار

عدد الصفحات : ٣٢٠

قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤

الصف الضوئي : غنى الريّس

تصميم الغلاف : هوساك كومبيوتر برس

الخطوط : حسين ماجد

التنفيذ الطباعي : هادي برس

الناشر: دار المناهل- بيروت - لبنان

هاتف: ٠٠٩٦١ ٣ ٧٠١٠٣٦

٠٠٩٦١ ١ ٣٤٩٤٢٤

فاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣١٤٢٢٠

E- mail: daralmanahel75@hotmail.com

طبع في لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثالثة

فها هي ذي سبع وعشرون سنة تنقضي على صدور الطبعة الأولى من الكتاب وعشرون على الطبعة الثانية، التي حظيت بسهم وخير من التنقيح والتعديل والمعاودة والزيادة لاسيّما في عمل الفهارس،

وعلى الرغم من أن الكتاب مترجم فقد تعقبته انطلاقاً من الخبرة والممارسة والتجدد المعرفي، من جديد في هذه الطبعة الأجدّ تعقّباً شاملاً أفضى إلى أمور كان في مسيس الحاجة إليها، هي بإيجاز شديد كافٍ:

(١) إبعاد شبح الترجمة الحرفية ، الذي كان يتراءى في مواطن قليلة جدًّا، بمراعاة أول تراكيب العربية وأساليبها، حتى غدا الكتاب كأنه مؤلف تأليفاً وليس مترجماً. وهذا هو ما يصرُّ عليه منظّرو فنّ الترجمة دائماً.

(٢) تنقية الكتاب مما دلف إليه من أخطاء طباعية في الإملاء واللغة والنحو، ومن التراكيب الحديثة والاستعمالات غير الدقيقة.

(٣) إضافة حواشٍ جديدة وتعديل أخرى قديمة.

(٤) إدخال موادّ جديدة كانت منسيَّة في أكثر فهارس الكتاب.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢) .

يوسف بكّار

إربد ٢٠ / ٠٣ / ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

هذه الطبعة من «سياست نامه» «منقّحة» و«مزيدة» في آن. فأمّا أن تكون منقحة فذا شيء طبيعي ومطلوب في دنيا الكتابة والتأليف والترجمة أيضاً؛ وهو من الأمور التي لا تثير دهشةً أو استغراباً. وعلى أية حال، فالتنقيح هنا كثير وجذري لا نكاد تفلت منه صفحة من صفحات الطبعة الأولى في غير مجال وناحية، إذ امتدّ ليشمل الألفاظ والمصطلحات والصياغة والأسلوب تغييراً وحذفاً وإضافة.

أمّا أن تكون «مزيدة»، والكتاب مترجم، فذا الذي قد يبعث على الدهشة والاستغراب، ويدفع إلى التسآل: أين الزيادة إذاً، وكيف تكون؟! إن الإجابة سهلة ميسورة، فالزيادة زيادتان لا واحدة:

الأولى: ما أدخلته على الكتاب من إضافات وتوضيحات في هوامشه وحواشيه.

والأخرى: الفهارس العلمية التسعة التي «صنعتها» له، وهي - في رأيي - زيادة علمية وحقيقية في كتاب كهذا أجمع فأوعى ومزج فيه صاحبه التاريخ بتجاريبه الخاصة وزيراً لآل سلجوق قرابة خمسة وثلاثين عاماً مما جعل بعض بني جلدته من المعاصرين يقرن اسمه باسم «ديغول» فرنسا ويصفه بـ«السياسي العجوز».

لم يكتفِ نظام الملك بأن يلبّي رغبة مليكه «ملكشاه السلجوقي» فيؤلّف كتاباً يكون «دستوراً» يتّبع في إدارة الحكم والدولة وتسيير الأمور بالعدل والحقّ والعزم والحزم حسب[1]، إنما انعطف بقوة وشدّة، لكن في حدود الرغبة الملكية ونطاق التكليف وآفاقه، إلى الكشف عن أحقاد مخالفي الدولة من وزراء وولاة وعمّال طامعين وأعداءٍ متربّصين؛ وإلى فضح ذوي المذاهب الخبيثة الفاسدة، وقد

(١) كان ملكشاه قد طلب من مشاهير دولته وحكمائها ومسنّيها أن يؤلّفوا كتاباً في هذه الأمور وفي سنن السلف الصالح الحميدة ليهتدي بها ويقتدي؛ ثم اختار كتاب نظام الملك هذا من بين الكتب التي أُلّفت جميعاً. غير أن الكتاب دوّن بعد مقتل صاحبه وموت الملك بعده بمدة قصيرة جدًّا.

تصدّى لهم ما وسعه الجهد، التي كانت - على تعددها وكثرة أسمائها- تنضوي تحت راية «الباطنية» الكبرى لا هدف لها سوى تقويض الإسلام ومحق المسلمين وإدالة دولتهم.

أفلا يستحق كتاب هذا شأنه في شهرة مؤلّفه وأهميته وفي تنوّع موضوعاته وشموليّتها أن «تصنع» له فهارس للآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والأمثال والحكم والأقوال المشهورة، والأشعار العربية والمترجمة، وألفاظ الحضارة ومصطلحاتها، والكتب، والأعلام، والأقوام والأسرات، والملل والنّحل، والأماكن والبلدان؟

إنَّ هذه الفهارس قمينة، وحدها، بأن تبرز قيمة الكتاب وأهميّته دينيًّا وفكريًّا وتاريخيًا وحضاريًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وإداريًّا، وأن تكشف عن طول باع صاحبه ومقدرته وتديّنه وسعة علمه وثقافته وجرأته التي دفع، بأخرة، حياته ثمناً لها، لكن بعد أن وطّد ملك السلاجقة ووسّع آفاقه ودافع عنه وحماه، وكان يفتخر بأن «تاج» السلاجقة منوط بِـ «دواته» هو؟ وبعد أن أسّس المدارس «النظامية» في حواضر الدولة الإسلامية كلها فكانت «جامعات» قبل أن يعرف العالم الجامعات بالمفهوم الحديث.

وبين «التنقيح و«الزيادة» صحَّحتُ بعض الأخطاء الكثيرة التي ابتليت بها الطبعة الأولى، وأعدت إلى الكتاب ما سقط منه أو حذف في التصدير والمتن والحواشي والهوامش وثَبَت المحتويات.

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، فالكمال لك وحدك؛ سبحانك إنك على كل شيء قدير.

يوسف بكّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الترجمة
مقدّمة الطبعة الأولى

الترجمة ضرورة إنسانية وفكرية وحضارية لا غنى عنها لكلّ أمة حيّة تنشد الكمال الإنساني أو الاقتراب منه في الأقل. إنّ ترجمة الآثار الفكرية من أجدى أنواع الترجمة وأهمها لأنها تفسح المجال واسعاً أمام أبناء مختلف أمم الأرض للاطلاع على ميراث بعضها والإفادة منه، وربما التأثر به أيضاً.

ولست أراني في حاجة للعودة إلى الوراء لأقلّب صفحات التاريخ قديمه والحديث وأستعرض تاريخ الصّلات الثقافية والعلمية، وفيها الترجمة، بين الثقافتين العربية والفارسية؛ فقد كتبت في هذا الموضوع دراسات رصينة جادّة، لكن لا بدّ من الإشارة إلى أن الترجمة من الفارسية إلى العربية، وربما العكس أيضاً، كانت من أقدم وسائل تلك الصلات وأوسعها وأكثرها نشاطاً. ولم يقف بها الزمن عند القرون الأولى للحضارة العربية الإسلامية، إنما واصلت مسيرتها الطويلة على مرّ الأعصر إلى أن توقّفت عجلتها، مع ما توقف، حيناً من الدهر في عهود العتمة والانحسار والركود التي رانت على العالم الإسلامي قاطبة. لكنه ما إن أفاقت أمم الشرق من سباتها الطويل العميق وأخذت تعاود اتصالاتها ببعضها وبغيرها من دول العالم أيضاً، استأنفت الصِّلات العربية الفارسية أنشطتها المختلفة من جديد، ووصلت حاضرها بماضيها، فأتت أكلها يانعة طيبة، إذ ألّف رعيل من أبناء الأمتين في تراث الأمّة الأخرى وترجم، وما زالت كوكبة من المحقّقين والباحثين والدارسين تواصل السير على هذه الطريق العلمية المباركة.

ولإيماني العميق بهذه المسيرة الخيّرة التي كان لي شرف الإسهام في التأريخ للجانب الأدبي[1]

(١) للمترجم في هذا المجال:

١ - جهود عربية معاصرة في خدمة الأدب الفارسي. بحث طويل ألقي بدعوة من جامعة مشهد (الفردوسي سابقاً)، في مؤتمر التحقيقات الإيرانية الثاني (٢-٧ أيلول ١٩٧١م)، ونشر في المجلد الثاني لأعمال المؤتمر (مشهد ١٩٧٣م). وقد ترجمه إلى الفارسية الأستاذ الدكتور جعفر شعار ونشرته مجلة «سخن» الطهرانية في ثلاثة أعداد متتالية هي السادس والسابع والثامن. من دورتها الثالثة والعشرين لعام ١٣٥٣ شمسي (١٩٧٤م). =

منها، والمشاركة بنصيب[٢] ضئيل فيها، رحّبت باقتراح ترجمة كتاب «سِيَر الملوك» المعروف بـ«سياست نامه» أثر الوزير الإيراني العظيم نظام الملك الطوسي إلى لغة الضادّ، لما له من أهمية كبيرة، لا من الناحية التاريخية[٣]، وحدها، إنّما من حيث إنه يعدّ دستوراً قيّماً في كيفية سياسة البلدان وتسيير دقّة الأمور فيها بالمنطق والحزم والعدل والحكمة.

ليس في نيّتي أن أتحدّث هنا عن الكتاب وصاحبه، لأن صديقي العلاّمة الأستاذ الدكتور غلام حسين يوسفي[٤] قد كفاني مؤونة هذا في تصديره القيّم الذي وشّح به هذه الترجمة، فعرض فيه بتفصيل نقدي موضوعي ثاقب لحياة نظام الملك، وتحدث عن موضوعات الكتاب وحلّلها تحليلاً

= ٢- الفارسية وآدابها في البلاد العربية، مقال طويل نشر في مجلة كلية الإلـٰهيات والمعارف الإسلامية بجامعة الفردوسي- مشهد. العدد الثاني عشر ١٣٥٣ شمسي.

وقد ترجمته مليحة شريفي إلى الفارسية ونشرته في مجلة «سخن» أيضاً. العددان ٩ و١٠. السنة (٢٦)- ١٣٥٧ ش (١٩٧٨م).

(٢) للمترجم في هذا المجال أيضاً:

١- دور الفرس في الثقافة العربية في نظر الدارسين العرب المعاصرين. مجلة الإخاء «طهران» السنة (١١)، العدد (١٨٦) كانون الثاني (يناير ١٩٧١م).

٢- شعراء فرس في الأدب العربي. مجلة كلية الإلـٰهيات والمعارف الإسلامية بجامعة مشهد. العدد الثاني ١٣٥١ شمسي.

٣- خراسان في التراث العربي (بحث). مجلة كلية الإلـٰهيات والمعارف الإسلامية بجامعة الفردوسي. العدد السادس، آب ١٩٧٣م.

٤- ترجمة بحث «العالم المنشود في بستان سعدي الشيرازي» للدكتور غلام حسين يوسفي. مجلة البيان. الكويت، العددان ٩٤ و٩٦ كانون الثاني وآذار ١٩٧٤م.

٥- سمات الأدب الفارسي المعاصر، للدكتور غلام حسين يوسفي – (ترجمة) مجلة الفيصل السعودية. العدد (٢٨) – أيلول ١٩٧٩.

٦- نظرات في سياست نامه، في كتابي: قراءات نقدية. دار الأندلس – بيروت، ط٢: ١٩٨٢.

٧- الخيّام الشاعر ورباعياته (ترجمة). مجلة المجمع العلمي الهندي. العدد (٨)- ١٩٨٣.

٨- من مزالق الترجمة بين العربية والفارسية في كتابي: قضايا في النقد والشعر. دار الأندلس ١٩٨٤.

٩- ثمّة أعمال أخرى جدّت، وهي مذكورة في ثبت أعمال المترجم في آخر الكتاب، فضلاً عن عدد من البحوث عن عمر الخيام تأليفاً وترجمة.

(٣) إن الذين حقّقوا كتاب «سياست نامه» أو كتبوا عنه لا يعدونه كتاب تاريخ محض لما جاء فيه من أخطاء تاريخية، ولأن نظام الملك لم يكن يهدف إلى تأليف كتاب تاريخ، بل وجّه همّه إلى بيان الطريق المستقيم في سياسة الدول والالتفات إلى كل ما من شأنه أن يكون عظة وعبرة، وما إلى هذا من الأمور.

(٤) توفي، رحمه الله، يوم ٦/ ١٢/ ١٩٩٠ بطهران.

دقيقاً منصفاً – على عادته في كل تواليفه وبحوثه وأعماله- وفاه حقه، ولم يترك مجالاً لمزيد. إلا أنني سأقصر كلامي على ناحيتين فقط: الأولى تتصل بنواحي أخرى من الكتاب غير التي عرض لها الدكتور يوسفي، وتشتمل أيضاً على العناية الكبيرة التي أحرزها هذا الكتاب من لدن الإيرانيين والمستشرقين تحقيقاً وترجمة؛ والأخرى تدور حول ترجمتي هذه وما يدور في فلكها من أمور.

أما عن الناحية الأولى، فعلى الرغم من أن الكتاب «يعز نظيره بين الكتب الفارسية[٥]»، فقد كان إلى زمن قريب – وما زال تقريباً- مثار جدل كبير، بين الإيرانيين خاصة، خلاصته أن الكتاب لا يمكن أن يكون النسخة الأصلية التي خطّتها يد نظام الملك نفسه، لأنه ظل مدّة ليست قصيرة بعد مقتل صاحبه وديعة عند محمد المغربي كاتب السلطان الخاص الذي لا يستبعد بأن يده – أو يد غيره- قد امتدّت إليه وعبثت به. وقد قدّم المرحوم الأستاذ عباس إقبال أدلّة على هذا من طبعته للكتاب التي اعتمد في تحقيقها على بضع نسخ خطيّة متأخرة[٦]. غير أن طبعة المستشرق دارك الثانية وطبعة الدكتور جعفر شعار اللذين اعتمدا في نشرهما على نسخة خطيّة جديدة عثرا عليها في «تبريز» تخلوان خلوًّا تامًّا من الأدلّة التي اتّكأ عليها عباس إقبال واتخذها شواهد على ما ذهب إليه حتى أضحت للآخرين حقائق مسلمة. يصف دارك النسخة الخطية الجديدة بقوله: «إنها نسخة أصيلة، وهي أصح النسخ الأخرى وأكثرها اعتباراً. يعود تاريخ كتابتها إلى عام ٦٧٣هـ، وهي مكتوبة بخط حسين بن زكريا بن الحاج الدهستاني... كما أنها تخلو من عيوب النسخ الخطية الفارسية الأخرى، وأن كاتبها لم يطلق لخياله وذوقه العنان فيعبث بالنص حذفاً أو إضافة أو تغييراً»[٧]. ثم «إنها أقدم نسخ الكتاب الخطية»[٨]. ومهما قيل ويقال في هذه المسألة، فإن الكتاب، فيما يقول الدكتور يوسفي في تصديره الآتي: «لأهم ذكرى وأحسن وثيقة عن عصر نظام الملك، وطريقة تفكيره، وكيفية حكمه».

كانت هذه أولى المشكلات التي ظهرت لي وأنا أفكر في ترجمة الكتاب، والتي تنعكس بجلاء في التباين الظاهر بين طبعات الكتاب المختلفة. ومن هنا أي من تعدد طبعات الكتاب انبجست المشكلة الأخرى، وأظنها تعرض لكل مترجم يقدم على ترجمة كتاب طبع بضع طبعات متباينة. غير أن الاهتمام بـ«سياست نامه» وطبعه مرات يحمل غير دلالة، لعل من أهمها قيمة الكتاب وتعدّد مخطوطاته واختلافها.

(٥) عباس إقبال، مقدّمة سياست نامه ص ط.

(٦) المرجع نفسه، المقدمة ص أ- ب.

(٧) مقدمة الطبعة الثانية (بالفارسية) ص ١١ – ١٢.

(٨) المصدر نفسه، الصفحات نفسها.

فلقد طبع «سياست نامه» عدة طبعات، وترجم إلى غير لغة أجنبية. وكان المستشرق الفرنسي شارل شفر أول من نشر نصه الفارسي بباريس عام ١٨٩١م (١٣٠٩هـ) بالاعتماد على مخطوطات باريس ولندن وبرلين، وموازنتها - إلى حدٍّ - بمخطوطتي لينغراد. وفي عام ١٨٩٣م ترجمه إلى الفرنسية، وفي عام ١٨٩٧م أصدر ملحقاً لترجمته بمباحث الكتاب التاريخية.

واتخذت طبعة شفر، مع أنها فيما يقول دارك، «ليست مرضية»[٩]، أساساً لبضع طبعات وترجمات أخر. ففي عام ١٣٣٠ أعيد طبعها بالحجر في بومباي بالهند[١٠].

ثم أخذت طبعات الكتاب تترى في إيران نفسها، ففي عام ١٣١٠ شمس (١٩٣١م) طبع طبعة منقّحة باهتمام عبد الرحيم خلخالي، وفي عام ١٣٢٠ شمسي أصدر المرحوم عباس إقبال طبعة جديدة منه لتدرّس في المدارس الإيرانية، وقد عورضت بطبعتي شفر وخلخالي. تمتاز هذه الطبعة بمقدّمتها الجيدة وحواشيها المفيدة التي ظلت مورداً ينهل منه كل من حقّق الكتاب ونشره أو كتب عنه بعده. وفي عام ١٣٣٤ شمسي نشره، على أساس طبعة شفر، مرتضى مدرسي چهار دهي محلّى بتصحيحات العلاّمة محمد قزويني وحواشيه. وفي عام ١٣٤٠ شمسي نشره المستشرق الإنجليزي هيوبرت دارك معتمداً على عدد كبير من مخطوطاته التي جمعها من شتّى بقاع العالم[١١]، ثم ترجمه عام ١٩٦١ إلى الإنجليزية. غير أنه لما عثر على نسخة النخجواني في تبريز بعد سبع سنوات من طبعته الأولى، أعاد طباعته عام ١٣٤٧ شمسي (١٩٦٢م) لما لهذه المخطوطة من ميزات وخصائص هي التي نقلتها عنه سابقاً، وهي نفسها التي حملته على أن يقول بثقة واطمئنان: «إن طبعة شفر، بالاهتداء إلى ما بين أيدينا من نسخ معتبرة، قد فقدت أهميتها»[١٢].

ونشره، على أساس مخطوط النخجواني في الدرجة الأولى، الأستاذ الدكتور جعفر شعار عام ١٣٤٨ شمسي أي بعد عام واحد من طبعة دارك الثانية. إن هذه الطبعة لا تختلف في متنها عن طبعة دارك الثانية في شيء لاعتماد المحقّقين - في الدرجة الأولى- على مخطوطة تبريز نفسها، كما أنهما تمتازان بما أضاف إليها المحقّقان من تعليقات وملاحق لغويّة واصطلاحية وفهارس مختلفة. وقد أفاد المحقّقان كلاهما - لاسيّما في التعليقات - من حواشي طبعة المرحوم إقبال، وقد أشار الدكتور شعار نفسه إلى هذا في مقدّمته[١٣]. ونشره البروفسور محمد آلتاي كويمن بأنقرة عام ١٩٧٦.

---

(٩) مقدمته ص ١٩.

(١٠) مقدمة عباس إقبال، ص ي.

(١١) انظر وصفه لهذه المخطوطات وكلامه عليها في مقدمته ص ١٥ - ١٨.

(١٢) المرجع نفسه ص ١٩.

(١٣) ص ١٢.

كانت تلك هي طبعات الكتاب، أما ترجماته، فقد ترجم - إلى الآن فيما أعلم - إلى خمس لغات، إذ تقدّمت الإشارة إلى أن شفر ترجمه إلى الفرنسية، ودارك إلى الإنجليزية. وترجمه - على أساس طبعة شفر والإفادة من نسختي لينينغراد- ب.ن. زاخورد إلى الروسية، وصدرت الترجمة بموسكو عام ١٩٤٩م. كما ترجمه، على أساس طبعة شفر أيضاً والاستفادة من الترجمة السابقة، ك.أ. شابنكر إلى اللغة الألمانية، ونشرت هذه الترجمة بميونيخ عام ١٩٦٠م[١٤]. وترجم إلى التركية مرتين: الأولى ترجمة محمد شريف كاقادار أوغلو (استانبول ١٩٥٤)، والأخرى ترجمة نيورتن باي بورتلغل Nurettin Bay Burtlugil (استانبول ١٩٨١).

تلكم هي التركة الثقيلة التي وجدت نفسي أمامها وجهاً لوجه، وأنا أقدم على ترجمة «سياست نامه»، لكنني أيقنت، بعد طول تأمّل، أن لا مفر لي من اعتماد طبعة من طبعات الكتاب أصلاً للترجمة، وإن كان لا بدّ من الاختيار، فلا مندوحة من اختيار واحدة من اثنتين: طبعة دارك الثانية، أو طبعة الدكتور شعار لأنهما - لاعتمادهما على مخطوطة تبريز- أوفى الطبعات وأكملها على الإطلاق، وأنقاها من الشوائب التي حملت محققيها على الجزم بتلاعب النسّاخ بالكتاب والبعد به عما دبج نظام الملك. وكان أن اخترت طبعة الدكتور شعار لأن الرجل إيراني وواحد من ذوي الفضل في الفارسية وعلومها، ومن أساتذتها المعروفين أيضاً، وأبناء اللغة المتخصّصين فيها أدرى دائماً بشعابها ومضايقها واصطلاحاتها وأمثالها ومجازاتها وأقدر على فهمها من غير أهل اللغة المتخصّصين فيها، مهما أوتي هؤلاء من فضل ومقدرة وسعة اطلاع. وعلى الرغم من ثناء الدكتور شعار على دارك وطبعته بقوله: «إن طبعته الثانية تفضل طبعة شفر وتتفوق عليها، إذ نحا في التحقيق النحو المعروف عن علماء الغرب من دقّة النظر» فإنه يقول عنه: «إن المحقق على الرغم من دقّته تنقصه المعرفة بخصائص التراكيب في الفارسية، مما أدى إلى وقوعه في عدد من الأخطاء» ثم ذكر نماذج من هذه الأخطاء[١٥].

لكن اختياري هذا لم يصرفني عن طبعتي دارك وعباس إقبال اللتين كنت أفزع إليهما بين الحين والحين إذا ما اعترضني عارض للتثبّت من حقيقته. ومن المفيد جدًّا أن أشير هنا إلى الأمور الآتية:

١ - اعتمدت في تسجيل القسم الأكبر من أخطاء المؤلف التاريخية في الهوامش على حواشي عباس إقبال التي كانت - فيما ذكرت - المورد الثرّ الذي استقى منه سائر المحقّقين بعده. لكنني اكتشفت أخطاء وتصحيفات جديدة فاتت المحقّقين الأفاضل[١٦].

---

(١٤) انظر أيضاً: مقدمة طبعة دارك الثانية ص ٢٠.

(١٥) انظر مقدمته ١٢ - ١٣.

(١٦) من الأمانة العلمية أن أذكر أنني لم أطّلع على طبعات شفر والهند وخلخالي لعدم توافرها.

٢- لما بدا لي أن في بعض عبارات طبعتي الدكتور شعار ودارك شيئاً من تصحيف أو أنها لا تنسجم مع سياق الكلام والمعنى الذي وضعت له، رجعت إليها في نسخة إقبال وتراءى لي أنها أصحّ وأكثر انسجاماً، ترجمتها عنه.

٣- جارى الدكتور جعفر شعار المرحوم عباس إقبال في حذف بعض الحكايات والأخبار لأسباب أخلاقية واجتماعية، لكن دارك لم يحذف من المتن شيئاً، فترجمت الأشياء المحذوفة عن طبعته حرصاً على أمانة الترجمة.

٤- يخلو الكتاب في الأصل - كغيره من أكثر المؤلفات القديمة - من العناوين الفرعية في الفصول، لكن الدكتور شعار رغبةً منه في التفريق بين محتويات الكتاب وتوضيحها – لاسيّما قصصه التي تبدأ كل منها بعنوان (حكاية) – جعل لها عناوين من عنده، فتابعته في صنيعه هذا وزدت عليه تسهيلاً للقارئ ودرءاً لملالته. فالعناوين الموضوعة بين (قوسين) من وضعي أنا، أما العناوين الأخرى فللدكتور جعفر شعار.

فضلاً عمّا تقدّم، فلقد راعيت في ترجمة الاصطلاحات التاريخية والأمثال ولغة ذلك العصر الدقة المتناهية ما حالفني التوفيق، واحتفظت بالألفاظ والاصطلاحات الفارسية التي استعملتها كتب التاريخ العربية كما هي ونبّهت على المعرّب منها. ثم زوّدت الترجمة بهوامش توضيحية موجزة للأعلام والأماكن مما اعتقدت بوجوب ذلك فيها.

لكلّ ما تقدّم طالت رحلتي في ترجمة هذا الكتاب إلى ما يقرب من ثلاث سنوات لم أضنّ فيها بجهد أو وقت في التنقيب عن شيء هنا، وآخر هناك، لكنني لست أدري – مع هذا – إلى أي مدى وفّقت في ترجمة هذا الأثر الجليل النافع. ومهما يكن فبحسبي أنني أردت أن أقدّم، بترجمته، خدمة صغيرة لتراثين عريقين ثرّيين ثريّيْن هما عمدة ما بقي من تراثنا الإسلامي في أصقاع المعمورة.

إنه لمن الواجب والحق بعد انتهاء هذه الرحلة أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الصديق الدكتور غلام حسين يوسفي رئيس قسم اللغة الفارسية وآدابها السابق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الفردوسي بمشهد على عونه لي في حلّ بعض معضلات الكتاب وتوضيحها وتوجيهها، وعلى تفضّله بكتابة تصديره القيّم عن السياسي العجوز نظام الملك وكتابه «سياست نامه».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

يوسف بكّار

تصدير

السياسي العجوز

للدكتور غلام حسين يوسفي *

- ١ -

إن حياة الخواجة [١] نظام الملك من حيث التجارب التي استقاها من خلال إدارته دقّة الحكم، ومن حيث طول مدّة وزارته، وسعة آفاق حكومته خاصة، جليّة جدًّا، ونادرة المثال. وبحسبنا أن نقول إنه كان الوزير القدير لألب أرسلان وملكشاه السلجوقي ثلاثين سنة (٤٥٥ - ٤٨٥هـ) [٢]، وإنه «وسّع آفاق دولة إيران توسعة لم يُرَ لها في إيران نظير في هذه الألف والثلاثمائة سنة من تاريخ الإسلام، وإنه لم يكن في أنحاء كاشغر، وأوزجند، وبلاساغون، وما وراء النهر، وخوارزم، وخراسان، وسجستان، وكرمان، وفارس، وعراق العجم، وعراق العرب، ومازندران، وأذربيجان، وأرمينية، وآران، والشام، وبيت المقدس، وأنطاكية، من يتأخّر في تنفيذ أوامره وتطبيقها قيد أنملة. لقد كان السلطانان المذكوران - وقد كانا من أعظم سلاطين السلاجقة - يطيعان آراءه ويقرّان تصرّفاته و...، ولم يكن خلفاء بني العباس، في الغالب، يميلون برؤوسهم عن رغبته وإرادته. لقد كان أباطرة الروم وحكّام غزنين يعيشون في ظلّ حمايته. أما سلطان العرب، فسار في ركبه ماشياً، وقبّل حافر

* المترجم: كتب الدكتور يوسفي هذا التصدير بالفارسية، فنقلته إلى العربية. وقد نشره في كتابه «ديداري با أهل قلم» (في صحبة أهل القلم). الجزء الأول ص ١٠٧ - ١٤١، منشورات جامعة الفردوسي - مشهد ١٩٧٦.

(١) المترجم: الخواجة لقب نظام الملك.

(٢) راجع: نسائم الأسحار من لطائم الأخبار. تحقيق مير جلال الدين أرموي «محدّث». منشورات جامعة طهران ١٣٣٨ شمسي، وآثار الوزراء ص ٢٠٧ تأليف سيف الدين حاجي بن نظام عقيلي، تحقيق محدث، منشورات جامعة طهران ١٣٣٧ شمسي، وتاريخ أدبيات در إيران (تاريخ الأدب في إيران) ٢: ٩٠٥ للدكتور ذبيح الله صفا، طهران ١٣٣٦ شمسي.

جواده، وأما ملوك الأطراف، فكانوا يضعون كتبه ورسائله على رؤوسهم وأعينهم، ويعدّون ارتداء خلعته شرفاً لهم»[٣].

عُمِّر الخواجة سبعاً وسبعين سنة، تولّى في صباه الكتابة لأبي عليّ بن شاذان حاكم بلخ، وأصبح من بعد كاتب ألب أرسلان إلى آخر العمر، وبتعبير آخر إنه قضى عمدة حياته بالسياسة. لقد كانت أمور الدولة كلها إبّان وزارته تحت نظره، وعلى يديه تمّت إنجازاتٌ وأعمال عزيت إليها شهرة السلاجقة الأتراك وتقدّمهم، سواء في عهد نظام الملك[٤] أم بعده[٥].

لقد وصل نظام الملك إلى هذا المقام الرفيع من مرتبة عادية. فقد كان – فيما يقول هو نفسه – لا يملك في أيام شبابه سوى ثلاثة دنانير مما اضطره إلى أن يقترض أربعة أخرى ليتمكّن من شراء حصان بسبعة دنانير، لكنه لما نقل إليه أيام وزارته نبأ غرق جياده العربية الخمسمائة لم يأبه لهذا الخطب الذي نزل به ولم تبد عليه سيما تأثر قط[٦].

وتروى في ترجمته القصة الآتية: لما تقرر أن ينضم إلى موكب السلطان في سفره، وكان ذلك في بدء خدمته في ظل ألب أرسلان، وقبل أن يصل إلى منصب الوزارة «انتابه غمّ شديد، لأنه لم تكن لديه الآلة التي تمكّنه من مواكبة الموكب في سفره»، إلى أن استطاع في نهاية الأمر أن يعثر في أحد المساجد على ذهب لأعمى ذلّل به مشكلته[٧].

---

(٣) مجتبي مينوي: «خواجة نظام الملك الطوسي» نقد حال، ص ١٩١ منشورات الخوارزمي، طهران ١٣٥١، وراجع أيضاً: الدكتور عبد الحسين زرين كوب، فرار از مدرسة (الفرار من المدرسة) ص ٥٤- ٥٥ و٣١٢ منشورات دائرة الآثار الوطنية، طهران ١٣٥٣ شمسي.

(٤) يقول المعزي:

أنت الوزير الميمون الذي رفعت بكفايتك دولة السلاجقة رأسها إلى عنان السماء (ديوان معزي ٦٠٢).

المترجم: المعزي هو أمير الشعراء عبد الله محمد بن عبد الملك، ومن كبار شعراء العصر السلجوقي. كان أبوه عبد الملك شاعر بلاط ألب أرسلان. أما المعزي فكان يعيش في كنف ملكشاه إلى وفاته، وهو الذي لقّبه بأمير الشعراء. وبعد مدة صار إلى خدمة سنجر بن ملكشاه وظل يعيش في بلاطه إلى آخر عمره (زهراى خانلرى: فرهنگ أدبيات فارسي ٤٦٩ - ٤٧٠).

(٥) راجع: عباس إقبال، سياست نامه (مقدمة ج- د). منشورات وزارة الثقافة، طهران ١٣٢٠ شمسي، وتاريخ أدبيات در إيران ٢: ٩٠٥.

(٦) تجارب السلف ٢٦٨- ٢٦٩ تأليف هندوشاه بن سنجر بن عبد الله الصاحبي النخجواني. تحقيق عباس إقبال. طهران ١٣١٧ شمسي.

(٧) تجارب السلف ٢٧٨ ودستور الوزراء ١٥٢ - ١٥٣ تأليف غياث الدين بن همام الدين المعروف بخوندمير. تحقيق سعيد نفيسي، طهران ١٣١٧ شمسي.

كان أبو علي الحسن بن دهقان[٨]، وكان جده إسحاق دهقاناً في بيهق. ولما ارتقى المقام بأبيه أبي الحسن علي في خدمة أبي الفضل سوري بن المعتز حاكم خراسان من لَدُن الغزنويين، أسند إليه أمر ضرائب طوس ومكوسها، أو فيما يقول هندوشاه النخجواني «لقد عمل والده، غير أن دخله لم يكن يفي بنفقاته»[٩].

ولم يمض وقت طويل حتى أضحى ابن هذا الدهقان الخراساني أعظم رجل سياسي في عصره، لكن عاقبة أمره كانت عبرة للآخرين، إذ انتهت قدرته بمقتله. مهما يكن، فقد طوى المراحل كلها، فكان ذا معرفة بالعالم وناسه، وقد كُتب له التوفيق في إدارة دفّة الحكم والدولة.

ولد الحسن نظام الملك سنة ٤٠٨ هجرية في «نوقان» إحدى قرى «الراذكان» بطوس، وفيها تعلّم وقرأ القرآن، ثم تعلّم العربية وفقه الشافعية والحديث في مدن خراسان الأخرى من مثل: طوس، ومرو، ونيسابور. وفي ذكائه في طفولته وصباه أحاديث كثيرة. وقد استطاع في سن العشرين أن يظفر بنصيب وافر من العلوم الشرعية. ولقد كان أيضاً، كاتباً قديراً كفؤاً؛ إذ تمكّن من أن يلفت إليه نظر جغري بك أخي طغرل السلجوقي، وصار بعد ذلك كاتب ابنه ألب أرسلان، ومتصدي كل شؤونه. لقد عيّن ألب أرسلان، في أثناء حكومته بخراسان، الخواجة وزيراً له عام ٤٥١هـ؛ ولما أصبح سلطاناً عهد إليه عام ٤٥٥هـ بوزارة ممالك آل سلجوق بدلاً من عميد الملك الكندري[١٠]. وظل نظام الملك يشغل هذا المقام العظيم إلى آخر لحظات حياته.

لقّب الخواجة بـ «تاج الحضرتين» لأنه وزير لسلطانين، «ومنح من دار الخلافة لقب «رضي أمير المؤمنين» في حين أن الخلفاء لم يمنحوا لقباً لأي وزير غيره»[١١].

لم يكن نظام الملك بارعاً في السياسة وصاحب قلم بارع حسب، إنما كان، فضلاً عن ذلك، «ذا خبر

---

(٨) كانت طبقة الزراع في إيران قبل الإسلام ولعدة قرون في الإسلام، عبارة عن ملاكي الدرجة الثانية، الذين كانوا يعدون من الأحرار والأصلاء والشرفاء. مجتبى مينوي: نقد حال ١٩٣ وراجع أيضاً: الدكتور ذبيح الله صفا، حماسه سرايي در إيران (فن الملحمة في إيران) ٦٢- ٦٣ طهران ١٣٣٣ شمسي و: Lambton: Dinkan, EI (٢) ٢٣٥-٢٥٤، ١١.

(٩) تجارب السلف ٢٦٦.

(١٠) تجارب السلف ٢٦٦- ٢٦٧، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٠ - ١٥١، وتاريخ أدبيات در إيران ٢: ٩٠٥.

(١١) آثار الوزراء ٢٠٧، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٨ . ومدحه لامعي الجرجاني بهذا اللقب فقال:

«أي نظام الملك المحمود، يا شمس العصر، وزين الدنيا والزمان وزينته».

«الناس يهتفون: (رضي أمير المؤمنين) بحر إذا تحرك، طود إذا سكن». (ديوان لامعي ١٥٣).

واطلاع على أكثر العلوم»[١٢]. وكان «يسهم في تدبير شؤون الديوان والولاية، ويقوم على تنظيم العساكر وتعبئة الجيوش»[١٣]، حتى إنه، في الحروب، كان يقاتل في طليعة الجيش جنباً إلى جنب مع أبنائه وغلمانه ويواجه الأخطار بعزم الرجال ومضائهم[١٤].

كان لنظام الملك اثنا عشر ولداً، وعدد كبير من الأصهار وذوي القربى. ولقد عهد إلى كل واحد من أبنائه وأقاربه وغلمانه بولاية وحكومة، كما أنه أوصل أنصاره إلى مصاف الجاه والنعمة؛ فكان سلطان السلاجقة من أقصاه إلى أقصاه تحت نفوذه وسيطرته، وكان أمره نافذاً في كل مكان[١٥].

إنّ قصة الحوالة المشهورة -- أي الكتابة إلى والي انطاكية بالشام لدفع أجرة الملاحين بجيحون – التي وردت في أغلب المصادر[١٦]، والتي أراد نظام الملك أن يعرض من ورائها سعة المملكة ونفاذ أمر السلطان، أو نفاذ أمره هو – في الحقيقة -- نموذج آخر من نماذج أهمية نفوذه ومقامه.

يروى أنه كان للخواجة نفسه ألفا غلام، حتى إن خصومه خوّفوا ملكشاه من أن نظام الملك بكثرة هؤلاء الغلمان، إنما يبيّت خلافاً وعصياناً؛ غير أن الخواجة استطاع بحسن تدبيره أن يجد مخرجاً لسوء الظنّ هذا[١٧]. إن غلمان نظام الملك الطوسي ظلّ لهم نفوذهم وقدرتهم حتى بعد موت سيّدهم، وهم أنفسهم الذين حموا «بركيارق» حين فرّ من أصفهان، منتهجين سياسة ذلك الوزير القدير الذي كان بركيارق مورد حمايته في حياته إزاء محمود بن ملكشاه، وهم الذين قوّوه وشدّوا أزره، ومضوا به من أصفهان إلى «ساوه» و«آوه» عند المؤدب كمشتكين جاندار – وقد كان مؤدّب بركيارق – ، ليمضي به إلى الريّ ويجلسه على سرير السلطنة[١٨].

واستطاع الخواجة أن يكسب نفوذاً واحتراماً كبيرين في الأوساط الدينية، بما كان يتحلّى به من روح

---

(١٢) آثار الوزراء ٢٠٧.

(١٣) نسائم الأسحار ٥٠، وآثار الوزراء ٢٠٧.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) المرجع السابق نفسه.

(١٦) تجارب السلف ٢٦٧، وآثار الوزراء ٢٠٧، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٦، ودستور الوزراء للواعظ الأسترآباذي ص ٢٠، تصحيح إسماعيل واعظ جوادي، طهران ١٣٤٥، وتاريخ نگارستان للقاضي أحمد غفاري ص ١٤١. تحقيق مرتضى مدرسي گيلاني، طهران ١٣٤٠ شمسي.

(١٧) آثار الوزراء ٢٠٨.

(١٨) تاريخ أدبيات در إيران ٢: ٧٠ نقلاً عن راحة الصدور ١٤٠ (طبعة ليدن ١٩٢١) وتاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهاني ص ٧٦ باختصار الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (طبعة مصر ١٩٠٠م).

دينية مذهبية، وباحترامه للزهاد والعلماء والشيوخ ومعاشرتهم والاختلاط بهم والتحدّث إليهم. ومما زاد من مكانته، كذلك، أخذه بيد المعوزين، وهباته، وبسطه يده، وإحداث بقاع الخير، ووقف الموقوفات[١٩]. وإذا ما أخذنا رواج التعصب واعتقاد مسلمي ذلك العصر الراسخ بأمور الدين في الاعتبار، وتذكرنا أن الدين والمذهب كانا أهم موضوعاته، نستطيع أن ندرك بجلاء أهمية نفوذ نظام الملك المعنوي والديني آنذاك.

ومن الجماعات التي كان لها نفوذ واسع في ذلك العصر: المتصوفة. لقد كانوا، أيضاً، محطّ أنظار نظام الملك، ومورد عنايته. وفي هذا، قال عنه المعزي: «إنه لم يكن ليعير اهتمامه لغير الأئمة والمتصوفة»[٢٠]. لقد كان هذا صحيحاً؛ إذ كان نظام المُلك ينفق عليهم سنويًا ويؤمّن لهم نفقاتهم، ويهتم بإيجاد «خانقاهاتهم»، ويعتقد بشيوخ الصوفية، حتى عدّ مريداً لأبي سعيد أبي الخير[٢١] ومن البديهي أن تزيد هذه العوامل من أهميته لدى المسلمين والمتصوفة خاصة.

ومن أعمال نظام الملك المهمة الأخرى، تأسيسه المدارس النظامية صحيح إن تأسيس المدارس في دنيا الإسلام كان سابقاً لنظام الملك، وإنه لم يكن مبتكره، لكنه - وفي نظر الجميع - كان أول من سنّ نظاماً جديداً في حقل التربية والتعليم، هو تعيين رواتب وتخصيص مساكن لطلاب العلم، وتأمين سكن ونفقات للمدرّسين. لقد كانت المدارس النظامية تعدّ - في الحقيقة - من المدارس المجهّزة ليل نهار، إذ كانت أسبابُ فراغ البال والمطالعة وتحصيل العلم متوافرة فيها للمعلمين وطلاب العلم على حدٍّ سواء.

وكان من أشهر هذه المدارس، نظامية نيسابور، ونظامية بغداد. فقد كان يحضر في الأولى ثلاثمائة طالب يومياً، وعلى مدى ثلاثين سنة، للإصغاء إلى درس إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت ٤٧٨هـ)، وكان من بين هؤلاء الإمام محمد الغزالي الذي وصل إلى أوج الشهرة[٢٢].

أما نظامية بغداد (أسست بين عام ٤٥٧ و٤٥٩) فكانت لها موقوفات كثيرة من أسواق وحمامات

(١٩) نسائم الأسحار ٤٩-٥٠، وتجارب السلف ٢٦٧، وآثار الوزراء ٢٠٧، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٣.

(٢٠) چهار مقالة (المقالات الأربع) ص ٨٣ تصحيح الدكتور محمد معين، منشورات جامعة طهران ١٢٢٤. وراجع أيضاً: وفيات الأعيان ١: ٣٩٦.

(٢١) أسرار التوحيد ١٩٣ — ١٩٥ و٣٧٢، ٣٧٣ تصحيح الدكتور ذبيح الله صفا، طهران ١٣٣٢. وانظر أيضاً تاريخ أدبيات در إيران ٢- ٢٢٩.

(٢٢) تاريخ أدبيات در إيران ٢: ٢٣٥- ٢٣٦.

ودكاكين وضياع، لتأمين أجور العمال والأساتذة، ونفقات الطلبة. وكان فيها أيضاً مكتبة قيّمة ذات منصة، وأساتذة، ومعيدون، وكتبية، وحراس، وخدم كثيرون. لقد كانت نفقات الأساتذة والطلاب خمسة عشر ألف دينار سنوياً، وكان عدد طلابها ستة آلاف طالب يدرسون النحو واللغة، والفنون الأدبية، والفقه، والتفسير، والحديث، وغير ذلك من العلوم الشرعية.

وأوجد نظام الملك نظاميات أخرى في البصرة، وأصفهان، وبلخ، وهراة، ومرو، والموصل. وكان أكثر أساتذة النظاميات وكتبييها وطلابها من مشاهير علماء القرن الخامس والسادس والسابع ومعروفيهم.

ولقد دعا عمل نظام الملك كبار معاصريه إلى تأسيس المدارس أيضاً، طلباً لثواب الآخرة، أو تدعيماً لمكانتهم الاجتماعية، أو منافسة لنظام الملك، ومن هؤلاء منافس نظام الملك المعروف تاج الملك القمي (ت ٤٨٦هـ) الذي أسس المدرسة «التاجيّة» مضاهاة لنظامية بغداد، وملكشاه السلجوقي نفسه الذي شاد مدرسة أخرى في منطقة «كرّان» بأصفهان. وثمّة آخرون غيرهما ممن أوجدوا مدارس ببغداد ومدن أخرى[٢٣].

إن تأسيس النظاميات في المدن الإسلامية المهمة في ذلك العصر، وتأمين نفقات عيش مدرسيها وطلبتها، واختيارهم، واستخدامهم، وتعيين برنامج[٢٤] دارسي معين - وقد كان في حقيقة أمره وفق عقائد الشافعية وخاصًّا بها -، إن كل هذا، وإن كان نابعاً من عقيدة نظام الملك الدينية، ورغبته في نشر الثقافة الإسلامية، كان يزيد من نفوذه بين طبقة المتعلمين، لأن المدرسين والتلاميذ كانوا - في الحقيقة - ينتخبون وفق رأيه، وكانوا يتسلّمون رواتبهم منه، وكانوا مطيعين لأوامره[٢٥]. خلاصة الأمر، أنه كان يُربّي في كل سنة فريقاً كبيراً من طلاب العلم على أساس البرنامج الذي أراده وأقرّه.

ومن ناحية أخرى، فقد كان أبناء نظام الملك أنفسهم يتولّون إدارة نظامية بغداد. أما النظاميات الأخرى، فكان يتولّى دفّة الأمور فيها أولياء نعمة نظام الملك الذين كان لهم حتى حقّ تعيين المدرّسين، وكانوا يسيّرون هذه المراكز المهمّة المؤثّرة وفقاً لآراء الخواجة وميوله[٢٦]. وبعبارة أخرى، فإن نظام

---

(٢٣) تاريخ أدبيات در إيران ٢: ٢٣٩ و١٤١ - ٢٥٠.

(٢٤) المترجم: لفظة «برنامج» معرب «برنامه» الفارسية.

(٢٥) حتى إن وجد بينهم أشخاص مثل أبي إسحق الفيروز آبادي مدرس النظامية الذي كتب صراحة في جواب استفتاء خطي حول حسن اعتقاد نظام الملك وإيمانه: «حسن خير الظلمة». راجع: تجارب السلف ٢٧٧ ودستور الوزراء لخوندمير ١٦٧ - ١٦٨.

(٢٦) راجع في النظاميات: تاريخ أدبيات در إيران ٢: ٢٣٤؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان: ١: ٣٩٦ (تحقيق محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٣٦٧هـ)؛ والسبكي: طبقات الشافعية ٣: ١٣٧ (طبعة مصر)؛ وسعيد نفيسي:=

التعليم في المملكة، كغيره من الأمور الأخرى، ظل يدار في عهد وزارة نظام الملك الطويل وفق مشيئته، ويعلم الناس المعتقدات والموضوعات التي كان يعينها هو نفسه.

لا يمكن، على ما لتأسيس النظاميات من أهمية، التغاضي عن أن الفكر الحيّ فيها كان أقلّ رشداً ونموًّا. إن إيجاد المدرسة أمر عظيم طبعاً، لكن الأهم ما يدرس فيها وإلى أي مدى يفتّق الأفكار والأذهان، ويخدم الحقيقة. لقد دعا قصر النظاميات على المعلمين والتلاميذ من المذهب الشافعي إلى وصد أبوابها في وجه المذاهب الأخرى، وحمل الآخرين على تأسيس مدارس خاصّة بمذاهبهم[٢٧].

كان نظام التعليم في النظامية ضرباً من التعصّب للمذهب الشافعي الذي يتأتى عنه ردّ المذاهب الأخرى في نفوس التلاميذ. فضلاً عن هذا «فإن تعليم العلوم العقلية وتعلّمها في المدارس التي أنشئت بخراسان في القرن الخامس وما بعده، ثم في العراق وسائر البلاد الإسلامية كان محظوراً، إذ لم يكن يدرّس فيها ويتعلّم سوى الآداب والعلوم الدينية. وكان هذا – بطبيعة الحال – يقلّل من رواج العلوم العقلية واهتمام المتعلمين بها، ويذهب بهاءها»[٢٨]. هكذا كانت حال المدارس النظامية، وكانت نتيجة ذلك أن طلابها كانوا محرومين من كلّ ما من شأنه إثارة الفكر، ووجوب البحث وإظهار النظر والاستدلال. لقد كانوا يربّون بنوع من محدودية الفكر في مستوى العلوم النقلية إلى أن نصل في النهاية إلى حقبة ابتلي فيها فضلاؤنا، فيما يقول المرحوم محمد علي فروغي، بالجمود والركود اللذين عانى منهما الأوروبيون في القرون الوسطى[٢٩].

بهذه الطريق، ومن وجوه شتى، استولى نظام الملك على نبض المملكة، حتى لقد كان «السلطان طوع

= نظامية بغداد، مجلة مهر ٢: ١١٧– ١٢٧؛ والدكتور ذبيح الله صفا: تاريخ تعليم وتربيت در إيران (تاريخ التربية والتعليم في إيران) مجلة مهر ٤: ٤٢– ٤٣؛ و٤٠٤ ,١١١ ,(١) Johns Pedersen EI؛ وتجارب السلف ٢٦٩– ٢٧١؛ ودستور الوزراء لخوندمير ١٦٠– ١٦٢.

المترجم: ترجم مقال سعيد نفيسي عن «نظامية بغداد» إلى العربية مرتين، الأولى ترجمة الدكتور حسين علي محفوظ التي نشرت بمجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد الثالث، الجزء الأول ١٩٥٤م) والأخرى، ترجمة السيد حسن حمزة المنشورة في «الدراسات الأدبية» التي كانت تصدر عن قسم اللغة الفارسية بالجامعة اللبنانية. السنة التاسعة العدد (١ و٢) عام ١٩٦٧م.

(٢٧) من هذه المدارس: مدرسة «سوق العميد» ومدرسة «تتشيه» التي كانت لاسيّما بحنفية بغداد (تاريخ أدبيات در إيران ٢: ٢٤٦).

(٢٨) تاريخ علوم عقلي در تمدن إسلامي (تاريخ العلوم العقلية في التمدّن الإسلامي) ١: ١٣٦– ١٣٧ للدكتور ذبيح الله صفا. منشورات جامعة طهران ١٣٣٦ شمسي.

(٢٩) سير حكمت در أوروپا (سير الحكمة في أوروبا) ١: ١١١.

إشارته»(٣٠) ومن البديهي أن ملكشاه لم يستطع أن يصبر على هذا القدر من الاقتدار والتدخّل والاختيار، لا سيّما أن منافسي نظام الملك ومناوئيه لم يكونوا ليتركوه وشأنه، بل كانوا في سعاية مستمرة ضده لدى السلطان. ومن جملة أولئك «تركان خاتون» زوج السلطان التي كانت تسعى بعد موت ابنها الأكبر ملك أحمد الذي كان وليًا للعهد، لكي ينتخب ابنها الصغير محمود وليًا للعهد خلفاً له؛ غير أن الخواجة نظام الملك كان يرى أن من مصلحة المملكة تنصيب بركيارق ابن زبيدة – الذي كان أكبر أبناء السلطان – وليًا للعهد. وكان ملكشاه يناصر نظام الملك في الباطن، غير أن تركان خاتون كانت تسعى جادّة للإطاحة بوزارة نظام الملك واستبدال وزارة بها يتولاّها تاج الملك الذي كان ينحاز إلى جانبها وجانب ابنها(٣١). وكان مخالفو نظام الملك يحذّرون السلطان يوميًا بحجّة أنه سلّم قومه وأعوانه زمام الأمور، ولم يبقَ للسلطان أي اختيار. ولم يكن هذا الكلام خلافاً للواقع أيضاً. وأخذت عناية ملكشاه بنظام الملك تقل تدريجيًا، إذ شرع بتنحية أنصاره عن مناصبهم أولاً بأول، وراح إذا ما جاءه – بين الحين والحين – شخص متظلّماً يعزو الظلم الذي لحق به إلى تقصير نظام الملك ومن لفّ لفّه. هذا شيء، وشيء آخر أن الإسماعيلية وأعوان حسن الصباح ازدادوا قوة في إيران، وبثّوا بقتلهم مخالفيهم الرعب في القلوب، حتى إن نظام الملك، الذي كان يعدهم أعداء الدين والملك، أرسل إليهم جيشاً ليدفع أذاهم. وأضيفت إلى هذه العلل أيضاً عوامل الشيخوخة والضعف والعجز التي كانت تثير في نفس نظام الملك تمني الانتحاء جانباً واختيار زاوية منعزلة يركن إليها، والذهاب لأداء فريضة الحجّ، والانقطاع للعبادة. لكنه على الرغم من عداوات المخالفين وبلوغه من العمر عتيًا، وفقدانه القدرة والطاقة، لم يزح العبء عن كاهله. «ربما كان ذلك لأنه كان يدرك أن قوام الملك ونظام أمور الدين والدولة منوطة بوجوده هو نفسه، وأنه كان على يقين من أنه إذا ما أخلى الساحة، فإن الدولة ستنفصم عراها. وربما يضاف إلى هذه الملاحظة العامة، شدّة علاقته بأبنائه ورجاله الذين سينحّون طبعاً بعد استعفائه ويواجَهون بالنفرة والصدود. ومن المسلّم به أن أبناءه وأصهاره، وذوي قرباه – الذين كانوا يعدون وجود الخواجة واقتداره حماية لمنازلهم ومحافظة عليها – لم يكونوا ليرضوا بأن ينسحب من الميدان»(٣٢).

وأخذ ملكشاه – وقد كان يرى سلطانه وقدرته بيد الخواجة ورجاله – يستعدّ تدريجيًا لعزله؛ لكن من بين الأمور التي كانت تحول دون تحقيق هذا الهدف «علاقة جماعة من الجيش الشديدة بأسرة

(٣٠) تجارب السلف ٢٦٨.
(٣١) نسائم الأسحار ٥٠ – ٥١، وآثار الوزراء ٢٠٩، ونقد حال ٢٤٦.
(٣٢) نقد حال ٢٥١.

نظام الملك، ومنهم فريق كانوا يعرفون بغلمان النظامية، وقد كانوا على وفاء تام لمخدومهم حفاظاً على سوابق نعمته عليهم، وكانوا مستعدّين للقيام بالفتنة والاضطراب وإعلان العصيان والتمرّد لأدنى سوء تصرف يتخذ بحق الخواجة ورجاله»[٣٣].

وظلّ الوضع على هذا المنوال إلى أن نشب نزاع بين شمس الملك عثمان ابن الخواجة – الذي كان حاكماً على مرو – وشحنة مرو[٣٤] الذي كان من عبيد السلطان الخاصين، فقبض عثمان عليه ونال منه. فشكا الشحنة أمره، إلى ملكشاه الذي بعث إلى نظام الملك بكتاب يقول: «إن تكن شريكي في الملك فلذلك حكم آخر، وإن تكن تابعاً لي فلمَ لا تلزم حدّك وتؤدّب أبناءك وأتباعك الذين أضحوا مسلّطين في الورى حتى إنهم لا يحفظون لموالينا حرمة – «إن تشأ آمر بنزع الدواة[٣٥] من أمامك». فتألّم الخواجة وأخذته سورة الغضب، فقال للرسول: قل للسلطان إنك لا تدري أنني شريكك في الملك، وإنك لم تصل إلى ما أنت فيه الآن إلا بتدبيري أنا... إن دولة التاج منوطة بهذه الدواة، فأنّى ترفعها يرفع. وبعد أن سكن عنه الغضب قال لمن أحضروا كتاب السلطان: «لم أقل هذا الكلام إلا من هول الصدمة. وأنتم، إما أن تنقلوا إلى السلطان هذا الكلام بعينه، وإما أن تقولوا – إن شئتم – ما ترونه مناسباً. ومع أنهم أظهروا الطاعة من جانب الخواجة، أمام السلطان، إلا أن أحدهم عرض حقيقة جوابه على مسامعه خفية». وكان بديهيًّا أن يكفهرّ جو العلاقات بين السلطان والخواجة، لكن ملكشاه لم يعزله وإن قيل إنه سلبه بعض سلطاته واقتداره[٣٦].

وفي السنة نفسها (٤٨٥هـ) سافر ملكشاه من أصفهان إلى بغداد وبعد أيام من تحرّك السلطان ركب الخواجة – بعد أن أنجز أعماله وكتابة وصاياه[٣٧] – عفّته[٣٨] ولحق به. وبالقرب من

---

(٣٣) عباس إقبال: سياست نامه (المقدمة ص د).

(٣٤) المترجم: الشحنة (بكسر الشين) في البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان (القاموس المحيط. فصل الشين، باب النون).

(٣٥) كانت الدواة تستعمل بمعنى (المقلمة). وقد جرت العادة أن تكون «مقلمة الوزارة» علامة عند تعيين امرئ في هذا المنصب فترسل إليه، وعلامة عند عزله فترفع من أمامه (نقد حال. حاشية ١ ص ٢٥٣).

(٣٦) تجارب السلف ٢٧٩- ٢٩٠؛ ودستور الوزراء لخوندمير ١٦٥- ١٦٦؛ وتسائم الأسحار ٥١؛ وآثار الوزراء ٢٠٩- ٢١٠.

(٣٧) چهار مقالة ١٢٦ كما أشار مينوي في «نقد حال ص ٢٥٦».

(٣٨) المترجم: المحفة مركب للنساء كالهودج إلا أنها لا تقبب. (القاموس المحيط: فصل الحاء. باب الفاء) وجملة «ركب محفته» لابن خلكان (وفيات الأعيان ١: ٣٩٧).

«كرمانشاهان»[٣٩] تظاهر رجل كان يرتدي لباس الصوفية بتقديم رسالة للخواجة، فاقترب منه وطعنه بسكين فقتله (في العاشر من رمضان سنة ٤٨٥هـ). لقد كانت الفاجعة كبيرة إلى حد «ارتفع فيه العويل في المعسكر، وتجمّع الناس، فركب السلطان إليهم وهدأ من روعهم وسكنهم[٤٠]». هكذا كانت مغبّة رجل كان يوماً يصدر الأوامر بقدرة أية قدرة!

قيلت في مقتله آراء متفاوتة. فمن قائل إن أبا طاهر الأراني أحد فدائيي الإسماعيلية هو الذي قتله. وظنّ بعضهم أن قتله كان بأمر من ملكشاه. وذهب آخرون إلى أن تاج الملك كان عاملاً مؤثراً فيه وإلى هذا أشار الشعراء أيضاً[٤١]. وثمة ما ينص على أن غلمان نظام الملك تمكّنوا بعد ذلك من تقطيع منافسه تاج الملك القمي بالسكين إرباً إرباً[٤٢]. أما فيما يرتبط بموت ملكشاه الذي حدث بعد مدة يسيرة من قتل نظام الملك، فقيل: «لقد ودع السلطان ملكشاه الدنيا بعهد شهر. وكانت وفاة السلطان المهين بعد قتل الخواجة حتى قيل: لتجن اليوم ما قدمت يداك بالأمس[٤٣]». وظنّ بعضهم أن غلمان النظامية هم الذين سموا السلطان انتقاماً[٤٤]. ونظم الأمير المعزي في موت الخواجة وملكشاه أشعاراً فيها إشارات خفية إلى ارتباط هذه الحوادث ببعضها[٤٥]. وفيها يقول سيف الدين العقيلي «لقد تحقّقت صحة ما قال الخواجة في حق ملكشاه: إن عمامتي وتاجك زوجان[٤٦]». أخذ نجم الأتراك السلاجقة، بعد ذلك، بالأفول، لكنه على الرغم من بقاء مبغضين ومناوئين لأبناء نظام الملك وعقبه، فقد ظلوا يحتفظون بمنصب الوزارة لمدة لا يستهان بها في عهد عدد من السلاطين[٤٧].

وهذا قسم من وصية الخواجة – كان الأستاذ مجتبى مينوي أول من عثر عليها وعرّف بها – يستحقّ الذكر هنا: «لي في هذه الدولة خدمات جليلة وآثار مشهورة. لم أخالف أولياء نعمتي ممن لهم عليّ حقها، أو أخنهم قطّ، ولم أقصر عن لأي في محبتي وخدمتي. لقد أنعشت الرعية، وعمّرت

---

(٣٩) المترجم: واختصرت إلى «كرمانشاه» في الوقت الحاضر (بلدان الخلافة الشرقية ٣٦).

(٤٠) تجارب السلف ٢٨٠.

(٤١) راجع: عباس إقبال: سياست نامه (المقدمة ص و).

(٤٢) وفيات الأعيان ١: ٣٨٩؛ ونسائم الأسحار ٥١.

(٤٣) نسائم الأسحار ٥١.

(٤٤) راجع: عباس إقبال: سياست نامه (المقدمة ص و).

(٤٥) انظر: عباس إقبال: سياست نامه (المقدمة ص و – ز) وديوان المعزي ٤٠٥ – ٤٠٦ و٤٧٦.

(٤٦) آثار الوزراء ٢١١، وراجع في نظام الملك أيضاً: وفيات الأعيان ١: ٣٩٥؛ وطبقات الشافعية ٣: ١٣٥ – ١٤٥؛ و Harold Bowen, EI (1) ١١١, ٩٩٧- ١٠٠٠.

(٤٧) راجع: تاريخ أدبيات در إيران ٢: ٦٣.

الخزانة، واستأصلت مخالفي الدولة من جذورهم، ونشرت العدل والإنصاف والأمن في الأرض. لقد كان كل ما فعلته في مصلحة الدولة، وصلاح الرعية كافة، وسيتّضح هذا جلياً بعدي حين تناط الأمور بشخص آخر. وأحسب أنه لن يتمكّن أي شخص بعدي أن يسيِّر شؤون الملك على النظام الصحيح شهراً واحداً[٤٨]».

هذه خلاصة سيرة نظام الملك، أما حصيلة تجاربه في إدارة زمام الدولة فتنعكس في كتابه القيِّم «سِيَر الملوك» المعروف بـ«سياست نامه» (كتاب السياسة). فمن خلال سطور هذا الكتاب يمكن أن نتعرّف على صاحبه جيداً، لأن هدف هذا البحث الأصلي هو البحث في موضوع الكتاب وما يشتمل عليه.

- ٢ -

يضمّ «سياست نامه» عصارة أفكار نظام الملك وتجاربه في أخريات حياته. إنه مذكرات سياسي ووزير عظيم ابتعد فيها عن التصدي لحوادث حياته الخاصة، وانصرف في الأكثر إلى تعليم السبل التي تدار بها الممالك والإرشاد إليها. نحن نعلم أن ملكشاه أمر عام ٤٧٩ هجرية بضعة من «مشاهير الدولة، والمسنّين والحكماء» بأن ينعموا النظر في أمور المملكة ويتأمّلوها جيداً، ويكتبوا عن كل ما هو غير محمود فيها لا يجري في نصابه، وعن سنن الملوك السابقين الحميدة، ثم يعرضوها عليه ليجعلها دستوره، ويضعها نصب عينيه. فنفذ أولئك العظماء ما أمروا به، واختار السلطان من بين ما كتب جميعاً كتاب نظام الملك، وقال: «لقد اتخذت هذا الكتاب إماماً لي، وعليه سأسير»[٤٩].

أخذ الخواجة بعد ذلك يعيد النظر في الكتاب – الذي كان في تسعة وثلاثين فصلاً أول الأمر – ويكمله ويضيف إليه إلى أن وصل إلى خمسين فصلاً. وفي آخر سفر له إلى بغداد أودعه عند محمد المغربي كاتب كتب السلطان الخاصة ليكتبه بخط واضح، ويعرضه على السلطان كاملاً إذا ما جاء نظام الملك أجله (١٠و٣٠٧). من هنا قيل إن الكتاب يضم بين دفتيه عصارة أفكار صاحبه وسلائقه، لاسيّما أنه أعاد فيه النظر وتأمّله بما فيه الكفاية. إن محمداً المغربي -بطبيعة الحال- هو الذي

(٤٨) راجع: مجتبي مينوي «از خزاين تركية» (من خزائن تركية). مجلة «دانشكدة أدبيات طهران (مجلة كلية الآداب – طهران). السنة الرابعة. العدد الثاني شهر دي ١٣٣٥ شمسي، ص ٦٨ - ٦٩.

(٤٩) سير الملوك (سياست نامه) ص ٣ و٤. تحقيق هيوبرت دارك. منشورات لجنة الترجمة والنشر. طهران ١٣٤٠ شمسي. وأرقام الصفحات الموضوعة بين قوسين في المتن تعود كلها إلى هذا الكتاب.

المترجم: هذه الطبعة التي اعتمدها الدكتور يوسفي هي الطبعة الأولى. وقد طبع الكتاب طبعة ثانية - بعد أن عورض على نسخة خطية جديدة – عام ١٣٤٧ شمسي (١٩٦٢م)، وهي الطبعة التي استعنت بها أيضاً في ترجمتي للكتاب.

أعدّ الكتاب، وعرضه – بعد مقتل الخواجة ومقتل ملكشاه– على محمد بن ملكشاه (٤٩٢– ٥١١هـ) لأن الزمان كان يقتضي ذلك. فالكتاب، إذاً، لم يكن ما كتبه نظام الملك عينه، بل إن المغربي أحدث فيه بضعة تغييرات، وفي الحقيقة أنه دوّن بعد مقتل نظام الملك. على أية حال، فإن ما بقي لنا منه اليوم، على ما بين ثناياه من تغييرات، لأهم ذكرى، وأحسن وثيقة عن عصر نظام الملك، وطريقة تفكيره، وكيفية حكمه.

يقع الكتاب في خمسين فصلاً في موضوعات شتى. إنه لمن الطبيعي ألاّ ينظر إليه على أنه كتاب تاريخ محض، لاسيّما أنه دلفت إليه بعض الأخطاء التاريخية[٥٠]، لكنه يمكن أن تستنبط منه فوائد تاريخية جمّة[٥١] ذات أهمية أكثر من أهمية آثار نظام الملك الأخرى من مثل وصاياه، أو «دستور الوزارة»، و«قانون الملك» الذي ينسب إليه.

إن كل فصل من فصول كتاب «سير الملوك» الخمسين وموضوعاته المختلفة تكشف بوضوح تام عن ناحية من أوضاع الحكم، وأجهزة الإدارة، والطبقات الاجتماعية، ورسوم ذلك العصر، وتقاليده وآدابه. فالكتاب من هذه الناحية غنيمة كبرى. من هذا القبيل ما ورد فيه عن المسائل الآتية: الإقطاع (٤١)، وأهمية عمل القضاة وحدود اختياراتهم (٥٣، ٥٦)، والمحتسب وأعماله (٥٦)، والمشرفون[٥٢] وواجباتهم (٧٨)، وأهمية عمل صاحب الأخبار والعيون (٧٩– ٨٠)، وإرسال الجواسيس (٩٤)، وإرسال الرسل (١١٠)، والحيطة في إصدار الأوامر السلطانية في السكر والصحو (١١١)، والوكيل الخاص (١١٢)، والندمان وشروط المنادمة (١١٣– ١١٥)، والمختارون وأسلحتهم ومعدّاتهم (١١٨)، والأسلحة المرصّعة للمراسم الخاصة (١١٩)، وأحوال الرسل ودقّة مهامهم (١٢١ – ١٢٢ و١٢٤)، والرهائن والاحتفاظ بهم في القصر (١٣٠)، وتربية غلمان السراي (١٣٣)، وتنظيم المقابلات الخاصة والعامة (١٥١)، وتنظيم وقوف العبيد والخدم حين الخدمة (١٥٥)، وتجمّل المعروفين (١٥٦)، وأمير الحرس ومكانته عند الناس (١٧٢)...

علينا – بطبيعة الحال – أن نأخذ بعين الاعتبار أن ما نقرأ في هذا الكتاب ليس سوى نموذج لنمط فكر نظام الملك ورأيه، وبعبارة أخرى إدراكه واستنباطه لمسائل ذلك العصر السياسية

(٥٠) المترجم: أشرت في هوامش ترجمتي هذه إلى كل الأخطاء التاريخية التي أخذت على المؤلف، ونبهت على ما استخلصته أنا نفسي.

(٥١) عباس إقبال: سياست نامه (المقدمة ص ط)، وتاريخ أدبيات در إيران ٢: ٩٠٦.

(٥٢) المترجم: راجع الفصل التاسع من هذه الترجمة وتعريف «المشرف» فيه.

والاجتماعية. معنى هذا أن الرجل نظر إلى كل موضوع من وجهة نظره الخاصة ثم أبدى فيه رأيه. فالحقيقة، إذاً، أنه يمكن رؤية انعكاسات أفكاره في كل ناحية وموضوع.

أكثر من هذا، فلقد قيل إن نظام الملك كان رجلاً ذا تربية دينية يتمسّك بعقائده هو. ولقد ذكر كل الذين كتبوا عنه أنه كان من أهل الطاعة والعبادة، وأنه كان يوصي أبناءه بها وبتعظيم علماء الدين والاعتناء بهم[٥٣]. حتى إنه عدّ في الحديث له مع ملكشاه – فيما تذكر إحدى الروايات – الإنفاق على الفقراء والمساكين والعلماء والفضلاء أكثر تأثيراً في بقاء الملك واتساعه من زيادة رواتب الجند[٥٤]. لقد كانت المسائل الدينية عادة منشأ كثير من أحداث هذا العصر المهمة من تحالف واختلاف، حتى الخصومات ونزيف الدم والحروب. ولقد كان هوى نظام الملك، من هذه الناحية، مع ما كان يعتقد به، أي مذهب الشافعية وأصول الأشعرية. قال هندوشاه النخجواني: «كان الخواجة نقي الاعتقاد جداً، ومسلماً حقيقياً يفكر في آخرته أكثر من دنياه». وإذا ما صحّ ما قيل عنه: «إنه خطر بباله أن يكتب وثيقة عن كيفية عيشه مع عباد الله تعالى يشهد عليها العلماء وأئمّة الدين، ثم توارى هذه الشهادة معه في التراب»[٥٥] يكون لنا فيه شاهد آخر على نمط تفكيره. إن أكثر ما يروى عنه من حكايات وأخبار تحمل صبغة دينية، وإن أحواله وتصرفاته فيها تجعل منه شخصاً مذهبياً تقيًّا كان يتمنى – وهو في أوج قدرته – حياة البقالين وعيشهم[٥٦].

لم يكن نظام الملك متمسكاً بما كان يعتقد به حسب، إنما كان متعصباً ضيق المشرب ينفي كل شيء يخالف عقائده الدينية ويردّه، وكان يرى وهو في كرسي الوزارة أن مصلحة الملك والأمة في السعي لمحو أتباع الفرق الإسلامية الأخرى لاسيّما الشيعة الإسماعيلية. وكانت حياته العملية أيضاً كفاح ثلاثين سنة في سبيل تحقيق أفكاره والوصول إلى أهدافه. إنه لصحيح أن التعصب الشديد في هذا العصر أرخى سدوله على كل شيء، إذ كان كل من يسير في طريق معينة يحسب الآخرين على خطأ. فناصر خسرو أيضاً، على ما له من مقام رفيع في أدبنا وثقافتنا، ليس براء من التعصب الشديد لعقائده. لكنّ ثمة فرق – في الحقيقة – بين شخص مثله قوي الإيمان كان يصارع ضد قوى عصره، ونظام الملك الذي كان يُعْمِل تعصبه في حق مخالفيه لا في منطقة محدودة، إنما في أهم الممالك

(٥٣) نسائم الأسحار ٤٩؛ وآثار الوزراء ٢٠٧، ٢١٢، ٢١٦.

(٥٤) دستور الوزراء ١٩ – ٢٠ للواعظ الأستر آباذي.

(٥٥) تجارب السلف ٢٧٧، ودستور الوزراء (خوندمير) ١٦٧ – ١٦٨.

(٥٦) راجع مثلاً: السبكي، طبقات الشافعية ٣: ١٤١؛ وتجارب السلف ٢٨٦، ٢٦٩، ٢٧١؛ ودستور الوزراء (خوندمير) ١٦٢ – ١٦٣ و١٦٤.

الإسلامية في ذلك العصر بكل ما كان متوافراً لديه من ضروب القدرة ومقوّمات الحكومة. ترى، أكان الإسماعيليون وأنصار ناصر خسرو يسلكون مسلك نظام الملك مع مخالفيهم لو تيسّر لهم ما كان لديه من قوة؟ ليس هذا ببعيد.

كان نظام الملك يعدّ الشيعة أو «الرافضة» - على حدّ قوله - والإسماعيلية، سياسيًا ومذهبيًا، من خصوم المملكة والدين الذين لا سبيل إلى مهادنتهم، وذهب إلى أن أصلهم وأصل المزدكية والخرمدينية واحد. هكذا قضى عمره كله سعياً في دفعهم. لقد عدّهم في كتابه - ما أتيح له المجال وواتته الفرصة - ضالين غواة، ولم يتورّع عن سبّهم وإلصاق كلّ أنواع التهم بهم[٥٧]، وأن تصرفه مع فقهاء الشيعة في الري لنموذج على شدّة مسلكه في هذا الأمر. تأمل هذه الرواية: «ولما كان عهد ملكشاه الكريم - سقاه الله رحمته - استطاع نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحق أن يتبيّن سر عقيدتهم - أي فقهاء الشيعة - فأذلّهم جميعاً، وكان كلما ادعى أحدهم في الري أنه عالم من مثل: حسكا بابويه، وأبي طالب بابويه، وأبي المعالي الأمانتي، وحيدر الزيارتي المكي، وعلي العالم، وأبي تراب الدوريستي، وأبي المعالي بخارجر، وغيرهم من الرافضة، كان يأمر بإصعادهم إلى المنابر حاسري الرؤوس، وأن يقال لهم باستخفاف ودون أن تراعى لهم أية حرمة: أنتم أعداء الدين الذين يلعنون السابقين في الإسلام. إن شعاركم شعار الملحدين، آمنوا. فكانوا يؤمنون طوعاً أو كرهاً، ويعلنون نفرتهم من مقالة الرافضة»[٥٨]. من هذه الخشونة يتّضح السبب الذي كان نظام الملك من أجله يضع الشيعة، أيضاً، في مصافّ المجوس واليهود من حيث عدم لياقتهم وصلاحيتهم لأن يكونوا في سلك خدمة الدولة (٣٠٣). لقد كانت آفاق دولة السلاجقة محظورة على الشيعة. حتى في عهد ألب أرسلان، لما ظنّ رسول «خان» سمرقند خطأً أن نظام الملك رافضي، ونقل هذا إلى مخدومه، كتب الخواجة: «وعلى الرغم من براءتي التامة، فقد أنفقت ثلاثين ألف دينار طوعاً، وبذلت هدايا وأعطيات كثيرة حتى لا يصل هذا الكلام إلى السلطان» (١٢٤)، إذ كان ممكناً أن يبتليه السلطان بالبلاء عينه الذي كان ينزله الوزير نفسه بالرافضة. لذا نجد الخواجة يطري مسلك محمود ومسعود الغزنوي وطغرل وألب أرسلان، الذي يقضي بإبعاد الشيعة عن القصر (٢٠٣- ٢٠٥) ثم إنه - بهذه المناسبة - يجد مجالاً واسعاً لنقل روايات كثيرة ضد الرافضة (٢٠٥- ٢٠٨)، حتى قيام يعقوب بن الليث - الذي خرج على الخليفة العباسي - يمكن أن يكون له - في زعمه - صبغة شيعية وباطنية

---

(٥٧) راجع الكتاب لاسيّما ص ٢٦٠- ٢٩٨.

(٥٨) كتاب النقض ١٠٥ لعبد الجليل القزويني الرازي. تحقيق سيد جلال الدين حسيني «محدث». طهران ١٣٣١ شمسي.

(٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٤).

إزاء هذا التصرف فإن نظام الملك يذكر تصرفه واحترامه لمحمد الغزالي – الذي هيأ له بحضوره هو مناظرة مع الفقهاء، ودعاه وهو في سن الخامسة والثلاثين للتدريس في نظامية بغداد[٥٩] – نموذجاً لاحترامه علماء أهل السنة، ويعقد في كتابه فصلاً خاصًّا في «التحقيق والتحرّي في أمور الدين»[٦٠]، ويوصي ملكشاه بإكبار علماء الدين ومعاشرتهم، وتعلّم أحكام الشريعة، وتنفيذ أوامر الدين حتى «لا يستطيع أي مبتدع أو صاحب اعتقاد خبيث أن يحرّفه عن الطريق السويّ» (٧٤– ٧٦).

إن الخواجة في «سير الملوك» يؤيّد محموداً الغزنوي – الذي كان سلوكه مع أتباع المذاهب الأخرى يقوم على الشدّة التامّة[٦١]– وسياسته المذهبية التعصبية بكل ضروب التأييد كلما تحدث عنه، وهو إنما يكشف في الحقيقة، عن طريقته المفضلة هو (٨١ و٨٢ و١٤٩). لقد كان يسعى للحفاظ على تشكيلات عهد الغزنويين واستمرارها، فكان التوفيق يحالفه[٦٢]. وفي رأيه أن «ليس في العالم كله أفضل وأقوم من مذهبي أبي حنيفة والشافعي، رحمة الله عليهما، أما المذاهب الأخرى فبدع وأهواء»(١٢٢). ولربما أورد الحنفية لأن ملكشاه كان حنفيًّا. وإلا، فقد كان بين ملكشاه ونظام الملك اختلاف في الرأي حول مدرسة محلة «كرّان» بأصفهان – التي أوجدها السلطان ليتعلّم فيها الحنفيون والشافعيون–، ثم إن نظام الملك لم يكن يسمح بأن يكتب اسم الإمام أبي حنيفة قبل اسم الإمام الشافعي[٦٣]. على هذا النحو من التفكير يتّضح السبب الذي جعله يعقد خمسة فصول طويلة في كتابه (من الفصل الثالث والأربعين إلى السابع والأربعين) للكلام على أصحاب «المذاهب السيئة»، ثم يكتب عن الأوضاع بقلق: «وفي الدولة اليوم، ممن يتسنّمون المقامات الرفيعة وهم فيها دالة، من يطلون برؤوسهم من أقبية الشيعة وليسوا منهم، بل هم في حقيقة أمرهم من هؤلاء القوم (الإسماعيلية) يدبّرون شؤونهم سرًّا، ويدعمونهم، ويدعون لهم، في حين أنهم يغرون سيد الدنيا ويخدعونه بأنهم إنما يعملون على الإطاحة بالخلافة العباسية. إن أكشف عن القدر غطاءها تبنْ فضائحهم وأعمالهم الشائنة لِلعِيَان» (٢٣٧). بهذه المقدمات تتّضح لنا وجهة نظر الخواجة؛ لقد كان

---

(٥٩) تاريخ أدبيات در إيران ٢: ٩٢١.

(٦٠) المترجم: هو الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(٦١) راجع: فرخي سيستاني (فرخي السجستاني) ١٦٨– ١٧٧ لكاتب هذه السطور – أي الدكتور يوسفي– مشهد ١٣٤١ شمسي.

(٦٢) تاريخ أدبيات در إيران ٢: ١١٩.

(٦٣) تجارب السلف ٢٧٨.

يرى أن دوام الدولة وراحة الخلق لا يتحقّقان إلا في ظل المذهب الشافعي فقط، وأن الإطاحة بكل من يعتقد بغير هذا لهي من صميم الحقّ والعدالة. أما أنه كان محقًّا في هذا أو غير محقّ، فذا أمر آخر. وعلى أية حال، فإنه لا بدّ عند النظر في كتابه ومطالعته من اعتبار رأيه جملة دينيًا وسياسيًا.

ثمة شيء آخر في هذا الكتاب يستحق النظر، هو نظرة نظام الملك الانتقادية لأوضاع زمانه. فقد كان لا تعجبه أشياء كثيرة من رسوم عصره وتقاليده، هي التي رماها بسهام نقده. فهو تارة يكتب عن أمراء زمانه: «أنهم لا يخشون، لدينار حرام واحد، تحليل عشرة محارم، وجعل عشرة حقوق باطلة دون النظر في العواقب» (٢٨)، وطوراً يقول: «ولقد غدا منصب الوكيل الخاص باليًا جدًّا في هذه الأيام» (١١٢) أو «وفي هذه الأيام من يتسنّم سدّة عشرة مناصب دون أن تكون فيه أية كفاءة تذكر. وإذا ما جدّ منصب جديد، لا يألو جهداً في اتخاذه لنفسه ولو أدّى الأمر إلى دفع المال مقابل ذلك، فيولاه دون أن يحسب مولوه حساباً لما إذا كان أهلاً لهذا العمل أم لا» (٢٠٢). ويتحدث في مكانٍ آخر عن امتهان الألقاب: «إن أقلّ غلام تركي شأناً ممن لا يوجد ثمّة أسوأ منهم مذهباً، وممن أحدثوا في الدين والملك ألف مفسدة وخلل، يلقب نفسه معين الدين وتاج الدين» (١٩٩. وراجع أيضاً ١٨٩ و١٩٨). أما عن ضعف جهاز القضاء في ملك آل سلجوق، فيقول: (لو أمر أحد ملوك هذا الزمان أدنى «فرّاش» أو «ركابدار» بأن: امثل في مجلس القضاء مع «عميد» بلخ و«رئيس» مرو لما صدع لأمره، أو أعاره أدنى اهتمام!!) (٣٠٣) أعرض نظام الملك لهذه النقائص لأن ملكشاه أراد منه ذلك (٤) أم لأنه رأى في أواخر أيامه نفوذ مخالفيه يزداد، ونفوذه يتناقص تدريجيًّا؟ بعبارة أخرى، هل هذه إشارة إلى مقولة متنطسّي العيوب – القائمة في عصرنا نحن أيضاً – الذين لا يجري على ألسنتهم – وهم بعيدون عن المنصب – سوى الكلام الذي تهشّ له القلوب، لكنهم حين يتبوّأون سدّة عمل ما ويصلون إلى السلطة، يرتكبون أسوأ مما كانوا يعدونه قبيحاً مذموماً، وكأنهم في هذا الجانب غيرهم في ذاك، لاسيّما أن نظام الملك لم يكن في مدة الثلاثين السنة من وزارته المقتدرة دون تأثير في ظهور هذه الأوضاع، أو أنه لم يستطع إصلاحها؟ ليس ببعيد أنه كنّى عن نفسه في نقده الذي أورده في قصة البتكين وسبكتكين حيث يقول: «لقد هدفت من وراء هذه الحكاية أن يعلم سيد العالم – خلد الله ملكه – كيف يكون العبد الجيد، الذي إذا ما قام بخدمات نافعة، ولم تبدر منه أية خيانة أو ينكث عهداً قط، بل كان الملك به ثابت الأساس مستحكماً، فكان بركة على المملكة ونفعاً لها، يجب ألا يُكَلَّم في فؤاده أو يُصغى إلى أقاويل الناس المغرضة فيه» (١٥٠). ويؤكد في مواطن أخرى، أيضاً، حسن تفكيره وحبّه خير المملكة في صراحة، فيقول: «سيتذكر سيد العالم – أدام الله سلطنته – مقالة

مولاه حين يرمي هؤلاء القوم (الخرمدينية وذوو المذاهب السيئة) عظماء الناس وأعزتهم في البئر، وحين تقرع أصوات طبولهم الأسماع، ويظهر شرهم وفتنتهم واضحاً للملأ، وسيتذكر إبان هذا الفساد أن ما قلته هو الصواب بعينه، وأنني لم أضن - ما أمكنني ذلك - في تقديم النصح، وإظهار الحدب والخشية، ولم آل جهداً في تنفيذ شروط طاعتي وهواي لهذه الدولة القاهرة، ثبّت الله أركانها» (٢٩٨).

- ٣ -

كان نظام الملك يرى أن بنيان المملكة والحفاظ عليها لا يقوم إلا على العدل المطلق، وقد نبّه على هذه الناحية مرات بصور شتى. وهو يرى أن رضى الحق تعالى، وقوة سلطان ملكشاه، وصلاح الجيش والرعية منوطة كلها بالعدل والإحسان، ويعتقد بأن «الملك يبقى مع الكفر، ولا يبقى مع الظلم» (١٧ و٦١). إن الرعية - في نظره - قطيع راعيه الملك (٣٢)، فها هوذا يقول لملكشاه في صراحة: «وفي الحقيقة أن سلطان العالم - خلد الله ملكه - يدرك أنه سيُسأل في ذلك اليوم العظيم عن جواب هذه الخلائق التي تحت إمرته، وأنه لن يسمع منه شيء إذا ما أحال الأمر على شخص آخر. فما دام الأمر كذلك، فعلى الملك ألا يعهد بهذه المهمة لأحد، وألا يغفل عن شؤون الخلق» (١٨ وانظر ٢٨ أيضاً). ويقول: «ليس ثمّة ذنب أعظم من ذنوب الملوك عند الله تعالى. إن معرفة حق نعمة الله على الملوك إنما تكون في المحافظة على الرعية وإنصافها وكفّ أيدي الظالمين عنها» (٥٤). لقد شغل هذا الأصل المهم نظام الملك واسترعى اهتمامه في كل مكان، وكان يفكر في سبل مختلفة لكيفية التوصّل إلى تحقيقه. إنه يوصي السلطان بأن يجلس للمظالم يومين في الأسبوع، وأن يستمع إلى شكاوى المتظلّمين دون وساطة. ثم يذكر بسنن السالفين من ملوك العجم الذين كانوا يقفون على نشز في الصحراء ممتطين جيادهم ليتمكّنوا من رؤية كل شخص، والتصدّي للظالمين الذين يمنعون طلاب العدل من المثول بين أيديهم. ولم يفته أن يشير إلى الملك الثقيل السمع الذي أمر بأن يرتدي المظلومون ثياباً حمراً تميّزهم عن غيرهم ليراهم (١٩- ٢٠ ثم انظر ٢٨ أيضاً). وينقل عن أنوشروان قوله: «لماذا يفتح باب قصرنا للظالمين ويوصد في وجه المظلومين؟» (١٤٩). ثم يورد قصة «سلسلة عدالته» (٥٠) وينقل رأي عمر بن الخطاب من أن العمال إذا ما عرفوا «أن لا حجاب بين الملك ورعيته، فإن أحداً لن يقدم على إلحاق الظلم بها، وعلى أخذ أموال الناس بغير حق» (٧٥). إنه يعتقد - كما هو في تعبيرنا المعاصر - أنه كان على ملكشاه أن يكون على اتصال أكثر برعيّته: «واستمع إلى كلام الرعية بنفسك دونما وساطة، وكن على علم بأحوالهم وما يعتصر في أفئدتهم من آلام، ثم

أنصفهم لكي «يخاف الظالمون، ويكفّوا أيديهم عن الناس، ولا يجرؤ أحد على الظلم والتمادي خشية العقاب» (١٩)، ولكي يظل الملك ثابت الأساس. ويعدّ كل ما كان يقضي به نظام الملك من الحيلولة دون تجمّع المتظلّمين في القصر – في الوقت نفسه – تدبيراً آخر تجلّى به الرجل في سياسة تسيير شؤون المملكة. يقول في هذا الموضوع: «يغص القصر دائماً بالمتظلّمين الذين لا يغادرونه قبل أن يتسلّموا أجوبة شكاياتهم. إن هذا قد يبعث كل رسول أو غريب يفد إليه على الظن، حين يسمع صراخ المتجمعين وجلبتهم، بأن ظلماً عظيماً ينزل بالناس. فحين يوصد الباب دون هذا، يجب أن تجمع شكاوى أهل كل مدينة وناحية على حدة، وتثبت في مكان واحد. ثم يحضر خمسة منهم إلى القصر لبيان أمرهم وعرض أحوالهم؛ ثم يتلقون الجواب ويتسلّمون الحكم... وذلك للقضاء على الجلبة والضوضاء والصراخ التي لا أساس لها» (٢٠١).

ومن البديهي أن ملكشاه لم يكن ليستطيع أن يتعهّد شؤون الملك وحيداً؛ فعبء الوزير ثقيل إذاً، و«صلاح الملك والمملكة وفسادهما منوطان به أيضاً» (٣٠) لأنه «رأس كل العمال والمتصرفين». يجب أن يكون الوزير حسن الاعتقاد، حنفيًّا أو شافعيًّا، نقيًّا، كفؤاً، حسن المعاملة، صاحب قلم، محبًّا للملك، وإن يكن ابن وزير فذا أفضل. لأنه «متى كان الوزير سيئاً وظالماً، فإن كل العمال سيكونون كذلك، بل أسوأ» (٢١٤ و ٢١٨) ومن أجل استقرار العدالة في المملكة، فإن نظام الملك، يعير اهتمامه لكل وظائف متصدّي أمور الدولة وواجباتهم، ويبدي آراءه في كل موضوع. فالعمال أي مأمورو إيصال عائدات الدولة، يجب أن يسلكوا مع الناس سلوكاً حسناً «وإلاّ يحصّلوا منهم غير ما يترتّب عليهم، وذلك بالمداراة والمجاملة» وفي وقت جني المحاصيل لئلا يضيق عليهم، ويكون سبباً في تشتيت شملهم. فإذا ما سلك عامل ما غير هذا، يجب «استبدال آخر أليق به، وإن كان غصب الناس شيئاً دون حق فيجب أن يُستردّ منه ويعاد إلى أصحابه.... ويجب عزله وعدم إسناد أي عمل إليه بعد ذلك، لتكون فيه عبرة للآخرين» (٢٩– ٣٠).

وكان نظام «الإقطاع» من رسوم عصر نظام الملك المهمة أيضاً؛ وكانت عادة الملوك القدامى أن يدفعوا رواتب الجيش نقداً من خزانة الدولة أربع مرات في السنة (١٢٦). أما السلاجقة فكانوا يعطون للأشخاص قطعة أرض يرثها أبناؤهم من بعدهم، وكان هذا يسمى إقطاعاً. لكن من الناس من كان يقطع – أحياناً – قطعة أرض فيقوم على إصلاحها وإعمارها على أن يدفع عُشر دخلها إلى خزانة السلطان، ويفيد منها ما دام حيًّا. أما بعد وفاته، فتعاد إلى السلطان[٦٤]، غير أن الإقطاع الذي

(٦٤) المترجم: هذا هو الذي يقال له «إقطاع إرفاق لا تمليك».

يورّث هو الذي كان رائجاً على عهد دولة آل سلجوق[٦٥]. لهذا خصّ الخواجة نظام الملك «المستقطعين» بفصل خاص، وذهب إلى أنه لا شأن لهم على الرعايا سوى تحصيل ما أسند إليهم فقط و«بالحسنى» طبعاً. وحين تدفع هذه الأموال يجب أن يكون الناس آمنين على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم. ولا يحق للمستقطعين، كذلك، أن يمنعوا الرعايا من الذهاب إلى قصر السلطان وطلب العدل. وكل من يتصرف بخلاف هذا يجب نزع إقطاعيته منه ومجازاته «ليعتبر به الآخرون»[٦٦]. ويورد مثالاً على هذا قصة أنوشروان فيقول: «وكان الملوك يفكّرون في حق الضعفاء دائماً، ويحتاطون في أمر المسؤولين والمستقطعين والعمال، للسمعة الحسنة في الدنيا، والفوز بثواب الآخرة» (٥١ – ٥٢). فضلاً عن هذا، فإن نظام الملك يرى أن يغيّر العمال والمستقطعون كل سنتين أو ثلاث «حتى لا يثبتوا أقدامهم ويحصنوا أنفسهم...، وحتى يعاملوا الناس بالحسنى» (٥٢). أما في خلال حكاية «بهرام جور وراست روشن»[٦٧] فيعرض لشيء من الأذى الذي يلحقه عمال الدولة بالناس نموذجاً لبعض أنواع الأغراض الشخصية والأهداف الخاصة (٣٤– ٣٦).

عمل القضاة عند نظام الملك أيضاً «مهم ودقيق لأن دماء المسلمين وأموالهم موكولة بهم». يجب – والحال هذه – «أن يكون لكل منهم راتب شهري يكفيه أمور معاشه حتى لا تكون به حاجة إلى الخيانة» (٥٣). و«القضاة كلهم نواب للملك الذي يجب عليه أن يشدّ أزرهم ويسندهم، ويحفظ لهم حرماتهم ومنازلهم كاملة»، و«كذلك، يجب تعيين محتسب في كل مدينة لمراقبة الأوزان والأسعار والتأكد من صحّتها، ومعرفة المبيعات والمشتريات للسير بموجبها والتقيّد بها، ولمراقبة البضائع التي يؤتى بها من الأطراف لتباع في الأسواق مراقبة تامّة من أن تغش أو يقسط فيها، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن واجب الملك وولاته مؤازرة المحتسب والأخذ بيده، لأن مهمّته ركيزة من ركائز المملكة، وهي نتيجة العدل، وإلا فسيضيق على الفقراء، ويشتري التجار ومن يتعاطون البيع والشراء في الأسواق ويبيعون على هواهم» (٥٦).

وفضلاً عن الظفر بهذه المقاصد، فإن يقظة السلطان ملكشاه ومعرفته بكل ما يجري في المملكة – في رأي نظام الملك – ضرورية، إذ لا مندوحة له – أي السلطان – من «أصحاب البُرد ومنهي

---

(٦٥) راجع: نقد حال: ٢٣٣؛ و:
Lambton (Ann. K.S), The Evolution of the Iqta' in Medieval Iran: Iran (Journal of prersian studies), Vol.٥, pp. ٤١- ٥١, ١٩٦٧.

(٦٦) سير الملوك ٤١، وقد أشار الأستاذ مينوي إلى هذه الناحية أيضاً.

(٦٧) المترجم: راجع هذه الحكاية في الفصل الرابع من هذه الترجمة.

الأخبار». وها هوذا يكتب عن أحوال ذلك العصر: «من واجب الملك تحرّي أحوال الرعيّة والجيش وكل بعيد وقريب، ومعرفة كل كبيرة وصغيرة في المملكة، فإن لم يفعل، فسيكون ذا عيباً ومأخذاً يأخذه الناس عليه، ويحملونه محمل الغفلة والتهاون والظلم». ويشير إلى أنه كان للملوك القدامى أصحاب بُرد ليكونوا «على علم بما يحدث من خير وشر، حتى لو غصب شخص شخصاً آخر دجاجة أو مِخلاة تِبْنٍ على بعد خمسمائة فرسخ، فإن الملك كان يعلمه، فيأمر بتأديبه ومعاقبته، ليعرف الآخرون أنه يقظ، وأن له مخبرين في كل مكان، وأنه يضرب على أيدي الظالمين، فينصرف الناس إلى الكسب والإعمار والبناء في ظل الأمن والعدل» (٧٩). ويضيف في هذا الموطن بأنه يجب ألا يناط هذا العمل – صاحب البريد – بذوي المطامع والمآرب الخاصة لما ينجم عنه من أضرار (٨٠)؛ لكنه ينقل في الوقت نفسه آراء أشخاص من مثل ألب أرسلان الذي لم يكن يرى ضرورة لمنهي الأخبار، بل كان يظن أن أصدقاءه – أي ألب أرسلان – اعتماداً على صداقتهم له لن يقيموا له وزناً، وأن أعداءه سيصادقونه، ويغرونه بالمال، فتكون نتيجة هذا أن لا مناص له من أن ينقل إليه الأخبار السيئة عن الأصدقاء، والحسنة عن الأعداء. غير أن نظام الملك يعود فيدلي برأيه هو، فيقول: «إن اتخاذ صاحب البريد لقاعدة من قواعد الملك، وإذا ما كان معتمداً على النحو الذي يجب أن يكون، فإن بال الملك لن ينشغل بأي أمر من الأمور التي ذكرنا (٨٨– ٨٩).

ومن المسائل الدقيقة، التي لم تفت نظام الملك، وجوب تأمين معيشة أشخاص من مثل المشرفين[٦٨]، وأصحاب البريد، ومنهي الأخبار، وغيرهم من عمال الدولة «حتى لا تكون لهم ثمة حاجة لخيانة ورشوة» (٧٨ و٨٠)، لأنه إذا كان الأمر على غير هذا النحو، فإن أعمالهم، تبعاً لتقاريرهم الباطلة المشبوهة، ستكون خطأ كلها. فضلاً عن هذا، فإنه يجب التمعّن في كل خبر «حتى يتبيّن الصدق من الكذب. فالعجلة من صفات الضعفاء لا المقتدرين» (١٦٩). أما الموضوع الذي يتطرّق إليه الخواجة في خلال حديثه عن دخول البتكين «زابل» – وهو أنه أمر جنده: «يجب ألا يأخذ أحدكم من أي شخص شيئاً دون أن ينقده ثمنه، وسأعاقب كل من يخالف هذا» – فليس إلا تحذير لملكشاه أيضاً لكي يحول دون تعدي جيشه على أموال الناس. وأما قصة الغلام التركي الذي كان أخذ من الناس مخلاة تبن ودجاجة ظلماً فأمر البتكين بشقه نصفين وتعليقه على قارعة الطريق والمخلاة معه، فقصة ذات عبرة (١٤٥– ١٤٦).

إن نظام الملك في تسييره دقّة الأمور في المملكة لعلى معرفة دقيقة بجزئيات السياسة ودقائقها،

(٦٨) راجع في المشرفين ومهامهم: فرخي سيستاني ٣٢٣.

وهو كفيل بأن يجد بإشارة إصبع حلولاً وتدابير لكثير من المشكلات. ونذكر هنا بعض آرائه وأساليبه في عدد من الأمور نماذج على هذا.

فمن الأصول المهمة التي يلحّ عليها نظام الملك ألا يُسند منصبان أو أكثر إلى شخص واحد، وألا يناط عمل واحد باثنين أيضاً. ففي الحالة الأولى، لن يستطيع ذو العملين القيام بهما، أما في الحالة الأخرى، فإن «وجود سيدتي بيت في المنزل مدعاة قذارته، ووجود كبيرين لقرية واحدة مدعاة لدمارها»[٦٩]. يسلط الخواجة سهام نقده على كثرة مناصب فئة معينة متنفذة في ذلك العصر، لأن هؤلاء تسبّبوا في حرمان الأكفياء واللائقين وذوي الجَلَد والمعتمدين والمجربين ممن لزموا بيوتهم عاطلين دون أن يخطر ببال أحد أن يسأل نفسه: لماذا يعهد بعدة مناصب وأعمال إلى المغمورين ممن لا كفاية لهم ولا أصل، ويحرم الأصلاء والمعتمدون - لاسيّما أصحاب الحق على الدولة ممن قدموا لها خدمات جليلة، وأظهروا فيها كفاية ولياقة فائقتين - حتى من عمل واحد؟». ولكي يبين مضار القعود دون عمل، وعدم رضى مثل هؤلاء العاطلين الذين قد يتّصلون بالمخالفين وينضمون إليهم ويسعون إلى قلب الأوضاع، يضرب نظام الملك مثلاً بحادثة من عهد فخر الدولة ووزيره الصاحب ابن عباد، هي كيف أن «الكتّاب والمتصرفين» وغيرهم من الأشخاص، الذين كان أمر معاشهم مختلاً، قد قطعوا الأمل في ملك فخر الدولة، وراحوا يتطلّعون بآمالهم إلى الدولة المحمودية[٧٠]. وينقل قول فخر الدولة للصاحب: «فإذا ما ولي شخص واحد عملين أو ثلاثة، فإن سبل العيش تضيق على الآخرين، وإن حكام الأطراف ومتسقّطي عيوب دولتنا سيقولون: ألم يبقَ في مملكتهم رجال حتى يعهدوا بعملين إلى رجل واحد؟!. ويحملوننا على عدم الكفاية والجدارة»[٧١]. (٢٠١ و٢٠٢ و٢١١- ٢١٤). على هذا الأساس، يرى نظام الملك أنه يجب ألا تترك الأسرات القديمة وسلالة الملوك محرومة، بل يجب أن تؤمن لهم أسباب معاشهم ليقل عدد الساخطين وغير الراضين (١٧٩)، ويوصي، كذلك، بإيجاد عمل لأبناء التركمان السلاجقة وجعلهم ضمن غلمان السراي «مهما تكن الملالة والنفرة منهم» لما «قدّموه للدولة إبّان قيامها من خدمات، وما تحمّلوه في سبيلها من متاعب ومشاقّ، فضلاً عن أنهم من ذوي القربى»[٧٢]. علاوة على هذا فإنه يمكن، عن هذه الطريق، الإفادة من خدماتهم، «وإزالة ما وقر في نفوسهم من نفرة» (١٣١).

(٦٩) المترجم: يختلف هذا المثل في النسخة التي اعتمدها الدكتور يوسفي عنه في النسخة التي اعتمدتها.

(٧٠) المترجم: نسبة إلى محمود الغزنوي.

(٧١) بحث الأستاذ مينوي هذا الموضوع أيضاً. راجع: نقد حال ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٧٢) المترجم: انظر حاشية الفصل السادس والعشرين من هذه الترجمة.

ولما كان «ذوو الأغراض والمآرب الخاصة» في ذلك الزمان يجدون مجالاً للتدخل في شؤون الحكم مفيدين من نفوذ سيدات بلاط السلطان ملكشاه، فإن رأي نظام الملك في هذا المجال يقضي – وفقاً لمقتضيات ذلك العهد– بإقصاء النساء عن ميدان السياسة. ثم ينقل حكايات في هذا الموضوع[٧٣].

ولأجل استحكام بنيان حكومة ملكشاه يوصي الخواجة بأنه «إذا لم يكن ثمة أمر مهم يجب ألا يصدر عن الديوان العالي أي أمر خطي البتة، وإذا ما صدر شيء يجب أن تكون له حرمته إلى حد لا يجرؤ أحد على وضعه من يده قبل أن يطيع كل ما فيه من أوامر ويلبّيها» (٩٠). ويؤكّد أن ليس من حق رجال السلطان أن ينزلوا بالناس العقوبات التي هي من حقه وحده، وإذا ما ارتكب أحدهم شيئاً من هذا «يجب أن يعاقب ليعتبر الآخرون ويعرفوا أنفسهم» (٩١).

لم يكن للجند، في ذلك العصر، شكل جيش وطني، ولم تكن الجندية واجباً قوميًّا إجباريًّا، بل كان أكثر الجنود مرتزقة يكسبون معاشهم عن هذه الطريق، وربما كانوا من أجناس وملل مختلفة. لذا فسياسة نظام الملك – وفقاً لرسوم ذلك العصر وسننه – منشؤها «بما أن اتخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الخطر والتخريب والفساد وعدم الجديّة والبلاء في الحرب، يجب أن يؤسس من كل جنس وملّة. ويضرب مثلاً بجيش محمود الغزنوي الذي كان مؤلفاً من الترك والخراسانيين والعرب والهنود والغوريين والديالمة. فكان كل فريق يرقب الفريق الآخر، ولم يكونوا يستطيعون أن يتفقوا جميعاً أو يتواطأوا؛ أما في الحرب، فكانوا ينافسون بعضهم بعضاً، وكانت كل فئة تسعى للتفوّق على الفئات الأخرى[٧٤] (١٢٨).

ويعير نظام الملك اهتماماً كبيراً لشؤون الجيش وتأمين معاشه ورواتب جنده، وغير هذا من المسائل المتعلقة به (١٢٦). ولقد تطرّق للحديث عنها مرات عدة في مناسبات مختلفة، ولا عجب، فهو يرى أن الجيش أس المملكة وركن مهمّ من أركانها، تجب تقويته. لهذا أبدى مخالفته لمن اقترح على ملكشاه[٧٥] بأن «العالم صافٍ، وأن ليس فيه مكان لعدو ومخالف يستطيع المقاومة. فليس من حاجة، إذاً، إلى أربعمائة ألف خيّال يرتزقون من هذه الدولة. بحسبها سبعون ألف فارس يدّخرون

(٧٣) عرض السيد ميزي لهذا الموضوع أيضاً. نقد حال ٢٣٧ – ٢٣٨.

(٧٤) راجع أيضاً: قابوس نامه ٢٣٣، تحقيق كاتب هذه السطور (أي الدكتور يوسفي) طهران ١٣٤٥.

المترجم: ترجم الدكتور أمين عبد المجيد بدوي (بالاشتراك مع المرحوم صادق نشأت) كتاب «قابوس نامه» إلى العربية بعنوان «كتاب النصيحة» (القاهرة ١٩٥٨).

(٧٥) المترجم: كان نظام الملك يقصد منافسه تاج الملك.

للحوادث الجسام ويندبون لها، أما الآخرون، فيجب أن توقف رواتبهم وجراياتهم مما يوفر لخزانة الدولة بضعة آلاف دينار سنويًا ويفضي إلى امتلائها في مدة يسيرة»، وقال للسلطان: «يجب أن يكون ثمة سبعمائة ألف رجل بدلاً من أربعمائة ألف، فكلما كثر عدد الرجال امتدت الولاية واتّسع نطاقها»[٧٦] (٢٠٩).

وتظهر دراية نظام الملك بخوالج الناس وميولهم وأفكارهم وطريقة سلوكه معهم واضحة في كثير من أوامره التي كان يصدرها، وبهذا النحو استطاع أن يدير مملكة ممتدة الأطراف مدة طويلة. من هذا القبيل مثلاً، قوله: «يجب ألا يسند للنديم أي عمل، لأنه، لما له في رحاب السلطان من حظوة، قد يتطاول ويتسبّب في إيذاء الناس وإرهاقهم» (١١٣ و١٥٤ أيضاً)، وقوله أيضاً: «يجب أن يكون عدد من هم أهل لحضور مجالس السلطان الخاصة محدوداً» (١٥٣). أما عن الفائدة من استدعاء الجند وتسليمهم أطماعهم[٧٧] بحضور السلطان، فيقول نظام الملك: «... لا أن يحالوا إلى الخزينة لاستلامها – أي الأطماع – من هناك دون أن يراهم الملك. فما أحسن أن يسلمها الملك إليهم بنفسه مما يبعث على زرع المودّة والأُلفة والاتحاد بينهم وبينه، ويفضي بهم إلى بذل أقصى الجهود في أثناء الخدمة، وإلى الثبات في القتال» (١٢٦).

وفي جلوس الملك للناس يوصي نظام الملك ملكشاه بأن: «تضييق النطاق على الناس في الوصول إلى الملك ومقابلته يؤدي إلى تردّي أحوالهم وبقائها خافية عليه، ثم إلى تفاقم أمر المفسدين وتماديهم، وسوء حال الجيش ومعاناته» لأنه «ليس أشدّ وِطأة على الكبراء والرؤساء من حضورهم إلى القصر وعودتهم دون أن يروا السلطان» (١٥١ وانظر ١٥٣ أيضاً). وإذا ما بدر خطأ ممن أخذ السلطان بيدهم فقرّبهم ورقّاهم ووصل بهم إلى مراتب العظمة «فعوتبوا جهاراً، فإن ماء وجوههم يراق، ولا يرد لهم اعتبارهم وحرمتهم إلا بقدر كبير من الإحسان والمكافأة والتقدير. إنه لأولى، إذا ما ارتكب أحدهم خطأ، أن يغضّ الطرف عنه في حينه، ثم يستدعى سرًّا، ويقال له: لقد فعلت كذا وكذا، لكننا رغبة في عدم الإطاحة بمن قرّبناهم وأوصلناهم إلى هذه المنزلة قد تجاوزنا عن ذلك. إن عليه[٧٨] أن يتجنّب الوقوع في الخطأ، وألا يجرؤ على ارتكاب شيء من هذا القبيل فيما بعد» (١٥٨). ومع هذا فإن الخواجة ليس بغافل عن مكافأة الأشخاص أو مجازاتهم، كل بما يستحق، أو العفو عنهم في الوقت المناسب» (١٦٦ و١٤). أما توصياته بأن يكون لملكشاه «خِوَان» عظيم، وأن يتكلّف كثيراً

(٧٦) نقل الأستاذ مينوي هذا الموضوع أيضاً. راجع: نقد حال ٢٤١.

(٧٧) المترجم: الأطماع مفرد طمع وهو رزق الجند.

(٧٨) المترجم: انتقل نظام الملك هنا – فيما هي عادته أحياناً – من ضمير الخطاب إلى الغيبة.

في إعداده إعداداً جيّداً، وتذكيره بعادات طغرل السلجوقي وسخاوته في هذا الموضوع، وذكره تذمر الجكليين وسكّان ما وراء النهر من ملكشاه «بأننا لم نأكل لقمة واحدة على خوان السلطان في المدة الطويلة التي كان يتردّد فيها هنا!». كل هذه نماذج لطريقة نظام الملك في إدارة الناس والاعتناء بهم، لأنه يعتقد بأن عظمة السلطان وهمّته ومروءته وخوانه وصلاته يجب أن تكون على أعلى الدرجات كثرة وحسناً[٧٩] (١٦٢). كما أنه يشير إلى هذه المسألة مشفوعة بدقائق أخرى كثيرة في رسالة إلى ابنه بأن «الإنسان عبد الإحسان»[٨٠]. ومما يدخل في هذا الباب أيضاً، أمره ابنه بتقسيم ساعات ليله ونهاره على الأعمال الضرورية المختلفة، والاختلاط بمختلف طبقات الناس ومعاشرتهم ورعاية أحوالهم، وأخذ أي شيء منهم بالرفق واللين[٨١].

إن تكن قصة الصرر الذهبية الثلاث، التي وهبها نظام الملك بائع خضراوات جاءه بثلاث هيئات مختلفة يطلب حاجة وهو يعرفه في كل مرة، صحيحة، فهي دليل على سخائه وحسن سلوكه مع الناس، وعلى ذكائه أيضاً[٨٢]. ومما يستحق الذكر كذلك الرواية الآتية المذكورة في «تجارب السلف» (ص ٢٧٠) التي تدلّ على نمط تصرف نظام الملك وتدابيره، تقول: «لما فرغ – أي نظام الملك – من بناء النظامية – نظامية بغداد – عيّن الشيخ أبا زكريا الخطيب التبريزي خازناً لدار الكتب فيها. وكان التبريزي يشرب الخمر ويأتي بالنساء كل ليلة. فكان أن كتب أحد بوّابي المدرسة – فيما هي العادة – رسالة إلى نظام الملك يعرض عليه فيها حال الشيخ أبي زكريا. فقال الخواجة: إنني لا أصدق هذا الكلام أبداً!. لكنه مضى إلى المدرسة متنكّراً ذات ليلة واعتلى سقف دار الكتب وراح ينظر من طاقة هناك، فرأى الشيخ أبا زكريا منهمكاً بما أخبر به عنه. فلم يقل شيئاً، وانصرف إلى بيته. وفي الصباح طلب سجل النظامية وضاعف راتب الشيخ أبي زكريا وأجره وأرسل إليه حوالة بذلك، وقال للرسول: اقرئ الشيخ سلامي، وقل له: والله إنني لم أكن أعرف بأن نفقات الشيخ كثيرة، وإلا لما رضيت بهذا القدر من الراتب. فعرف الشيخ أبو زكريا بوقوف الخواجة على حاله، واعتراه الخجل وتاب توبة نصوحاً، ولم يعد إلى ذلك قط. إن هذا لفعل العظماء حقّاً»[٨٣].

ونستطيع أن نستنبط معرفة نظام الملك بالطبائع والنفسيات وواقع حياة ذلك العصر، أيضاً، من قوله في الندامى: «يجب أن يكون النديم موافقاً للملك وأن يردد «بخٍ» و«أحسنت» كلما يقول الملك

---

(٧٩) عرض السيد مينوي لهذا الموضوع أيضاً: نقد حال ٢٤٢.

(٨٠) راجع: آثار الوزراء ٢١٤ – ٢١٥.

(٨١) نفسه ٢١٢ و ٢١٤.

(٨٢) المصدر نفسه ٢٠٨ – ٢٠٩.

(٨٣) راجع أيضاً: دستور الوزراء، لخوندمير ١٦٠ – ١٦١.

شيئاً أو يفعله، وألاّ ينصِّب من نفسه معلماً كأن يقول مثلاً: افعل هذا، ولا تفعل ذلك. فهذه أمور ثقيلة على الملك، وهي تجر إلى الكراهية» (١١٤).

ولنظام الملك – في إدارة البلاد والحفاظ عليها – عناية تامة بالعمران والإعمار. فها هوذا يوصي الملك بإعمار المملكة بمثل: «شقّ القناوات ، وإيجاد الجداول الجيدة، وإنشاء الجسور والقناطر على معابر المياه العظيمة، وإعمار القرى والمزارع، وإقامة الأسوار وتشييد المدن الجديدة، وإيجاد الأبنية الشامخة الرفيعة، والمقرات البديعة»، وإقامة الربط على الطرق الرئيسية، وبناء المدارس لطلاب العلم (١٤). وله اهتمام دقيق خاص بمسألة الريّ وتقسيم مياه الأنهار والقنوات والينابيع بين الناس «بالإنصاف وحسب العادة القديمة» لأن «الإعمار لا يكون إلا بالماء، والظلم فيه خيانة ترتفع بها البركة من العالم كليًا»[٨٤].

يقول عماد الدين الأصفهاني الكاتب في «تاريخ دولة آل سلجوق» بأنه قد جرت العادة قديماً بتحصيل الضرائب وصرفها على الجند، ولم يكن لأحد إقطاع[٨٥]. لكن نظام الملك لما رأى أوضاع مختلف نواحي المملكة مختلّة لا تتحصل منها أموال كثيرة، قسّم الأراضي بين الجنود، وجعل محاصيلها رواتب لهم، وهو ما دعاه إلى الاهتمام بإعمار الأرض. ولم يمضِ وقت طويل إلا والأملاك على أحسن حال وصورة[٨٦].

وتحكي بعض أقوال نظام الملك اهتمامه بالمسائل الاقتصادية من مثل ما جاء في «امتلاك الخزائن» وشروط كل من «الخزانة الأصل» و«خزانة الإنفاق» وقواعدها (٢٩٩)، أو كيفية تدوين حساب أموال الولايات، والتثبّت من النفقات وقبولها أو ردّها (٣٠٥)، ومراقبة أسعار البضائع والموازين (٥٦)، وضرب السكّة والانتباه الدقيق لعيارها[٨٧].

ومن الشواهد على دقّة نظر نظام الملك وحصافته في إدارة عجلة سياسة الدولة اهتمامه بدقائق مختلف شؤون المملكة وجزئياتها على الرغم من انشغاله بالأمور المهمّة. من هذه الشؤون، موضوع إرسال الغلمان من القصر في المهمّات، الغلمان الذين يرسل بعضهم بأمر ويرسل بعضهم دون ذلك «وفي هذا الأخير إرهاق للناس، واستنزاف لأموالهم» فيحصلون خمسمائة دينار بدلاً من مائتين. يجب أن يتقيّدوا بالأمر الصادر إليهم ويقفوا عنده. ومنها ضرورة وضع الوصل ومنهي الأخبار على

---

(٨٤) آثار الوزراء ٢١٥– ٢١٦.

(٨٥) انظر أيضاً: سياست نامه ١٢٦.

(٨٦) نقد حال ٢٣٣– ٢٣٤.

(٨٧) آثار الوزراء ٢١٥.

الطرق (١١٠)، والدقّة المتناهية في مسألة مظهر متني رجل - المختارين - ومعدّاتهم في القصر (١١٨)، وتهيئة العلف في المنازل[٨٨] والمراحل لموكب السلطان (١٢٥)، والحيطة في أمر الخفر والحرس والبوّابين ليلاً ونهاراً (١٦١)، وموضوع وصول أحكام السلطان ملكشاه وإحالاته الشفوية إلى الديوان والخزينة في ما يتعلق بالمهمّات والولايات والإقطاع والصلات من أوامر قد يصدر بعضها في حال انتشاء وغبطة. ولدقّة هذا الأمر تجب الحيطة التامة فيه. ولربما يقع تفاوت فيها بين النقلة أو أنهم لا يسمعونها كما هي، لذا يجب أن تناط بشخص واحد فقط على أن ينقلها بنفسه لا ينيب عنه أحداً. ويشترط عدم تنفيذ هذه الأوامر قبل أن يعرضها الديوان على الأعتاب الملكية مرة أخرى، وإن تعدد ناقلوها وموصلوها» (١١١)[٨٩].

ولقد ألزم الارتباط مع ملوك الأطراف وبلاطات الملوك الآخرين نظام الملك أن يكتب فصلاً عن الرسل وتنظيم أعمالهم. وهو يلتفت في هذا الموضوع إلى نقاط مهمّة، من بينها كسب الاطلاع المسبق عن الرسول ومرافقيه ومهمته، ووجوب إرشاده وهدايته وإكرام وفادته واستقباله في كل منزلة من منازل الطريق، وصرفه بكل مسرة ورضى، لأن «ما يعاملون به - أي الرسل - من إحسان أو إساءة ليس، في واقع الأمر، إلا معاملة للملك الذي أوفدوا من لدنه» (١٢٠). ثم يبيّن حقيقة العلاقات بين دول ذلك العصر، والغرض من إرسال السفارات «فهو لا ينحصر في إيصال الرسائل والأخبار وإظهارها على الملأ، إنما تمتد مآرب الرسل وأهدافهم السرية إلى أشياء كثيرة أخرى». ويسهب في تبيين أن الرسل كانوا يرمون إلى معرفة كل شيء، والاطلاع على جزئيات الأوضاع في الأماكن التي يذهبون إليها من تلك المملكة، وعلى حقيقة أحوالها وعادات ملكها، ثم يخبرون مخدومهم بها عند عودتهم. ومع أن هذه المعلومات لا تبدو مهمة في ظاهرها إلا أنه سيستفاد منها ذات يوم «ليكونوا على بيّنة من أمر ذلك الملك إذا ما رغبوا في مخالفته أو مخالفته وتصيد العيوب عليه، وليأخذوا للأمر أهبته إن خيراً فخير، وإن شرًا فشر، ثم يتخذوا ما يرونه مناسباً». وهنا نقرأ حكاية تقرير رسول «خان» سمرقند عن نسبته نظام الملك إلى الرافضة لخاتم كان في إحدى أصابع يده اليمنى لفت انتباه الرسول، فذهب ظنّه إلى أن الوزير رافضي، وكان من الممكن أن تودي هذه الحادثة بحياته. ويدعو في ختام هذا الموضوع إلى وجوب الدقّة التامّة في انتخاب الرسل وإرسالهم بحيث ينتخب رجل «خدم الملوك، جريء في القول غير مهذار، سافر كثيراً وأخذ من كل علم

(٨٨) المترجم: جمع منزل، وهو موضع النزول.

(٨٩) بحث السيد مجتبي مينوي هذه الناحية أيضاً. نقد حال ٢٣١.

المترجم: هذا هو الفصل الخامس عشر برمّته.

بطرف، جيد الحافظة، بعيد النظر، رشيق القامة، جمل للنظر...» (١٢٠ و١٢١ و١٢٢ و١٢٣ و١٢٤).

وفي موضوع «أمراء العرب والكرد والديلم والروم وغيرهم من حديثي العهد بالدخول في طاعة السلطان» يقول نظام الملك: «يجب على كل منهم أن يودع ابناً أو أخاً رهينةً في القصر، بحيث لا يقلّ عدد الرهائن عن خمسمائة إن لم يكن ألفاً. وبعد عام يستبدل غيرهم بهم على ألا يعاد الأولون قبل وصول البدلاء، كيلا يستطيع أحد، بسبب الرهائن، أن يعصي الملك. وهو يعتقد الشيء نفسه بالنسبة للقوهستانيين وأهل طبرستان وشبانكاره – وهم أصحاب إقطاعات وجرايات – (١٣٠).

وكان للجواسيس في ذلك العهد، فضلاً عمن كانوا موكلين بمهمة إنهاء الأخبار جهاراً إلى سمع السلطان، شأن مهمّ أيضاً. يقول الخواجة: «يجب بثّ العيون[٩٠] في كل الأطراف دائماً في زي تجار وسياح ومتصوفة وبائعي أدوية ودراويش لنقل كل ما يسمعون من أخبار كيلا يظل ثمة شيء خافياً، ويمكن تلافي أي طارئ في حينه. فما أكثر ما كان الولاة والمستقطعون والعمال والأمراء يضمرون للملك خلافاً وعصياناً، ويتربّصون به الدوائر سرّاً، لكن الجواسيس كانوا يكتشفون ذلك ويخبرون الملك به، فيركب من وقته وينقضّ عليهم بغتة، فيحيق بهم ويحبط مآربهم. وكانوا إذا ما عرفوا بأن ملكاً أو جيشاً أجنبيًّا ينوي الهجوم على المملكة يخبرون الملك، فيأخذ للأمر أهبته ويدفعه. وكانوا ينهون أخبار الرعية خيرها وشرها، فيتولاّها الملوك» (٦٤). ويعتقد نظام الملك، في مجال السياسة بمبدأ الوسط في كل موضوع، ويدعو ملكشاه أيضاً إلى السير على هذا المنوال (٣٠٥-٣٠٦). وهو يعد المشورة وأخذ الرأي لازمين في سبيل الحفاظ على الملك «لأن تدبير رجل واحد بقوة رجل واحد، وتدبير اثنين بقوة اثنين، وتدبير عشرة بقوة عشرة... وإن عدم المشورة في الأمور من ضعف الرأي». وعنده أن الحكماء والمسنّين وذوي الأسفار أهل لأن يستشاروا في سياسة المملكة (١١٤ و١١٦ و١١٧).

صفوة القول، إنه لم يكن في ذلك الزمان أمر ذو بال يخص الملك والرعية إلا عرض له نظام الملك وتحدث عنه في كتابه القيّم العميق. فضلاً عن هذا، فإن الرجل الذي يعتقد «بأن هذا العالم صحيفة الملوك» (٣٠٣) قد وجد لكل موطن من كتابه حكاية ورواية عن الأسلاف تناسب الموضوع أعطته نكهة خاصة. وتهيّأت له عن هذه الطريق، أيضاً، قصص اعتبارية تؤيد آراءه ومعتقداته أضفت على الكتاب، أيضاً، طلاوة محسوسة. بعض هذه الحكايات قصير، وبعضها مفصل، وعدد منها روايات تاريخية[٩١]. إن أكثر هذه القصص، من مثل قصة عمرو بن

(٩٠) المترجم: العيون مفرد عين وهو الجاسوس.

(٩١) راجع هيوبرت دارك، سياست نامه، المقدمة ٢١- ٢٥.

الليث[٩٢]، فيها أمور دقيقة تستحق التأمّل، لأنها تضمّ بين ثناياها أشياء عن تقلّب الأيام ودورانها. من هذا، أن الأمير الصفاريّ، قال مرة بعد أن مُني بالهزيمة على يد إسماعيل الساماني، وقد رأى كلباً ولغ في مقلاته فعلقت حلقتها في عنقه، فمضى هارباً تائهاً، قال للحراس: «لتعتبروا، فأنا الذي كان يحمل مؤن مطبخي أربعمائة بعير كل صباح، يخطف كلبٌ الآن ما عندي في لحظة ليلاً» (٢٦). ومن قصص الكتاب التي تستحقّ التأمّل مثلاً: حكاية أمير الترك والمعتصم (٦٢- ٧٣)، وحكاية بهرام جور وراست روشن (٣٠- ٤٠)، وحكاية الملك العادل (٤١- ٥١)، وحكاية سكر علي بن نوشتكين (٥٦- ٥٧)، وحكاية لصوص كوچ وبلوچ (٨٠- ٨٨)، وحكاية السلطان محمود والعامل العاصي (٩٠- ٩١)، وحكاية عضد الدولة والقاضي الظالم (٩٤- ١٠٤)، وحكاية السلطان محمود والقاضي الظالم (١٠٥- ١٠٩)، وحكاية موسى وفرعون (١٦٣- ١٦٤)، وحكاية أنو شروان والشيخ العجوز (١٦٧)، وحكاية المأمون وأميري الحرس (١٧٢- ١٧٦)، وحكاية هارون الرشيد (١٨٠- ١٨٣)، وحكاية عمر بن الخطاب والمرأة الفقيرة (١٨٣- ١٨٥)، وحكاية موسى والشاة التائهة (١٨٥)، وحكاية الرئيس الحاج والكلب الأجرب (١٨٥- ١٨٨)، وحكاية مسعود بن محمود الغزنوي ودائنه (٣٠٢- ٣٠٣)، وأمثالها. ومن الطبيعي أن لنظام الملك هدفاً من وراء كل واحدة من هذه الحكايات؛ وها نحن أولاء نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام إشارة له من هذا القبيل، يقول: «ومثل هذه الحكاية كثير، لكنني أكتفي بما ذكرت ليعلم سيد العالم ما كان عليه الخلفاء والملوك دائماً، وكيف أنهم كانوا يحمون الشاة من الذئب، ويعاقبون العمال وولاة الأمور، ويحذّرون المفسدين ويقفون لهم بالمرصاد. ثم كيف أنهم حفظوا للدين الإسلامي قوته وعزّه، وصانوه وأرسوا دعائمه» (٧٣).

- ٤ -

علاوة على كل ما تقدّم، فإن نثر كتاب «سياست نامه» سهل واضح جميل، وجمله قصيرة منغّمة. وقد عولجت موضوعاته بكل وضوح وكمال، لا زيادة فيها ولا نقصان، وهو نموذج جيد كامل للنثر البليغ. إن إنشاء الكتاب بما فيه من طلاوة وحيوية لم يقتصر على عارف بالفارسية، منذ قرون عدّة، على معرفة كنه مفاهيم مؤلفه وأهدافه عند مطالعته حسب، إنما كان يلذّه لسلاسة نثره، وطريقة تعبيره وأحكامه على الرغم من أن الكتاب، فيما يقول المرحوم ملك الشعراء بهار «بسبب سلاسته ولطافة عبارته وما كان له من أهمية قد تعاورته الأيدي... وأضحى ألعوبة - ظلماً - بيد حفنة من الكتبة الضعاف المجحفين. ومما لا شك فيه أنهم قد عبثوا بعباراته واصطلاحاته، فبعدوا به عن صورته الأصلية»[٩٣].

(٩٢) المترجم: راجع هذه القصة في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٩٣) سبك شناسي ٢: ٩٥ الطبعة الثانية. طهران ١٣٣٧ شمسي.

ولأن النثر الفارسي - لحسن الحظ - أخذ يهفو في أيامنا هذه إلى البساطة، فقد انساب في عروقه دم جديد سريع الجريان، وحين تأمّل سياست نامه والتمعّن فيه - على ما في موضوعاته من فوائد- نرى أنه استطاع أن يكون من حيث فنّ الكتابة ذا فائدة أيضاً. لهذه الأسباب مجتمعة، وبعد مطالعة كتاب هذا السياسي العجوز، نوافقه على أن «في هذا الكتاب نصائح، وحكم، وأمثال، وتفسير قرآن، وأخبار النبي (عليه السلام)، وقصص الأنبياء، وسير الأولياء وحكايات عن الملوك العدول. وفيه إخبار عن السالفين، وقصص عن الباقين، وهي، على طولها، مختصرة تليق بالملك العادل»[٩٤] (٣٠٧).

(٩٤) المترجم: هذا النص الأخير ليس موجوداً في طبعة دارك الثانية ولا في طبعة الدكتور شعار التي اعتمدتها.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة مؤلّف الكتاب

ربّ يسّر ولا تعسّر

الحمد لله، عزّ وجلّ، فاطر السموات والأرض، رازق العباد، عالم السر والجهر، وغفّار الذنوب، والسلام على خير البريّة محمّد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) أعظم الأنبياء، ورسول الله بالفرقان للناس كافّة، وعلى أصحابه وعترته أجمعين.

يقول العبد الفقير حسين[١] الطوسي: لما صدر الأمر الملكي العالي من لدن معز الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه بن محمد يمين أمير المؤمنين، أعزّ الله أنصاره وضاعف اقتداره، إليّ وإلى آخرين غيري عام ٤٧٩ هـ بأن: ليقلّب كل منكم صفحات فكره ويتأمل: أيوجد ثمة شيء غير محمود على عهدنا، أو أنه جرى على غير شرطه، أو غام عن أعيننا وخفي علينا تنفيذه سواء في البلاط أم الديوان أم القصر أم المجلس؟ هل من أمر سار فيه الملوك قبلنا سيراً صحيحاً وفاتنا ذلك؟ أنعموا النظر في كل شيء من أنظمة الملك وقواعده وعادات الملوك في عهد ملوك السلاجقة السالفين. تأمّلوها جيّداً، وقيّدوها بجلاء، ثم اعرضوها علينا كيما ننظر فيها، ونأمر بأن تطبق الأمور الدينية والدنيوية بعد هذا وفق أصولها وقواعدها، ونعرف ما يمكن تلافيه، ونجري كل أمر على شرطه وقاعدته، ونقضي بتنفيذ أوامر الله تعالى وتطبيقها، ونتلافى – ما نستطيع – كل ما مضى من عمل سيئ، لأن الله تعالى وهبنا الدنيا وملكها، وأسبغ علينا نعمه كاملة، وقهر أعداءنا. يجب ألاّ يظل أي شيء بعد الآن في مملكتنا ناقصاً أو متزلزلاً، أو أن الأمور تسير فيها بخلاف الشرع وأوامر الله تعالى.

لذا عمدت – أي نظام الملك – إلى درج كل ما كنت أعرفه أو رأيته أو خبرته من تجارب في حياتي، أو تعلّمته من أساتذتي[٢] في الموضوع في هذا الكتاب في خمسين فصلاً ينطق فهرسها[٣] بموضوعات كل

(١) كذا، وقيل إن اسم نظام الملك حسن.

(٢) أستاذ (بالدال المعجمة) معرب كلمة «أستاد» (بالدال المهملة) الفارسية.

(٣) فهرس معرب (فهرست) الفارسية. وتكتب في العربية بشكلها الفارسي أحياناً.

منها، وأوردت في كل فصل ما يليق به من أخبار وحكايات من أقوال العظماء التي لا تبعث على الملل عند القراءة، بل تكون ألصق بالطبع وأقرب. إن في هذا الكتاب فوائد كثيرة، فمن يقرأه ويعمل بمقتضاه، ينل ثواب الدنيا والآخرة. ولقد ألفته لخزانة كتب السلطان المعمورة — عمّرها الله — وقدمته إليه، راجياً أن يحظى بقبوله وتأييده، إن شاء الله.

ليس لأي ملك أو حاكم مندوحة من اقتناء هذا الكتاب ومعرفة ما فيه، لاسيّما في هذه الأيام (عهد المؤلف)، فكلما قرأوه أكثر ازدادت درايتهم بأمور الدين والدنيا، واتسعت رؤيتهم في معرفة أحوال الصديق والعدوّ، وانفتحت أمامهم سبل تصريف الأمور وإدارتها، واتضحت لهم قواعد تدبير شؤون البلاط، والقصر، والديوان، والمجلس، والميدان، والأموال، والمعاملات، والعسكر[٤]، والرعية بحيث لا يظل في أرجاء المملكة شيء خافياً، صغيراً كان أم كبيراً، قريباً أم بعيداً، إن شاء الله تعالى[٥].

***

في البدء[٦]، ألف نظام الملك — نوّر الله قبره — هذا الكتاب بديهة من تسعة وثلاثين فصلاً مختصراً، وقدّمه، غير أنه أعاد النظر فيه بعد ذلك، فأضاف إليه، — لما كان يعتمل في صدره من ضغن على مخالفي هذه الدولة — ، أحد عشر فصلاً أخرى، وزاد على كل فصل ما يليق به ثم أعطانيه بعد خروجه للسفر، لكنني لم أجرؤ على إظهاره للناس، للحادث الذي وقع له — أي نظام الملك — على طريق بغداد وخروج الباطنية وإلحاقهم الأذى بالناس، إلا في الوقت الذي قويت فيه شوكة العدل والإنصاف والإسلام في ظل سيد العالم — خلّد الله ملكه — . أدام الله تعالى، بحقّ محمّد وآله، هذه الدولة إلى يوم القيامة.

---

(٤) لفظة «عسكر» معرب «لشكر» الفارسية.

(٥) أورد المؤلف بعد هذه الفقرة إلى بداية الفقرة التالية فهرس فصول الكتاب في حوالي ثلاث صفحات عزفت عن ترجمتها مثلما فعل الدكتور جعفر شعار الذي لم يثبتها في المتن، لأنها هي نفسها ستكون فهرس الموضوعات في آخر الكتاب.

(٦) هذه الفقرة الأخيرة ليست من مقدّمة المؤلف، بل إضافة من محمد المغربي كاتب السلطنة الخاص الذي أودعه نظام الملك الكتاب.

الفصل الأول

في أحوال الناس وتقلّب الأيام ومدح سلطان العالم(١)

- خلّد الله ملكه -

يتخيّر الله، تعالى، في كل عصر وزمان واحداً من بين خلقه فيضفي عليه فضائل الملك، ويزيّنه بها، ويكل إليه مصالح البلاد وراحة العباد، ويوصد به أبواب الفساد والاضطراب والفتنة، ويبث هيبته ووقاره في أعين الورى وأفئدتهم، ليقضي الناس أيامهم في ظل عدله ويعيشوا آمنين متمنين دوام ملكه.

فإذا ما بدا - والعياذ بالله - من العباد عصيان واستخفاف بالشريعة، أو تقصير في طاعة الله تعالى واتّباع أوامره، وأراد أن يعاقبهم ويجازيهم بأعمالهم- لا أرانا الله مثل هذه الأيام وجنّبنا هذا الإدبار- فإنّه تعالى يصبُّ عليهم جام غضبه وخذلانه بأن يحرمهم من ملك صالح يختطفه من بينهم، فتنشب الفتن، وتشرع السيوف، وتهرق الدماء، ويفعل الأقوياء ما يشاؤون إلى أن يهلك المجرمون والعاصون جميعاً في أتون تلك الفتن ونزيف الدم، ويخلو العالم منهم ويصفو. ولا مناص من أن يهلك - والحال هذه - عدد من الأبرياء بجريرة المذنبين، فحين تشتعل النار في «المقصبة» فإنها تلتهم اليابس كله وقسماً كبيراً من الأخضر، أيضاً، بالمجاورة.

ومن ثم فإن الله يختصّ، بقدرته الرّبانية، أحد عباده بالسعادة والملك، ويمنحه ما هو أهله من ثروة ونعمة، ويهبه عقلاً وعلماً وحكمة يرعى بها من هم في إمرته ويسيّرهم، كلاً بما يستحقّ. ثم يضع كلًّا منهم في المحل والمكان والعمل الذي يليق به ويصلح له. أما الوزراء والأكفياء من الرجال فيختارهم من وسط الرعية ويحلّهم الدرجات والمنازل الرفيعة، ويعتمد عليهم في المهام الدينية والدنيوية، ليجنب الرعية التي سلكت سبيل الطاعة وانصرفت إلى شؤونها وأعمالها الخاصة، المتاعب

(١) المقصود به ملكشاه السلجوقي.

والآلام، ليقضوا حياتهم في راحة وطمأنينة في ظل عدله. وإذا ما ظهر من أحد الوزراء والعمّال تقصير وتطاول فارتدع بعد تأديبه ونصحه ومجازاته، وسدر عن غيّه وصحا من غفوته، فلا بأس في الإبقاء عليه، وإلا يجب تنحيته واستبدال آخر لائق به.

وإذا لم يقدِّر فريق من الرعية النعمة والأمن والراحة والاستقرار حقّ قدرها، فسولت لهم نفوسهم بالخيانة والتمرُّد، وتجاوزوا حدودهم وأقدارهم يجب مؤاخذتهم وتقريعهم بقدر ذنوبهم ومجازاتهم ومعاقبتهم بقدر جرمهم، ثم العفو عنهم، وغض الطرف عما حدث.

أما شأن بالعمران فيجب شقّ القناوات، وإيجاد الجداول الجيدة النافعة، وإنشاء القناطر والجسور على الأنهار الكبيرة العظيمة، وإحياء القرى والمزارع وإعمارها، وإقامة الأسوار ، وتشييد المدن الجديدة، وتأسيس الأبنية الشامخة والمجالس البديعة، وإقامة الرُّبط على الطرق الرئيسيَّة، وبناء المدارس لطلاب العلم. فبهذا كله تخلَّد الأسماء إلى الأبد، وينال ثواب الآخرة ويتوالى دعاء الخير.

ولأن الله تعالى قضى أن يكون هذا العهد مثالاً لتواريخ العهود السالفة وزينة أعمال الملوك الماضين، وأن يهب الخلائق سعادة لم تكن لغيرهم من قبل، فقد أظهر سلطان العالم والملك الأعظم من أصلين باسقين، جمعا بالملك والسيادة كابراً عن كابر إلى «أفراسياب»[٢] الكبير، وأنعم عليه بمكارم وجلائل لم تكن لأحد قبله من ملوك الأرض وأسبغ عليه تعالى كل ما يحتاج إليه الملوك من : حسن الطلعة، والخلق الحسن، والعدل، والرجولة، والشجاعة، والفروسية، والعلم، والتمرّس بأنواع السلاح، والأخذ بكل الفنون، والشَّفقة والرَّحمة بعباد الله عزّ وجلّ، والوفاء بالنذور والوعود، والتمسّك بالدين الصحيح والاعتقاد السليم، والتفاني في طاعة الله تعالى، وتأدية الفضائل من مثل قيام الليل، والصِّيام تقرباً، واحترام علماء الدين وإكرام الزهاد والمتقين، واستمالة العلماء والحكماء، وبذل الصدقات في استمرار، والإحسان إلى الفقراء والدراويش، ومعاملة خدمه وعمّاله ومن هم تحت سلطته بالحسنى، وسجن الظالمين من الرعية. ولا جرم في أن الله تعالى وهبه الملك والسلطان جزاء وفاقاً لكفاءته وحسن اعتقاده، وسخَّر له الدنيا، وبثَّ هيبته وسلطته في جميع الأقاليم كي يؤدي الناس كلهم له الخراج، ويأمنوا سطوته بتقربهم إليه.

وفي حين أن عهود بعض الخلفاء ممن رزقوا بسطة في الملك والسلطان لم تخلُ في أي وقت من قلق

---

(٢) يرى عباس إقبال أن في هذا إشارة إلى انحدار السلاجقة من الأتراك، لأنه جاء في بعض الروايات أن الأتراك من أبناء أفراسياب (حاشية ٣ ص ٤).

وتخوف من خروج الخارجين والمنشقين، فليس في هذا العهد المبارك من أحد سوّلت له نفسه بعصيان وتمرد، أو شق عصا الطاعة. أدام الله هذه الدولة إلى يوم الدين وجنّبها حسد الحساد ليقضي الناس عمرهم في ظل عدل السلطان وحكمه داعين له بالخير.

تمشياً مع حال الدولة التي أسلفنا فقد كان لها من العلوم والرسوم والآداب الحميدة ما يناسبها، وبما أن العلم كالشمعة تنبثق منها الأنوار من كل جانب فقد خرج الناس بنور العلم من الظلمات إلى النور. ولم يحتج السلطان إلى أي مشير أو دليل، لكنه فكّر وقدر وأراد أن يمتحن الناس ويعرف ما هم فيه من عقل وعلم.

ولما كان السلطان أمرني بتقييد بعض الخلال الحميدة التي لا غنى للملوك عنها، وكل ما كان عليهم القيام به ولم ينجزوه، وما هو مقبول وغير مقبول، فقد جمعت، امتثالاً بالأمر الأعلى، كل ما رأيته وسمعته وعرفته وقرأته، ثم كتبت هذه الفصول التي يضم كل منها ما يناسبه بإيجاز وعبارة واضحة.

الفصل الثاني

في معرفة الملوك قدر نعمة الله تعالى

إن معرفة قدر نعمة الله تعالى تديم رضاه - عزّ اسمه- الذي يكون في الإحسان إلى الخلق، ونشر العدل بينهم. ففي دعاء الناس بالخير تثبيت للملك وازدهاره، ومدعاة لتمتّع الملك بسلطانه وملكه، فيكسب بهذا السمعة الحسنة في الدنيا، والفوز في الآخرة ويكون حسابه يسيراً، وقد قال علماء الدين: «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم». جاء في الأخبار أنه لما لاقى سيدنا يوسف (عليه السلام) وجه ربه، وأرادوا نقله إلى مقام سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لدفنه في جوار آبائه ثمّة، هبط جبرائيل (عليه السلام) وقال: «ادفنوه هنا، فليس مكانه هناك، لأنه يجب أن يُسأل يوم القيامة عن الملك الذي يديره». إن تكن هذه حال يوسف النبيّ فما بالك بالآخرين؟

وورد في الأثر عن النبي (ﷺ) أنه سيؤتى، يوم القيامة، بكل من كان له على الناس حكومة وسلطة مغلول اليدين، فإن كان عادلاً، فعدله هو الذي يفكّ قيده ويدخله الجنة، وإن كان ظالماً فجوره هو الذي يبقيه مكبلاً ويلقي به في النار.

وورد عنه (ﷺ) أيضاً أن كل من وكّل في الدنيا بأحد سواء من الناس أم من أهل بيته أم من هم تحت إمرته سيُسأل عنهم يوم القيامة مثلما يسأل الراعي عن غنمه.

***

يقال إن عبد الله بن عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما - سأل أباه وهو يُحتضر: «يا أبتِ، متى أراك؟» فأجاب: «في الدار الآخرة». فقال عبد الله: «أريد قبل هذا». قال عمر: «ستراني في المنام الليلة الأولى أو الثانية أو الثالثة». ومرت اثنتا عشرة سنة دون أن يراه، ولما رآه بعد ذلك قال له: «يا أبتِ ألم تقل أنني سأراك بعد ثلاث ليال؟». قال عمر: «كنت مشغولاً، إذ كانت قنطرة قد انهارت في سواد بغداد[1] فتوانى أولو الأمر في إعادة بنائها. ولما كان قطيع من الغنم يمر من عليها علقت رجل

---

(١) يرى عباس إقبال أن نسبة وقوع هذه الحادثة ببغداد في عهد عمر بن الخطاب غلط تاريخي، لأن بغداد بنيت عام ١٤٥هـ في عهد الخليفة المنصور(ص ٧، حاشية ٣).

شاة في أحد جحورها فانكسرت، ومنذ ذلك الوقت إلى الآن وأنا أجيب عن ذلك»[٢].

في الحقيقة، إن سلطان العالم يدرك أنه سوف يُسأل في ذلك اليوم العظيم عمن هم تحت إمرته، وأنه لن يسمع منه إذا ما أحال الأمر على شخص آخر. فما دام الأمر كذلك يجب عدم العهد بهذه المهمة لأحد، وعدم الغفلة عن شؤون الخلق، بل يجب الاستفسار عن أحوالهم في استمرار سرًّا وعلانيةً بقدر المستطاع، والقضاء على التطاول، وإنقاذ المظلومين من الظالمين كي تؤتي هذه الأفعال أُكلها في عهده، وتتوالى أدعية الخير له إلى يوم القيامة.

(٢) توجد هذه الحكاية بشكل آخر منقولة عن غير مصدر في «أخبار عمر وأخبار عبد الله ابن عمر» ص ٤٥٩ من جمع علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي. دار الفكر - بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٧٣.

الفصل الثالث

في جلوس الملك للمظالم والتحلي بالخصال الحميدة

لا بدّ للملك من الجلوس للمظالم يومين في الأسبوع لاستلال العدل من الظالمين، وإنصاف الرعية والاستماع إلى مطالبها، والبت في أهم الشكاوى التي تعرض عليه، وإصدار حكمه فيها. فما إن يشيع في المملكة بأن الملك يستدعي إليه المتظلمين وطلاب العدل يومين أسبوعياً ليستمع إلى مطالبهم وتظلماتهم، حتى يخاف الظالمون فيكفوا أيديهم عن الناس، ولا يجرؤ أحد على الظلم والتمادي خشية العقاب.

حكاية في هذا المعنى

قرأت في كتب المتقدمين أن أكثر ملوك العجم كانوا يقيمون دكّةً مرتفعة في العراء يقفون عليها ممتطين الجياد ليتمكنوا من رؤية جميع المتظلمين الذين كانوا يتجمعون هناك لإنصافهم. وكان سبب هذا أن الملك كان يجلس في مكان موصدة أبوابه، هو البلاط حيث «الدهاليز»[1] والحجب والحجّاب مما يمكّن ذوي الأهواء والظالمين من الحيلولة دون وصول المتظلم إليه.

حكاية أخرى

سمعت أن أحد الملوك كان ثقيل السمع، فكان يظن أن النقلة والحجّاب لا ينقلون إليه شكاوى المتظلمين في صدق ودقة مما كان يحمله على إصدار أحكامه وأوامره بخلاف مقتضيات الأمور. لذا أمر بوجوب ارتداء المتظلمين ثياباً حمراء على أن لا يرتدي غيرهم مثلها لكي يعرفهم. ثم كان يجلس على فيل في الصحراء وينادي كل من يراه بثوبه الأحمر إلى أن يجمعهم كلهم، ثم يجلس وحيداً، ويستدعيهم واحداً واحداً مستفسراً عن أحوالهم بصوت عالٍ، ويقضي بإنصافهم.

لقد اتخذوا كل هذه الاحتياطات ابتغاء الدار الآخرة، ولئلا يظل شيء خافياً عليهم.

---

(١) جمع دهليز، والكلمة فارسية الأصل.

يعقوب بن اللّيث وخليفة بغداد

كان من جملة السامانيين أمير يدعى إسماعيل بن أحمد الذي كان عادلاً[٢] جداً، وصاحب خصال حميدة، منها: الاعتقاد الخالص بالله عزّ وجلّ، والإحسان إلى الفقراء. وكان إسماعيل هذا أميراً على بخارى، وكانت خراسان والعراق وما وراء النهر كلها في حوزة آبائه.

ومن مدينة سجستان خرج يعقوب بن الليث واستولى على كل سجستان[٣]، ثم مضى إلى خراسان واستولى عليها، وتوجّه منها إلى العراق واستولى عليها جملة. ويقال إن الدعاة[٤] خدعوه فبايع الإسماعيلية سراً، وضغن على الخليفة[٥] ببغداد، ثم جمع عساكر خراسان والعراق وتوجّه إلى بغداد للقضاء على الخليفة وتقويض أركان البيت العباسي.

لما بلغ الخليفة خبر توجّه يعقوب إلى بغداد أرسل إليه يقول: «لا شأن لك ببغداد، فمن الصواب أن تحتفظ بمناطق العراق الجبلية وخراسان وتتصرف بها كيلا تنشب الفتن والاضطرابات؛ فلتعد». لكنه لم يصدع للأمر، وقال: «لن أعود ما لم أحقق أملاً يراودني، هو القدوم إلى البلاط والمثول بين يديكم، وتجديد العهد لكم».

وعلى الرغم من كثرة رسل الخليفة إلى يعقوب فإنه لم يحد عن جوابه الأول، بل جمع العساكر واتجه صوب بغداد. وظنَّ الخليفة به ظن السوء، واستدعى عظماء العاصمة بغداد، وقال: «أرى أن يعقوب ابن الليث شق عصا الطاعة، وهو إنما يجيء إلينا في خيانة، لأننا لم نستدعه، إنه يتقدم وأنا آمره بالعودة، لكنه لا يعود. إنه يضمر خيانة على أيّة حال، وأحسب أنه بايع الباطنية، لكنه لن يظهر هذا قبل وصوله إلى هنا. علينا ألا نكون في غفلة من اتخاذ الحيطة والحذر. فماذا أنتم قائلون؟». فاتفقوا على أن يخرج الخليفة من المدينة إلى الصحراء ومعه خاصته وجميع حشمه وأعيان بغداد ويعسكر فيها. فإن كان يعقوب يضمر العصيان فلن يوافقه جميع أعيان خراسان والعراق وقادة جيوشهما، أو يرضوا عما يراود فكره، وإذا ما أعلن العصيان فلا مندوحة لنا من حيلة نستميل بها جيشه إلينا. فإذا فشلنا في هذا وعجزنا عن الصمود في قتاله، ستكون الطريق أمامنا ممهدة نستطيع أن نمضي معها إلى

---

(٢) لهذا كان يلقب في حياته بالأمير العادل.

(٣) سجستان معرب «سيستان» وهو اسم للولاية ومدينتها أيضاً (معجم البلدان).

(٤) يعني دعاة الإسماعيلية (عباس إقبال: حاشية ١ ص ١١)، ويرى إقبال أن دعوى انضمام يعقوب بن الليث إلى الإسماعيلية ومبايعته إياهم ليست سوى تهمة، لأنه لم يرد شيء في هذه المسألة في المصادر الموثوقة.

(٥) أي الخليفة المعتمد على الله العباسي (٢٥٦ - ٢٧٩هـ).

الجهة التي نريد، لأننا لن نكون أسرى محصورين بين أربعة جدران. وأعجبت أمير المؤمنين الخطة، فنفذوها. وكان أمير المؤمنين المعتمد على الله أحمد.

لما وصل يعقوب، نزل قبالة معسكر الخليفة وعسكر هناك، فاختلط العسكران معاً. وفي اليوم نفسه أعلن العصيان وأرسل إلى الخليفة يقول: «سلّم بغداد، وامض إلى حيث تشاء». فاستمهله الخليفة شهرين فأبى، ولما أرخى الليل ستوره بعث الخليفة رسولاً إلى جميع قادة جيش يعقوب يقول: «لقد أعلن يعقوب عصيانه وانضم إلى الشيعة، وما جاء إلى هنا إلاّ لتقويض أركان ملكنا، والقضاء علينا، وإحلال أعدائنا ومخالفينا محلنا. أتقرونه على هذا أم لا؟». فقال فريق: «إنه مصدر رزقنا وكل ما نحن فيه من جاه ونعمة وعظمة. سنفعل ما هو فاعل». وقال الغالبية: «لا علم لنا بما يقول أمير المؤمنين وما كنا نحسب أن يعقوب سيخالفه أبداً، أما وقد فعل، فلا نوافقه بأيّة حال، وعند اللقاء فنحن معك لا معه. سنقاتل إلى جانبك وننصرك». وكان هؤلاء أمراء خراسان.

سُرَّ الخليفة لـمّا سمع جواب قادة يعقوب على هذا النحو، فأرسل إليه في اليوم التالي برباطة جأش يقول: «الآن أبديت كفران النعمة، فخالفتنا وانحزت إلى مخالفينا. السيف بيني وبينك. لا تخيفني قلة جندي وكثرة عسكرك، فالله – عزّ وجلّ – ناصر الحق معي. وذاك الجيش الذي تملك جيشي ثم أمر جيشه بارتداء السلاح. فتهيّأوا للقتال، وأعلنوا النفير، وخرجوا من معسكرهم واصطفُّوا في الصحراء. لما سمع يعقوب رسالة الخليفة على ذلك النحو، قال: «الآن أدركت بغيتي». ثم أمر هو بإعلان النفير أيضاً. وامتطى عسكره خيولهم ومضوا إلى الصحراء مجهّزين، واصطفوا إزاء جيش الخليفة. وجاء الخليفة من الجانب الآخر وتمركز في «القلب» في حين كان يعقوب في الجانب المقابل. ثم أمر الخليفة رجلاً قوي الصوت أن يقف بين الصّفين، ويقول بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين، اعلموا أن يعقوب بن اللّيث أعلن العصيان، وأن غرضه من المجيء إلى هنا القضاء على بني العباس، والمجيء بمخالفيهم مكانهم، ثم تنحية أهل السنة جانباً، وإظهار البدعة. إنَّ من يخالف الخليفة إنّما يخالف رسول الله عزّ وجلّ، وإن من يخرج عن طاعة رسول الله عليه السلام إنما يخرج عن طاعة الله وعن حوزة المسلمين. والله، عزّ وجلّ، يقول في محكم كتابه العزيز: ﴿أَطِيعُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٦]. والآن من ذا الذي يؤثر منكم الجنة على النار، وينصر الحق، ويدير للباطل ظهره فيكون معنا لا مع مخالفنا؟».

لما سمع عسكر يعقوب بن اللّيث هذا الكلام، خرج أمراء خراسان دفعة واحدة واتجهوا صوب

---

(٦) النساء: آية ٥٩.

الخليفة، وقالوا: «ظننا أنه إنما كان يجيء للمثول بين يديكم امتثالاً للحكم والأمر والطاعة. أما وقد أظهر التمرد والعصيان الآن، فنحن معك نحارب إلى جانبك حتى الرمق الأخير».

ولإحساس الخليفة بقوته أمر الجند، بأن يحملوا جملة. فكسر يعقوب من أول حملة، وانهزم باتجاه خوزستان، واستولى جيش الخليفة على معدّاته ومعسكره ونهبوها، فأثروا بما غنموا. ولما وصل يعقوب إلى خوزستان بعث رسلاً إلى كل النّواحي والأطراف في طلب العساكر والعمال يأمرهم بإحضار ما في خزائن خراسان والعراق من أموال ومن فضة وذهب.

ولما بلغ الخليفة خبر مقام يعقوب بخوزستان أرسل إليه في الحال رسولاً برسالة تقول: «تبيّن لنا أنك رجل طيب القلب، غير أنك خدعت بأقوال المخالفين دون أن تفكّر في عواقب الأمور. أو لم ترَ أن الله تعالى فعل فعلته، فهزمك وجندك وصان آل بيتنا وحماهم؟ إن ما حدث لم يكن سوى سهو خفي عليك، إنني لعلى يقين بأنك قد صحوت الآن من غفوتك، وندمت على فعلتك. ليس ثمة من هو أجدر منك بإمارة العراق وخراسان، ولن نقدّم عليك أحداً لما لك علينا من حق خدمات كثيرة تغفر لك ما ارتكبته من خطأ. فبما أننا غضضنا الطرف عن فعلتك كأنّ شيئاً لم يكن، فما عليك إلا أن تنسى الموضوع وتمضي في أسرع وقت إلى العراق وخراسان وتتسلم أمور الولاية هناك، وسأرسل إليك العهد واللواء والخلعة في أثر هذه الرسالة كيلا يكون ثمة أي اضطراب أو فتنة».

لما قرأ يعقوب الرسالة لم يلن قلبه قط، ولم يندم على فعلته، لكنه أمر بإحضار شيء من كرّاث وسمك وبصل على طبق من خشب، ثم بإدخال رسول الخليفة وإجلاسه. بعد ذلك التفت إليه، وقال: «اذهب وقل للخليفة، أنا ابن صفّار تعلمت الصفارة عن أبي. كان طعامي خبز الشعير، والسمك والبصل، والكراث، أما الملك والكنوز والثروة فنلتها بجدي وجهدي وشجاعتي، لا إرثاً عن أبي، ولا هبة منك. إنه لن يقر لي قرار ما لم أبعث برأسك إلى «المهدية»[٧] وأقضِ على آلك. فإمّا أن أنفذ ما قلت، وإما أن أبقى على ما أنا فيه من أكل خبز الشعير والسمك والبصل. لقد فتحت الكنوز واستدعيت الجيوش، وهأنذا قادم في أثر هذا الرسول وهذه الرسالة». وبعث برسول الخليفة. وعلى الرغم من كثرة ما أرسل الخليفة من رسائل إلى يعقوب، فإنه لم ينثنِ عن عزمه أو يتراجع عن مطلبه،

(٧) المهدية: يرى عباس إقبال (ص ١٣. هامش ١) أن المقصود بالمهدية هنا عاصمة العلويين من الفاطميين في أفريقية (تونس الحالية) التي بناها عبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي عام ٣٠٣هـ. ويرى أن نسبة هذا القول إلى يعقوب بن الليث في نزاعه مع الخليفة المعتمد في حدود عام ٢٦٢ هـ من أغلاط المؤلف التاريخية. وهذا نفسه يقوم دليلاً على عدم نسبة يعقوب إلى الإسماعيلية ودخوله في هذا المذهب. يراجع في المهدية أيضاً: معجم البلدان.

إنما جمع الجيوش، واتجه بها من خوزستان إلى بغداد، ولم يكد يقطع من الطريق سوى مراحل ثلاث حتى أصابه مغص أوصله إلى حال أيقن معها أن لا خلاص له فيها من الألم. فعهد بولاية العهد إلى أخيه عمرو بن اللَّيث وسلَّمه «ثبت الكنوز» ثم أسلم الروح.

وعاد عمرو من هناك متجهاً صوب مناطق العراق الجبلية، ومكث فيها مدة ثم مضى منها إلى خراسان، وملكها جميعاً باقياً على طاعة الخليفة. كان الجيش والرَّعية يحبون عمراً أكثر من يعقوب، لأنه كان عالي الهمة معطاء، وسياسيًّا يقظاً. ولقد بلغت مروءته وسخاوته حداً أن مؤن مطبخه كانت تحتاج إلى أربعمائة بعير لحملها، وقس على هذا. أما الخليفة فكان يخشى أن ينهج عمرو نهج أخيه ويفعل ما فعل، ومع أن عمراً لم يكن يدور بخلده شيء من هذا القبيل، إلا أن الموضوع كان يشغل تفكير الخليفة الدائم، فكان يرسل إلى إسماعيل بن أحمد ببخارى في استمرار أن: «اخرج واحمل بجيشك على عمرو بن الليث، وخلّص الملك منه. إنّك أحقّ بإمارة خراسان والعراق اللذين كانا ملك آبائك سنوات عدّة بعد أن استولوا عليهما عنوة، وإنّك صاحب الحق أولاً، وخصالك حميدة ثانياً، وأنا أدعو لك ثالثاً. ولست أشك، لهذه الأسباب الثلاثة، في أن الله تعالى سينصرك عليه. لا تنظر إلى قلّة عددك وجيشك، بل انظر إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٨]».

أثَّر كلام الخليفة في نفس إسماعيل بن أحمد، فعقد العزم على الانتفاض على عمرو بن الليث. ثم جمع ما كان لديه من جيوش وعبر به نهر«جيحون» لهذا الغرض، وأخذ يعد الجند بطرف سوطه فبلغوا عشرة آلاف كانت ركائب أكثرهم خشبية، حتى إنه لم يكن ثمة ترس واحد مع كل عشرة منهم، ولا درع واحد مع كل عشرين، ولا سهم واحد مع كل خمسين. أما من كان منهم بغير مطية فكان يربط درعه بحلقة سَرْج حصان آخر. ثم مضى بهم من مدينة «آموي»[٩] إلى بلخ.

لما أخبر عمرو بن الليث - الذي كان آنذاك بنيسابور- بعبور إسماعيل بن أحمد جيحون ووصوله إلى بلخ في طلب الملك، وبفرار شحنة سرخس ومرو، جهَّز سبعين ألف رجل بكامل أسلحتهم وعددهم ومضى بهم إلى بلخ. ولما تقابل الجيشان واشتبكا معاً هزم عمرو بن الليث عند مشارف بلخ، وفرّ جنوده جميعهم دون أن يجرح أحد منهم أو يؤسر. أما عمرو نفسه فوقع في قبضة

(٨) البقرة: الآية ٢٤٩.

(٩) آمو (بضم الميم وسكون الواو): «هي مدينة آمل الشط» يقولها العجم هكذا على الاختصار والعجمة. ومن أسمائها أيضاً «أموية». كان بينها وبين بخارى سبعة عشر فرسخاً (معجم البلدان).

خصومه الذين ما إن اقتادوه إلى إسماعيل حتى عهد به إلى الحرس. وهذا النصر من عجائب الدنيا[١٠].

وحين كان أحد فرّاشي عمرو بن الليث السابقين يتجول في المعسكر عصراً وقعت عينه عليه فتألم وتقدم نحوه. فقال له عمرو: «لقد تركت وحيداً، فابقَ معي الليلة»، وقال: «إنني جائع، فهل لك أن تهيئ لي شيئاً آكله إذ لا غنى للإنسان عن الطعام ما دام حياً». واستطاع الفرّاش أن يحصل على «منٍّ» من اللحم، ثم استعار مقلاة حديدية من الجنود، وأخذ يدور في كل جانب إلى أن جمع كمية قليلة من روث الحيوانات الجاف، ثم نصب ثلاث أثافي، ووضع عليها المقلاة ليقلي اللحم، وتركها ومضى في طلب شيء من الملح، وكان النهار في أخرياته، فإذا بكلب يسطو على المقلاة لانتشال ما فيها فلذعت فمه. ولما رفع رأسه علقت حلقة المقلاة بعنقه، ففرّ بها من شدة الألم. لما رأى عمرو بن الليث هذا المنظر التفت نحو الجند والحراس، وقال: «لتعتبروا! فأنا الذي كان يحمل مؤن مطبخي أربعمائة بعير كل صباح صرت إلى حال ينهب فيها كلب ما لديّ في لحظة ليلاً»، وقال: «أصبحت أميراً وأمسيت أسيراً». وهذه من عجائب الدنيا أيضاً.

قصة عمرو بن الليث

أعجب من هذه الحال أيضاً، ما كان من أمر الأمير إسماعيل وعمرو بن الليث الآتي، فلمّا أُسِر عمرو التفت إسماعيل نحو العظماء، وقال: «إن الله عزّ وجلّ، هو الذي وهبني هذا النصر، وليس لأحد سواه، عزّ اسمه، من فضل عليّ في هذه النعمة»، وقال أيضاً: «اعلموا أن عمرو بن الليث كان رجلاً عالي الهمة معطاء، كثير السلاح والعدة، صاحب رأي وتدبير، يقظاً في كل شيء وكريماً عارفاً للحق. إنني أرى أن أسعى جاهداً لإنقاذ حياته وفكاكه من الأسر». فقالوا: «الرأي ما يراه الأمير يقضي بما يراه مناسباً». فأرسل إسماعيل إلى عمرو بن الليث يقول: «ليهدأ بالك فإنني بصدد الشفاعة لك لدى الخليفة لإنقاذ حياتك، ولن أبالي في أن أنفق كل ما في خزينتي في هذا السبيل لتقضي بقية عمرك سالماً».

لما سمع عمرو بن الليث هذا الكلام قال: «إنني أعلم أن لا خلاص لي من هذا الأسر أبداً، وأنه لم يبقَ من العمر إلا أقله، وأن الخليفة لن يرضى بغير موتي بديلاً. لكن أرسل أنت يا إسماعيل شخصاً ثقة أفضي إليه بما لدي من كلام، على أن ينقل إليك ما يسمع مني». فعاد رسول الأمير إسماعيل

(١٠) يرى عباس إقبال أن هذه الرواية بالأسطورة أشبه، فإما أن جيش إسماعيل كان أكثر عدداً من جيش عمرو فتمكن من حصاره فيها، أما أن أحداً لم يجرح أو يؤسر من جيش إسماعيل فغلوّ وإغراق. (ص ١٧، هامش ٦).

وأخبره بكل ما قيل، فأرسل إسماعيل إلى عمرو بن الليث شخصاً معتمداً في الحال، فقال له عمرو: «قل لإسماعيل: إنك لم تهزمني، بل إن تديُّنك، واعتقادك وحسن سيرتك، وعدم رضى أمير المؤمنين عني، هي التي هزمتني. إن الله، عزّ وجلّ، هو الذي سلبني الملك من جديد، ووهبك إياه، وأنت بهذه الهبة والنعمة والخيرات جدير. أما أنا فقد قبلت قضاء الله، عزّ وجلّ، وحكمه، ولا أبغي لك سوى الخير. لقد صرت الآن إلى ملك جديد دون أن تكون لك خزائن وثروة، في حين أن لي ولأخي كنوزاً ودفائن كثيرة، معي ثبت بها جميعاً، وقد وهبتك إياها كلها لتكون لك ثروة تقوي بها نفسك وتهيئ ما تحتاج إليه من عدة وعتاد، وتملأ خزائنك». ثم أخرج «الثبت» من كمّه وناوله الرسول ليعطيه إسماعيل. فلما جاء الرَّسول إلى إسماعيل، وأعاد على مسامعه كل ما سمع ووضع «الثبت» أمامه، التفت إسماعيل نحو وجهاء القوم، وقال: «إن عمرو بن الليث يريد بحنكته وذكائه أن يحرز قصب السبق على الأذكياء فيوقعهم في الفخ ويبتليهم بمحنة أبدية». ثم تناول «الثبت» وألقى به أمام الرسول، وقال: «أعده إليه، وقل له: إنك تريد بما أنت فيه من جلد وذكاء أن تحرز قصب السبق على الجميع. أنّى لك ولأخيك هذه الكنوز؟ فوالدكما كان صفّاراً، وقد ثقفتما هذه المهنة عنه. أما المُلْك، فشاءت الأقدار أن تصلوا إليه عنوة وتفقدوه تهوراً، وأما كنوز الذهب والفضة فليست سوى ما سلبتموه من الناس ظلماً ودون حق. إنها من أثمان ما يغزل الشيوخ والأرامل من النساء، ومن أقوات الغرباء والمسافرين، وأموال اليتامى والضعفاء. وسوف تُسألانَ غداً أمام الله، عزّ وجلّ، عن كل صغيرة منها وتتحملان وحدكما عقاب الله وعذابه. إنك تريد الآن بذكائك ومكرك أن تلقي على كاهلنا بكل هاتيك المظالم، حتى إذا ما جاءكما الخصوم يوم القيامة يسألون ما أخذ منهم غصباً، تقولان لهم: «أعطينا إسماعيل كلّ ما غصبناه منكم، فاسألوه عنه، فتحيلانهم عليّ جميعاً، ولا طاقة لي آنذاك على جوابهم، وعلى غضب الله عزّ وجلّ، وسؤاله». وردَّ «الثبت» إليه خشية من الله تعالى، ولما كان عليه من تديّن، ولم تغرّه الدنيا الغرورة[١١].

فأين من هذا صنيع ولاة هذا الزمان الذين لا يخشون، لدينار حرام واحد، من أن يحلوا عشرة محارم، ويجعلوا عشرة حقوق باطلاً، دون النظر في العواقب؟!

(١١) يرى عباس إقبال أن هذه الحكاية من أولها إلى آخرها أشبه بالأسطورة منها بالحادثة التاريخية. فقد جاء في المصادر التاريخية الموثوقة أن إسماعيل طلب من عمرو عشرين ألف ألف دينار مقابل إطلاق سراحه، ثم تنازل في النهاية إلى نصف المبلغ. وبما أن أصحاب عمرو لم يرسلوا المبلغ من سجستان فقد ظل رهين الأسر إلى أن سلمه إسماعيل إلى عمال الخليفة في سمرقند (ص ٢٠ - حاشية٣).

عدل إسماعيل الساماني

كان من عادة إسماعيل بن أحمد أن يركب وحيداً في اليوم البارد جداً الذي تتساقط فيه الثلوج بكثرة، ويمضي إلى الميدان، ويظل ممتطياً صهوة جواده إلى صلاة الظهر . وكان يقول: «رُبَّ متظلم لا سكن له أو نفقات يرغب في المجيء إلى القصر في حاجة له، لكنه لا يستطيع الوصول إلينا بسبب البرد والثلج، فينثني عن المجيء ويبقى حيث هو. وإذا ما جاء فإنه يتكبد مشاق كثيرة. أما إذا ما علم بوقوفنا هنا، فسيجيء لا محالة، فتقضى له حاجته، ويعود بالسلامة» .

وثمة حكايات كثيرة من هذا القبيل لم يذكر إلا قليلها، ولم يكن الحذر ولا الحيطة فيها إلا خشية جواب سؤال الدار الآخرة.

الفصل الرابع

في عمّال الخراج والتقصي الدائم لأحوالهم وأحوال الوزراء

يجب أن يوصى عمّال الخراج بأن يحسنوا معاملة خلق الله تعالى، وألا يحصّلوا منهم سوى ما يترتب عليهم من أموال، حتى هذه يجب المطالبة بها برفق وأدب، وألا تؤخذ منهم قبل جني المحاصيل والثمار، لأنّ في تحصيلها قبل الأوان إرهاقاً للزُّراع وتضييقاً عليهم يضطرهم إلى بيع محصولاتهم قبل أوان نضجها بنصف الثمن، وفي هذا من الظلم والجور ما فيه. وعلى عمال الخراج أن يقرضوا كل من يحتاج من الناس إلى البذار والأبقار مالاً يسدّ به حاجته، ويقضي به عوزه ليظل في حبور وطمأنينة، ويبقى في أرضه ووطنه لا يغترب عنهما.

حكاية في هذا المعنى

سمعت أنه لما حلّ القحط، الذي دام سبع سنوات، في عهد الملك قباذ، وانقطعت خيرات السماء، أمر عماله ببيع ما كان لديهم من غلأت، والتصدق ببعضها، ومساعدة الفقراء من الخزينة وبيت المال، حتى إنَّ شخصاً واحداً لم يمت جوعاً في أرجاء مملكته في تلك المدة. علة هذا تحريه لعماله ومتابعته لهم وتوجيههم وتقريعهم.

***

ينبغي الاستفسار الدائم عن كل عامل، وتقصّي أخباره، فإن كان يسير على النحو الذي ذكرنا فليحتفظ به، وإلا فليستبدل آخر مناسب به. وإن كان غصب الناس شيئاً دون حق يجب استرداده منه وردّه إلى من غصبه منهم، ثم مصادرة ما يتبقى لديه من مال وتحويله إلى الخزينة، وعزله بعد ذلك على ألا يسند إليه أي عمل البتّة ليكون عبرة للآخرين من المتطاولين واللصوص.

ويجب الاستفسار عن أحوال الوزراء سراً لمعرفة ما إذا كانوا يسيِّرون الأمور على النحو الصحيح أم لا، لأن صلاح الملك والمملكة أو فسادها منوطة بهم. فباستقامة الوزير وحسن مسلكه إعمار

للمملكة وتقدمها، وإسعاد للرعية والجيش ورفاههما، وراحة الملك واطمئنانه؛ وبانحراف الوزير يتسرب التصدع، الذي لا يمكن رأبه، إلى المملكة، فتككفظل في اضطراب دائم، ويظل الملك حيران مضطرباً.

بهرام جور والوزير الخائن

يقال إنه كان لبهرام جور وزير يدعى«راست روشن» اعتمد عليه وسلمه كل مقاليد المملكة، ولم يكن يلتفت لكلام أحد فيه. أما هو نفسه فكان يجري ليل نهار وراء ملذاته من تنزه وصيد وشراب. وحدث أن قال راست روشن لوكيل بهرام جور مرة: «إن الرَّعيّة أخذوا، لكثرة عدلنا، يتجرؤون علينا ويتمادون. فإذا لم يعاقبوا فإنني أخشى، والملك في شغل بالشراب والصيد عن شؤون الرعية، أن يحدث ما لا تحمد عقباه. فلتعاقبهم أنت إذاً قبل أن يفسدوا، وعقابهم إنما يكون بأحد أمرين: أحدهما التخلص من الأشرار، والآخر غصب أموال الأخيار والفضلاء. ولتقبض على من أشير عليك به. وأخذ راست روشن، كلما قبض وكيل بهرام على أحد وحبسه، يتدخل شخصياً ويأخذ منه رشوة، ويقول للوكيل: «أطلق سراح هذا» إلى أن نهبوا كل ما كان لدى الناس من أموال وخيول وغلمان وجوار وأملاك وضياع فأفقرت الرعية، وشتت الفضلاء والمشاهير، ولم يعد يدخل الخزانة من شيء.

بعد مضي مدة على هذا، طلع لبهرام جور أحد أعدائه، فأراد أن يصل جيشه بصلاتٍ وهباتٍ ويقويه، ثم يوجهه لمقابلة عدوه، لكنه لما صار إلى الخزانة لم يجد فيها شيئاً. ولما سأل مشاهير المدينة ورستاق البلاد ورؤسائها، قالوا: «لقد ترك فلان وفلان ممتلكاتهم وثروتهم منذ سنوات، ومضوا إلى الولاية الفلانية». فقال: «لماذا؟» قالوا: «لا ندري» ولم يجرؤ أحد على أن يقول له الحقيقة خوفاً من الوزير.

وقضى بهرام جور يومه وليلته تلك يفكر في الأمر، لكنه لم يستطع الاهتداء إلى مواطن الخلل. فركب في اليوم التالي، لقلقه واضطرابه، إلى الصحراء وحيداً، وراح يقطعها بالتفكير حتى إنه لم يدر كيف أن الشمس توسطت كبد السماء، وكيف أنه قطع ستة أو سبعة فراسخ. واشتد عليه الحر وغلبه العطش، فاحتاج إلى جرعة ماء. ولما مدَّ بصره في الصحراء رأى دخاناً يتصاعد من بعيد، فقال: «لا بدّ من وجود أناس هناك». واتجه نحوه، فلما دنا من المكان ورأى قطيعاً هاجعاً من الغنم، وخيمة مضروبة، وكلباً معلّقاً، تملكه العجب. واقترب من الخيمة، فخرج منها رجل سلم عليه وحيّاه، وأنزله من على فرسه، وقدّم إليه ما كان يحضّره من طعام دون أن يعرف أنه بهرام. فقال بهرام: «أخبرني عن أمر هذا

الكلب قبل أن أتناول الطعام لأكون على بيّنة منه». فقال الشاب: «كان هذا الكلب أميني على غنمي، وكنت أعلم أنه يستطيع لقدرته أن يطاول عشرة رجال ويتغلب عليهم، وأن أي ذئب لم يكن يجرؤ أن يحوم حول القطيع خوفاً منه، حتى إنني كنت أذهب إلى المدينة مرات عدّة في شغل لي وأعود في اليوم التالي، وكان هو يرعى الغنم ويعود بها سالمة. ومضت على هذه الحال مدة فلما عددت الغنم يوماً وجدتها ناقصة، ثم تبين لي أن عددها أخذ يتناقص تدريجياً كل عدة أيام، ولم أستطع أن أفهم علة هذا في حين أنه لا وجود للصوص هنا. لقد وصلت الحال بالقطيع في تناقصه إلى حد أن عامل الضرائب جاءني وأراد - مثلما هي العادة - ضرائب القطيع كله، فدفعت كل ما تبقى منه ضرائب، والآن أنا راع لذلك العامل. ما حدث أن الكلب صادق ذئبة ثم تزوجها وكنت في غفلة من أمره.

ذات يوم خرجت للاحتطاب، وسلكت في عودتي طريقاً خلف مرتفع كان يطلُّ على القطيع، فرأيته يرعى، وإذا بذئبة تعدو نحوه. حينئذٍ اختفيت خلف أجمة شوك، فلما رأى الكلب الذئبة هرع إليها وهز ذنبه، فوقفت في هدوء، ووثب على ظهرها، وقضى منها وطره ثم انتحى جانباً ونام، في حين راحت هي تصول وتجول في الغنم، فقبضت على شاة وافترستها دون أن ينبح الكلب أو يبدي حراكاً. لما رأيت موقفه من الذئبة أدركت أن مصدر بلائي لم يكن سوى تواطؤ الكلب وانحرافه، فقبضت عليه وعلّقته بخيانته.

عجب بهرام جور لهذا الحديث، وقطع طريق عودته يفكر في الأمر، فانتهى به تفكيره إلى أن: «رعيتنا هي قطيعنا ووزيرنا هو أميننا! إنني لأرى أمور المملكة في اضطراب وأحوال الرعية في اختلال، وإنني كلما أسأل أحداً لا يصدقني القول، ويخفي الحقيقة عني. الحل أن أحقّق في أحوال الرعية وراست روشن».

لما عاد إلى مقرّه، كان أول ما فعله أن طلب لوائح المسجونين اليومية، فكانت كلها من فجائع راست روشن وجرائمه. فأيقن آنذاك أن الرجل لم يسس الناس بالحق، بل سامهم ظلماً وخسفاً، ثم قال:

«هو ليس «راست روشن»[1] ! إنه كذب وظُلمة، وقال مستشهداً بأحد الأمثال: الحق ما قالت الحكماء من أن «الجوع مصير كل من تخدعه شهرته، ويركب غروره بها، والعدم مصير كل من يخون الخبز الذي يأكله مع الآخرين». أنا الذي شددت أزر هذا الوزير كي يراه الناس بهذا الجاه والعظمة، لكنهم لا يجرؤون الآن على أن يفضوا إليّ بما في نفوسهم خوفاً منه. لا بدَّ لي من أن أقبض عليه حين

---

(١) معنى كلمة «راست» الفارسية: صحيح، و«روشن»: منير، مضيء.

يأتي إلى القصر غداً، فأبدِّد حرمته وجلاله على مرأى وجهاء البلاد وعظمائها، وآمر بغلِّه في الأغلال الثقيلة. ثم أستدعي السجناء وأسألهم عن أحوالهم، وآمر من ينادي في الناس: «لقد نحينا راست روشن عن الوزارة، وقبضنا عليه وحبسناه، ولن نعيده إلى العمل؛ فعلى كل من ألحق به أذى، أو لديه شكاية عليه أن يأتِ إلينا، ويطلعنا على حاله بنفسه، لننصفه منه». ولا بدَّ أن الناس سيخبروننا بكل شيء بعد سماع هذا، فإن يكن سلوكه مع الناس حسناً حميداً، ولم يغصب منهم مالاً، بل شكروه وأثنوا عليه، سأحسن معاملته وأعيدهُ إلى منصبه، وإلا فسأعاقبه وأقتص منه».

في اليوم التالي، جلس بهرام جور للناس وجلس العظماء في المقدِّمة، ودخل الوزير واتخذ مكانه. فالتفت بهرام جور نحوه، وقال: «ما هذا الاضطراب الذي أوجدته في المملكة، فقد أبقيت الجيش دون سلاح ومؤونة، وأفقرت الرعية؟! لقد أمرناك أن توصل أرزاق الناس إليهم في أوقاتها، وألاَّ تغفل عن إعمار البلاد، وألا تحصِّل من الناس إلا ما يترتب عليهم من خراج، وأن تملأ الخزانة. لكننا الآن لا نرى سوى خزينة خالية، وجيش دون عتاد ومؤونة، وأنقاض رعية! لقد ظننت أنني شغلت بالشراب والصيد، وأهملت شؤون المملكة، وأحوال الرعية». وأمر بتنحيته دون أن تراعى له حرمة، فاقتيد إلى حجرة، ووضعت الأغلال في قدميه. ووضِع على باب القصر منادياً، يقول: «إن الملك عزل راست روشن عن الوزارة، وغضب عليه، ولن يولِّيه أي عمل بعد، فمن كان قد أوذي منه، أو أن لديه شكوى عليه، فليأت إلى القصر دونما خوف أو وجل للإفصاح عن حاله بنفسه لكي ينصفه الملك». ثم أمر بفتح أبواب السجن حالاً، وجيء إليه بالسجناء واحداً واحداً، وكان يسألهم: «بِمَ سجنت؟». قال أحدهم: «كان لي أخ ثري، وكانت له أموال وخيرات جمة، قبض عليه راست روشن وسلبه كل أمواله وعذبه إلى أن مات. ولما سألوه: لماذا قتلت هذا الرجل؟. قال: كانت له مع أعداء الملك مراسلات». ثم حبسني كي لا أشكوه وأتظلم منه، وكي تظل هذه المسألة طيّ الكتمان.

وقال آخر: «كانت لي مزرعة جميلة جداً ورثتها عن والدي، وكانت لراست روشن ضيعة بجوارها، ولما دخل مزرعتي يوماً راقت له، فأراد أن يشتريها، لكنني لم أبعه. فقبض عليّ وحبسني بحجة: «إنك تحب ابنة فلان، فثبتت عليك الخيانة. تخلَّ عن هذه المزرعة واكتب بنفسك إقراراً ينص على أنه: لا حق لي في هذه المزرعة، وهي ملك راست روشن»، غير أني لم أفعل؛ واليوم تمر خمس سنوات على سجني».

وقال آخر: «إنني تاجر كنت أجوب الآفاق برًّا وبحراً، وكنت أشتري بما لديّ من مال ما أجده في أية مدينة من نوادر الأشياء، وأبيعه في مدينة أخرى قانعاً بربح قليل. واتفق أن وقعت على عقد لؤلؤ عرضته للبيع لما جئت هذه المدينة. فلما بلغ الوزير الخبر أرسل إليّ يطلبني، فاشترى العقد مني،

وأرسله إلى خزانته دون أن يدفع ثمنه. ترددت عليه مرات للسلام، فلم يبد منه ما يدل على أنه يرغب في دفع ثمن العقد؛ ونَفِدَ صبري، وكنت على أبواب سفر، فذهبت إليه يوماً، وقلت: إن يكن العقد مناسباً، فأرجو الإيعاز بدفع ثمنه، وإلا فبردّه فإنني عزمت على المسير. فلم يجبني. وعدت إلى داري فإذا بـ«سرهنگ»[٢] وأربعة جنود راجلين، فقالوا لي: هيا بنا فالوزير يطلبك؛ ففرحت وقلت: سيدفع ثمن العقد. فنهضت وذهبت معهم، لكنهم مضوا بي إلى سجن اللصوص، وقالوا للسّجان: اسجن هذا الرجل، وكبّله بالأغلال الثقيلة. ومنذ سنة ونصف وأنا في السجن».

وقال آخر: «أنا رئيس الناحية الفلانية. كان بيتي مفتوحاً دائماً في وجه الضُّيوف والغرباء وأهل العلم، وكنت أواسي الناس والمعوزين، وأوزّع الصدقات والخيرات على المستحقين باستمرار أسوة بآبائي من قبل. وكنت أنفق ما يتأتى من أملاكي وضياعي الموروثة في سبل الخير والضيافة. قبض عليّ الوزير بحجة أنني عثرت على كنز، فعذبني، وصادر أموالي، وأودعني السجن. وكنت أبيع ملكي وضياعي، للضرورة، بنصف ثمنها، وأعطيه إياها، وها هي ذي أربع سنوات تمر على سجني وتكبيلي بالقيود، ولا ألوي على شيء».

وقال آخر: «أنا ابن الزعيم فلان، صادر الوزير أملاك أبي، وقتله بشدة التعذيب، ثم حبسني، ومنذ سبع سنوات وأنا أعاني من عذاب السجن».

وقال آخر: «أنا عسكري، خدمت والد الملك سنوات عدّة، ورافقته في عدد من أسفاره، وكنت وما أزال في خدمة الملك منذ سنوات وأتقاضى راتبي من الديوان. غير أن شيئاً منه لم يصل إليّ السنة الماضية. قابلت الوزير هذا العام، وقلت له: إنني صاحب عيال، لم يصل إليّ راتبي في العام المنصرم، فادفعوه هذه السنة لأسدّد ببعضه ما عليّ من ديون، وأعيش بالباقي. فقال: «ليس في نية الملك أن يحارب أحداً، كي تكون له في الجيش حاجة؛ لذا إنّ وجودك ووجود أمثالك وعدمه في الخدمة سواء؛ إن أردت أن تكسب عيشك، فعليك بالطيانة». قلت: لن أشتغل بالطيانة، لأن لي على الدولة حقوقاً. أما أنت فعليك أن تتعلم كيفية تسيير شؤون الملك. إنني في الضرب بالسيف أمهر منك في تناول القلم، وإنني أفدي الملك بنفسي وقت النزال ولا أعصي أوامره، أما أنت فتقطع أرزاقنا من الديوان، ولا تنفذ أوامر الملك. ولست تدري أننا نحن الاثنين خدم له، أنت في وزارتك، وأنا في عملي؛ غير أن الفرق بيننا، هو أنني أطيع الأوامر وأنفذها، وأنت تعصاها وتنبذها ظهرياً. إن يكن الملك ليس في حاجة إلى أمثالي، فهو لا يحتاج إلى أمثالك أيضاً، وإن يأمر بإخراج مثلي، فهو لا شكّ فاعل بأمثالك أيضاً.

(٢) الكلمة فارسية، وكانت شائعة الاستعمال في الكتب القديمة. وهي تقابل رتبة «عقيد» في الجيوش العربية في عصرنا هذا.

إن يكن لديك مرسوم ملكي بحذف اسمي من الديوان فأرنيه، وإلا فادفع ما قدَّر الملك لي من راتب».

فقال: «اخرج فأنا الذي أحميك وأحمي الملك، ولولاي لكنتم طعمة للنسور منذ زمن بعيد». وفي اليوم نفسه أودعني السجن الذي مرت عليّ فيه أربعة شهور.

لقد كانوا أكثر من سبعمائة، وكان أقل من عشرين منهم سفاحين ولصوصاً ومجرمين، أما الباقون، فأولئك هم الذين زجَّ بهم الوزير بالسجن ظلماً وعدواناً طمعاً بالمال. وما إن سمع الناس في المدن والنواحي بخبر منادي الملك، حتى هرعت جموع المتظلمين الغفيرة إلى القصر.

لما رأى بهرام جور حال الناس وما ألحقه بهم الوزير من ظلم وعَنَت وإجحاف، قال في نفسه: «إن فساد الرجل في المملكة أكثر مما أرى، إنه يفوق الوصف. إنَّ جرأته على الله، تعالى، وعلى عباده وعليّ بلغت حداً أكبر مما كنت أظن. يجب التأمّل في المسألة بعمق أكثر». ثم أمر بالذهاب إلى «سراي»[٣] راست روشن وإحضار جميع دفاتره، وإغلاق أبواب السراي جميعها وشمعها. ذهب رجال الملك المعتمدون فنفذوا الأمر، وأحضروا الدفاتر. وفي حين كانوا ينظرون فيها وجدوا أحدها يغصّ برسائل بعث بها أحد الملوك إلى راست روشن يخبره بخروجه على بهرام جور، والتوجّه نحوه، ووجدوا رسالة بخط راست روشن مرسلة إليه، فيها: «ما هذا التباطؤ؟ فقد قالت الحكماء: الغفلة تدمر الدولة. لقد عملت، لهواي معك وطاعتي إياك، كل ما بوسعي فكسبت فلاناً وفلاناً وفلاناً.. من قادة الجيش إلى جانبي، وأخذت لك البيعة منهم، وجعلت أكثر الجيش دون مؤونة وعتاد، وأرسلت بعضه إلى أماكن ونقاط أخرى في مهام لا طائل من ورائها. أما الرَّعية فجوّعتها، وأضعفتها، وفرَّقت شملها، وشتّتُّ الكثيرين منها. وأما ما استطعت جمعه في هذه المدة من أموال فهو لك ولخزائنك التي لا قِبَل لأي ملك بها. وأعددت لك تاجاً ومنطقة وجبّة مرصعة لم يرَ أحد مثلها. إن حياتي مهددة بالخطر من هذا الرجل- الملك بهرام -. الميدان خالٍ والخصم لاهٍ، فاغتنم الفرصة، وسارع بالمجيء قبل أن يصحو الرجل من غفوته».

لما رأى بهرام جور الرسائل قال: «آهٍ، إنه هو الذي ألّبَ علينا هذا الخصم الذي يتقدم الآن بعد أن غرّر به. وليس ثمة من شكٍّ في خبث معدنه، وعداوته، ومخالفته لنا». وأمر بتحويل ثروته كلها إلى الخزانة، والاستيلاء على عبيده ومواشيه. أما ما أخذه من الناس رشوة، فأمر بأن تباع أملاكه وضياعه، ليستردّ الناس أسلابهم منها، وأما قصره ومتاعه فدكت دكًّا.

---

(٣) تطلق كلمة «سراي» الفارسية على القصر، وعلى البيت عامة، وهي كثيرة الدوران في المصادر العربية، والتاريخية خاصة. وللكلمة وجود في بعض اللهجات العربية المحلية.

ثم أمر آنذاك بإقامة مشنقة عالية على باب قصره، وثلاثين أخرى خلفها، وكان راست روشن أول من علق عليها، تماماً مثلما علق ذلك الرجل - الذي تقدم خبره- كلبه؛ ثم علّق أتباعه ومن دخلوا في بيعته. وأمر الملك منادياً ينادي لمدة سبعة أيام: «هذا جزاء من يحيق بالملك سوءاً، وينحاز إلى أعدائه ويوافقهم، ويؤثر الخيانة على الأمانة، ويظلم العباد، ويتجرأ على الله، وعلى أسياده».

بعد هذا الجزاء الرادع، خاف المفسدون الملك بهرام الذي عزل كل من عيَّنهم راست روشن، أو ولّاهم شغلاً، ولم يولّهم أي عمل بعد، وأعاد كل من نحّاهم عن مراكزهم إليها وبدّل جميع الكتّاب وحكّام الولايات.

لما وصل الخبر إلى الملك الذي كان قد خرج على بهرام جور وتوجّه إليه، عاد من حيث وصل نادماً على فعلته. ثمَّ أرسل الأموال والهدايا الثمينة إلى الملك بهرام ملتمساً العذر معلناً الطاعة، وقال: «إن عصيان الملك لم يخطر لي ببال قط، بل إن وزيركم هو الذي جعلني أسلك هذه الطريق لكثرة ما كان يكتب من رسائل، ويرسل من رسل. وفي ظني أنه لم يكن سوى مجرم يبحث له عن ملجأ. وقبل الملك بهرام عذره، وصرف النظر عن المسألة، ثم قلد الوزارة رجلاً حسن الاعتقاد، يخشى الله. فانتظمت شؤون الجيش والرعية. واستقامت الأعمال، وصارت البلاد إلى العمران، وتخلص الناس من الجور والظلم.

أما الرجل الذي علّق كلبه، فكان الملك بهرام حين خرج من خيمته يريد العودة، أخرج من كنانته سهماً ألقاه أمامه وقال: «أكلت طعامك[٤]، وعرفت ما نزل بك من أذى وأصابك من ضرر، فإن لك عليّ لَحقًّا. اعلم أنني أحد حجاب الملك بهرام جور، وأنَّ كل كبار رجال قصره وحجابه أصدقائي، وهم يعرفونني جيداً. عليك أن تذهب إلى قصر الملك بهرام بهذا السهم، فإن كل من سيراه معك سيأتي بك إليّ لكي أقضي لك بشيء يعوض عليك شيئاً مما لحق بك من ضرر». وعكف راجعاً.

بعد أيام قالت زوج ذلك الرجل له: «انهض وامض إلى المدينة، وخذ السهم معك فلا إخال ذلك الفارس بطلعته تلك إلا رجلاً ثرياً ووجيهاً، حتى لو أعطاك شيئاً قليلاً، فإنه كثير علينا في هذه الأيام. اذهب ولا تتوان، فكلام الرجل لم يكن جزافاً». فنهض الرجل ومضى إلى المدينة ونام ليلته تلك، ثم ذهب في صباح اليوم التالي إلى قصر الملك بهرام الذي كان أوصى حجاب قصره ومن فيه: «إذا ما أمّ القصر رجل بأوصاف كذا وكذا، ورأيتم سهمي بيده فأتوني به حالاً». لما رأى الحجّاب

(٤) ترجمة للاصطلاح الفارسي «نان ونمك تو خوردم» وهو المثل العربي العامي عينه: «أكلنا من عيشه وملحه» أو «ماحناك» كما يقال في اللهجة الفلسطينية الأردنية خاصة.

الرجل والسهم معه نادوا عليه، وقالوا: «أين أنت أيها الرجل الحر؟ فنحن في انتظارك منذ أيام. استرح هنا إلى أن نأخذك إلى صاحب هذا السهم»، ومضت مدّة قصيرة خرج بعدها بهرام جور وجلس على سريره، وعقد المجلس. فأخذ الحجاب بيد الرجل وأدخلوه إلى المجلس، فوقعت عينه على الملك وعرفه، وقال: «آه، لقد كان الملك بهرام ذلك الفارس، ولم أقم بالواجب المطلوب نحوه، فضلاً عن أنني كنت أحدثه بجسارة. لعله ألا يكون قد ضغن عليّ!».

ولما قرّبه الحجّاب من سرير الملك وقبّل الأرض بين يديه، التفت بهرام جور نحو العظماء، وقال: «لقد كان هذا الرجل سبب تنبهي لأحوال المملكة».. وقصّ عليهم قصة الكلب والذئبة، وقال: «وتفاءلت بهذا الرجل». ثم أمر له بخلعة وسبعمائة شاة كبيرة ينتخبها هو بنفسه، ولا يدفع عنها ضريبة طوال حياة بهرام جور.

لقد هزم الإسكندر دارا، لأن وزير الأخير تحالف سراً مع الأول قلباً وقالباً، ولما قتل دارا قال الإسكندر: «لقد انهار الملك بغفلة الأمير، وخيانة الوزير».

***

على الملك - أي ملك - ألا يغفل عن أحول عماله في أي وقت، وعليه أن يتقصى تصرفاتهم، وسلوكهم، وسيرهم دائماً، ويتحراها، وإذا ما بدت منهم خيانة أو انحراف، تجب تنحيتهم وعزلهم ومعاقبة كل منهم بقدر ذنبه وجرمه، ليكونوا عبرة للآخرين، وكيلا تسوّل لأحد نفسه بالملك سوءاً خوفاً من العقوبة.

أما ذوو المناصب المهمة الرفيعة، فيجب أن يعيَّن عليهم من يراقبهم سرًّا دون أن يعلموا، ليكونوا على اطلاع دائم بأعمالهم وأحوالهم. فقد قال أرسطوطاليس للإسكندر الملك: «لا تسند أي منصب لأهل القلم في مملكتك بعد إيذائهم، لأنهم سيتواطؤون مع أعدائك، ويتحالفون سرًّا، ويعملون على هلاكك».

وقال أبرويز الملك: على الملك ألا يعفو عن ذنوب أربعة من الناس: الطامع في ملكه، والطامع في حرمه، والذي يذيع أسراره ولا يكتمها، ومن هو معه بلسانه ومع أعدائه بقلبه، يكيد له سراً.

إنَّ فعل المرء يدل على سره، والملك اليقظ لا يخفى عليه شيء أو يفوته.

الفصل الخامس

في المستقطعين والتحقق من معاملتهم الرعية

ليعلم المستقطعون(١) أن لا شأن لهم بالرعيّة سوى تحصيل الأموال المستحقة عليهم بالحسنى، على أن يكونوا بعد ذلك آمنين على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم وضياعهم وما يملكون، دون أن يكون لأصحاب الإقطاعات عليهم من سبيل أو أن يمنعوهم من الذهاب إلى القصر، لبسط أحوالهم بأنفسهم إذا ما رغبوا في ذلك. أما من لا يلتزم بهذا أو يتقيد به، فينبغي الضرب على يده، ونزع إقطاعاته منه، ومجازاته، ليكون عبرة للآخرين.

على أصحاب الإقطاعات أن يعلموا، أيضاً، أن الملك والرعية جميعاً، في حقيقة الأمر، للسلطان وعليهم وعلى الولاة، وهم رؤساء ومسؤولون، أن يعاملوا الناس معاملة الملك للرعية ليحظوا بتأييده وقبوله، ويسلموا من عقابه، وينجوا من عذاب الآخرة.

حكاية الملك العادل أنو شروان

يقال إنه لما توفي قباذ الملك، تولى ابنه أنوشروان العادل الملك من بعده، وعمره ثماني عشرة سنة. لقد كان العدل متأصلاً فيه منذ نعومة أظفاره، فكان يقابل الإساءة بالإساءة، والإحسان بالإحسان. وكان يقول: «إن والدي ضعيف رأيه، طيب قلبه، يُخدع بسرعة. سلّم مقاليد المملكة لعمال وولاة يفعلون ما يشاؤون، فخربت البلاد ونفدت خزائنها التي نهبوا ما فيها من أموال. أما هو، فلم يعلق به ويبقَ له سوى الظلم والسمعة السيئة».

---

(١) من استقطع فلان الإمام قطيعة فأقطعه إياها إذا سأله أن يقطعها له. والقطائع إنما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها، ولا عمارة فيها لأحد، فيقطع الإمام المستقطع منها قدراً يتهيأ له عمارته. والاقطاع يكون تمليكاً، وغير تمليك. قال الشافعي: ومن الإقطاع، إقطاع إرفاق لا تمليك (اللسان: قطع). والإقطاع الذي نحن بصدده في هذا الفصل من النوع الذي لا يكون تمليكاً.

لقد خدع مرّتين: الأولى بأقوال مزدك ذي الاعتقاد السيىء والمذهب الخبيث وحيله، والأخرى بيد العامل فلان والوالي فلان، اللذين دمّرا الولاية، بما فرضاه عليها من ضرائب باطلة أفقرت الرعية، وضيّقت عليها الخناق. لقد خدعاه- لحبّه المال- ببَدْرة[٢] ذهب أحضراها إليه، ففرح بها كثيراً دون أن يفكّر بكثرتها، أو يسأل الوالي مثلاً: «أنت أمير تلك الولاية وواليها، وقد أنفذت إليك مبالغ من المال رواتب ونفقات لك ولمن معك. أرى أنك غصبتهم أعطياتهم، وإلاّ فأنّى لك هذه الأموال التي أحضرتها إليّ، وهذا النّعيم والثروة الطارئة التي لا عهد لك بها من قبل؟ أوليست هي الأموال التي استوليت عليها من الناس ظلماً وعدواناً؟». أو أن يقول للعامل: «إن أموال الولاية على أقسام: بعضها ما أنفقته في سبل الخير، والآخر ما دفعت به إلى خزينة الدولة، فمن أين لك هذه المبالغ التي أراها معك؟ أليست الأموال التي أخذتها دون حق؟». إن والدي نفسه لم يكن يتحرّى الأمور أو يدقق فيها كي يستقيم الآخرون في أعمالهم».

ومرّت ثلاث أو أربع سنين على حكم أنوشروان وأصحاب الإقطاعات والولاة والحكام ماضون في تجاوزهم وتماديهم، وجموع المتظلّمين تفد على القصر تشكو وتصرخ وتتظلم. وذات يوم جلس أنوشروان العادل للمظالم، فحضر جميع رجالات المملكة وأعيانها، ثم استوى الملك على سريره، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «اعلموا أن الله، عزّ وجلّ، هو الذي وهبني الملك أولاً، وأنني ورثته عن والدي ثانياً، وأنّ عمي خرج عليّ، فحاربته واسترجعت الملك منه بالسّيف أخيراً. ولما ملّكني الله الملك جعلت لكم فيه نصيباً، فوليت كلاً منكم ولاية، ولم أغمط أحداً في هذه الدولة حقه، بل كان لكلٍّ نصيب. وأبقيت الكبار والمعروفين ممن كانت لهم الولاية والمقامات الرفيعة في عهد والدي في مناصبهم، ولم أبخسهم أرزاقهم وأشياءهم. لقد أوصيتكم، وما أزال، بالناس خيراً في المعاملة، وحسن التصرّف، وعدم تحصيل الأموال من ضرائب وخراج إلا بالحق. أحفظ لكم حرماتكم وأصونها ولا تصونون، بل تعرضون عن كلامي، لا تخشون الله ولا تستحون من العباد. إنني أخاف عقاب الله وعذابه، وأخشى أن تكون عاقبة ظلمكم وبالاً على عهدي. إن العالم صافٍ من الأعداء والمخالفين، وأنتم في راحة وكفاف عيش. والانصراف إلى شكر الله وحده على نعمه الّتي وهبنا جميعاً، هو البديل الوحيد الأفضل للظلم وكفران النعمة وجحودها، فالظلم يقوّض الملك، وكفران النعمة يمحقها.

(٢) البَدْرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف. سميت ببدرة السخلة (اللسان: بدر).

عليكم، منذ الآن، أن تحسنوا معاملة خلق الله، عزّ وجلّ، وتخفّفوا الوطء على الرّعية، وألا تؤذوا الضعفاء، وأن ترعوا للعلماء والحكماء حرماتهم، وتخالطوا الأخيار وتجالسوهم وتتجنّبوا الأشرار وعشراء السوء، وألا تسيئوا إلى المتقين والزهاد. وأشهد الله وملائكته على نفسي بأنني سأنحي كل من لا يسير على هذا النهج، ولن أبقيه». فقالوا جميعاً: «سمعاً وطاعة، سننفذ هذا بحذافيره».

بعد أيام، عاد الجميع إلى أعمالهم، واستمروا في ديدنهم السابق ظلماً ونهباً غير آبهين بأنوشروان الذي ما انفكوا يعدونه طفلاً. وكان كل واحد من أولئك العصاة يظن أنه هو الذي جاء به إلى العرش، وأن بقاءه ملكاً أو عدمه رهن إرادته. ولزم أنوشروان الصمت وسكت عنهم سنوات على مضض.

كان لأنوشروان قائد كبير، هو والي أذربيجان الذي لم يكن في المملكة كلها أمير أو قائد أقوى منه أو أكثر نعمة، ولم يكن لأحد ما كان له من آلات وعدد وجند وممتلكات. وكان مما يراود نفس ذلك القائد أن يقيم لنفسه مقراً وبستاناً في ضواحي المدينة التي كان فيها. لقد كانت في تلك البقعة قطعة أرض لامرأة عجوز لا يتجاوز نتاجها السنوي حصة الملك وزارعها وشيئاً ضئيلاً يبقى لها، هو عبارة عن أربعة أرغفة من خبز الشعير يومياً على مدار السنة كلها. فكانت العجوز تشتري بأحدها طعاماً، وبآخر زيتاً لسراجها، وتحتفظ بالثالث لفطورها، والرابع والأخير لعشائها. وكان الناس يتصدقون عليها بملابسها وثيابها. ولم تكن المسكينة تبرح بيتها، وكانت تقضي عمرها في مشقة وفاقة وعوز.

رأى القائد أنه من المناسب أن يضم قطعة الأرض تلك لتصبح في جملة بستانه وقصره، فأرسل إلى العجوز شخصاً، يقول لها: «بيعيني قطعة أرضك، فإنني في حاجة إليها». قالت: «لا أبيعها، فإنني أحوج إليها، لأنني لا أملك من الدنيا سواها، ومنها أعيش، والإنسان لا يبيع مصدر رزقه». قال: «أدفع إليك ثمنها، أو أعوضك بها قطعة أخرى تعدلها محصولاً». قالت العجوز: «إن أرضي هذه حلال ورثته عن والديّ، وهي قريبة من مصدر المياه، وإنني على وفاق مع جيراني الذين يحترمونني ويحبونني، وليست لأرضك هذه الميزات! فكفّ عن أرضي».

غير أن القائد لم يعر اهتماماً لكلامها، بل استولى على الأرض ظلماً وعنوة، وسحب عليها سور بستانه، وضمّها إليه. فأسقط في يد المرأة، ورضخت لقبول ثمن الأرض أو إبدالها، وألقت بنفسها أمامه قائلة: «الثمن أو البديل». فلم يصغ إليها، أو يكلف نفسه النظر فيها، ولم يأبه بها. وخرجت من عنده قانطة، ولم يعد يسمح لها بالدخول عليه. لكنها ظلت تجلس له في الطريق كلما ركب للتنزه

والصيد، وتصرخ في وجهه حين يقترب مطالبة بثمن الأرض، فكان يمر عنها دون أن يجيب بشيء. وإذا ما طلبت إلى خاصته وندمائه وحجّابه أن ينقلوا إليه طلبها، قالوا: «نعم، سنقول»، لكن أحداً لم يكن يقول شيئاً. ومضت على هذا الموضوع سنتان.

وأملقت العجوز ولم تجد من ينصفها، ونفضت يدها منه وقالت في نفسها: «إنني أضرب في حديد بارد: ما من يدٍ إلاّ وجعل الله يداً فوقها، وأخيراً أمام جبروت خادم أنوشروان العادل وعبده! الحل أن أتحمل مشاق السفر وأذهب إلى المدائن وأدخل إلى أنوشروان وأعلمه حقيقة حالي، فقد أجد عنده إنصافاً». ودون أن تخبر أحداً، مضت فجأة من أذربيجان إلى المدائن متحملة المشقة والتعب. فلما رأت قصر أنوشروان قالت في نفسها: «من ذا الذي يتيح لي الدخول إلى هنا؟! إنه لم يكن يُسمح لي بدخول «سراي» والي أذربيجان، وهو خادم الملك، فكيف يمكن أن يسمح لي بالدخول إلى قصر الملك نفسه والمثول بين يديه وهو سيِّد الدنيا بأسرها؟!! إنَّ من الأفضل أن آوي إلى مكان قريب هنا، وأكتم أمري فربما أستطيع أن أظفر بلقاء الملك، وهو خارج، وأقصّ عليه قصتي».
حدث أن جاء القائد الّذي سلبها أرضها إلى القصر، وعزم أنوشروان على الخروج للصيد. ولقفت العجوز خبر خروج الملك للصيد إلى المكان الفلاني في يوم كذا. فمضت وأخذت تسأل هنا وهناك إلى أن وصلت إلى ذلك المكان بمشقة وجهد، وألقت بنفسها خلف دِمْنةٍ هناك ونامت ليلتها تلك.

في اليوم التالي، وصلَ أنوشروان. وتفرق من كان معه من كبار القادة في طلب الصيد، وبقي هو يتجول في المكان، ومعه أحد الموكلين بالسلاح[٣] فقط. اغتنمت العجوز الفرصة، ونهضت من مكمنها، وأسرعت نحو الملك وأخرجت «شكواها»، وهي تقول: «أيها الملك إن تكن مالك الدُّنيا فأنصف هذه العجوز الضَّعيفة، واقرأ شكواها وتعرَّف على حالها».

لما رأى أنوشروان العجوز وسمع ما تقول أيقن أنها لم تأتِ إلى هنا لو لم تكن ثمة ضرورة قصوى، فاتجه بفرسه نحوها، وأخذ« شكواها» وقرأها، واستمع إلى حديثها، فترقرقت الدموع في عينيه، وقال لها: «ليهدأ بالك، فقد كان الموضوع يخصك وحدك، أما وقد علمناه الآن فهو منوط بنا نحن وعلينا عبئه. سأوصلك إلى بغيتك وحقك أولاً، ثم أرسلك بعد ذلك إلى مدينتك. لتستريحي عندنا أياماً، فقد قطعت طريقاً طويلة». ثم تلفّت حواليه، فرأى أحد فرّاشيه آتياً على بغله الموكبي[٤]، فقال له:

(٣) الموكل بالسلاح ترجمة للاصطلاح الفارسي التاريخي «سلاح دار» وقد تابعت في ترجمته الأستاذين يحيى الخشاب وصادق نشأت في ترجمتها لتاريخ البيهقي.

(٤) البغال الموكبية، هي البغال التي كانت تعد خصيصاً لتكون في جملة ما في موكب السلطان وركبه (شعار ٤١١).

«انزل وارْكِبْ هذه المرأة، وامضِ بها إلى إحدى القرى وسلِّمها إلى كبيرها، ثم عُدْ، وحين نرجع من الصيد خُذْها من القرية إلى المدينة وأَسْكِنْها في بيتك، واجعل لها من خزائننا منوي خبز ومنّ(٥) لحم يومياً، وخمسة دنانير شهرياً إلى أن نطلبها منك». فنفذ الفرّاش ما أمر به.

لما عاد أنوشروان من الصيد، أمضى سحابة يومه يفكر فيما يجب فعله لمعرفة حقيقة الموضوع دون أن يشعر به أحد من كبار الدولة. ففي قيلولة أحد الأيام، والناس نيام والقصر خالٍ، قال الملك لأحد خدمه: «اذهب إلى الحجرة الفلانية وجئني بالغلام فلان». فذهب الخادم، وأحضر الغلام. فقال له الملك: «يا غلام، أنت تعلم أن غلماننا اللائقين كثيرون، لكنني اخترتك من بينهم جميعاً، واعتمدت عليك في أمر. خذ نفقات سفرك من الخزانة، وامض إلى أذربيجان، وانزل بالمدينة الفلانية في المحلة الفلانية وأقم هناك عشرين يوماً، ولتتظاهر أمام الناس أنك جئت في طلب غلام فارٍ، وحيثما استطعت أن تجالسهم وتعاشرهم وتختلط بهم وتتحدث إليهم في سكر وصحو، اسألهم: لقد كانت في محلتكم هذه عجوز اسمها فلانة، أين ذهبت فليس من خبر عنها؟ وماذا فعلت بأرضها التي كانت تملكها؟ اصغ إلى كل ما يقولون و احفظه، ثم عد إليّ بحقيقة الأمر. إني مرسلك في هذه المهمة، لكنني سأطلبك إلى البلاط غداً، وأقول لك في صوتٍ عالٍ يسمعه الجميع: اذهب، وخذ نفقاتك من الخزانة وامض إلى أذربيجان، فكلما وصلت إلى مدينة أو ناحية سل عن غلاّت هذا العام وفواكهه، أنزلت بها الآفات أم لا؟ كذلك المراعي، وأماكن الصيد؛ ثم عد بسرعة، وأطلعنا على ما وجدت الأمور عليه. كل هذا حتى لا يعرف أحد بالأمر الذي أرسلك من أجله». فقال الغلام: «سمعاً وطاعة».

في اليوم التالي، نفّذ أنوشروان ما قال. ومضى الغلام، فوصل إلى تلك المدينة وأقام فيها عشرين يوماً كان يسأل كل من جلس إليه عن أحوال المرأة العجوز، فكان جوابهم جميعاً: «لقد كانت امرأة مستورة وأصيلة، كنا نراها في نعمة مع زوجها وأولادها. لكن زوجها وأولادها ماتوا جميعهم، فبقيت وحيدة، وآلت نعمتها إلى زوال، ولم يبق لها سوى قطعة أرض عهدت بها إلى زارع يزرعها، فكان نتاجها عبارة عما تدفعه من خراج ونصيب الزارع وما يتبقى حصتها إلى الموسم القادم، وهو أربعة أرغفة يومياً، كانت كل رزقها: أحدها لطعامها، والثاني لزيت سراجها، والثالث لفطورها، والأخير لعشائها. ولما أراد الوالي أن ينشئ لنفسه متنزهاً وبستاناً استولى على أرضها عنوةً وضمها إلى أرضه دون أن يدفع لها ثمنها، أو يعوضها منها. وظلت المسكينة طوال سنتين تتردد على قصره تصرخ

(٥) المنّ: وحدة وزن تعادل ٦٠٠ مثقال.

وتستغيث مطالبة الثمن، غير أن أحداً لم يلتفت إليها. ومنذ مدة لم يرها أحد في هذه المدينة، ولسنا ندري أين ذهبت، أميتة هي أم حية».

وعاد الغلام، ومضى إلى القصر. وجلس أنوشروان العادل للناس، فمثُل الغلام، وقبّل الأرض بين يديه. فقال أنوشروان له: «قل، كيف وجدت الأمور؟». فقال الغلام: «يا مولاي إن المحاصيل جيدة السنة في كل أرجاء مملكتكم، إذ لم تُصب بأية آفة، والمراعي مخضرة، وأمكنة الصيد عامرة». قال أنوشروان: «الحمد لله. يا له من خبر سار». ولما انفضّ المجلس، وخلا القصر من غير أهله، أمر أنوشروان باستدعاء الغلام، ثم سأله عن الأحوال هناك فنقل إليه الغلام كلّ ما سمع. فثبت لأنوشروان أن كل ما قالته المرأة كان صحيحاً، ولم ينم يومه وليلته تلك لكثرة تفكيره وشدة أسفه. وفي صبيحة اليوم التالي الباكر استدعى حاجبه الكبير، وقال له: «حين يبدأ العظماء بالحضور، ويأتي فلان احجزه في الدهليز إلى أن أخبرك بما يجب عمله».

لما حضر العظماء والموبذون[٦] إلى البلاط، خرج أنوشروان وجلس إليهم، ثم التفت نحوهم، وقال: «إني سائلكم شيئاً، فأجيبوا بصدق عما تعرفون ولو حدساً وتخميناً». قالوا: «سمعاً وطاعة». قال: «بِمَ تقدرون ثروة فلان أمير أذربيجان ذهباً نقداً». قالوا: في حدود مائتي ألف ألف دينار مكدسة لا حاجة له بها»، قال: «ومن وسائل الجلوس والأثاث؟». قالوا: «خمسمائة ألف دينار من الذهب والفضة». قال: «ومن الجواهر؟» قالوا: «ستمائة ألف دينار». قال: «ومن السجاد وأدوات الزينة»؟ قالوا: «ثلاثمائة ألف دينار». قال: «ومن الأملاك والمستغلات والضياع والعقار؟» قالوا: «ما من مدينة وناحية في خراسان والعراق وفارس[٧] وأذربيجان إلا له فيها عشر أو سبع أو ثمان من القرى والأملاك والقصور ومنازل القوافل والحمامات والمطاحن». قال: «ومن الخيل والبغال؟». قالوا: «ثلاثون ألفاً». قال: «ومن الأغنام؟». قالوا: «حوالي مائتي ألف». قال: «ومن الجمال؟». قالوا: «عشرون ألفاً». قال : «ومن الرقيق؟». قالوا: «ألف وسبعمائة غلام تركي ورومي وحبشي، وأربعمائة جارية حسناء». قال: «فكيف يعتدي من عنده هذه النعم، ومن يأكل عشرين ضرباً من اللحوم والأطعمة والمقالي والشحوم والحلوى يومياً على آدمية مثله من عباد الله- عزّ وجلّ- المتقين ضعيفة لا حول لها ولا قوة، وليس لها من حطام الدنيا سوى رغيفين جافين: أحدهما لنهارها، والآخر لليلها، ثم يأتي هو فيسلبها رغيفيها ظلماً ويحرمها إياهما. فما جزاؤه؟». قالوا جميعاً: «إنه يستحق كل عقوبة، وإن كل ما يتخذ من عقوبات في حقّه لقليل».

---

(٦) الموبذ: لقب علماء الدين الزرادشتيين في عهد الساسانيين، وكان رئيسهم يلقب بموبذ الموبذين.

(٧) فارس هي المحافظة الإيرانية التي مركزها مدينة شيراز الأثرية الآن.

قال أنوشروان: «أريدكم الآن أن تسلخوا جلده عن جسمه، وتطعموا الكلاب لحمه، وتحشوا جلده تبناً، وتعلقوه على مدخل القصر، وأن يُنادي بالناس لمدة سبعة أيام بأن من يظلم أحداً، بعد اليوم، أو يأخذ منه حتى مخلاة تبنٍ، أو دجاجة، أو قبضة كرّاث ظلماً، أو أن يؤم القصر متظلم، فسيكون مصير المعتدي والظالم مصير هذا الرجل». ونفذ ما أمر به.

ثم قال أنوشروان لذلك الفرّاش: «أحضر المرأة العجوز». ولما جيء بها، قال أنوشروان لعلية القوم وكبار دولته: «هذه هي المظلومة، وذلك هو الظالم الذي لقي جزاءه». ثم قال للغلام الذي كان قد أرسل إلى أذربيجان: «يا غلام، لِمَ أرسلتك إلى أذربيجان؟ – وكان حاضراً في المجلس – قال: «لأتقصّى أحوال هذه العجوز وأتبيّن ما نزل بها من ظلم، وأعود إلى مولاي بحقيقة الأمر». فقال أنوشروان للحاضرين: «لتعلموا أنني لم أجازه جزافاً، وأنني لن أكلم الظّالمين بعد اليوم بغير السيف، وسأحمي الشاة والحمل من الذئاب، وأضرب على الأيدي الباغية المتطاولة، وأخلص الأرض من المفسدين وأملؤها حقاً وعدلاً وأمناً، فمن أجل هذا خُلِقْتُ. لو أتيح للناس أن يفعلوا ما يشاؤون لما أظهر الله، عزّ وجلّ، الملوك من بينهم ووكل إليهم أمرهم. إيّاكم أن تفعلوا ما تستحقون عليه ما لقيه هذا الظالم الذي لا يخشى الله». فهاب كل من كان في المجلس وتلاشت جرأته بإزاء هيبة أنوشروان وعقابه الصارم.

وقال أنوشروان للمرأة: «لقد جازيت من ظلمك، ووهبتك القصر والبستان اللّذين في أرضك، وأمرت لك بمواش ونفقة لتعودي بعهدتي سالمة إلى مدينتك وأرضك ثانية، وتذكريني بدعاء الخير». ثم قال: «لماذا يفتح باب قصرنا للظالمين ويوصد في وجه المظلومين؟ فالجيش والرعية كلاهما عمالنا وتحت إمرتنا، بل الرعية هي التي تعطي، والجيش هو الذي يأخذ. فمن الأولى أن تفتح الأبواب في وجه المعطين أكثر من الآخذين. إن من أمثلة ممارستهم الباطل، وارتكابهم الظلم، وعبثهم بالقوانين وعدم الاكتراث بها، أنه إذا ما جاء القصر متظلم حالوا بينه وبين الدخول إليّ للإدلاء بأمره بنفسه. فلو وجدت هذه المرأة طريقها إليّ لما كانت في حاجة إلى الذهاب إلى المصطاد. ثم أمر بإقامة سلسلة تعلق فيها أجراس تصل إليها حتى يد الطفل ابن سبع سنوات، لئلا تكون لأي متظلم يؤم القصر ثمة حاجة للحاجب. فما إن تهتز السلسلة وتقرع الأجراس، فيسمع أنوشروان صوتها، يستدعي الطارق المتظلم ليسمع منه وينصفه. ونُفّذ هذا الأمر أيضاً.

ولما خرج كبار رجال الدولة من عنده وعادوا إلى منازلهم وقصورهم، استدعوا وكلاءهم وفرسانهم ومن هم تحت إمرتهم في الحال، وقالوا لهم: «لتنظروا في كل من سلبتموه شيئاً دون حق، أو عذبتموه، أو آذيتموه في صحو أو سكر في العشر السنوات الأخيرة. علينا جميعاً نحن وأنتم أن نهتم بالأمر ونرضي الخصوم كلهم قبل أن يذهبوا إلى القصر يتظلّمون منا».

فهبّوا جميعاً، وأخذوا يستدعون الخصوم بأمثل وجه، ويذهبون إلى منازلهم ويسترضونهم بالأعذار والأموال، ثم يأخذون على كل واحد منهم إقراراً بخط يده بأن فلاناً رضي عن فلان وليس ثمة بينهما خصومة أو نزاع.

بهذه السياسة التي سنّها أنوشروان بالحق، استقامت شؤون مملكته كلها، وضرب على أيدي المتطاولين واللُّصوص، وارتاح الناس أجمعين، حتى أن سبع سنوات مرت دون أن يؤم أحد القصر متظلماً.

أنوشروان وسلسلة العدالة

في ظهيرة أحد الأيام بعد سبع سنوات، وفي الوقت الذي ذهب فيه الجميع ونام الخفر، ارتفع صوت الأجراس، فسمعه أنوشروان الذي أرسل خادمين فوراً، وقال لهما: «انظرا من ذا الذي جاء يتظلم». فلما وصلا إلى مدخل القصر إذا بحمار هرم ضعيف أجرب قد مرّ من هناك، وحكّ ظهره بالسلسلة، فارتفع صوت الأجراس. وعاد الخادمان، وقالا: «لم يأتِ أحد متظلماً، غير أن حماراً ضعيفاً هرماً أجرب مرّ بمدخل القصر، ولما لامس ظهره السلسلة راقه ذلك، فأخذ لجربه يحكه بها. فقال أنوشروان: «أيها الأحمقان، ما أجهلكما! ليس الأمر فيما تظنان، إن تمعنا النظر يتضح لكما أن هذا الحمار، أيضاً، جاء يطلب عدلاً. أريدكما أن تسوقاه إلى وسط المدينة الآن، وتسألا الناس عن أمره، ثم تعودا إليّ بالحقيقة».

فانصرف الخادمان، وذهبا بالحمار إلى السوق في وسط المدينة، وطفقا يسألان الناس: «أفيكم من يعرف هذا الحمار؟» فكان جوابهم جميعاً: «أي والله، قلة هم الذين لا يعرفونه». قال الخادمان: «ما تعرفون عنه؟ قولوا». فقالوا: «إن صاحبه فلان الغسّال، ومنذ حوالي عشرين سنة، ونحن نراه ينقل عليه ملابس الناس إلى مغسله يومياً، ويعود بها مساء. كان يعلفه في صغره إلى الوقت الذي كان يؤدي فيه عمله، لكنه بعد أن هرم وعجز عن العمل أطلقه على رأسه وطرده من بيته فبها تريان؛ والآن تمر سنة على طرده وتجوله في «الحارات» و«الأزقة» والأسواق، والناس يقدمون له العلف والماء والعشب ابتغاء ثواب الله تعالى. ويقال إنه هام على وجهه منذ يومين لأنه لم يجد علفاً وماء».

ولما كانت أقوال الناس واحدة، عاد الخادمان بسرعة، وأخبرا الملك أنوشروان، فقال: «ألم أقل لكما إن هذا الحمار جاء يطلب عدلاً أيضاً؟ اعتنيا به الليلة جيداً، وعليّ بالغسّال وأربعة من كبار «محلته» والحمار غداً لأقضي بالعقاب المناسب».

في اليوم التالي، نفذ الخادمان الأمر، فأحضرا الحمار والغسّال ورجالاً أربعة إلى أنوشروان إبّان انعقاد المجلس، فقال أنوشروان للغسّال: «لما كان هذا الحمار صغيراً يؤدي لك أعمالك كنت تقدّم له العلف وتعتني به، ولما أضحى هرماً لا طاقة له على العمل، فبدلاً من تنفيذ الواجب الذي يقضي عليك بتقديم العلف إليه، جعلت تطلقه وتخرجه من مأواه؟! أين هو حق أتعابه وعمله عشرين سنة؟». وأمر بضربه أربعين سوطاً، وقال: «أريدك، ما دام الحمار حيًّا، أن تقدم له، على مرأى من هؤلاء الرجال الأربعة، ما يستطيع أكله من التبن والشعير والماء كل يوم وليلة، وإن بلغني عنك أي تقصير في هذا الأمر، فسآمر بعقابك عقاباً أشدّ».

***

لتعلم أن الملوك كانوا يفكرون في حقوق الضعفاء دائماً، وكانوا يحتاطون في أمر المسؤولين والمستقطعين والعمال ويرقبون أعمالهم، ليكسبوا السمعة الحسنة في الدنيا ويفوزوا بثواب الآخرة.

يجب استبدال العمال والمستقطعين كل سنتين أو ثلاث قبل أن يثبّتوا أقدامهم، ويحصنوا أنفسهم، أو يصبحوا مبعث قلق، ولكي يحسنوا معاملة الناس، وتظل الولاية عامرة.

الفصل السادس

في القضاة والخطباء والمحتسبين ورونق أعمالهم وأهميتها

«القضـاة»

يجب التعرُّف على أحوال قضاة المملكة واحداً واحداً، والإبقاء على العلماء والزُّهاد والأمناء منهم، وعزل كل من لا يتصف بهذه الصفات، وتعيين آخر صالح مكانه. ويجب أن يكون للقاضي راتب شهري يكفيه أمور معاشه كيلا تكون به حاجة إلى الخيانة. إن هذا العمل مهم ودقيق، لأن دماء المسلمين وأموالهم بيد القضاة. فإذا ما حكم أحدهم حكماً عن جهل وطمع وعمد، فعلى القضاة الآخرين عدم تنفيذ الحكم، وإخبار الملك به، لعزل ذلك الشخص ومعاقبته[1]. وعلى ولاة الأمر والحاكم أن يشدوا من أزر القضاة، ويحفظوا للعدالة هيبتها ورونقها، فإذا ما امتنع شخص أو تأخر عن الحضور يجب إحضاره عنوة وقسراً إن يكن من المزهوين بعظمتهم وحشمتهم. فلقد كان صحابة رسول الله (ﷺ) يتولّون القضاء بأنفسهم، ولم يعهدوا به لأحد، لكي لا يسود غير العدل والحقّ، ولا يستطيع أحد أن يفرّ من ساحة العدالة. ومنذ عهد آدم (عليه السلام) إلى اليوم، والممالك كلها تقيم العدل وتحكم به، وتحق الحقّ وتخلصه للمظلومين، فبه دام الملك والسلطان في أسراتهم سنوات كثيرة.

---

(١) أصل الجملة الفارسية: « ... چون به جهل وطمع وقصد حكمي كند، برحاكمان ديگر لازم شود آن حكم را امضاء كردن (كذا)، ومعلوم بادشاه گردانيدن وآن كس را معزول كردن ومالش دادن».

إن وجود « امضاء كردن» بهذا الشكل بخلاف المعنى الذي ترجمناه، وبخلاف المعنى الذي تؤديه العبارة في «نسخة إقبال» (ص٤٨). وبعد استشارة الأستاذ الدكتور غلام حسين يوسفي رجح أن «امضاء كردن» تحريف عن «امضاء نكردن» التي يستقيم بها المعنى.

عدل ملوك العجم

يقال إنه كان من عادة ملوك العجم، أن يجلس الملك منهم لعامة الناس يومي «المهرجان»[٢] و«النيروز»[٣] لا يُمنع من ذلك أحد. وكان يأمر، منادياً ينادي في الناس قبل أيام من حلول كل من اليومين المذكورين ليعدوا أنفسهم له، كي يتمكن كل شخص من أن يهيئ أمره ويكتب شكواه بنفسه، يشرح فيها حاله ويعرض حاجته، ويسلّمها بيده هو، وكي يتدبر الخصوم أمرهم أيضاً. وفي اليوم الموعود ينادي المنادي خارج القصر: «إن الملك بريء من دم كل من يمنع أحداً من عرض حاجته في هذا اليوم».

ثم يجمع الملك شكاوى الناس جميعها ويضعها أمامه، وينظر فيها واحدة تلو أخرى. فإذا ما كان بينها واحدة ضد الملك نفسه، ينزل عن سريره، ثم يجثو على ركبته أمام موبذ الموبذين- أي قاضي القضاة بلغتهم- الذي كان يجلس من عن يمينه عادة، ويقول له: «أنصف هذا الرجل مني دون ميل أو محاباة قبل أن تنظر في أية قضية أخرى». وحينئذٍ يأمر المنادي بأن ينادي: «على من لهم شكاية ضد الملك أن ينتظموا صفاً واحداً، للفصل في قضاياهم أولاً». ثم يقول الملك للموبذ: «ليس ثمة ذنب أعظم من ذنوب الملوك عند الله تعالى. إن معرفة حق نعمة الله على الملوك إنما تكون في المحافظة على الرعية وإنصافها، وكفّ أيدي الظالمين عنها. وإذا ما جار الملك وظلم فسيضحى الجيش كله ظالمين ينسون الله تعالى، ويكفرون النعمة، فيصبّ الله عليهم غضبه وخذلانه. ولن يمضي طويل وقت على اضطراب الملك وخرابه، فيقتل الكثيرون لفساد المجرمين وعبثهم، ويتحول الملك من أسرة لأخرى. والآن أيها الموبذ، اتق الله، وإياك أن تؤثرني على نفسك، لأنني سأسألك عن كل شيء يسألني الله تعالى عنه يوم القيامة، وألقي بتبعته عليك». ويشرع الموبذ ينظر في القضايا، فإذا ما ثبت لأحد على الملك حق أنصفه إنصافاً تاماً، وإذا ما اتضح بطلان دعوى آخر ضده ولم تكن لديه حجة دامغة أنزل به أقصى العقوبات، وأمر منادياً ينادي: هذا جزاء من يترصّد العيوب على الملك والمملكة، ويفتري عليهما الكذب بهذه الجسارة والجرأة».

وبعد انتهاء الحكومة، كان الملك يعود إلى سريره، ويضع التاج، ثم يلتفت نحو رجاله وكبار

---

(٢) المهرجان معرب « مهرگـان»، وهو اليوم السادس عشر من كل شهر، واسم الشهر السابع من السنة الشمسية أي أول فصل الخريف.

(٣) النيروز: معرَّب «نوروز»، وهو اليوم الأول من أيام الربيع، ورأس السنة الإيرانية. وهو يوافق اليوم الحادي والعشرين من آذار (مارس) من السنة الميلادية، أي «عيد الأم».

دولته، ويقول: «إنما بدأت بنفسي أولاً، لتقطعوا عنكم دابر الطمع في ظلم الآخرين. إن على كل من له خصم منكم أن يسترضيه الآن». وفي ذلك اليوم، كان أقرب الناس إليه أبعدهم منه، وأقواهم أضعفهم.

منذ عهد[٤] أردشير إلى أيام يزدجرد الأثيم (يزدجرد الأول)، والملوك يسيرون على ذلك المنوال؛ إلاّ أن يزدجرد، استبدل سنناً سيئة بسنن آبائه، وجعل الظلم شريعة في الأرض. فسيم الناس الخسف، ومنعوا النَّصَف، وراحت أدعية الشر تترىٰ عليه من كل حدبٍ وصوب.

وحدث أن دخل إلى قصر يزدجرد فرس معرّى فجأة أقر كل من كان حاضراً من عظماء الدولة بحسن شياته، وعبثاً حاولوا إيقافه إلى أن انتهى إلى يزدجرد نفسه، ووقف أمامه بجانب الإيوان هادئاً. فقال يزدجرد: «قفوا بعيداً، فما هذه إلا هدية بعث بها الله تعالى إليّ». وتقدم منه رويداً رويداً، واستلم عنانه، وأخذ يربت على وجهه وظهره». ثم امتطى صهوته، فلم يُبْدِ حِراكاً. وظل هادئاً كما كان. وطلب يزدجرد لجاماً[٥] وسرجاً، فألجمه وأسرجه، وأحكم حزمه. ولما همّ بوضع المذيلة[٦] رفسه الفرس على رأس قلبه فجأة فقتله، ومضى خارجاً دون أن يعترض سبيله أحد. ولم يستطع أحد أن يعرف من أين جاء وإلى أين ذهب! وأجمع الناس على أن الفرس لم يكن «سوى ملك من ملائكة الله تعالى أرسله لتخليصنا من هذا الظالم».

همّة عالية

قيل إن عمارة بن حمزة كان في مجلس الدوانيقي[٧] يوم المظالم، إذ نهض أحد المظلومين فشكاه مدعياً أنه غصبه ضيعته. فقال الدوانيقي لعمارة: «قم واجلس قبالة الخصم، وادلُ بحجتك»، قال عمارة: «لست بخصمه، إن تكن الضيعة من أملاكي فقد وهبته إياها على أن أقوم من المكان الذي خصّني به أمير المؤمنين وأجلسني فيه، أو أن أفرّط بجاهي ومكانتي في ضيعة». فأعجب الحاضرون من كبار رجال الدولة بهمّته العالية.

***

(٤) حذف عباس إقبال(ص٥٠) حاشية (١) هذه الحكاية المتعلقة بيزدجرد، لأنه يعدها عارية عن الصحة التاريخية.

(٥) لجام: معرف «لگام» الفارسية.

(٦) المذيلة، سير من جلد يوضع تحت ذيل الفرس.

(٧) الدوانيقي نسبة إلى «الدانق» وهو أربعة طساسيج. والدينار أربعة وعشرون طسوجاً (الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ١٤١). والدوانيقي لقب غلب على أبي جعفر المنصور لبخله، ولا يكاد يعرف عند الفرس إلاّ به.

ليعلم أن الملك ينبغي أن يتولى القضاء بنفسه، وأن يسمع حجج الخصوم بأذنيه هو. فإن يكن تركياً أو فارسياً، أو ممن لا يعرفون العربية ولم يقرأ أحكام الشريعة، فهو في حاجة إلى نائب يتولى الأمر عنه. والقضاة كلهم نواب للملك الذي يجب عليه أن يشد أزرهم ويسندهم، ويحفظ لهم حرماتهم ومنازلهم كاملة، فهم نوابه الذين ينفذون دستوره، ووكلاؤه الذين يصرِّفون أعماله.

«الخطباء»

كذلك، يجب اختبار[٨] الخطباء الذي يُصلُّون بالناس في المساجد الجامعة، للتأكد من تقواهم، وحفظهم القرآن. فالصلاة من الأمور الدقيقة، وصلاة الناس مرهونة بالإمام، فإذا ما اختلت صلاته، اختلت صلاتهم أيضاً.

«المحتسبون»

ويجب، كذلك، تعيين محتسب في كل مدينة، تكون مهمته مراقبة الأوزان والأسعار ومعرفة المبيعات والمشتريات، للسير بمقتضاها والتقيّد بها، ومراقبة البضائع التي يؤتى بها من الأطراف لتباع في الأسواق من أن يغشوها أو يقسطوا فيها، وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

إن من واجب الملك وولاته مؤازرة المحتسب والأخذ بيده، فمهمته ركيزة من ركائز المملكة، وهي نتيجة العدل في الوقت نفسه، وإلا فسيضيق على الفقراء، ويشتري التجار ومن يتعاطون البيع والشراء في الأسواق ويبيعون على هواهم ويقسطون في الميزان، فيعمُّ الفساد وتعطل أحكام الشريعة. وقد جرت العادة دائماً في إسناد هذا العمل إلى أحد خاصة الملك، أو خدمه، أو إلى تركي عجوز ممن لا يحابون أبداً وممن يهابهم الخاص والعام. هكذا كانت الأمور تصرّف بالعدل، وقواعد الإسلام تطبق بإحكام، فيما جاءت به القصص والحكايات.

علي بن نوشتكين والمحتسب

يقال إن السلطان محموداً[٩] كان قد شرب الخمر مرة مع خاصته وندمانه طوال الليل، وكذلك الصبوح. وكان علي بن نوشتكين[١٠]، ومحمد العربي[١١] ممن حضروا المجلس، وممن ظلوا يسهرون

---

(٨) ترجمة «اختبار كنند» (بالباء)، وهو ما أثبته عباس إقبال (ص٥١). لكن الدكتور شعار(ص٦٣)، ودارك (ص٦٠) أثبتاها بالياء، أي«اختيار كنند». وبعد أن عرضت الأمر على الدكتور يوسفي رجح ما أثبته المرحوم عباس إقبال.

(٩) أي السلطان محمود الغزنوي.

(١٠) في تاريخ البيهقي: أبو علي بن نوشتكين (الترجمة العربية ص ٢٢٣).

(١١) في تاريخ البيهقي: محمد الأعرابي (ص ٣٧٥-٧٤٤).

ويشربون مع محمود الليلة بكاملها. ومع إشراقة الصباح، أصيب علي بدوار، وبدا عليه أثر إرهاق السهر، والإفراط في الشراب، فاستأذن السلطان بالذهاب إلى منزله. فقال له محمود: «ليس صواباً أن تذهب في وضح النهار، وأنت سكران هكذا. ابق هنا، واسترح في إحدى الحجرات حتى العصر، ثم اذهب آنذاك، وأنت صاح، فإنني أخشى، إذا ما ذهبت الآن بهذه الحال، أن يراك المحتسب في السوق، فيأخذك ويقيم عليك الحد، فيراق ماء وجهك، وينتابني الغم دون أن أستطيع التفوه بشيء». غير أن علي بن نوشتكين الذي كان قائداً لخمسين ألف فارس، وصنديد زمانه والذي كان يعد بألف رجل، لم يخطر له على بال أن المحتسب سيجرؤ حتى على مجرد التفكير في الأمر. فلم يثن عن عزمه، بل أصرَّ على أن «لا بدّ من الذهاب». فقال محمود: «الرأي رأيك. دعوه يذهب».

وركب علي بن نوشتكين في موكب عظيم من فرسانه وغلمانه وخدمه قاصداً منزله. وشاءت المصادفة أن يكون المحتسب مع مئة من رجاله بين خيَّال وراجل في وسط السوق. فلما رأى علياً سكران، أمر بإنزاله عن فرسه، ونزل هو أيضاً. ثم أمر بأن يجلس رجل على رأسه، وآخر على رجليه، وجلده بيده، دون أدنى محاباة، أربعين جلدة حتى التهم الأرض بأسنانه، وحاشيته وعسكره ينظرون دون أن يجرؤ أي منهم على أن يتفوه بكلمة واحدة.

كان ذلك المحتسب تركياً عجوزاً محترماً، وكان له حقوق خدمات كثيرة. فلما مضى لشأنه، نقل علياً رجالُه إلى بيته، وهو يردد في طول الطريق: «كل من لا يطيع أمر السلطان، سيلقى ما لقيت».

ولمّا مَثُل علي بين يدي السلطان في اليوم التالي، وسأله: «وماذا عن المحتسب؟» كشف عن ظهره وأرى محموداً آثار الجلدات عليه واحدة واحدة. فضحك محمود، وقال: «لتتب، إلى الأبد، أن تخرج من البيت وأنت سكران».

وبما أنه أحكم أساس الملك وقواعد السياسة، فقد كان العدل يطبق على النحو الذي ذكر.

خبّاز غزنين[١٢]

سمعت أن الخبازين في «غزنين» أغلقوا أبواب مخابزهم، فعز الخبز، وأسقط في يد الفقراء والغرباء، فذهبوا إلى القصر يتظلمون، وأخذوا يشكون الخبازين بحسرة أمام السلطان إبراهيم[١٣].

---

(١٢) هذا هو اسمها الصحيح عند العلماء، فيما يقول ياقوت الحموي، وهي عند العامة «غزنة». كانت مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وحدًّا بينها وبين الهند. ظلت مقام بني السلطان محمود الغزنوي إلى أن انقرضوا (معجم البلدان).

(١٣) هو ظهير الدولة، السلطان إبراهيم بن مسعود الغزنوي (٤٥١-٤٩٢هـ). (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ٥٣).

فأمر إبراهيم بجلب الخبازين جميعاً، وقال لهم: «لماذا ضننتم بالخبز؟». قالوا: «لقد كان خبازك يشتري كل ما كان يرد إلى هذه المدينة من قمح ودقيق، ويضعه في المخازن، ويقول: «هكذا أُمرت». «ولم يدعنا نشتري ولو منّا واحداً». فأمر السلطان بإحضار خبازه الخاص، وإلقائه تحت أقدام الفيل. ولما مات أمر بتعليقه في خرطوم الفيل، والدوران به في المدينة، وعلى ظهر الفيل منادٍ يقول: «هذا ما سنفعله بكل خباز لا يفتح مخبزه»، ثم وزع ما كان في مخزنه. ولما حان وقت صلاة العشاء، كان يرى على باب كل مخبز خمسون منّ خبزٍ لم يشترها أحد.

الفصل السابع

في تحري أحوال العامل والقاضي والشحنة والرئيس وشروط معاقبتهم

ليُبحث في كل مدينة عمن له شفقة على أمور الدين، ويخاف الله تعالى، وليس بصاحب غرض، ثم يقال له: «إننا نضع هذه المدينة والناحية أمانة في عنقك نسألك عما يسألك الله تعالى عنه. عليك أن تحيط بكل شيء من أمر العامل والقاضي، والشحنة، والمحتسب، والناس، وكل صغيرة وكبيرة، تتحراها جميعاً، ثم تحيطنا علماً بالحقيقة سراً أو علانية لكي نأمر باتخاذ التدابير اللازمة». وإذا ما امتنع من تتوافر فيه تلك الصفات عن قبول هذه الأمانة يجب إلزامه بقبولها، وإجباره على تحملها.

نهج عبد الله بن طاهر

يقال إن عبد الله بن طاهر كان أميراً عادلاً. قبره بنيسابور، رأيناه وزرناه والناس يذهبون لزيارته باستمرار ويسألونه قضاء حاجاتهم، فيستجيب الله تعالى دعاءهم.

كان عبد الله لا يسند الأعمال الديوانية إلاّ إلى المتقين والزهّاد، وإلى من هم في غنًى عن مال الدنيا، والذين لا يشغلون أنفسهم بأعراضها الزائلة، كيما تحصّل الأموال المستحقة على الناس فقط بالحقّ، وكيلا يثقل كاهلهم ويساموا الشقاء، ولئلا يشقى هو نفسه أيضاً.

نصيحة أبي علي الدقاق لأبي علي الياس

دخل أبو علي الدّقاق[1] يوماً على الأمير أبي علي الياس[2] الذي كان والياً على خراسان وقائد

---

(١) هو الشيخ أبو علي الحسن بن محمد الدقاق. كان من مشاهير العرفاء. توفي بنيسابور عام ٤٠٥هـ (عباس إقبال: حاشية ١ ص٥٥).

(٢) يرى عباس إقبال (حاشية ٢ ص٥٥) أن المؤلف اشتبه عليه الأمر بين أبي علي محمد بن الياس والأمير عماد الدولة أبي علي بن أبي الحسن سيمجوري. فالأول كان أميراً على كرمان وتوفي عام ٣٥٦ هـ ولم يتول إمارة خراسان أو قيادة جيشها قط، في حين أن الآخر هو الذي ولي إمارة خراسان وقيادة الجيش فيها لنوح بن منصور الساماني عام ٣٧٨هـ. (راجع أيضاً: أبو الفداء، البداية والنهاية ١١ : ٢٦٥).

جيشها، وكان الرجل – على ما كان له من جلالٍ وعظمة – فاضلاً جداً. ولما جلس أبو علي الدَّقاق على ركبتيه أمامه، قال أبو علي الياس: «عظني». فقال الدَّقاق: «أيها الأمير، أتجيبني بصدق إن سألتك أمراً». قال: «بلى». فقال الدَّقاق: «أيّهما أحبّ إليك الذهب أم الخصم؟» قال: «الذهب». فقال الدَّقاق: «كيف إذاً تخلف كل هذا الذي تحب أكثر هنا، وتصحب الخصم الذي لا تحب إلى الدار الآخرة؟!». فترقرقت الدموع في عيني أبي علي الياس، وقال: «ما أجمل ما نصحتني به، فلقد أيقظتني من سباتي، إنَّ لفي كلامك لي خير الدنيا والآخرة».

نصيحة شمس الكفاة للسلطان محمود

يحكى أن السلطان محموداً الغازي لم يكن وسيم الصورة، بل كان طويل الوجه، جافّه، أصفر السحنة، أملس، طويل العنق، كبير الأنف. لما مات والده سبكتكين، تولى الملك بعده، وخلّص الهند. وفي صباح ذات يوم، في حين كان يؤدي الصلاة في حجرة خاصة، وأمامه مرآة ومشط، ويقف حوله اثنان من خواص غلمانه، دخل وزيره شمس الكفاة أحمد بن الحسن[٣] فسلَّم. فأومأ محمود إليه برأسه أن «اجلس». فجلس قبالة السلطان.

لما فرغ محمود من قراءة الأدعية، ارتدى قباءه، ولبس عمامته، وانتعل حذاءه، ونظر في المرآة. فلما رأى وجهه ابتسم، وقال للوزير: «أتدري ما يدور ببالي هذه الأيام؟». قال: «مولاي أدرى». فقال محمود: «أخشى ألا يحبني الناس لدمامتي، فقد اعتادوا أن يحبوا السلطان الوسيم». قال الوزير: «مولاي السلطان، افعل ما سيحبك الناس من أجله أكثر من نسائهم وأبنائهم وأنفسهم التي سيلقون بها في الماء والنار تلبية لك». فقال السلطان: «ماذا أفعل؟». قال الوزير: «اتخذ الذهب عدواً يحبك الناس». فسرّ محمود، وقال: «في طيات هذا القول ألف معنى وفائدة».

وشرع محمود في بذل العطايا، وفتح باب الخيرات، فأحبه الناس وأخذوا في مدحه والثناء عليه. وعلى يديه، أنجزت الأعمال الجليلة، والفتوحات العظيمة. فلقد دخل «سومنات»[٤] وكسّر «مناة»[٥] وحمله معه، ثم توجه إلى سمرقند والعراق. وقال لوزيره الميمندي ذات يوم: «لما نفضت يدي من الذهب كسبت الدنيا والآخرة، ولما احتقرت الدينار نلت عزّ الدارين».

---

(٣) هو شمس الكفاة أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندي وزير السلطان محمود وابنه مسعود. توفي عام ٤٢٤هـ (عباس إقبال: حاشية٢ ص٥٦)

(٤) سومنات: كان من أكبر بيوت الأوثان بالهند. خرّبه السلطان محمود وكسر أصنامه (فرهنگ فارسي).

(٥) مناة هنا اسم لأحد الأصنام التي كانت في سومنات، وهو غير مناة الذي كان معروفاً في الجاهلية وذكره القرآن الكريم(جعفر شعار ص ٤٣٣).

لم يكن للقب «السلطان» وجود قبل عهد محمود، فهو أول من تلقب به في الإسلام، وصار سنّة بعده. لقد كان محمود عادلاً يخاف الله، وكان محباً للعلم، شهماً، يقظاً، قويّ الرأي، نقي الديانة، وغازياً.

إن أحسن العصور ذلك الذي يوجد فيه ملك عادل. جاء في الخبر أن النبي (ﷺ) قال: «العدل عز الدين وقوة السلطان، وفيه صلاح الخاصة والعامة» وقال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[٦]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[٧]. إن الملك الحق هو الذي يكون قلبه موئل العدل، وقصره مأوى المتدينين والعقلاء. والذي يكون ندماؤه وعماله منصفين ومسلمين حقًا. قال فضيل بن عياض[٨]: «إن يُستجب دعائي، فلا أدعو إلا للسلطان العادل. ففي صلاحه صلاح العباد، وعمران البلاد». وعن الرسول (ﷺ) أنه قال: «المقسطون لله عزّ وجلّ في الدنيا على منابر اللؤلؤ يوم القيامة».

وكان الملوك، يولون أمور المملكة للمتقين، ولمن يخافون الله ممن ليست لهم مآرب خاصة، طلباً للعدل وحرصاً على مصالح العباد، ولكي ينقلوا إليه حقيقة الأحوال في كل وقت. وهذا ما فعله أمير المؤمنين المعتصم ببغداد.

قصة أمير الترك وعقوبة المعتصم

لم يكن لأحد من خلفاء بني العباس ما كان للمعتصم من سياسة وهيبة وآلة وعدد، ولم يملك أحد ما ملك من الغلمان الترك الذين يقال إن عددهم كان سبعين ألفاً . ولقد رقّى كثيرين منهم، فأوصلهم إلى الإمارة. وكان يردد دائماً أن ليس ثمة من هم في مستوى الأتراك من حيث الخدمة.

يقال إن أحد الأمراء استدعى إليه وكيله، وقال له: «أتعرف أحداً من سكان بغداد وتجارها يقرضني خمسمائة دينار أنا في حاجة إليها، على أن أردها إليه في الموسم؟. وتأمل الوكيل قليلاً، فتذكر أحد معارفه ممن يتعاطون البيع والشراء، بربح قليل، وكان لديه ستمائة دينار من الذهب الخليفتي[٩] كان قد جمعها بمرور الزمن، وقال للأمير: «إنني أعرف رجلاً له دكان في سوق كذا. أتردد عليه بين الحين

---

(٦) الرحمن. آية ٧.

(٧) الشورى: آية ١٧.

(٨) هو أبو علي فضيل بن عياض التميمي(١٠٥-١٨٧هـ). كان من أئمة الصالحين والمتدينين ورواة الحديث. كان الشافعي من تلاميذه (عباس إقبال: حاشية ٣ ص ٧).

(٩) يقول عباس إقبال: يظهر أن الذهب الخليفتي نوع من المسكوكات الذهبية المنسوبة إلى دار الخلافة ببغداد. كانت بينه وبين أنواع الذهب الأخرى اختلافات من حيث العيار (حاشية ٣ ص ٥٨).

والحين وأتعامل معه. إنه يملك ستمائة دينار خليفتي. إن ترسل في طلبه شخصاً يستدعيه، وتحسن استقباله وتلاطفه، وتدعوه إلى الطعام في أوانه، ثم تطرح حديث المعاملة، فلربما يخجل منك، ولا يرد طلبتك احتراماً لك».

ففعل الأمير، وأرسل إلى الرجل شخصاً يقول له: «ألا تكلف نفسك عناء الحضور إليّ، فإنني أريدك في أمر ضروري». وذهب الرجل إلى قصر الأمير دون أن تكون له به معرفة سابقة، فدخل عليه وسلم. فردّ عليه الأمير السلام، والتفت نحو رجاله، وقال: أهذا هو فلان؟ قالوا: «بلى». فقام الأمير في وجهه، وأمر بإجلاسه في مكان لائق، ثم قال: «أيها الخواجة[10]، لقد سمعت من الناس كثيراً عن شهامتك، وحسن سيرتك، وأمانتك، وتدينك، فأعجبت بك دون أن أراك. يقولون إنه ليس ثمة أحد في سوق بغداد كله مثل هذا الخواجة مروءة وحسن معاملة». ثم قال له أيضاً: «فلم لا تعاشرنا إذاً وتكلفنا بقضاء ما تحتاج إليه من أمر، وتعدّ بيتنا بيتاً لك، وتصادقنا وتؤاخينا؟». وكان الرجل يوحي بقبول كل ما كان يقول الأمير، والوكيل يردد: «كذا ومائة كذا».

مضىٰ وقت، فأحضر خوان[11] الطعام، وأجلس الأمير الرجل بالقرب منه، وجعل يتناول أشياء من الطعام ويضعها أمامه باستمرار، ويلاطفه ويكرمه كثيراً. ولما رفع الطعام وغسل الحاضرون أيديهم وانصرفوا، ولم يبقَ سوى الخاصة، التفت الأمير نحو الرجل وقال: «اعلم أن لي في هذه المدينة أصدقاء كثيرين يستجيبون لي بمحض الإشارة. ولو أطلب إليهم خمسة أو عشرة آلاف دينار لقدموها إليّ حالاً عن طيب خاطر، لأنهم كانوا يفيدون كثيراً من التعامل معي، وأنه لم يلحق بأحدهم أدنى ضرر نتيجة لذلك. إنني لآمل في أن تتوثق عرى الصداقة والود بيننا. على الرغم من كثرة الذين هم على استعداد لقرضي، فإنني في حاجة إلى عشرة آلاف دينار، أرجو أن تمدني بها، على أن أعيدها إليك إبان الموسم بعد أربعة أو خمسة شهور، ومعها خلعة. إنني لعلى ثقة من أنك تملك المبلغ، بل أضعافه، وأنك لن ترد طلبي». فقال الرجل، من فرط خجله وحسن استقبال الأمير له: «الحق ما يقول الأمير. غير أنني من أصحاب الدكاكين التي تقدر بألف أو ألفين. وينبغي ألا يقال للعظماء سوى الحقيقة. إن كل ما أقدر عليه ستمائة دينار جمعتها بمشقة على مر الزمن، وهي ما أبيع به

(١٠) خواجة: لقب من أسمى الألقاب في ذلك الوقت. أطلقه السلطان محمود الغزنوي على أبي المظفر البرغشي الذي كان وزيراً للسامانيين والذي عرض عليه محمود نفسه الوزارة عدة مرات فأبى(تاريخ البيهقي- الترجمة العربية- ص٨٠١).

(١١) الكلمة فارسية الأصل.

وأشتري في السوق الآن». فقال الأمير: «في خزانتي كثير من الذهب الدرستي[١٢]، لكنه لا يناسب الأمر الذي أريد. ما الفائدة التي تجنيها من بيعك وشرائك القليل هذا؟ اعطني الستمائة دينار، وخذ عليّ سنداً بسبعمائة دينار بشهادة شهود عدول على أن أردها إليك في الموسم القادم، ومعها خلعة جميلة». وقال الوكيل: «إنك لا تعرف أميرنا إلى الآن. فليس في أركان الدولة من هو أصدق معاملة منه». فقال الرجل: «الحق ما يقول الأمير. إن هذا القدر الذي أملك من الذهب لا يدعو إلى الرفض والتردد». ثم أعطاه المبلغ وأخذ عليه سنداً.

وأزف الموعد. وبعد عشرة أيام ذهب الرجل للسلام على الأمير، ولم ينبس ببنت شفة، لأنه قال في نفسه: «سيعلم الأمير حين يراني أنني جئت أطلب ذهبي».

واستمر على هذا المنوال، فانقضى على المدة شهران رأى الرجل الأمير أكثر من عشر مرات، لكنه كان يتجاهل أن الرجل إنما كان يجيء في طلب ماله، أو أن عليه هو أن يدفع إليه شيئاً.

لما رأى الرجل تجاهل الأمير. كتب رسالة سلّمها بيده إلى الأمير نفسه، فقال: «إنني في حاجة إلى ذهبي الحقير. لقد مضى على الأجل شهران. ألا يتفضل الأمير بالإيعاز إلى الوكيل بردّه إلى هذا الخادم». فقال الأمير: «إنك تظن أنني في غفلة من أمرك. لتهدأ بالاً، وتصبر بضعة أيام، فإنني في صدد تهيئة مالك الذي سأرسله إليك في مغلف مختوم بيد أحد رجالي المعتمدين».

وصبر الرجل شهرين آخرين دون أن يرى للذهب أثراً. وعاود الكرّة، فذهب إلى قصر الأمير، وكتب إليه رسالة أخرى، وكلّمه تكليماً أيضاً. فوعده الأمير مرات كذباً. وظل الرجل يذهب مرة كل يومين أو ثلاثة مطالباً، لكن دون جدوى إلى أن مضى على الأجل ثمانية أشهر.

لقد أعوز الرجل. فشفّع أهل المدينة، ومضى إلى القاضي وناشده باسم الشرع. ولم يبق أحد من العظماء إلا وكلّم الأمير في أمره وتشفع له عنده، لكن دون جدوى أيضاً. وانقضت سنة ونصف، وهو لا يطيع أوامر القضاء والشرع، ولا يستمع لما كان يقول وجهاء المدينة وأكابرها.

عجز الرجل، ورضي بالتنازل عن الفائدة وعن مائة دينار من أصل المبلغ أيضاً، لكن لا حياة لمن تنادي. وفقد الأمل في وساطة كل العظماء، وأعياه التردد هنا وهناك، وأسلم أمره لله عزّ وجلّ. ومضى إلى مسجد «فضلومند»[١٣] وصلّى عدة ركعات، وشكا أمره إلى الله تعالى في بكاء ونشيج،

(١٢) هذا النوع من الذهب لم يكن رائجاً. فقد كان من السكة العادية التي كثيراً ما كان يضربها السلاطين والأمراء للإنعام والهبات والعطايا. (إقبال: حاشية ٣ ص ٥٩).

(١٣) لم يستطع أي من المحققين الثلاثة الذين اعتمدتهم في هذه الترجمة أن يحصل على معلومات عن هذا المسجد.

وهو يقول: «يا رب. أنت المغيث، فأوصلني إلى حقي، وأنصفني من هذا الظالم». واتفق أن كان في المسجد درويش يسمع بكاء الرجل وتضرعه. فرقّ له قلبه. ولما انتهى من تضرعه، قال الدرويش له: «يا شيخ، ما الذي دهاك حتى تتأوه هكذا؟ أخبرني». فقال: «لقد وصلت بي الحال حدًّا لا يفيد معه القول إلى أي مخلوق إلا أن يستجيب الله تعالى لي». فقال الدرويش: «قل لي، فلا بد أن تكون ثمة أسباب». فقال الرجل: «يا أيها الدرويش، إن الخليفة هو الوحيد الذي أخبره بالأمر. لقد أخبرت كل أمراء المدينة وعظمائها وولجت باب القاضي، لكن دون جدوى. فما الفائدة من أن أقول لك؟». قال: «إنني ممن يقال لهم إن لم يفدك قولك لي، فإنه لن يضرك، ألم تسمع قول الحكماء: على كل ذي ألم أن يبوح للآخرين بألمه، فلربما وجد العلاج عند أقلهم شأناً. إن تقصَّ علي أمرك فقد تجد له مخرجاً، وإلا فلن تصير حالتك إلى أسوأ مما هي عليه». فقال الرجل في نفسه: «صحيح ما يقول»، وقصَّ عليه قصته.

لما سمع الدرويش قصة حال الرجل قال: «أيها الرجل الشهم. لقد وجدت مخرجاً لما أنت فيه من بلاء ما إن قلت لي، ليطمئن قلبك. إن تنفّذ ما أقوله، تسترد ذهبك اليوم». قال الرجل: «ما أفعل»؟ قال الدرويش: «امض الآن إلى المسجد ذي المئذنة في المكان الفلاني. إن بجانب المسجد بوابة بعدها دكان حيث يجلس هناك رجل عجوز في ملابس رثة مرقعة يخيط الكرابيس[١٤]، وعنده صبيّان أجيران يعاونانه في ذلك. اذهب إلى الدكان، وسلِّم على الرجل، واجلس عنده، ثم قص عليه قصتك. وحين تظفر بحقك، ادع لي بالخير. وإياك أن تتوانى في تنفيذ ما قلت لك».

خرج الرجل من المسجد، وهو يفكر في نفسه: «يا للعجب! لقد شفّعت كل العظماء والأمراء، فتولوا قضيتي، وتكلموا في أمري، ووقفوا إلى جانبي دون جدوى، والآن يرشدني هذا الدرويش إلى رجل عجوز، ويقول: ستصل به إلى حقك». إنه كذب وباطل، لكن ما العمل؟! لأذهب، وليكن ما يكون، إن لم تكن ثمة فائدة، فلن تصير الأمور إلى أسوأ مما هي عليه».

ومضى إلى باب المسجد، فالدكان، ودخل، فسلم على الشيخ وجلس عنده. ومضت مدة، والشيخ منهمك في خياطته التي تركها جانباً بعد ذلك، وقال للرجل: «ما بك؟». فقص عليه قصته من أوّلها إلى آخرها، وأخبره بدخوله المسجد وتضرعه هناك، وسؤال الدرويش له، وإرشاده إليه.

لما سمع الخياط العجوز القصة، قال: «إن الله، عزّ وجلّ، هو الذي يدبّر أمور العباد، أما نحن فلا نملك سوى الكلام. سأكلم خصمك في أمرك، وأسأل الله تعالى أن يدبر لك أمرك ويوصلك إلى

(١٤) الكرابيس: جمع كرباس، فارسي معرب. وهو الثوب يصنع من القطن. وبائعه كرابيسي. وقد جاء على سبيل المثال في كلام لعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما. (اللسان: كربس).

حقك. أسند ظهرك إلى الحائط واسترح قليلاً». ثم قال لأحد الصبيين: «ضع الإبرة جانباً، واذهب إلى سراي الأمير فلان، واجلس في الحجرة الخاصة، ثم قل لمن يدخل إليها أو يخرج منها أن يخبر الأمير بأن أجير الخياط فلان هنا، وهو يحمل إليك خبراً». فحين يطلبك وتراه، سلم عليه، وقل: «إن سيدي يسلم عليك، ويقول: جاءني رجل يتظلّم منك، ومعه سند بمبلغ سبعمائة دينار بإقرارك أنت وقد مضى على أجله عام ونصف. أريدك أن تعيد إليه الآن ماله كاملاً، دونما توانٍ أو تقصير. ثم عُدْ لي بجوابه حالاً».

نهض الصبي، ومضى مسرعاً إلى قصر الأمير، أما أنا فقد[15] تملكني العجب. لأنه ما من ملك يرسل حتى إلى أقل عبيده ما حمّل الخياط الصبي من كلام إلى الأمير. وإن هي إلّا مدة وعاد الصبي، فقال لسيده: «لقد نفذت ما أمرتني به. قابلت الأمير، ونقلت إليه ما كلفتني به. فنهض من مكانه، وقال: أبلغ سيدك سلامي وشكري وقل له: إني منفذ ما أمرت به. الساعة أجيء ومعي الذهب الذي سأعطيه صاحبه بحضورك، وأعتذر عن التأخر والتقصير».

ولم تكد تمر ساعة، فإذا الأمير، ومعه القائم على الركائب[16] وخادمان. فنزل عن فرسه، ودخل الدكان وسلم، وقبّل يد الخياط وجلس أمامه. ثم تناول صرة ذهب من الخادم، وقال: «هذا هو الذهب، حتى لا تظن أنني كنت أرغب في أكل أموال هذا الرجل الشهم بالباطل. لم أكن السبب فيما بدا من تقصير، بل الوكلاء». ثم اعتذر كثيراً، وقال لأحد الخادمين: «اذهب، وائت من هذه السوق بصرّاف معه ميزان». فذهب الخادم، وأحضر صرافاً. ونقد الصراف الذهب ووزنه، فكان خمسمائة دينار خليفتي. قال الأمير: «ليأخذ هذه الخمسمائة دينار مني اليوم، وسأدعوه بعد عودتي من البلاط غداً، وأعطيه المائتين الأخريين راجياً عفوه، وطالباً رضاه. سأعمل ما يصل به إليك الثناء عليّ غداً قبل صلاة الظهر». فقال الخياط: «ضع الخمسمائة دينار إلى جانب صاحبها، ونفذ ما قلت، ولا تتراجع عنه». فقال: «هذا ما سأفعله». ثم وضع الذهب بجانبي، وقبّل يد الخياط، ومضى لشأنه. أما أنا فلم أكن أدري ما الحال التي كنت فيها لعجبي وفرحتي. وما كان مني إلا أن مددت يدي وتناولت الميزان، فوزنت مائة دينار ووضعتها أمام الخياط العجوز، فقال: «ما هذا؟». قلت: «لقد رضيت أن أسترد مالي ناقصاً مائة دينار. لكنني سأسترد المبلغ كاملاً، نتيجة تدخلك وسعيك الحميد.

---

(١٥) عدّ «دارك» التحول من الغائب إلى المتكلم شيئاً غير متوقع هنا. (التعليقات ص ٣٣٥).

(١٦) ترجمة لكلمة «ركابدار». وقد استعمل مترجما «تاريخ البيهقي» اللفظة كما هي فيما نصّا عليه في كشاف المصطلحات التاريخية بذيل الكتاب.

إن هذه المائة دينار ليست سوى تقدير لجهدك، وقد بذلتها لك عن طيب خاطر مني». فالتفت الرجل حانقاً عابساً، وقال: «إنني لفي غبطة الآن، لأنني استطعت بكلامي أن أخلص مسلماً مما هو فيه من حزن وضيق وبلاء. إنني لو أستحل لنفسي درهماً واحداً من مالك، أكون أظلم لك من هذا التركي. انهض وامض بما أخذت من ذهب بسلامة الله. أما إذا لم يعطك الأمير المائتي دينار الأخرى، فأخبرني. ولتعرف بعد الآن من هم الأشخاص الذين تتعامل معهم». وبعد أن بذلت أقصى جهدي لإقناعه بالقبول، وهو يرفض، قمت من عنده وانصرفت إلى منزلي فرحاً مسروراً، ونمت ليلتي تلك قرير العين.

في ضحى اليوم التالي إذ كنت جالساً في بيتي، جاء رسول الأمير في طلبي، وقال: «يقول الأمير: أرجو أن تكلف نفسك عناء الحضور إلى قصري». فمضيت، ولما دخلت عليه، قام في وجهي وأجلسني في مكان أثير، وأخذ يشتم وكلاءه ويلعنهم وينحي باللائمة عليهم قائلاً: «إنهم هم الذين قصّروا، أما أنا فكنت مشغولاً بخدمة الملك وقضاء أعماله». ثم قال للموكل بالخزانة[١٧]: «إليّ بكيس[١٨] ذهب وميزان». ووزن مائتي دينار وناولنيها، فشكرت له ونهضت لأنصرف، لكنه قال: «اجلس قليلاً». وأحضر الطعام. وبعد أن أكلنا وغسلنا أيدينا، همس في أذن أحد الخدم شيئاً، فذهب الخادم، وأحضر خلعة في الحال، وقال الأمير: «ألبسه»، فألبست جبة ثمينة، وعمامة مقصّبة، ثم قال الأمير لي: «هل رضيت عني بقلب سليم؟» قلت: «أجل». قال: «أعد إليّ سندي، واذهب الآن إلى الخياط العجوز، وقل له: «لقد استرددت حقي كاملاً، وإنني عن فلان لراضٍ». قلت: «سأفعل، لأنه هو نفسه طلب إليّ أن أخبره غداً». ومضيت من قصر الأمير إلى الخياط، وقلت له: «لقد استدعاني الأمير وأكرمني، ودفع إليّ بقية ذهبي، ووصلني بهذه الجبة وهذه العمامة، وليس هذا في رأيي إلا من بركة كلامك، فماذا يحدث لو قبلت مني مائتي دينار؟». لكنه، على الرغم من كثرة ما حاولت، لم يقبل. ثم نهضت وعدت إلى دكاني فرحاً مسروراً.

وفي اليوم التالي أعددت حملاً وعدداً من الدجاج المقلي وذهبت بها إلى الخياط، ومعي طبق حلوى وكعك أيضاً. وقلت: «يا شيخ، إنك لا تقبل ذهباً، فأرجو، لكي يدخل السرور على قلبي، أن تقبل مني هذا القدر من المأكولات تبركاً، فهو من كسبي الحلال». فقال: «قبلت». ومدّ يده وشرع يأكل من طعامي، ويناول أجيريه. ثم قلت له: «إن لي عندك حاجة، إن تقضها أقل». قال: «قل». قلت: «لقد كلّم كل أشراف بغداد وأمرائها الأمير في أمري، فلم يستمع لأحد، ولقد عجز القاضي عنه أيضاً. فلمَ

(١٧) ترجمة لاصطلاح: خزينة دار.

(١٨) الكلمة معربة عن الفارسية.

استجاب لكلامك، ونفَّذ كلَّ ما قلت حالاً، ورد إليّ ذهبي؟ ما سبب حرمتك هذه عنده؟ قل لي، لأعرفه». قال: «أوَما تدري خبري مع أمير المؤمنين؟. قلت: «لا». قال: «اصغ إليّ، وهاكَ ما أقول».

قال: «اعلم أنني أؤذن على مئذنة هذا المسجد منذ ثلاثين سنة، وأكسب رزقي من الخياطة. لم أشرب الخمرة، ولم أرتكب الزنا أو اللواط، أو أقترف الأعمال القبيحة قط. ومنذ ذلك الوقت وأنا أسكن هنا في حي أحد الأمراء. وذات يوم، صلّيت العصر وخرجت من المسجد متجهاً إلى الدكان، فإذا ذلك الأمير، سكران، ممسك بعباءة امرأة شابة يدفعها عنوة، وهي تصرخ وتقول: «أيها المسلمون، أغيثوني فلست من هذا الصنف من النساء! إنني ابنة فلان وزوج فلان، وبيتنا في المكان الفلاني، والناس كلهم يعرفونني بالستر والصلاح. إن هذا التركي يجرني عنوة لقضاء مآربه الدنيئة. لقد أقسم زوجي أنه سيطلقني إن تغيبت عن المنزل الليلة». لقد كانت تبكي وتستغيث دون أن يهب لنجدتها أحد. لأن هذا التركي كان عظيماً ومهيمناً، وكان له عشرة آلاف فارس، ولم يكن أحد يجرؤ على أن يكلمه حرفاً. غير أنني صرخت لمدة قصيرة لكن دون جدوى إذ مضى بالمرأة إلى قصره. وثارت في نفسي، لذلك التعدي والظلم، الحمية الدينية وعيلَ صبري. فذهبت وجمعت شيوخ الحي، ثم مضينا جميعاً إلى قصره، فاعترضنا، وصرخنا بأعلى أصواتنا: «ألم يبقَ ببغداد مسلم حتى تساق فيها امرأة من الشارع كرهاً على سمع الخليفة وبصره لارتكاب الفاحشة معها؟! إن تترك المرأة فبها ونعمت، وإلا فها نحن أولاء ماضون إلى بلاط المعتصم نشكوك إليه». ولما سمع الأمير صراخنا، خرج إلينا مع غلمانه، فأوجعونا ضرباً، وكسروا أيدينا وأرجلنا.

لما رأينا الأمر على هذه الحال، لُذنا بالفرار وتفرقنا. وكان الوقت عشاء، فأدّيت الصلاة. وبعد مدة، ارتديت ثياب نومي واضطجعت على الأرض، لكن لم تغمض لي عين لشدة ما كنت فيه من إعياء وغيرة. واستغرقت في تفكير عميق إلى أن مضى من الليل نصفه، وقلت في نفسي: إن كان يريد فساداً فقد حقق بغيته، الأمر الذي لا يمكن تلافيه، وهذا أسوأ من قسم زوج المرأة عليها بالطلاق إن هي تغيبت عن البيت ليلاً. لكنني سمعت أن المدمنين ينامون حين يأخذ منهم السكر مأخذه، وأنهم حين يفيقون لا يدركون كم مضى من الليل. حينئذٍ صممت على أن أصعد إلى المئذنة وأؤذن للصلاة فلربما يظن التركي حين سماع الآذان أن النهار قد وضح، فيطلق سراح المرأة ويخرجها من قصره. ولا بد لها بعد ذلك من أن تمر بالقرب من باب المسجد. أما أنا، فسأنزل بعد الأذان حالاً وأقف بالباب في انتظارها، لأوصلها إلى بيت زوجها حتى لا تدفع المسكينة طلاقها وخراب بيتها ثمناً لما حدث.

ونفذت ما فكّرت به: فصعدت إلى المئذنة وأذنت للصلاة، وأمير المؤمنين المعتصم لما ينم. فلما سمع

الأذان في غير وقته غضب غضباً شديداً، وقال: «إن من يؤذن في نصف الليل لمفسد، لأن كل من يسمع الأذان، يظن أن الفجر قد طلع، فإذا ما خرج من بيته يبتليه العسس»[١٩]. وأمر أحد خدمه أن «اذهب، وقل لحاجب الباب: إنني – أي المعتصم – أريدك أن تذهب الآن وتحضر المؤذن الذي رفع الأذان في نصف الليل، لأعاقبه عقاباً شديداً، كي لا يرفع أي مؤذن الأذان في غير موعده بعد ذلك».

وعلى حين كنت واقفاً بباب المسجد أنتظر المرأة، إذا الحاجب يتهادى وبيده سراج. فلما رآني قال: «أأنت الذي أذنت للصلاة؟» قلت: «بلى». قال: «لماذا أذّنت في غير وقت؟ لقد استنكره الخليفة جداً، وهو لهذا ساخط عليك كثيراً، فأرسلني في طلبك لتأديبك». قلت: «الحكم ما يراه الخليفة، إلا أن شخصاً سيئ الخلق حملني على أن أرفع الأذان في غير وقته». قال: «فمن يكون هذا؟» قلت: «هو الذي لا يخشى الله، ولا يخاف الخليفة». قال: «ومن ذا الذي كانت له الجرأة على ذلك؟».قلت: «هذا أمر لا أبوح به لغير أمير المؤمنين، أما إن كنت أذنت متعمداً لشيء في نفسي، فإن أيّة عقوبة يقضي بها الخليفة ستكون قليلة بحقي».قال: «بسم الله. هيا بنا إلى الخليفة». ولما وصلنا إلى مدخل القصر، كان الخادم في انتظارنا. فقال الحاجب للخادم كل ما قلته له. وهرع الخادم إلى المعتصم وأخبره، فقال له: «اذهب، واحضره». وأخذني الخادم إلى المعتصم، فقال لي: «لماذا رفعت الأذان في غير أوانه؟». وسردت عليه قصة التركي مع المرأة من أولها إلى آخرها، فلما سمعها طار صوابه، وقال للخادم: «قل لحاجب الباب: امضِ الآن بمائة فارس إلى قصر الأمير فلان، وقل له: الخليفة يستدعيك. وحين تقبض عليه، أخرج المرأة التي كان ساقها أمس عنوة إلى قصره وخذها إلى بيتها[٢٠]، ثم ادع زوجها إلى الباب وقل له: إن المعتصم يقرؤك السلام، ويتشفع لديك في أمر هذه المرأة، ويقول: لم يكن لها أي ذنب فيما حدث، فعليك أن تحسن معاملتها الآن أكثر من أي وقت مضى. ثم عد إليّ بالأمير بسرعة». أما أنا (الشيخ) فقال لي: «ابق هنا قليلاً».

ثمّ جيء بالأمير إلى المعتصم الذي ما إن وقعت عينه عليه حتى قال له: «يا كذا وكذا[٢١]، ما الذي

---

(١٩) العسس: (بفتح العين والسين) من عسّ يعس، أي طاف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة. والعسس اسم منه. وقد يكون جمعاً لعاس كحارس وحرس. (اللسان: عسس) وقد أثبتّ هذه الكلمة المهجورة لورودها في النص الفارسي.

(٢٠) آثرت أن أترجم هذه العبارة من نسخة إقبال، وعدلت عما في نسختي «شعار» و«دارك» لما فيهما من تناقض. جاء فيهما: «... وخذها إلى بيتها، ومعك هذا الشيخ– الخياط– ورجلان أو ثلاثة رجال آخرين...». أما أنا – الشيخ– فقال لي: «لتبق هنا قليلاً».

(٢١) كناية عن السباب والشتائم.

رأيت من عدم حميتي وغيرتي على الدين الإسلامي، أو من ظلمي الناس؟ وأي خلل طرأ على الإسلام والمسلمين في عهدي؟ ألست أنا الذي خرج من أجل مسلم وقع أسيراً بأيدي الروم من بغداد إلى بلادهم فكسرت جيوشهم، وهزمت قيصرهم، ودمرت بلادهم على مدى ست سنوات؟ أو لست أنا الذي هدم القسطنطينية وأحرقها وبنى فيها المسجد الجامع، ولم يعد قبل أن يخلص ذلك الرجل من قبضتهم[٢٢]؟ إن الذئب والشاة يشربان- في هذه الأيام- من مورد واحد، لعدلي والخوف مني، فكيف تجرؤ على سوق امرأة ببغداد إلى قصرك عنوة، وترتكب معها الفاحشة، وتعتدي على من نهوك وأمروك بالمعروف ضرباً؟!». ثم أمر أن «أحضروا جولقاً[٢٣]، ضعوه - أي الأمير التركي- فيه، ثم احكموا ربطه». ففعلوا. بعد ذلك أمر بمدقين مما يفتّت به الجصّ[٢٤]، وقال: «ليقف واحد في هذا الطرف، وواحد في الطرف الآخر ثم اضرباه إلى أن يصير إرْباً إرْباً». وشرع الرجلان يضربانه فوراً، إلى أن فتتاه تفتيتاً، وقالا: «يا أمير المؤمنين، إن عظامه دقت دقاً». فأمر بأن يحملا الجولق مثلما هو، ويلقياه في نهر دجلة.

بعد ذلك، قال المعتصم لي: «يا شيخ، اعلم أن من لا يخاف الله، لا يخافني أيضاً، في حين أن من يخافه، عزّ وجلّ، لا يقدم على عمل يعاقب به في الدنيا والآخرة. أما هذا الرجل ، فقد لاقى جزاءه، لأنه فعل ما لا يُفعل، وأما أنت، فإنني آمرك من الآن بأن ترفع الأذان في غير وقته كلما علمت بظلم شخص لآخر، أو إيذائه إياه دونما حق، أو لاستخفاف يبدو منه بالشرع، لأطلبك حين سماعه، وأستفسر عن الأمر، وأعاقب المذنب بمثل ما عاقبت به هذا الكلب، وإن يكن ابني أو أخي». ثم أمر لي بصلة وصرفني.

(٢٢) من المعروف، تاريخياً، أن المعتصم حارب الروم استجابة لاستغاثة امرأة، وكان من ذلك فتح عمورية عام ٢٢٣هـ إذ مدحه الشاعر أبو تمام. وقد انتبه عباس إقبال ودارك إلى هذه الأغلاط التاريخية. قال الأول: «هذه الجملة إشارة إلى حملة المعتصم على البلاد المتعلقة بالروم في آسيا الصغرى، وفتح قلعة عمُّورية عام ٢٢٣هـ وأسر كثيرين منهم. أما ما ذكر في هذه القصة من فتح القسطنطينية، وبناء مسجد فيها، وبقاء الخليفة ست سنوات في بلاد الروم فكلها من أغلاط المؤلف التاريخية، وليس لأي منها أساس من الصحة». (حاشية ص ٦٨). ويقول دارك: «ما في (تاريخ گزيده) أن المعتصم إنما غزا بلاد الروم ليخلص امرأة مسلمة وقعت في قبضتهم... ولو أشير هنا إلى امرأة لكان أنسب. لكن كلمة (رجل) هي التي ضبطت في جميع النسخ الخطية». (التعليقات، ص ٣٣٥).

(٢٣) جولق: معرب «جوال» الفارسية. ويقال في عامية بلاد الشام، : «شوال» و«كيس» وهو معرب «كيسه» الفارسية أيضاً.

(٢٤) الجصّ: معرب« گچ» الفارسية.

إن الأشراف والعظماء والخاصة لعلى علم جيد بهذه الحادثة، وإن الأمير لم يعد إليك ذهبك احتراماً لي، بل خوفاً من «الجولق» و«المدق» و«دجلة»، ولو توانى، لصعدت إلى المئذنة ورفعت الأذان في غير موعده، وكان مصيره مصير ذلك التركي».

***

مثل هذه الحكاية كثير. لكنني أكتفي بما ذكرت، ليعلم سيد العالم ما كان عليه الخلفاء والملوك، وكيف أنهم كانوا يحمون الشاة من الذئب، ويعاقبون العمال وولاة الأمور، ويحذرون المفسدين ويقفون لهم بالمرصاد. ثم كيف أنهم حفظوا للدين الإسلامي قوّته وعزّه، وصانوه وأرسوا دعائمه.

الفصل الثامن

في التحقيق والتحري في أمور الدين والشريعة وما إليها

على الملك تحرّي أمور الدين، وإقامة الفرائض والسنن وأوامر الله تعالى، وحفظ حرمة علماء الدين وتأمين أرزاقهم من بيت المال، وإكرام الزهاد والمتقين وتقديرهم. وعليه أن يدعو إليه علماء الدين مرة أو مرتين أسبوعياً ويستمع منهم إلى أوامر الحق، تعالى، وتفسير القرآن الكريم، وأخبار الرسول(ﷺ)، وسير الملوك العدول، وقصص الأنبياء (عليهم السلام). وفي هذه الأثناء يجب ألاّ يشغل نفسه بالتفكير في أي أمر من أمور الدنيا، بل يجب أن يسخّر ذهنه وسمعه للإصغاء إليهم، ثم يطلب منهم أن يتحولوا إلى فريقين يتناظران فيما بينهم. وعليه أن يستوضح عما يغمض عليه، فيعرفه ويحفظه. فإذا ما تكرر منه هذا، تصبح له سجية وعادة، ولن يمضي طويل وقت حتى يحيط بأكثر أحكام الشريعة، وتفسير القرآن، وأخبار الرسول، عليه السلام، ويحفظها، فتتسع أمامه، بذلك، سبل المعرفة بالأمور الدينية والدنيوية، بحيث لا يستطيع أي مبتدع أو صاحب اعتقاد خبيث أن يحرفه عن مسيره. إنما يقوى رأيه، ويعم عدله، وتمحي من مملكته البدع والأهواء، وتتم على يديه الأعمال الجليلة، وتستأصل به جذور الشر والفساد والفتنة، فينقرض المفسدون، ويزداد أهل الصلاح بأساً؛ فيكسب السمعة الحسنة في الدينا، وينجو من عقاب الآخرة. بل يتبوأ أعلى الدرجات فيها، ويثاب ثواباً كبيراً، ثم يزداد إقبال الناس في عهده على العلم أكثر فأكثر. روى ابن عمر[١] رضي الله عنهما، أن الرسول (عليه السلام) قال: «أعدت للعادلين، وأهليهم ومن هم في رعايتهم، قصورٌ من نور في الجنة».

إن الاستقامة في الدين لأجل ما يجب أن يتصف به الملك، لأن الملك والدين صنوان، فأي اضطراب في المملكة، لا بد أن يرافقه اختلال في أمور الدين، فيظهر والحال هذه، المفسدون وأصحاب المذاهب والمعتقدات الخبيثة. وكلما تضعضع أمور الدين يتسرّب الوهن إلى المملكة، فتقوى شوكة المفسدين الذين يتسببون في إقلاق راحة الملك وزوال هيبته، فتظهر البدعة، ويزداد الخارجون والعابثون قوة وبأساً.

(١) أي عبد الله بن عمر.

(أقوال في الموضوع)

يقول سفيان الثوري: «أفضل السلاطين أولئك الذين يجالسون أهل العلم ويخالطونهم، وأسوأ العلماء أولئك الذي يجالسون السلطان ويعاشرونه».

ويقول أردشير: «إن السلطان الذي ليست له القدرة على إصلاح خاصته،لا يستطيع أبداً أن يصلح العامة والرعية. وفي هذا يقول الحق تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[٢]».

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «ليس ثمة شيء أدعى لخراب المملكة وفنائها، وهلاك الرعية، من طول الستارة بين الملك والناس، وليس ثمة شيء أجدى وأهيب في قلوب الناس من قِصَر ستارة الملك، وسهولة الوصول إليه، لاسيّما في أفئدة الولاة والعمال، فهم إذا ما علموا أن لا حجاب بين الملك ورعيّته، لا يقدمون على ظلمها، وأخذ أموال الناس بغير حق».

وقال لقمان الحكيم: «لا صديق أفضل للمرء في الدنيا من العلم، فهو أحسن من الكنز[٣]. لأنك أنت الذي تحمي الكنز، في حين أن العلم هو الذي يحميك».

ويقول الحسن البصري، رحمة الله عليه: «ليس العالم من يعرف العربية أكثر، أو الأقدر على ألفاظ العرب ولغتها، بل هو المحيط بكل علم باللغة التي يجيدها. فإذا ما عرف امرؤ كل أحكام الشريعة، وتفسير القرآن بالتركية والفارسية أو الرومية، ولا يعرف العربية فهو عالم؛ ولو عرف العربية لكان أفضل لأن الله تعالى نزل القرآن بالعربية، وأن محمداً المصطفى(ﷺ) كان عربي اللسان».

***

وحين يشع سنا الإشراق الإلهي على الملك، وتكون له مملكة دعائمها العلم، فإنه يفوز بسعادة الدُّنيا والآخرة، لأنه – والحال هذه – لا يقدم على أي عمل دون دراية به ولا يرضى عن الجهل. ألا ترى أن شهرة من كانوا مسؤولين وملوكاً حكماء طبّقت الآفاق لأن ما شادوه من جلائل الأعمال سيظل يخفق بأسمائهم عالية إلى يوم الدين. من هؤلاء على سبيل المثال: أفريدون[٤]، والإسكندر، وأردشير، وأنوشروان العادل، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعمر بن عبد العزيز – نوّر الله مضجعه–، وهارون الرشيد، والمأمون، والمعتصم، وإسماعيل بن أحمد الساماني، والسلطان محمود

---

(٢) الشعراء: آية ٢١٤.

(٣) كنز: معرب «گنج» الفارسية.

(٤) أفريدون: من ملوك الفرس المعروفين قبل الميلاد.

الغزنوي، رحمة الله عليهم أجمعين. إن أعمالهم جلية للعيان، وهي مسطورة في بطون الكتب والتواريخ، يقرؤها الناس فتلهج ألسنتهم بالدعاء لهم والثناء عليهم.

إحسان عمر بن عبد العزيز

يقال إنه لما حلّ القحط بالناس في عهد عمر بن عبد العزيز، وضاقت بهم السبل، قصده فريق من العرب شاكين إليه. فقالوا: «يا أمير المؤمنين، إنّا نأكل في هذا القحط لحومنا، ونشرب دماءنا، أي أصابنا الهزال واصفرّت وجوهنا لقلة الطعام. إن ما نحتاج إليه في بيت مالك، وهذا المال إمّا لك، وإمّا لله تعالى، وإمّا لعباده. فإن يكن لعباد الله، فنحن منهم، وإن يكن لله فلا حاجة لله به، وإن يكن من أموالك ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾(٥)، وإن يكن من أموالنا فهبنا إياه لننجو من هذا الضيق، فلقد يبست جلودنا على أجسامنا». فرقّ عمر بن عبد العزيز لحالهم وسالت الدموع من عينيه، وقال: «إنني فاعل ما قلتم». وأمر في الحال بقضاء طلبهم، وتلبية حاجتهم. ولما همّوا بالانصراف قال لهم عمر، رحمة الله عليه: «أيها الناس، أين أنتم ذاهبون؟ ألا تعرضون أمري على الله تعالى، مثلما عرضتم أمركم وأمر عباد الله عليّ، أي اذكروني بالخير». فاتجه الناس نحو السماء ورفعوا أيديهم قائلين: «يا ربّ، بعزتك وجلالك، عامل عمر بن العزيز ما عامل به عبادك». وما إن فرغوا من دعائهم، حتى غامت السماء، فنزل المطر مدراراً، وسقطت بَرَدة على آجر قصر عمر، فانشقت نصفين، وإذا ورقة تخرج منها. فلما نظروا فيها وجدوا العبارة الآتية: «هذا براءة من الله العزيز إلى عمر بن عبد العزيز من النار».

وفي هذا الموضوع حكايات كثيرة، حسبنا منها في هذا الفصل ما ذكر.

(٥) يوسف: آية ٨٨. وقد حُرّفت كلمة «وتصدق» في الآية إلى «فتصدق»، فأثبتها المحقّق محرّفة دون أن ينتبه إلى تحريفها. ووقع هذا في طبعة دارك من الكتاب أيضاً (ص ٨٢).

الفصل التاسع

في مشرفي[1] الدولة وكفافهم

يجب إسناد الإشراف إلى من يعتمد عليه اعتماداً تاماً، ليتمكن من الإحاطة بكل ما يجري في البلاط، والإجابة عن كل شيء في أي وقت يطلب إليه ذلك. وعلى المشرف نفسه أن يعين له نائباً أميناً قوياً في كل ناحية ومدينة لمراقبة الأعمال، والإشراف على تحصيل الخراج، ومعرفة كل كبيرة وصغيرة تقع هناك. وعلى هؤلاء ألا يشغلوا أنفسهم بجمع المال لفائدتهم الشخصية وكفافهم، فيكونوا عبئاً على الرعية يرهقها من جديد.

لذا، يجب أن يؤمّن لهم كل ما يحتاجون إليه من بيت المال، حتى لا تكون لهم ثمة حاجة لخيانة ورشوة. وستكون ثمرة استقامتهم في أعمالهم عشرة أمثال، بل مائة مثل لما يعطوه من أموال في حينها.

(١) المشرف: من يعيِّنه السلطان جاسوساً على رسول له لينقل إليه ما يجري في أثناء أداء الرسالة. ومشرف المملكة، هو المكلف بالإشراف العام، والإشراف أهم من عمل صاحب البريد. (تاريخ البيهقي- الترجمة العربية- كشاف المصطلحات التاريخية،ص ٨٠٤).

الفصل العاشر

في أصحاب البريد ومنهي الأخبار وتدبير شؤون المملكة

على الملوك أن يتحرّوا أحوال الرعية والجيش وكل بعيد وقريب، وأن يعرفوا كل كبيرة وصغيرة في المملكة. فإن لم يفعلوا، فسيكون ذا عيباً ومأخذاً يأخذه الناس عليهم ويحملونه محمل الغفلة والتهاون والظلم، ويقولون: إما أن الملك يعلم بأمر الفساد والسرقة والنهب المتفشي في المملكة، وإما أنه لا يعلم. فإن يكن على علم به ولا يمنعه أو يقف في وجهه، فلأنه ظالم وعن الظلم راضٍ، وإلا فهو غافل، قليل الدراية والاطلاع، وكلا الأمرين غير محمود. ولا بد من صاحب البريد.

لقد كان للملوك في كل الأحقاب، في الجاهلية والإسلام، أصحاب برد، في كل المدن. لم يكن يفوتهم العلم بما يحدث من خيرٍ وشر، حتى إذا ما غصب شخص آخر دجاجة أو مِخْلاة تِبْنٍ على مرمى خمسمائة فرسخ، فإن الملك كان يعلمه، ويأمر بتأديبه ومعاقبته، ليعرف الآخرون أنه يقظ، وأن له مخبرين في كل مكان، وأنه يضرب على أيدي الظالمين. فكان الناس ينصرفون إلى الكسب والإعمار والبناء في ظل الأمن والعدل.

إن هذه المهمة دقيقة وشاقة، يجب أن يعهد بها لمن لا يساء الظن بهم وبألسنتهم وأقلامهم، ولا يجرون وراء أغراضهم ومصالحهم الخاصة، لأن صلاح المملكة وفسادها مرهون بهم. ويجب أن يعيّن هؤلاء من لدن الملك نفسه، وأن تُدفع لهم أجورهم ورواتبهم من الخزانة كي يقوموا بواجباتهم على النحو الأفضل، وهم مطمئنو البال . ويجب ألا يعرف أحد، غير الملك، بالمهام التي يؤدونها، حتى إذا ما أخبر بأمر جديد يقضي بما يراه مناسباً، فينال كل شخص ما يستحق من عقاب وجزاء أو مكافأة وهبة وتقدير بغتة ودون أن يدري.

وإذا ما سارت الأمور على هذا النحو ، يحرص الناس على طاعة الملك والخوف من عقابه دائماً، ولن يجرؤ أحد على عصيانه والخروج عليه، أو حتى مجرد التفكير في ذلك. إن وجود مهمة صاحب

البريد ومنهي الأخبار لدليل على عدل الملك ويقظته وقوة رأيه، وعلى إعمار الدولة أيضاً.

حكاية لصوص كوج وبلوج[١]

يقال إنه لما استولى السلطان محمود على العراق سرق لصوص من كوج وبلوج، التي كانت تابعة لولاية كرمان، بضاعة امرأة كانت في إحدى القوافل النازلة بـ«دير الجص».[٢] فمضت المرأة إلى السلطان محمود تشكو إليه قائلة: «لقد سرق اللصوص ما بحوزتي من بضاعة بدير الجص، فإما أن تستردها، وإمّا أن تعوضني بها»، فقال محمود: «أين يقع دير الجص؟». قالت المرأة: «خذ من الولايات ما تستطيع أن تعرف ما يدور فيها وتوفيها حقها وتحفظها!». فقال: «حق ما تقولين، ولكن أتدرين من أي قوم كان أولئك اللصوص، ومن أين أتوا؟». قالت: « من كوج وبلوج، وقد جاءوا من قرب كرمان». قال محمود: «ذلك المكان بعيد عن متناول اليد، وهو خارج عن نطاق ولايتي، ولا حكم لي على لصوصه». فقالت المرأة : «أي سلطان أنت ولا تستطيع أن تدير ولايتك؟! وأي راعٍ أنت، ولا تستطيع أن تحمي الشاة من الذئب؟! شتّان بيني وبينك! أنا في ضعفي وانفرادي، وأنت في قوتك وجيشك!» فترقرقت في عينَي محمود الدموع، وقال: «حقّ ما تقولين، ما أنا فاعله الآن هو أن أعوضك عن بضاعتك. أما اللصوص، فسأعمل على التصرف بشأنهم ما وسعني جهدي».

وأمر بتعويض المرأة عن بضاعتها من الخزانة، ثم كتب إلى أبي علي الياس[٣] أمير كرمان، و«تيز»[٤] الرسالة الآتية: «لم يكن هدفي من القدوم إلى العراق الاستيلاء عليها، فقد كنت في غزو وجهاد مستمر بالهند. لكنني أتيتها لكثرة الرسائل المتعاقبة التي كانت تصل إليّ من المسلمين، وكلها

---

(١) يقال أيضاً إن كوج وبلوج اسم طائفة من سكان الصحراء كانت تقيم في الجبال في أطراف كرمان (فرهنگ نفيسي).

(٢) دير الجص أو القبة المجصصة ترجمة «دير گچي» الفارسية. وهو مكان كان يقع بين أصفهان والري في نحو نصف الطريق في المفازة بين كركس كوه (جبل النسر) وسياه كوه (الجبل الأسود). ويقال إنه كان رباطاً حصيناً، كانت – على ما ذكر الاصطخري- تسكنه بذرقة (حامية) للسلطان (بلدان الخلافة الشرقية ٢٤٣-٢٤٤، وانظر أيضاً عباس إقبال، حاشية ص ٧٦).

(٣) يقول عباس إقبال: «لا يمكن، بأية حال من الأحوال، أن يكون أبو علي محمد بن الياس أمير كرمان الذي توفي عام ٣٥٦هـ معاصراً للسلطان محمود الذي تولى الملك عام ٣٨٧هـ. علاوة على أن أسرة آل الياس انقرضت عام ٣٥٧هـ على يد قادة عضد الدولة الديلمي، وانتقلت كرمان إلى حوزة آل بويه. ولما قدم السلطان محمود إلى العراق عام ٤٢٠هـ ، كانت كرمان تحت تصرف أبي كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة الديلمي. إن هذا الخطأ تاريخي آخر من أخطاء مؤلف سياست نامه». (إقبال : حاشية ١ ص ٧ ثم انظر: الفصل السابع من هذا الكتاب أيضاً).

(٤) تيز (بالكسر): بلدة على ساحل بحر مكران أو السند، وفي قبالتها من الغرب أرض عُمان (معجم البلدان).

تتحدث عن فساد الديالمة وظلمهم بالعراق، وإظهارهم البدعة والجهر بها، ونصبهم الكمائن على ملتقى الطرق ومعابرها. فكلما مرت امرأة أو غلام طرير وسيم، ينقضّون عليهم ويأخذونهم عنوة ويرتكبون الفاحشة معهم. ثم إنهم يخضّبون أيدي المرد وأرجلهم بالحناء ويحتفظون بهم إلى المدة التي يشاؤون، ويطلقونهم بعد ذلك. كما أنهم يلعنون صحابة رسول الله (عليه السلام) علانية، ويقذفون عائشة الصدّيقة رضي الله عنها، - وهي أم المؤمنين- بالزنا. ثم إن المستقطعين يحصّلون الخراج من الزُّراع مرتين أو ثلاثاً في السنة ويفعلون ما يحلو لهم. أما الملك الذي يلقّبونه «مجد الدولة» فاقتنع بأن يخلعوا عليه لقب «ملك الملوك»، وله من الأزواج تسع دخل بهن شرعاً. وأما الرعية، فإنهم يظهرون مذهب الزنادقة والباطنية علانية في كل مكان بالمدن والأطراف، ويسفّهون الله والرسول ويشتمونهما، وينفون الخالق على الملأ، وينكرون الصلاة والصوم والحج والزكاة. فلا المستقطعون يزجرونهم عن أقوال الكفر هذه، ولا هم يقولون للمستقطعين: لماذا تسبون صحابة رسول الله (عليهم السلام) وتعيثون في الناس ظلماً وفساداً؟ إن كلا الفريقين يؤازر الآخر.

فلما أخبرت بحقيقة الحال، آثرت هذا الأمر على غزو الهند، واتجهت نحو العراق وسلطت جيش الترك، الذين هم حنفيون وأنقى المسلمين، على رقاب الديالمة والزنادقة والباطنية، لاستئصال جذورهم. فمنهم من قتل بسيوفهم، ومنهم من كبّل بالأغلال وزجّ به في السجن، ومنهم من تشتّت في الآفاق. ثم أسندت كل الأعمال والمهام إلى سادة خراسان وولاتها وحكامها، فهم من الحنفية أو الشافعية الأطهار. إن هاتين الطائفتين أعداء للرافضة والباطنية وكل الخارجين على الدين، وعلى وئام مع الأتراك. ثم نحيت كل الكتبة العراقيين، لعلمي أن أكثرهم من تلك الفئات الباغية، وأنهم يفسدون على الترك أعمالهم. كل هذا لكي أصفّي العراق من أصحاب المذاهب الخبيثة والمعتقدات السيئة في مدة قليلة بعون الله عزّ وجلّ. فالله تعالى خلقنا لهذا، وولاّنا الخلق لنمحو المفسدين من على وجه المعمور، ونحمي أهل الصلاح، ونملأ الأرض عدلاً وسخاء ورحمة.

وفي غضون هذا، بلغنا أن جماعة من مفسدي كوج وبلوج سطوا على استراحة دير الجص، وسرقوا منها مالاً. أريدك أن تقبض عليهم، وتسترد الأموال منهم، ثم تشنقهم جميعاً، أو ترسلهم بما سرقوا مكبّلي الأيدي إلى الري. فأنّى لهم الجرأة على تجاوز كرمان إلى ولايتي وقطع الطرق فيها؟! وإلا فليست كرمان أبعد من سومنات، سأدفع بالجيوش إليها وأبتليها بالحرب والدمار».

لما أوصل الرسول الرسالة خاف أبو علي الياس كثيراً، وأكرم وفادته حالاً، وحمّله بشتى أنواع الجواهر واللآلئ البحرية النادرة، وبدر الذهب والفضة هدايا إلى السلطان محمود، وكتب إليه يقول:

«إنني مولاك ومطيع أوامرك. ألا يعلم مولاي جيداً حال مولاه وولاية كرمان؟! وإلا فإنني لا أرضى بالفساد أبداً. إن أهل كرمان كلهم سنّيون وأهل خير وصلاح. أما سلسلة جبال كوج وبلوج فاقتطعت عن كرمان وهي ذات جبال ومعابر حصينة، وطرقات وعرة.. إنني عاجز عنهم، فأغلبهم لصوص ومفسدون وقطاع طرق، وهم يهددون أمن طريق تمتد إلى مائتي فرسخ بالنهب والسرقة. إنهم خلق كثير، لا حول لي عليهم ولا قوة. إن السلطان لأقدر مني، وفي استطاعته اليوم التصدي لهم في شتى أنحاء الأرض. وإنني لأضع نفسي رهن إشارته».

لما وصلت إلى محمود رسالة أبي علي وهداياه تبيّن له صدق كل ما يقول، فأعاد رسوله إليه بخلعة خاصة، وقال له: قل لأبي علي: عليك أن تجمع جيش كرمان وتطوف به في الولاية كلها. وفي شهر كذا تقدّم سراً إلى حدود كرمان في الجانب الذي فيه كوج وبلوج وانزل هناك. وحين يصل إليك رسولنا بإشارة كذا، تحرك فوراً واحمل على ولاية كوج وبلوج واقتل من تجد من فتيانهم ولا تؤمنهم أبداً، واسلب من شيوخهم ونسائهم أموالاً وأرسلها إليّ حتى أوزّعها على من يدّعون هنا أنهم سلبوهم أموالهم. ثم اعقد معهم عهداً وميثاقاً محكماً، وعد بعد ذلك».

بعد أن سيَّر السلطان رسول أبي علي، أمر منادياً ينادي: «على التجار المتوجهين إلى (تيز) عن طريق كرمان أن يهيّئوا أنفسهم ويعدّوا أحمالهم، فإنني مرسل معهم حامية تحميهم. ولكم عليّ عهد أن أعوضكم عن بضائعكم من الخزانة إذا ما استولى عليها لصوص كوج وبلوج».

فما إن شاع هذا الخبر في الناس، حتى توارد عدد كبير من التجار على الري من الأطراف، فسيّرهم السلطان محمود في وقت معين يرافقهم أمير على رأس حامية قوامها مائة وخمسون فارساً، وقال لهم، تثبيتاً لعزائمهم: «لتهدأوا بالاً، فإنني مرسل في أثركم جيشاً». وعلى حين كان يسيِّر الحامية استدعى إليه أميرها سراً وأعطاه زجاجة سمّ قاتل، وقال له: «حين تصل إلى أصفهان، توقف بها إلى أن يعد تجارها أنفسهم وينضموا إليكم. وعليك أن تشتري في هذه الأثناء عشرة أحمال[٥] من أجود تفاح أصفهان، وتحملها على عشرة جمال تبثها بين جمال التجار حين تتركون المدينة، ثم تمضي بالقافلة إلى أن تصل إلى مكان سيصل إليه اللصوص في اليوم التالي لوصولكم إليه. وعليك في تلك الليلة، أن تضع الأحمال في خيمة وتبعثر تفاحها وتثقب كل تفاحة بمسلة، ثم تعدّ عيداناً خشبية أكبر من الإبرة

---

(٥) حمل هنا ترجمة للفظة «خروار» أي حمل حمار، وهو عبارة عن مائة منّ، ويستعمل الاصطلاح الفارسي نفسه لحمل البعير والحصان أيضاً. (فرهنگ نفيسي). لكنه يقال لحمل البعير في العربية «وَسْق» (بفتح الواو وكسرها وسكون السين)، ولحمل البغل أو الحمار «وِقْر» (بكسر الواو وسكون القاف). (اللسان- وسق ووقر، ومفاتيح العلوم ص ١١).

بقليل وتغط كل واحد منها في السم، ثم تولجه في ثقب التفاحة إلى أن تسمم التفاح جميعه بهذه الطريقة. بعد ذلك نضد التفاح في أقفاص يتخللها القطن، وفي اليوم التالي، بثّ جمالك العشرة بين الجمال الأخرى، وواصل مسيرك. وحين يظهر اللصوص، ويستولون على القافلة لا تتصدى لقتالهم البتة، فهم كثر وأنتم قلة. وما عليك إلا أن تتراجع حالاً بمن معك من حملة السلاح خيالة وراجلين إلى ما يقرب من نصف فرسخ أو أكثر، ثم تنتظر مدة تتقدم بعدها نحو اللصوص الذين لا شك في هلاك أكثرهم حينئذٍ لأكلهم من التفاح. حينئذٍ أشرع فيهم السيوف واقتل بقيتهم، وطارد فلولهم ما استطعت وأهلكهم. ولما تنتهي من القضاء عليهم أرسل عشرة من خيرة الفرسان بخاتمي إلى أبي علي الياس فوراً، وأخبره بما فعلنا بلصوص كوج وبلوج، وقل له: «التحمل أنت الآن بجيشك على ولايتهم، فهي خلو من الشباب والأقوياء والغوغائيين من مثيري الفتنة والشغب، ثم نفّذ ما أمرناك به». أما أنت فامض بالقافلة إلى كرمان وإذا ما التحقت آنذاك بأبي علي فلا ضير. قال الأمير: «سمعاً وطاعة، سأنفّذ ما أمرتني به. إن قلبي يحدثني بأن هذا الأمر سيتحقق لدولة مولاي، وإن تلك الطريق ستفتح في وجه المسلمين إلى يوم يبعثون». وانصرف من عند السلطان، وقاد القافلة إلى أصفهان حيث اشترى خمسة أحمال تفاحاً، ثم واصل سيره إلى كرمان. وكان اللصوص قد أرسلوا عيونهم إلى أصفهان، فأنموا إليهم أن : «ثمة قافلة بآلاف الدواب محملة بنعمٍ وخيراتٍ لا يعلم مقدارها إلا الله، عزّ وجلّ، وإنه لم يُرَ لهذه القافلة التي تحميها حامية من مائة وخمسين فارساً تركياً، نظير منذ ألف سنة». ففرح اللصوص أشد الفرح حتى إنه لم يبق في شتى أنحاء كوج وبلوج عيّار وشاطر وحامل سلاح إلا أخبروه واستدعوه إلى أن احتشد منهم على الطريق أربعة آلاف رجل بكامل أسلحتهم في انتظار القافلة.

لما وصل الأمير بالقافلة إلى منزلٍ من منازل الطريق أخبره القاطنون بأن آلاف اللصوص قد استلموا طريقكم، وهم في انتظاركم منذ أيام. سألهم الأمير: «كم فرسخاً يبعد المكان الذي هم فيه؟» قالوا: «خمسة فراسخ». ولما سمع من في القافلة هذا أصابهم الفزع واستولى عليهم الذعر، فحطوا هناك الرّحال.

ومع صلاة العصر، استدعى الأمير جميع خفر البضائع وحامية القافلة ورجالها، وشجّعهم، ثم قال: «أخبروني، أيهما أعزّ النفس أو المال؟». قالوا جميعهم: «النفس».قال: «إن الأموال أموالكم، أمّا نحن فسنرخّص أرواحنا فداء لكم دونها حزن أو أسف، فلمَ تتجرعون الأحزان، إذاً، على ثروة وأموال ستعوضون عنها؟ إن محموداً ليس بغاضب عليكم أو عليّ حتى يدفع بنا إلى الهلاك، بل إنه سيّرنا في

مهمة يستردّ بها الأموال التي سلبها اللصوص من المرأة بدير الجص، فماذا تظنون؟ أتحسبون أنه يرغب في أن يستولي اللصوص على أموالكم؟! لتهدأوا بالاً، فهو ليس في غفلة عنا. لقد أخبرني شيئاً، هو أن مدده سيلحق بنا غداً مع شروق الشمس، وستكون الأمور في صالحنا إن شاء الله. أما أنتم فما عليكم إلا أن تنفّذوا ما أقول، ففيه نفعكم وصالحكم».

لما سمع القوم كلامه فرحوا ودبّت الشجاعة والقوة في قلوبهم، وقالوا: «سننفّذ كل ما تأمرنا به». قال: «ليتقدم مني كل من لديه منكم سلاح يقوى على استعماله». فتقدم منه عدد، فلما عدّهم كانوا ثلاثمائة وسبعين فتى بين خيال وراجل، وفيهم رجاله هو أي أفراد حاميته. ثم قال لهم: «بما أننا سنتقدم الليلة، فعلى الخيالة أن يبقوا معي في مقدمة القافلة، والراجلين في مؤخرتها. فمن عادة هؤلاء اللصوص أنهم ينهبون الأموال دون أن يقتلوا أحداً إلا من يتصدّى لهم ويشتبك معهم. سنصل إليهم غداً، والشمس على ارتفاع رمحين. وحين يحملون على القافلة، لوذوا بالفرار، فأنا الذي سألجأ إلى الكرّ والفرّ معهم إلى أن تتواروا إلى مسافة فرسخ، وحينذاك أكرّ راجعاً إليكم وألتحق بكم ونصبر ثمة مدة نعود جميعنا بعدها ونحمل عليهم، وسترون العجائب. كذا أمرت، وإنني أعرف شيئاً في الموضوع لا تعرفونه، لكنكم ستعرفونه غداً، فيبين لكم آنذاك صدق قولي، وهمّة السُّلطان محمود». فقالوا بصوت واحد: «إننا لفاعلون». وعادوا.

ولما أرخى الليل سدوله، فضّ الأمير أحمال التفاح ودسّ السُّم فيها جميعاً، ثم أعادها ثانية، وندب خمسة من رجاله للجمال العشرة التي تحمل التفاح، وقال لهم: «حين ننهزم ويقع اللصوص في القافلة ويأخذون في فض الأحمال عليكم بدفع أحمال التفاح وفتح الأقفاص، وقلبها رأساً على عقب، والابتعاد بعد ذلك». وبعد منتصف الليل، أمرهم بالتقدم، فتقدموا على نحو ما اتفقوا عليه إلى أن وضح النهار. ولما ارتفعت الشمس في الأفق طلع اللصوص عليهم من ثلاثة جوانب وحملوا على القافلة، وسيوفهم مشرعة. فكرّ الأمير عليهم مرتين أو ثلاثاً ورماهم ببضعة سهام، ثم أطلق ساقيه للريح. أمّا الراجلون، ففروا حين رأوا اللصوص، ولحق الأمير بهم على بعد نصف فرسخ حيث جمعهم في مكان واحد هناك.

لما رأى اللصوص قلة عدد أفراد الحامية وفرارهم وانهزام أفراد القافلة، أخذتهم الغبطة فجعلوا يفتحون الأحمال باطمئنان تام ويعبثون بالبضائع. فلما وصلوا إلى التفاح، أخذوا يتساقطون عليه ويغيرون، ويأكلون بنهم وشره، ويناولون كل من لا يستطيع الوصول إليه. وقلة أولئك الذين لم يأكلوا منه. وبعد ساعة، بدأوا يتساقطون واحداً تلو الآخر ويموتون.

بعد مضي ساعتين ، وقف الأمير على نَشَز من الأرض وحيداً ينظر إلى القافلة واللصوص، فإذا الآدميون يملأون الصحراء بعد أن تساقطوا. فنزل، والفرحة تغمره، وقال: «يا قوم، أبشركم بوصول مدد السلطان محمود، وقتلهم اللصوص الذين لم يبقَ منهم أحد. هيا بنا، أيها الليوث، ننقضُّ عليهم لنقتل بقيّتهم» . واتجه برجاله نحو القافلة، وتبعهم الراجلون بسرعة. فلما وصلوا إلى مكان القافلة وجدوا الصحراء تغص بالموتى الذين ألقوا بأسلحتهم من تروس وسيوف وسهام وقسي. أما من ظلوا أحياء منهم، فلما رأوا العسكر لاذوا بالفرار. لكن الأمير، ومعه الراجلون، مضوا في أثرهم وظلوا يطاردونهم إلى مدى فرسخين، ولم يعودوا إلا بعد أن أفنوهم جميعاً بحيث لم ينجُ من بينهم أحدٌ ينقل إلى ولايتهم أخبار ما حدث.

ثم أمر الأمير بجمع أسلحة اللصوص، التي بلغت عدة أحمال. وتقدم بالقافلة مرحلة أخرى دون أن يلحق أدنى ضرر بأحد من أفرادها، بل كادوا، لفرحهم، يخرجون من جلودهم. وكان بينهم وبين أبي علي الياس اثنا عشر فرسخاً فقط، فأرسل إليه الأمير الغلمان العشرة[٦] بخاتم السلطان محمود على جناح السرعة لإخباره بما حدث.

لما وصل الخاتم إلى أبي علي توجه، فوراً، بجيشه الذي كان على أهبة الاستعداد إلى ولاية كوج وبلوج، وانضمَّ إليه الأمير فشرعوا السيوف وقتلوا ما يزيد على عشرة آلاف رجل من أهلها، واستولوا على آلاف الدنانير، وغنموا ثروات طائلة ونعماً وأسلحة ومواشي لا تحد، أرسلها أبو علي كلها إلى السلطان محمود مع الأمير. حينئذٍ أمر السلطان بأن ينادى في الناس : «على من سلبهم لصوص كوج وبلوج شيئاً منذ جئت العراق أن يأتوا إليّ، لأعوضهم عنه». فأمَّهُ المدعون جميعهم، وعادوا فرحين. وانقضت خمسون سنة دون أن يبدو من الكوجيين والبلوجيين أي سوء أو تعدٍ.

ومنذ ذلك الوقت، بثّ السلطان محمود أصحاب البريد ومنهي الأخبار في كل مكان، حتى إنه كان يعرف، وهو بالري، ما إذا غصب شخص آخر دجاجة في غزنين، أو صفعه على وجهه دون حق، فيأمر بمجازاته. وقد درج الملوك على هذا منذ القدم إلا آل سلجوق الذين لم يأبهوا لهذا الأمر.

ألب أرسلان وصاحب البريد

لما قال أبو الفضل السجستاني[٧] للسلطان الشهيد ألب أرسلان، أنار الله برهانه: «لم لا يوجد

---

(٦) في نسختنا (ص ١٠٤) ونسخة دارك (ص ٩٤): فأرسل إليه غلامين(دو غلام) خلافاً لما جاء في وصية السلطان محمود للأمير في (ص ١٠٠) و (ص٩١) على التوالي، في حين أنه لا تغيير في نسخة عباس إقبال (ص ٨١و٨٤).

(٧) هو أبو نصر بن أحمد الذي كان أميراً على سجستان للسلطان محمود. كانت وفاته عام ٤٦٥هـ (انظر تاريخ سيستان «سجستان»، تصحيح ملك الشعراء بهار. ص ٣٦٢-٣٦٣و٣٨١-٣٨٢ ومواطن أخرى أيضاً.

لك صاحب بريد؟»، أجابه: «أتريد أن تذرو ملكي الرياح، وتفرّق عني أنصاري؟». قال: «لماذا؟». قال السلطان: «إذا ما اتخذت صاحب بريد، فإن محبيّ والمقربين مني لن يأبهوا له أو يدفعوا إليه رشوة لصداقتهم لنا وقربهم منا. أما أعدائي، فسيصادقونه ويغدقون عليه الأموال. وما دام الأمر كذلك، فإن صاحب البريد لا ينهي إلينا سوى الأخبار السيئة عن الأصدقاء، والأخبار الحسنة عن الأعداء. وما الأخبار السيئة والحسنة إلا كرمايتك عدداً من السهام التي لا بدّ أن يصيب أحدها الهدف في النهاية. وهذا مدعاة لأن يزيد حقدنا على الأصدقاء والمخلصين يوماً عن يوم، فننبذهم ونحل الأعداء محلهم. وحين نتلفت حوالينا نجد أن جميع الأصدقاء والمحبين قد ابتعدوا عنا في مدة يسيرة، وأن الأعداء والحاقدين أخذوا أمكنتهم وحلوا فيها، وحينئذٍ تختل الأمور اختلالاً يصعب تلافيه».

* * *

لكن من الأولى اتخاذ صاحب بريد، فهذا الأمر قاعدة من قواعد الملك. فإذا ما كان صاحب البريد ثقة على النحو الذي يجب أن يكون، فإن الملك لا يشغل باله في أي أمر من الأمور التي ذكرنا.

الفصل الحادي عشر

في تعظيم الأوامر السامية
والمراسيم الصادرة عن البلاط

الرسائل التي تصدر عن البلاط كثيرة، وكلما كثرت فقدت حرمتها. فإذا لم يكن ثمة أمر مهم يجب ألا يصدر عن الديوان العالي أمر خطي البتة، وإذا ما صدر شيء يجب أن تكون له حرمته إلى حد لا يجرؤ معه أحد على وضعه من يده قبل أن يطيع كل ما فيه من أوامر ويلبيها. وإذا ما وجد من ينظر إليه بعين الاحتقار، أو ينبذه ظهرياً فيجب أن يعاقب عقاباً شديداً، ولو كان من المقربين؛ فالفرق بين الملك وغيره من المستقطعين والناس، هو تنفيذ أوامره وإجراء أحكامه.

حكاية في هذا المعنى

(السلطان محمود وعامل نيسابور العاصي)

قيل: ذهبت امرأة من نيسابور إلى غزنين، ودخلت على السلطان محمود فشكت إليه قائلة: «إن عامل نيسابور استولى على ضياعي وضمّها إليه». فأعطاها السلطان رسالة إليه تقول: «ردّ إليها ضياعها». فقال العامل، الذي كان معه سند بالضياع: «إن الضياع ضياعي وسأعرض أمرها على البلاط». فعادت المرأة إلى غزنين متظلمة من جديد. فأرسل محمود هذه المرة إلى العامل غلاماً أحضره من نيسابور إلى غزنين، وأمر بجلده ألف جلدة عند مدخل القصر. لقد حاول - دون جدوى - التشفع بشراء تلك الجلدات بعشرين ألف دينار نيسابوري[١]، لكن السلطان قال له: «ما دامت الضياع ملكك فلم لم تصدع للأمر أولاً، ثم تعرض المسألة لنأمر ما نراه حقًّا فيها؟». فما إن سمع الناس الخبر لم يتجرّأ أحد على عصيان أوامر الملك أو التواني في تنفيذها.

وهكذا في كل أمر يخصّ الملك وحده، فإن تنفيذه أو الأمر بتنفيذه منوط به هو فقط. ومن هذا القبيل: إنزال العقوبة، وضرب العنق، وبتر اليد أو الرجل، وخصي الخدم، وغيرها من العقوبات

(١) كانت كل ثلاثة دنانير مغربية تساوي ثلاثة دنانير ونصف الدينار نيسابورية.

الأخرى. فإذا ما قام أحد بتنفيذ أيّ من هذه الأمور دون إذن الملك وأمره، حتى في خدمه وعبيده، فعلى الملك ألا يقرّه عليه، بل يجب أن يعاقبه ليعرف الآخرون أقدار أنفسهم، ويلتزموا حدودهم، وتكون لهم فيه عبرة.

حكاية أبرويز وبهرام جوبين

يقال إن أبرويز كان يعزّ بهرام جوبين ويكرمه أول الأمر، حتى إنه لم يكن يفارقه ساعة واحدة أو يركب إلى صيد، ويجلس إلى شراب، وينفرد في خلوة دونه. وكان بهرام هذا فارساً فذّاً ومبارزاً عديم النظير.

وذات يوم، جيء إلى الملك أبرويز بثلاثمائة بعير حُمْر النعم من عمال هراة وَسَرَخْس محمَّلة بالبضائع والأمتعة المختلفة، فأمر بتحويلها، فيما هي عليه، إلى قصر بهرام جوبين، لتوسع عليه في مطبخه.

وفي اليوم التالي: أخبر أبرويز بأن: «بهرام جوبين ألقى في تلك الليلة بأحد غلمانه أرضاً وجلده عشرين جلدة». فغضب أبرويز وأمر بإحضار بهرام. فلما حضر، أمر الملك بإحضار خمسمائة سيف من دار الأسلحة، وقال: «يا بهرام اختر أحسنها» فاختارها جميعاً. فقال الملك: «اختر من هذه أحسنها أيضاً». فاستحسن بهرام عشرة سيوف منها. فقال أبرويز: «اختر من العشرة اثنين». ففعل. فقال أبرويز: «والآن مُرْهم أن يضعوا هذين السيفين في غمد واحد». قال بهرام: «يا مولاي، إن الغمد لا يتسع لسيفين». فقال أبرويز: «فكيف يحكم حاكمان بلداً واحداً إذاً؟». ففهم بهرام ما قصد إليه الملك حالاً وأدرك خطأه، فقبّل الأرض بين يديه، والتمس عفوه. فقال أبرويز: «لو لم يكن لك عليّ حق خدمة، ولا أريد أن أحط من علي من رفعته بنفسي، لما عفوت عنك. فالله عزّ وجلّ، ملّكنا نحن الأرض لا أنت. إن كل ما يحتاج إلى حكم وقضاء يجب أن يحال إلينا لنقضي به بالحق. فإذا ما بدا بعد الآن من خدمك وعبيدك ذنب، يجب أن تخبرنا أولاً لنأمر بما يستحق المذنب من جزاء كي لا يُمس أحد بأذى دون حق. لقد عفونا عنك هذه المرة».

هكذا خاطب أبرويز بهرام جوبين وقد كان قائد جيشه، فما بالك بغيره؟!

الفصل الثاني عشر

في إرسال الغلمان في المهمات من البلاط

كثيراً ما يُرسل الغلمان في مهام من البلاط؛ بعضهم بأمر وأكثرهم دون أمر؛ وفي هذا إرهاق للناس واستنزاف لأموالهم. مثال ذلك أنه قد يكون المبلغ المطلوب تحصيله مئتي دينار، لكن حين يذهب الغلام يطلب خمسمائة. وهكذا يستنزف الناس ويصيرون فقراء.

يجب ألا يرسل أي غلام ما لم تكن ثمة مهمة، وألا يكون إرساله دون أمر، وأن ينبّه عليه بأن «المبلغ المطلوب تحصيله كذا، فلا تأخذ أنت أكثر من هذا أجراً»، لتجري الأمور في نصابها.

الفصل الثالث عشر

في إرسال الجواسيس وتسخيرهم لصلاح المملكة والرعية

يجب بثّ العيون في كل الأطراف دائماً في زي تجّار وسيّاح ومتصوّفة وبائعي أدوية ودراويش لنقل كل ما يسمعون من أخبار حتى لا يظل ثمة شيء خافياً، وحتى يمكن تلافي أي طارئ جديد في حينه. فما أكثر ما كان الولاة والمستقطعون والعمال والأمراء يضمرون للملك خلافاً وعصياناً ويتربصون به الدوائر سراً، لكن الجواسيس كانوا يكتشفون ذلك ويخبرون الملك به، فيركب من وقته وينقضّ عليهم بغتة، فيحيق بهم ويحبط مآربهم ومقاصدهم. وكانوا، إذا ما عرفوا بأن ملكاً ما أو جيشاً أجنبياً ينوي الهجوم على المملكة يخبرون الملك، فيأخذ للأمر أهبته ويدفعه. وكانوا ينهون أخبار الرعية خيرها وشرها، فيتعهدها الملوك بدورهم، مثلما كان يفعل عضد الدولة.

عضد الدولة والقاضي الخائن

لم يكن من بين ملوك الديالمة من هو أعظم وأكثر يقظة وأبعد نظراً من عضد الدولة، إذ كان سياسياً عالي الهمة، محباً للإصلاح والعمران. كتب إليه أحد عيونه يوماً: «ما إن ابتعدت مائتي خطوة عن مدخل المدينة في طريقي إلى المهمة التي بعثت من أجلها، فإذا شاب أصفر اللون، على وجهه وعنقه آثار جروح، يقف على حافة الطريق. لما رآني حيّاني، فرددت عليه تحيته، وسألته: «لماذا أنت واقف؟». قال: «أنشد رفيقاً أصحبه إلى مدينة فيها ملك عادل وقاضٍ منصف». فقلت له: «أتعي ما تقول؟!، أتنشد ملكاً أعدل من عضد الدولة وقاضياً أعلم من قاضي مدينتنا؟». قال: «لو كان الملك عادلاً يقظاً لكان القاضي أميناً. فلقد أدركت غفلة الملك من خيانة القاضي». قلت: «ما بدا لك من غفلة الملك وانحراف القاضي؟». قال: «إن قصتي طويلة، لكنها قصرت برحيلي عن هذه المدينة». قلت: «بإمكانك أن تطلعني عليها طبعاً». قال: «هيا بنا نقطع بالحديث طريقنا».

ولما أخذنا في المسير، قال: «اعلم إنني ابن فلان التاجر الذي يقع قصره في مكان كذا من هذه المدينة.

والناس كلهم يعرفون أي رجل كان والدي، وما كان له من مال وثروة. خلاصة الأمر، أنه لما انتقل والدي إلى جوار ربه، أطلقت لهواي العنان وسُمْت سرح اللهو وعاقرت ابنة الكرم سنوات، فابتليت بمرض عضال فقدت معه كل أملٍ بالشفاء. ونذرت نذراً لله تعالى، إنني سأحجّ وأغزو إذا ما شفيت من مرضي. ومنّ الله، تعالى، بالشفاء عليّ، وقمت من المرض سالماً. وعقدت العزم على الحج، ثم الغزو، وأعتقت جواريّ وغلماني جميعاً، ووهبتهم مالاً وبيوتاً وضياعاً، وألّفت بينهم بالزواج. ثم بعت ما كان لي من أسباب وضياع ومستغلات بخمسين ألف دينار ذهباً.

وقلت في نفسي بأنني مقدم على سفرين محفوفين بالمخاطر، فليس صواباً أن أحمل الذهب كله معي. ورأيت أن أحمل ثلاثين ألفاً وأبقي العشرين الأخرى. فاشتريت إبريقي[٢] نحاس، ووضعت في كل منهما عشرة آلاف دينار، وقلت: «والآن عند من أودعها؟» ولم يدلني ضميري إلا على قاضي القضاة من المدينة كلها. وقلت في نفسي: «إنه رجل عالم وقاض، وقد اعتمده الملك ووكل إليه دماء المسلمين وأموالهم، إنه لن يخونني على أي حال». فمضيت إليه وكلمته بالأمر سرًّا، فقبل هو وسررت أنا. ونهضت سحراً، وحملت الإبريقين إلى بيته ووضعتها عنده وديعة. ثم مضيت في سبيلي، فأدّيت فريضة الحج، وتوجهت من مكة والمدينة إلى بلاد الروم، والتحقت بالغزاة وقضيت سنوات أجاهد في سبيل الله. وفي إحدى المعارك مع الكفار أصبت بجروح في مواطن من وجهي وعنقي وركبتي وفخذي، ووقعت أسيراً بيد الروم، وأمضيت أربع سنوات في أغلالهم وسجنهم إلى الوقت الذي ابتلي فيه القيصر بمرض، فأطلق سراح جميع الأسرى. وبعد فكاكي من الأسر، التحقت بالمطوعة وخدمت في صفوفهم. ولما هيأت نفقات طريق العودة قفلت راجعاً على أمل أنني كنت قد أودعت قاضي بغداد عشرين ألف دينار. بعد عشر سنوات عدت إلى بغداد صفر اليدين، رثّ الملابس، هزيل الجسم لشدة ما قاسيت من مشاق السفر وآلام ضنك العيش في تلك المدة. وذهبت إلى القاضي، فسلّمت عليه، وجلست عنده، وانصرفت. وتردّدت عليه، على هذه الحال، يومين. ولما لم يقل لي شيئاً ذهبت إليه في اليوم الثالث، وجلست طويلاً. فلما لم يبق أحد اقتربت منه، وقلت له بهدوء وبطء: «أنا فلان ابن فلان. قد حججت وغزوت وعانيت المتاعب والآلام. وأنفقت كل ما أخذت معي من مال وعدت بالحال، التي تراني عليها، لا ألوي على شيء. إنني في حاجة، الآن، إلى إبريقيّ الذهب اللذين ادخرتها عندك لمثل هذه الأيام العصيبة». لم يجب القاضي بقليل أو كثير حتى إنه لم يكلف نفسه أن يسألني: «ما تقول أنت، ومع من؟». ونهض إلى حجرته وتركني، فعدت كسير الفؤاد. وكنت

(٢) مفردها إبريق، وهي معربة عن «أبريز» الفارسية.

أخجل، لما كنت فيه من حال سيئة وعري، أن أذهب إلى منزل أحد أصدقائي وذوي قرباي. بل كنت أنام في المسجد ليلاً وأتوارى في إحدى الزوايا نهاراً. ولِمَ أطيل عليك القصة؟! لقد طرقت معه الموضوع مرتين، لكنه لم يجب بشيء. وفي اليوم السابع كلمته بحدة وشدة، فقال لي: «إنك مصاب بالهوس، وإن عقلك قد تبلد من تعب الطريق وغبارها، فأخذت تهذي كثيراً. لست أعرفك وليس لدي خبر مما تقول. أما الرجل الذي تذكر اسمه، فكان شابًا وسيم الوجه، ممتلئ الجسم، بهيّ الطلعة، جميل الملبس». قلت: «أيها القاضي، أنا نفسي ذلك الشاب، لكن سبب هزالي وصفرتي ما قضيته من عيش سيئ في تلك المدة. أما قبح وجهي وصفرة لونه، فليس إلا بها أصبت به من جروح». قال: «انهض ولا تصدّع رأسي، انهض وامض بالسلامة». قلت: «أيها القاضي، لا تفعل هذا. اتق الله، فبعد هذه الدار دار أخرى، ولكل عمل ثواب وعقاب». قال: «لا تتعبني». قلت: «لك من الذهب حصتان ولي خمس»، فلم يجب. قلت: «أيها القاضي لك أحد الإبريقين حلالاً طيباً، فرد لي الآخر فإنني في عوز شديد. ومع هذا، أوقّع لك براءة تامة بشهادة شهود عدول بأن ليس لي بذمتك شيء». قال القاضي: «لقد أضناك الجنون، وها أنت ذا تدور في فلكه حتى لأستطيع أن أحكم بجنونك وآمر بإدخالك المستشفى ووضعك بالسلاسل والقيود بحيث تبقى ثمّة ما دمت حيًّا».

فخفت،وأيقنت أن الرجل صمّم على غصبي ذهبي، وأن الناس سيجرون على كل ما يحكم به. ونهضت برفق وخرجت من عنده وأنا أردد المثل القائل: «بالملح يُدْرأ فساد اللحم، فبم يدرأ فساد الملح؟». إن القاضي مصدر كل الأحكام، فمن ذا يسلّ العدل منه إذا ظلم؟ فلو كان عضد الدولة عادلاً لما كانت العشرين الألف دينار بيد القاضي، ولما وصلت إلى ما أنا فيه من جوع أو تخليت عن طمعي بمالي وملكي ومرتع صباي».

لما سمع المنهي من الرجل حكاية حاله تألم له ورقّ لحاله، وقال:«أيها الفتى الشهم، إنما تأتي الآمال بعد اليأس. كِلْ أمرك إلى الله، فهو، عزّ وجلّ، الذي يدبّر أمور العباد». ثم قال له: «لي في هذه القرية صديق شهم مضياف، وأنا ذاهب لزيارته. فهل لك - وقد راقتني رفقتك- أن نقضي اليوم والليلة في بيته وننتظر ما يجيء به غد؟». ومضى به إلى منزل صديقه. وبعد أن أكلوا ما تيسر لهم دخل المنهي إحدى الغرف، فشرح حال الرجل في رسالة، وأعطاها أحد القرويين، وقال له: «اذهب إلى قصر عضد الدولة واطلب الخادم فلاناً وسلّمه الرسالة، وقل له: إنها من فلان. يجب أن توصلها حالاً وتأتي بالجواب». ومضى الرسول، وأعطى الرسالة الخادم فأوصلها إلى عضد الدولة حالاً. فلما قرأها عضد الدولة عضّ على إصبعه، وأرسل شخصاً في الحال، وقال: «أريد أن تحضر إليّ الرجل مع

صلاة العشاء». فقال المنهي للشاب: «هيا بنا إلى المدينة، فإن عضد الدولة بعث في طلبنا نحن الإثنين، وهذا الرسول رسوله». فقال: «خير؟». قال المنهي: «لا شيء سوى الخير، ربما تناهى إلى سمعه كل ما كنت تقول لي في الطريق. إنني لآمل أن تصل الآن إلى حقك فتستريح مما أنت فيه من شقاء». فنهض ومضى بالرجل إلى عضد الدولة.

أخلى عضد الدولة المكان، وسأل الشاب عن أمره من جديد، فقصّ عليه القصة – كما كانت – من أولها إلى آخرها. فتأثر عضد الدولة لحاله، وقال: «إن هذا الأمر منوط بنا الآن، لا بك. فالقاضي عاملي، ومعالجة الأمر من واجبي. فالله، عزّ وجلّ، وهبني الملك لأحفظ الحدود وأحميها ولا أدع شخصاً يلحق ضيماً أو ضرراً بآخر، بله القاضي الذي ولّيته أمور المسلمين ووكلت إليه دماءهم وأموالهم، وفرضت له أجراً شهرياً كيما يسيّر أمور الناس بالحق، ويحكم بالشرع لا يميل ولا يحابي ولا يرتشي!. أيقع هذا في عاصمة ملكي من رجل عالم، فتأمل إذاً ما يرتكبه العمال والحكام الشبان، والمتهورون، من خيانات في النواحي الأخرى؟! لقد كان هذا القاضي في بداية أمره، فقيراً وذا عيال، وإن ما فرضت له من أجر شهري لم يكن أكثر مما يكفيه كفاف عيشه. لكنه يملك اليوم في بغداد ونواحيها عدداً من الضياع والعقارات والحدائق والبساتين والمستغلات والقصور، أما آلة منزله وأدوات زينته وتجمله فلا حدّ لها. فمن المؤكد أنه لم يكن في وسعه أن يمتلك كل هذا من أجره الشهري ذاك: بل أقامها بأموال المسلمين. ثم التفت نحو الرجل، وقال: «لن أستمرأ الطعام وألتذ النوم قبل أن أرد إليك حقك. اذهب وخذ نفقاتك من خزينتنا، ثم اترك هذه المدينة إلى أصفهان وأقم بها عند فلان. وسنكتب إليه ليكرم وفادتك إلى أن نطلبك منه». فأعطاه مائتي دينار ذهباً وخمسة أثواب. ثم أنفذ إلى أصفهان في تلك الليلة.

أما عضد الدولة، فقضى ليلته كلّها يفكر في الحيلة التي يستردّ بها المال من القاضي. قال في نفسه: «إن أقبض على القاضي عنوة وأعذبه، فلن يعترف أو يقر أو يلبس نفسه تهمة الخيانة بأية حال من الأحوال، فيذهب المال سدًى، وتلوكني ألسنة الناس الذين لن يكون لهم من حديث سوى أن عضد الدولة يعذب رجلاً كبيراً عالماً قاضياً دون حق، فتشيع هذه السمعة السيئة في الأرجاء. عليّ أن أفكر في حل يثبت خيانة القاضي، ويعيد إلى الرجل ماله».

ولما مضى على هذا الحديث شهر أو اثنان ولم ير القاضي لصاحب الذهب من أثر، قال: «لقد كسبت عشرين ألف دينار، لكن لأصبر سنة أخرى، فقد ينهي إليّ أحد خبر موت الرجل، لأن حاله، التي رأيته عليها، تنمّ على أنه سيقضي قريباً».

بعد مضيّ شهرين على الأمر، أرسل عضد الدولة في ظهيرة أحد الأيام وقت القيلولة إلى القاضي من يستدعيه، فاختلى به، وقال: «أيها القاضي، أتدري لماذا جشَّمْتك عناء المجيء؟». قال: «الملك أدرى». قال عضد الدولة: «اعلم أنني في تفكير دائم بالعاقبة والمصير. ولقد حرمت في هذا التفكير وهذه السوداوية نعمة النوم. لا معوّل على الدنيا ومملكتها، ولا اعتماد على الحياة. فالعاقبة لن تعدو أمرين: فإما أن ينقض علينا طالب ملك وينتزع المملكة منا مثلما انتزعناها نحن من أيدي الآخرين- وتأمَّل ما قاسيته حتى استطعت الوصول إلى الملك مرة واحدة-، وإما أن يجيء الأجل بغتة فيفرق بيننا وبين الملك والسلطان قبل أن تتحقق آمالنا. إن كل نفس ذائقة الموت، وما العمر إلا صحيفة أعمالنا: فإن نكن صالحين نحسن إلى عباد الله، يظل الناس يذكروننا بالخير ويكيلون لنا الثناء ما بقيت الدنيا، وننال ثواب الآخرة وإلى الجنة ونعم المصير. وإن نكن أشراراً نسيء إلى العباد يظلّون يذكروننا بالشر إلى يوم القيامة، وأنهم كلما ذكرونا يلعنوننا ويدعون علينا، ولن نجد يوم القيامة غير الويل والعذاب، وإلى جهنم وبئس المصير. إن كل ما يمكن فعله أن نجهد في الطاعة، وإنصاف الخلق والإحسان إليهم.

ما أقصده من حديثي إليك، هو أن في قصري عدداً من الأطفال والنساء خاصة، وأمر الذكور أيسر، لأنهم كالطيور يستطيعون الانتقال من إقليم إلى آخر. إن خطب هؤلاء المخدَّرات أسوأ، فهن ضعيفات لا حول لهن ولا قوة. إنني لقادر اليوم على التفكير في أمرهن، لكنه قد يدركني الأجل غداً أو يفلت الملك مني، فلا أستطيع أن أقوم لهن بشيء.

لقد فكرت في الأمر مليًّا، فلم أجد في كل أرجاء المملكة اليوم من هو أتقى وأكثر أمانة وتديناً، وخوفاً من الله، وأقصر يداً منك. إنني أرغب في أن أضع عندك مائتي ألف ألف دينار ذهباً نقداً وجواهر وديعة لا يعلمها سوى الله، عزّ وجلّ، ونحن الإثنين. فإذا ما جاءني أجلي ووصلت بهن الحال إلى حد لا يقدرن معه على كسب قوتهن اليومي، أدعهن سراً ودون أن يحس أحد، وقسِّم المال بينهن، ثم زوجهن ستراً لهن كيلا يحتجن أحداً من الناس. إن هذا الأمر يقتضي أن تختار إحدى حجرات بيتك الداخلية، وتنشئ فيها سرداباً[٣] محصناً من الآجر المشوي، ثم تخبرني بعد الانتهاء من بنائه، لآمر في ليلة ما بإحضار عشرين مجرماً من السجناء المحكوم عليهم بالموت لحمل المال على كواهلهم إلى بيتك، ووضعه في السرداب وإحكام سده وتغطيته. وبعد عودتهم آمر بقطع أعناقهم جميعاً، ليظل الأمر طي الكتمان». قال القاضي: «سمعاً وطاعة، سأعمل ما بوسعي لتنفيذ هذا الأمر». ثم همس في أذن أحد

(٣) السرداب فارسية معربة عن «سردآب».

الخدم أن «اذهب إلى الخزينة، وضع مائتي دينار من الذهب المغربي في كيس وعد بها بسرعة».

لما أحضر الذهب، تناوله عضد الدولة ووضعه أمام القاضي، وقال: «مائتا الدينار هذه لبناء السرداب، فإن لا تكفي، أرسل إليك غيرها». قال القاضي. «الله الله أيها الملك، إنني، حتى لو بنيته بمالي الخاص، لا أكون فعلت شيئاً!». قال عضد الدولة: «بشرط ألا تنفق من مالك على شؤوني الخاصة، فذهبك حلالك أنت وحدك، ولا دخْل له بهذا الشأن. إن تنهض بالمهمة التي وقع اختيارنا واعتمادنا عليك فيها، فقد أديت كل شيء». قال القاضي:«الأمر أمرك يا مولاي».

وضع القاضي مائتي الدينار في كمّه وانصرف من عند الملك في حال كاد يخرج فيها من جلده فرحاً، وقال في نفسه: «لقد حالفني الحظ والجاه في شيخوختي. ستمتلك ذريتي الذهب الذي سيصير كله إليّ يوماً إذا ما حان أجل الملك، فليس لأحد سند عليّ. سيصبح الذهب كله من نصيبي ونصيب أولادي. إن صاحب الإبريقين لم يستطع، وهو حي، أن يسترد مني دانقاً واحداً من العشرين ألفاً، فمن سيقدر على الحصول مني على شيء إذا ما مات الملك أو قتل؟».

وأسرع في بناء السرداب الذي فرغ منه، على أحكم حال وأحسنها، في شهر واحد. ثم مضى إلى قصر عضد الدولة عند صلاة العشاء ليلة. فاستدعاه عضد الدولة إليه وحيداً، وقال: «ما الذي أتى بك الساعة؟». قال :«أردت أن أنهي إلى الملك أن السرداب الذي أمر بإنشائه قد تم». قال عضد الدولة: «حسن جداً. لقد كنت أعرف جديتك في الأمور. الحمد لله الذي لم يخيِّب ظني فيك، فإنك أرحت بالي من هذا الأمر الذي لم أكف لحظة عن التفكير فيه. لقد أعددت من المبلغ المذكور ألف ألف وخمسمائة ألف دينار[٤] من الذهب والجواهر، وما أزال في حاجة إلى الخمسمائة الألف الأخرى التي أفردت لها عدداً من الخلع، ومقادير من العود[٥] والعنبر[٦] والمسك[٧] والكافور، وكل شيء، وإنني في انتظار باعة الذهب بين الفينة والفينة، وآمل أن تباع في خلال هذا الأسبوع. وحينذاك تحمل إليك الأموال كلها مرّة واحدة. سأجيء إلى بيتك ليلة غد بغتة لإلقاء نظرة على السرداب وبنائه. غير أنني لا أريدك أن تكلف نفسك شيئاً، لأنني سأعود حالاً». ثم صرف القاضي، وأرسل رسولاً إلى أصفهان في الحال، لإحضار صاحب الذهب.

---

(٤) أي مليون ونصف مليون دينار.

(٥) العود: هو العود الذي يُتبخر به ويُستجمر. وفي الحديث الشريف: «عليكم بالعود الهندي» (اللسان- عود).

(٦) العنبر: الطيب المعروف.

(٧) المسك: معرب مشك (بالشين المعجمة) الفارسية.

في منتصف الليلة التالية، ذهب عضد الدولة إلى منزل القاضي، فرأى السرداب واستحسنه، ثم قال له: «يجب أن تأتي إليّ يوم الثلاثاء لترى ما أعددت من المال». فقال «سمعاً وطاعة». ولما عاد من منزل القاضي، أمر الموكل بالخزينة أن يضع مائة وأربعين إبريقاً مملوءة ذهباً في إحدى الغرف، وأن يضيف إليها ثلاث قوارير مملوءة لؤلؤاً، وكأساً ذهبية مملوءة ياقوتاً، وثانية من لَعْل، وأخرى من فيروز.

لما فرغ الموكل بالخزينة من ذلك، وصل صاحب إبريقي الذهب يوم السبت. استدعى عضد الدولة القاضي، وأمسك بيده وأخذه إلى الغرفة التي وضع فيها المال. بهت القاضي لما رأى الأموال والجواهر، وهاله ذلك. فقال له عضد الدولة:« ترقّب وصول كل هذه الأموال في منتصف إحدى الليالي». ثم تركا الغرفة، وعاد القاضي وفؤاده يخفق فرحاً.

في اليوم التالي، قال عضد الدولة لصاحب الذهب: «أريدك أن تذهب الآن إلى القاضي، وتقول له: لقد صبرت مدة وراعيت لك حرمتك. لن أحتمل أكثر من هذا، فأهلُ المدينة كلهم يعرفونني ويعرفون ما كان لوالدي من مال ونعمة، وهم يشهدون على قولي ويصدقونه في كل مكان. إن تردَّ لي مالي فبها ونعمت، وإلا أذهب الآن إلى عضد الدولة شاكياً متظلماً، وأجر عليك الخزي والعار لتكون فيك للناس عبرة. ثم انتظر جوابه، فإذا أعاد إليك ذهبك أحضره إليّ كما هو، وإلا أخبرني بما جرى».

ذهب الشاب إلى القاضي، وجلس بالقرب منه وقال له ما أمره به عضد الدولة. ففكر القاضي في نفسه أنه «إذا ما شنع هذا الرجل عليّ، وذهب إلى عضد الدولة فسيرتاب في أمري ولا يرسل تلك الأموال إلى بيتي. من الأصوب أن أعيد للرجل ماله، لأن مائة وخمسين إبريقاً مملوءة ذهباً، وعدداً من الجواهر أحسن، على أية حال، في نهاية الأمر من إبريقي ذهب اثنين». وقال للشاب: «اصبر قليلاً، فقد كنت أبحث عنك في شتى أرجاء الدنيا». بعد قليل، نهض القاضي ودخل حجرة ثم نادى على الشاب ووقف إلى جانبه، وقال :«أنت صديقي وابن صديقي، وأنت مني بمنزلة ابني. ما فعلت ذلك معك إلا احتياطاً، ومنذ ذلك الوقت وأنا في طلبك. الحمد لله أنني رأيتك ثانية، لأتخلص من عبء أمانتك. فذهبك ما زال -كما هو- في مكانه». ونهض القاضي فأحضر الإبريقين، وقال: «أهذا ذهبك؟» قال الشاب :«أجل». قال :«اذهب الآن إلى أي مكان تشاء». فخرج الشاب وأتى بحمّالين إلى منزل القاضي، وحمّلهما الإبريقين ومضى بهما إلى قصر عضد الدولة.

وكان عضد الدولة في مجلس فيه جميع كبار الدولة لما دخل الرجل عليه بالإبريقين وسلّم.

فوضعها أمام عضد الدولة الذي استغرق في الضحك، وقال: «الحمد لله أنك توصلت إلى حقك، وأن خيانة القاضي قد ثبتت. أتدري ما التدابير التي اتخذناها والسبل التي اتبعناها حتى توصلت إلى ذهبك؟». وتساءل الحاضرون عن الأمر. فسرد عضد الدولة عليهم حكاية الشاب والسُّبل التي سلكها هو في ذلك، فتملكهم العجب جميعاً. ثم أمر عضد الدولة حاجبه الأكبر أن «اذهب وجئني بقاضي المدينة حاسر الرأس، وعمامته ملفوفة حول عنقه». ولما أحضر القاضي إلى عضد الدولة بهذه الهيئة، ونظر فرأى الشاب واقفاً ثمّة، ورأى الإبريقين أمام عضد الدولة، قال: «واحسرتاه! لقد قضي عليّ». وأدرك أن كلّ ما قاله له عضد الدولة وأظهره عليه لم يكن إلا لأجل هذين الإبريقين. وقال له عضد الدولة: «إن ترتكب أنت خيانة وتضيّع الأمانة، وأنت رجل مسنّ وعالم وقاضٍ، فكيف بالآخرين إذاً؟. لقد بان الآن أن كلّ ما تملك وما أنشأت ليس إلا من أموال المسلمين والرشوة. إنني مجازيك بما تستحق في الدنيا، لكن الله هو الذي يعاقبك في الآخرة؛ وإنني أهبك حياتك لسنك وعلمك، أما أموالك وأملاكك فللخزينة كلّها». وصادر ما كان لديه من أموال وممتلكات، ولم يولّه القضاء أو أي عمل آخر بعد ذلك. ثم أعطى الشاب إبريقي ذهبه كما هما.

السلطان محمود والقاضي الخائن

ووقع للسلطان محمود مثل هذا. فقد ناوله رجل في الطريق شكوى فيها: «وضعت عند قاضي المدينة ألفي دينار في كيس ديباج[٨] أخضر مربوطاً بإحكام ومختوماً وديعة، وذهبت في سفر. غير أن اللصوص على طريق الهند سلبوني كل ما كنت حملت معي. فعدت واستعدت من القاضي وديعتي، لكنني لما وصلت إلى البيت وفتحت الكيس فإذا الذي فيه دنانير نحاسية. فرجعت إلى القاضي، وقلت له: «لقد أودعتك كيساً مليئاً بالذهب، لكن ما فيه الآن نحاس، فأنّى يكون هذا؟! قال: أأريتني الذهب أو وزنته أو عددته لمّا أودعتنيه؟ لقد أودعتني كيساً مربوطاً بإحكام ومختوماً، وهكذا استعدته. حينذاك سألتك: «أهذا هو كيسك والختم ختمك؟»، قلت: «هو عينه»، وأخذته وانصرفت بالسلامة، والآن تأتي بهذا الزعم الباطل!»، الله الله أيها الملك العادل، أغثني، فإنني لا أقدر على رغيف خبز واحد».

تألّم السلطان محمود لحاله، وقال: «لتهدأ بالاً فسأتولى أمرك بنفسي. اذهب وأحضر الكيس». فذهب الرجل وأحضره إلى محمود فقلبه وعاينه بدقة من كل أطرافه لكنه لم يهتد إلى ما يوحي بفتحه.

---

(٨) ديباج: معرب ديبا.

فقال للرجل: «اتركه عندي، وقد جعلت لك ثلاث مناواتِ خبز ومنَّ لحم يومياً، وعشرة دنانير شهرياً من وكيلنا إلى أن أتدبر أمر ذهبك كي لا تبقى دون مؤونة».

في ظهيرة أحد الأيام وقت القيلولة، وضع السلطان محمود الكيس أمامه وجعل يفكر: كيف استطاع ذلك؟ وهداه تفكيره أخيراً إلى أنه ربما فتح الكيس وأخرج ذهبه ثم رُفي ثانية.

وكان لمحمود غطاء مذهب جميل موضوع على أحد المفارش. وفي منتصف إحدى الليالي نهض محمود وهبط من سطح البيت وتناول سكيناً قدّ بها الغطاء مقدار ذراع ثم عاد إلى مكانه. واستيقظ في الصباح الباكر وهبط من على السقف أيضاً، وخرج إلى الصيد لثلاثة أيام.

كان للمكان الذي فيه الغطاء فرّاش خاص يقوم على تنظيفه. فلما ذهب إليه في الصباح وجده مشقوقاً بمقدار ذراع من وسطه، فخاف وغلبه البكاء خوفاً. فلما رآه فرّاش آخر، كان في بيت الفرّاش، يبكي هكذا، سأله: «ماذا حدث؟». قال: «كأن لأحدٍ عندي ثأراً! فقد دلف شخص إلى صُفَّة السلطان وقدّ غطاءه ذراعاً. إن تقع عينه عليه، فسيقتلني لا محالة». فقال له الفرّاش: «هل رآه أحد غيرك؟»: قال: «لا» .قال: «لا تقلق. حل الأمر عندي. فاسمع ما أقول: لقد خرج السلطان للصيد لمدة ثلاثة أيام، وفي هذه المدينة رفاء كهل اسمه أحمد، دكانه في ناحية كذا. إنه ماهر في الرفو، وكل رفائي المدينة تلاميذ له. خذ الغطاء إليه واعطه ما يطلب من أجر، فسيرفوه رفواً لن يستطيع حتى الصفوة المختارة من أساتذة هذا الفن معرفة مكان الشق».

لفّ الفرّاش الغطاء في إزار حالاً، ومضى به إلى دكان أحمد الرّفاء، وقال: «كم تريد من أجر على رفو هذا الغطاء بحيث لا يستطيع أحد أن يعرف مكان شقه؟» قال: «نصف دينار». فقال الفرّاش: «ليكن ديناراً على أن لا تألو فيه من حذقك ومهارتك شيئاً». قال الرفاء:« أشكرك، ولتهدأ بالاً». فأعطاه ديناراً، وقال: «أريده بسرعة». قال: «تعال غداً مع صلاة العصر وخذه».

وفي اليوم التالي، ذهب الفرّاش في الموعد المضروب، فوضع الرفاء الغطاء أمامه فلم يستطع أن يعرف المكان الذي شُقّ منه. فسرّ جداً، وعاد إلى القصر وأعاده إلى مكانه الأول.

لما عاد محمود من الصيد، وذهب إلى صفته ظهراً لينام رأى الغطاء سالماً. فقال: «إليّ بالفرّاش». فلما حضر الفرّاش، قال محمود: «لقد كان الغطاء مشقوقاً، فمن ذا الذي رتقه؟» قال: «يا مولاي، إنه لم يشق قط. هم يكذبون»! قال محمود: «يا أحمق لا تخف، فأنا الذي شققته، وكنت أهدف من وراء هذا شيئاً. أصدقني القول. من ذا الذي رفاه؟ لقد أتقنه حقاً». قال: «يا مولاي، الرفاء فلان» قال:

«أريدك أن تحضره إليّ حالاً. قل له: إن السلطان يريدك، وكي لا تذهب به الظنون كل مذهب، قل له: إنهم يريدونك في القصر لأمر بسيط، فتفضل. وحين يصل أدخله عليّ».

مضى الفرّاش مسرعاً، وأحضر الرفاء بين يدي محمود. فخاف لما رأى السلطان جالساً وحده. لما وقعت عين محمود عليه، قال: «تقدّم يا هذا»، ثم قال له: «أأنت الذي رفوت الغطاء؟» قال: «أجل». قال السلطان: «لقد أتقنته جيداً»، قال: «بحقك يا مولاي، إنني قد أتقنته جيداً». قال محمود: «أيوجد في المدينة أمهر منك؟»، قال: «لا». قال السلطان: «أتصدقني القول إن سألتك شيئاً؟». قال: «ليس ثمة شيء أجدى من الصدق مع الملوك». قال السلطان: «هل رفوت في بيت أحد الأثرياء كيس ديباج أخضر في الست أو السبع السنوات الأخيرة؟» قال: «أجل». قال السلطان: «أين؟». قال: «في بيت قاضي المدينة، وقد أعطاني دينارين أجراً». قال السلطان: «أتعرف الكيس الذي رفوته إن تره؟». قال: «أجل». ومدّ السلطان يده تحت المفرش، فتناول الكيس وأعطاه الرفاء، وقال: «أهذا هو ذلك الكيس؟». قال: «هو نفسه». فقال السلطان: «أين المكان الذي رفوته فيه. أرنيه». ووضع الرفاء إصبعه عليه. فعجب السلطان لمهارته في دقة رفوه، وقال: «أتشهد على القاضي إن دعت الحاجة لذلك؟». قال: «ولم لا؟». فأرسل محمود إلى القاضي رسولاً يستدعيه، وقال لآخر: «ادع لي صاحب الكيس».

حين حضر القاضي، سلم وجلس كالعادة. فالتفت محمود نحوه، وقال: «أنت رجل عالم وعجوز، عهدت إليك بالقضاء، ووليتك أموال المسلمين ودماءهم واعتمدت عليك، في حين أن في هذه المدينة خاصة، ومملكتي عامة ألفي رجل عاطلين -وهم أعلم منك- أفصحيح أن تخون الأمانة وتأكل كلّ مال امرئ مسلم ظلماً وعدواناً، وتتركه محروماً لا يلوي على شيء؟». قال القاضي : «يا مولاي، ما هذا الكلام، ومن ذا الذي يقوله؟ إنني لم أفعل من ذلك شيئاً». فقال محمود: «أيها المنافق الكلب، أنت فعلت ذلك، وأنا الذي أقول هذا». وأراه الكيس، وقال: «هذا هو الكيس الذي فتحته وأخرجت الذهب منه وبدّلت النحاس به ثم أمرت برفوه. ثمّ قلت لصاحبه: لقد أحضرته مربوطاً مختوماً وهكذا استعدته. أوزنت عليّ شيئاً أو أريتنيه؟. أهذه هي سيرتك ومسلكك في أمور الدين؟!». قال القاضي: «إنني لم أر هذا الكيس قط، ولا علم لي بما تقول». فقال محمود : «إليّ بالرجلين». فذهب أحد الخدم، وأحضر صاحب الكيس والرفاء وأدخلهما على محمود، فقال: «يا كذاب، هذا صاحب الذهب، وهذا الذي رفى الكيس من هنا». فخجل القاضي، واصفرّ وجهه، وأخذ يرتجف خوفاً، ولم يستطع التفوه بشيء. فقال محمود: «خذوه وتولوا أمره. وأريده أن يعيد للرجل ذهبه الآن، وإلا أمرت بضرب عنقه، وسآمر بعد ذلك بما يجب فعله». فأخرج القاضي من

عند محمود، ووضع في دار الخفراء حيث قيل له: «سلّم الذهب». فطلب القاضي وكيله ودلّه على مكان الذهب. فذهب الوكيل وأحضر الألفي الدينار، وهي من الذهب النيسابوري، وأعطاها صاحبها.

وفي اليوم التالي، جلس محمود للمظالم وأعلن بحضور الكبراء خيانة القاضي على الملأ. ثم أمر بإحضاره وتعليقه منكّس الرأس من على شرفات القصر. لكن الكبراء تشفّعوا له، بحجّة أنه «رجل مسنّ وعالم»، على أن يفدي نفسه بخمسين ألف دينار. فأنزل بعد ذلك وأخذ المبلغ منه. ولم يوله محمود القضاء بعد تلك الحادثة البتة.

***

إن قصص الملوك من هذا القبيل كثيرة، ذكرت هذا القدر منها ليعلم سيد العالم – خلّد الله ملكه- كيف كان الملوك عَدْلاً وإنصافاً، وكيف كانوا يفكرون في سبيل إيصال المظلومين إلى حقوقهم وردها إليهم، وما السبل التي سلكوها في إزالة المفسدين ومحوهم من على وجه المعمور، وأن الملك ذا الرأي القوي الصائب أجدى من الجيش القوي. أحمد الله أن هذين الأمرين متوافران في مولى العالم.

هذا الفصل وقف على الجواسيس والعيون. إن عملهم يجب أن يولاه المعتمدون فقط. فقد كان الملوك، كلما عثروا على أمثال هؤلاء، يرسلونهم في المهام إلى شتى الأنحاء والأطراف في استمرار.

الفصل الرابع عشر

في الرُسُل والسُعاة

يجب وضع السعاة على الطرق المعروفة دائماً، وتخصيص أجور شهرية ومكافآت لهم، فبهذا يهتمون بنقل ما يقع من أحداث وأخبار ليل نهار من على بعد خمسين فرسخاً. وكما جرت به العادة من قبل، يجب تعيين نقباء لمراقبتهم والإشراف عليهم كي لا يتوانوا في أداء واجباتهم.

الفصل الخامس عشر

في الحيطة في إصدار الأوامر السلطانية في السكر والصحو

إن ما يصل إلى الديوان[١] والخزينة بشأن المهمات والولايات والإقطاع والصلات من أوامر وأحكام، قد يصدر بعضها في حال انتشاء وغبطة. ولدقّة هذا الأمر يجب الحيطة التامة فيه.

ويجب، لما قد يقع من تفاوت فيها بين النقلة أو أنهم لا يسمعونها كما هي، أن تناط بشخص واحد فقط ينقلها بنفسه لا ينيب عنه أحداً. ويشترط عدم تنفيذ هذه الأوامر والعمل بها قبل أن يعرضها الديوان على الأعتاب الملكية مرة أخرى، وإن تعدّد ناقلوها وموصلوها.

(١) لفظة ديوان فارسية الأصل.

الفصل السادس عشر

في الوكيل الخاص
وشروط عمله وأهميته

لقد غدا هذا العمل الذي كان لا يولّاه إلاّ شخص معروف ومحترم مهملاً مهجوراً في هذه الأيام.

على من يتولى الإشراف على شؤون تموين الملك، ومطبخه، وإصطبله[1]، وقصوره الخاصة، وولده وحاشيته، وخدمه أن يوطن نفسه للمثول بين يديه شهرياً، بل يومياً وفي أي وقت، ليعرض الأحوال، وهو العارف بكل ما في المجلس العالي، ويستطلع رأي السلطان، ويطلعه على كل ما يجري وكل ما يعطيه ويأخذه. ويجب أن يكون للوكيل الاحترام التام ليتمكن من القيام بعمله بدقة ونظام.

(١) اختلف في أصل لفظة اصطبل، فقيل هي رومية (الألفاظ الفارسية المعربة، ص٢٥)، وقيل إنها يونانية (فرهنگ نفيسي).

الفصل السابع عشر

في ندماء الملك ومقربيه وتنظيم أمورهم

لا مندوحة للملك من اتخاذ الندماء الأكفياء ممن ينطلق معهم على سجيته ويطارحهم ما يريد دونما حرج، لأن مجالسة الملوك الكبراءَ وحكام الأطراف وقادة الجيش كثيراً تؤثر في هيبتهم وعظمتهم وتقديرهم وتزيد من جسارة أولئك معهم.

وجملة القول: إن على الملوك ألا يتخذوا ندماءهم ممن أسندوا إليهم مناصب ومقامات وأعمالاً، وألّا يسندوا للندماء أي عمل أبداً، لأنهم، بما لهم في رحاب الملك من حظوة قد يتطاولون ويتسببون في إيذاء الناس وإرهاقهم.

العامل يجب أن يهاب الملك دائماً، أما النديم فجرأته وجسارته معه مرغوبة، وإلا فإن الملك لا يستطيب منادمته ولا يهش لها، فطبع الملك ينبسط بالندامى. وللندماء أوقات معلومة، فبعد انفضاض اجتماع الملك بالكبراء وانصرافهم من عنده يبدأ دور الندامى.

وللنديم فوائد عدة، أولها إيناس الملك؛ وثانيها أنه، بحكم وجوده مع الملك ليل نهار، يكون بمثابة الحامي له، والذائد عنه، والمحافظ عليه. فإذا ما حاق به - والعياذ بالله - خطر ما، فإن النديم لا يخشى أن يجعل من نفسه درعاً يدرؤه بها. وثالثها إنه يمكن تقليب الحديث، بجدّه وهزله، مع النديم في حين يتعذر مثل هذا مع الوزراء والكبراء، لأنهم أصحاب مناصب ومقامات، وعمال الملك. ورابعها وآخرها، أنه بحكم جرأة الندامى وجسارتهم يمكن الاستماع منهم إلى أشياء كثيرة، ومعرفة أمور وأحوال عدّة من خير وشر في صحو وسكر، مما لا يخلو من الفائدة والصالح العام.

لكن يجب أن يكون النديم كريم المعدن فاضلاً، وسيماً، نقي المذهب، حافظاً للسر، نظيف الملبس، عارفاً، بكثرة ، للأسمار والقصص والنوادر هزليّها وجديّها، حسن الرواية يعرف لكل مقام مقاله، مجيداً للعب النّرد والشطرنج، وحبذا لو أنه يجيد الغناء والضرب على الآلات الموسيقية. ويجب أن يكون موافقاً للملوك دائماً؛ يردد: «بخ وأحسنت» ما إن ينطق الملك شيئاً أو يفعله، وألاّ ينصّب من

نفسه معلماً يقول: «افعل هذا» و«لا تفعل ذلك» و«لماذا فعلت ذلك؟» و«يجب ألاّ تفعل هذا». فهذه أمور يصعب على الملوك قبولها وتحملها، وهي تجر إلى الكراهية.

أما المعاشرة والتنزه ومجالس الأنس والشراب والصيد واللعب بالطبطابة[1] والميسر وغيرها، فمن الأفضل أن يتدبرها الملوك مع الندماء لأنهم أعدوا لمثل هذا. وأما ما يختص بشؤون المملكة والعمران، والحرب والهجوم والعقوبات والذخائر والصلات والسفر والإقامة والجيش والرعية وأمثال هذا، فمن الأولى تدبره مع الوزراء وكبراء الدولة والمسنين من ذوي التجارب والخبرات والأسفار، فهم في هذه الأمور أخبر وأدرى وأدهى. هكذا يوضع كل أمر في نصابه.

لقد اتخذ بعض الملوك ندماءهم من الأطباء والمنجمين، وقالوا: الطبيب يبين منافع كلّ مأكول ومضاره، وينصح الملك بما يوافقه ولا يوافقه، ويحفظ له سلامة مزاجه. أما المنجم فيرقب الوقت ويعلن عن أوقات السعد والنحس، ويختار وقت كل ما ينوي الملك القيام به من أعمال، في حين عدهما بعض الملوك عبثاً. قالوا: «إن الطبيب، ولا مرض، يحول بيننا وبين الأطعمة الشهية دائماً، ويصف لنا الأدوية؛ ويفصدنا، دون تعب أو ألم. أما المنجم فيمنعنا من مزاولة الأعمال وأداء الواجبات والمهام. وحين تنعم النظر تجد أنهما يحولان دائماً بيننا وبين تحقيق أهدافنا، فضلاً عن لذائذ الدنيا وشهواتها، وينغصان علينا عيشنا. وهذا ما يتطلب استدعاءهما وقت الحاجة فقط».

يفضل أن يكون الندماء من ذوي التجارب والأسفار، وممن خدموا العظماء، والأكابر. فإذا ما أراد الناس التعرف على أخلاق الملك وعاداته، فإنهم يقيسونه بندمائه. فإن يكونوا ذوي أخلاق حميدة وطباع رحبة صُبُراً وذوي شهامة وظرف يدركوا، آنئذ، أن الملك حسن الخلق والطباع، محمود السيرة، حلو الشمائل والعادات؛ وإن يكونوا مقطبي الوجوه متعجرفين، مستخفين، متكبرين، بخلاء رعناء، وممن يطلبون المحال، فإن الناس يستدلون على أن الملك سيئ الطبع والخلق والسيرة، ممسك، شرير، متهور.

ولكل نديم رتبة ومقام، إذ خصصت أماكن لجلوس بعضهم وأماكن لوقوف بعضهم الآخر، فيما كانت العادة قديماً، في مجالس الملوك والخلفاء، وما زال هذا الرسم سارياً في الأسرات العريقة إلى اليوم. فللخليفة من الندماء ما كان لآبائه من قبل.

أما سلطان غزنين، فكان له عشرون نديماً: عشرة جلوس، وعشرة قيام، وقد حذا حذو السامانيين في هذا. يجب أن تكون لندامى الملك رواتب لعيشهم، وحرمة تامة بين حشمه. أما هم فعليهم أن يكونوا متحفظين مهذبين وللملك محبين.

---

(١) الطباطبة خشبة عريضة يلعب بها بالكرة. (اللسان- طبب).

الفصل الثامن عشر

في استشارة الملك للحكماء والمسنين في الأمور

المشاورة في الأمور من قوة رأي المرء وكمال عقله وبعد نظره. فلكل امرئ علم، والناس متفاوتون فيما يعرفون. فثمة كثير العلم والدراية، وآخر قليلهما، ومنهم ذو العلم الذي لم يزاوله ولم تعركه التجارب، وآخر عالم خبير مجرب. فالذي قرأ علاج الآلام والأدواء وحفظ أسماء الأدوية جميعها من بطون الكتب حسب، لا يمكن، بأية حال، أن يقف على قدم المساواة مع من عالج الأمراض والعلل مرات كثيرة وعرف الأدوية عن خبرة وتجربة. ولا يمكن، كذلك، مساواة من سافر كثيراً وطوّف في الآفاق وذاق حرّها وبردها، وعرك الأعمال بنفسه بمن لم يسافر ولم يجُبِ البلدان ويقتحم ميدان العمل، أو يخض غمار الأمور قط. قيل في هذا المعنى: «يجب تدبر الأمور باستشارة الحكماء والمسنين وذوي التجارب والأسفار». ومن الناس، أيضاً، من هو متوقد الذهن يتبين الأمور بسرعة، ومن هو بطيء الفهم. قالت الحكماء: «إن تدبير رجل واحد بقوة رجل واحد، وتدبير اثنين بقوة اثنين، وتدبير عشرة بقوة عشرة».

وعلى أية حال، فطاقة عشرة رجال أكثر من طاقة رجل واحد وأقوى، وخطة عشرة أشخاص أقوى من خطة شخصين أو ثلاثة أو خمسة. والناس قاطبة متفقون على أنه لم يكن في البشر أعلم وأحكم من نبينا محمد المصطفى (ﷺ)، فقد اجتمعت له العلوم كلها، وكان يعرف المستقبل معرفته الماضي، وقد اطلع على السموات والأرض، والجنة والنار، واللوح والقلم، والعرش والكرسي، وما بين كل اثنين منها، وكان جبرائيل (عليه السلام) يهبط عليه دائماً ويوحي إليه بما كان وبما لم يكن. ومع ما كان له من فضائل ومعجزات، فقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1]. ومع أن الرسول(ﷺ) لم يكن في حاجة إلى المشورة، فليعلم أن ليس ثمة مخلوق يمكن أن يكون في غنى عنها.

---

(١) آل عمران: آية ١٥٩.

فعلى الملك، إذاً، إذا ما همّ بعمل ما أو اعترضه أمر أن يستشير مسني مملكته المحنكين ومؤيديها وأولي الأمر فيها، ليدلي كل منهم بما يعنّ له من رأي في الموضوع، ثم تقابل آراؤهم بما يراه الملك. فبعد أن يظهر كل منهم رأيه ويسمع أقوال الآخرين وآراءهم لا بد من بروز الرأي الصواب من بينها جميعاً. والرأي الصائب هو الذي تجمع عليه العقول المتكافئة بأن «هذا هو الذي يجب فعله».

أما عدم المشورة في الأمور فمن ضعف الرأي. ويدعى الشخص من هذا الصنف بالمتشبث أو المستبد برأيه. وكما أنه لا يتسنى القيام بأي عمل بغير أهله، فإن أي أمر لا يستقيم جيداً دون مشورة. أما سيد العالم - خلّد الله ملكه - فقد اجتمع له - والحمد لله- الرأي القوي، وأهل العمل والمشورة، وما هذا القدر الذي ذكر هنا إلا مراعاة لشرط الكتاب.

الفصل التاسع عشر

في المختارين(١) وأسلحتهم ومعداتهم وزينتهم

يجب أن يكون في القصر مائتا رجل من «المختارين» الذين يختارون عادة من حيث المظهر الحسن، والطول الفارع، والرجولة والشجاعة التامتين. ويجب أن يكون مائة منهم من خراسان والمائة الأخرى من الديالمة، ليقوموا جميعاً بملازمة الملك وخدمته في حله وترحاله. ويجب أن يظلوا بألبسة جميلة في القصر دائماً.

ويجب أن تعد لهم مائتا قطعة سلاح تسلم إليهم وتسترد منهم في أوقات معلومة، على أن يكون من بين هذه الأسلحة عشرون ترساً وحمالة سيف من ذهب، ومائة وثمانون ترساً وحمالة ورمحاً خطيًّا(٢) من فضة. كما يجب أن يظهروا في ألبسة ثمينة وأن تُجرى عليهم رواتب دائمة.

ويجب أن يكون لكل خمسين منهم نقيب يتولى شؤونهم والإشراف عليهم وإصدار الأوامر وإسناد المهام إليهم. ويجب أن يكونوا جميعهم خيالة مجهَّزين بكل الوسائل والمعدَّات كي لا يعجزوا عن أداء الواجبات المنوطة بهم حين الملمات. ويجب أن تسجل في الديوان باستمرار أسماء أربعة آلاف راجل من كل الأجناس احتياطاً، ألف للملك خاصة، وثلاثة آلاف لأفواج الأمراء وقادة الجيش للاستعانة بهم في الملمات وحين الحاجة.

---

(١) يقال لهم بالفارسية «مفردان». وقد تكون الكلمة مأخوذة من كلمة «الفرد» العربية التي معناها «الذي لا نظير له»، وجمعها «أفراد» (اللسان- فرد). ويبدو أن هؤلاء هم الذين كانوا يسمون «المختارين» على عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ). وهم حرس مستخصون للموكب وملازمة الدار والدخول أوقات جلوس الخليفة، والمقام من أول النهار إلى آخره (آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٢٥٣).

(٢) الرماح الخطية نسبة إلى «الخط»، وهو مرفأ بالبحرين، كانت ترسو فيه السفن التي تحمل القنا من الهند. (راجع التفاصيل في : اللسان- خطط).

الفصل العشرون

في إعداد الأسلحة المرصَّعة وزينة القصر

يجب إعداد عشرين قطعة سلاح خاصة مرصَّعة بالجواهر وغيرها ووضعها في الخزينة. ففي كل وقت تقام فيه الاحتفالات أو يصل الرسل من أرجاء الأرض يتقلد هذه الأسلحة عشرون غلاماً بألبستهم الجميلة ويقفون بها حول سرير الملك. ومع أن الملك – بحمد الله تعالى- بلغ مرتبة تجعله في غنى عن مثل هذا إلاَّ أنه تجب مراعاة زينة الملك والمملكة والحفاظ عليها والاهتمام بها. فزينة كل ملك وعدته يجب أن تكونا على قدر همته وملكه. وليس في هذه الأيام ملك في العالم أعظم من مولى العالم - خلَّد الله ملكه - أو أوسع منه مملكة. فمن الواجب، إذاً، أن يكون له عشرة أضعاف ما للملوك الآخرين في كل شيء، ومائة مثل إن يكن لهم عشرة، لتوافر كل ما يجب توافره من همة وآلة وعدة ومروءة وعظمة وملك.

الفصل الحادي والعشرون

في أحوال الرسل وأساليبهم وتنظيم مهامهم

حين يفد الرسل من البلدان المجاورة والممالك المختلفة ولا يدري بهم أحد إلا عند وصولهم، أو أن أحداً لا يتعهدهم ولا يقدم لهم شيئاً في مجيئهم وورودهم، فإنهم يحملون هذا محمل الغفلة والتهاون في الأمور.

يجب أن ينبه على عمال الحدود بأن يرسلوا، حال قدوم أي شخص، خيّالاً فوراً يخبر عمن هو القادم وعن عدد خيالته وراجليه ومعداته وخدمه وحشمه والمهمة التي هو آتٍ من أجلها. كما يجب أن ينتدبوا شخصاً ممن يوثق بهم ويعتمد عليهم لمرافقتهم وإيصالهم إلى إحدى المدن المعروفة، ثم تحويلهم إلى ولاة الأمر فيها الذين عليهم، أيضاً، أن يقوموا بالدور نفسه فيأخذوهم إلى مدينة أخرى، وهكذا دواليك إلى أن ينتهوا إلى القصر. ويجب الإيعاز إلى العمّال والمستقطعين في كل الأماكن العامرة الآهلة التي يصل إليها الوافدون ويحلّون بها أن يكرموا وفادتهم، ويحسنوا معاملتهم، ويقدموا لهم أحسن ما عندهم من طعام وغيره، وأن يصرفوهم راضين فرحين في ذهابهم وإيابهم. لأن ما يعاملون به من إحسان أو إساءة ليس في واقع الأمر إلا معاملة للملك الذي أوفدوا من لدنه. والملوك دائماً يحفظون حرمة بعضهم بعضاً، ويكرمون رسلهم إلى حدٍّ يرفع من أقدارهم وجاههم لا يقلل منها. حتى في الوقت الذي كانت تنشب فيه الخلافات ويستفحل الخطر بين الملوك كان الرسل يغدون ويروحون فيؤدون الرسائل على النحو الذي كلفوا به دون أن يمسّهم ضرّ أو يقلّ الاحتفاء بهم عما جرت به العادة، لأن أي تصرف غير هذا يكون شيناً على صاحبه. فالله عزّ وجل يقول في محكم كتابه الكريم: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٣].

(مآرب أخرى من إيفاد الرسل)

وما تجب معرفته أيضاً أن بغية الملوك من إيفاد رسلهم إلى بعضهم لا تنحصر في إيصال رسائلهم وأخبارهم وإظهارها على الملأ حسب، إنما تمتد مآربهم وأهدافهم السرّية إلى أكثر من هذا.

---

(٣) النور: آية ٥٤.

إنهم يرمون إلى استطلاع وضع الطرق والشِّعاب ومياه الأنهار، أيستطيع الجيش أن يتخطاها أم لا؟ ثم إلى تبين المواطن التي يتوافر فيها العلف وينعدم، وإلى معرفة العمال وأولي الأمر في كل ناحية وصوب. ومن مآربهم أيضاً: معرفة عدد جيش ذلك الملك وما يملك من آلات وعدد، واستطلاع خوانه ومجلسه وترتيب قصره وبلاطه، وكيفية مجالسته ومعاشرته ومنادمته وصيده ولعبه بالطبطابة وخلقه وسيرته وهباته وكرمه وسعيه وجده ومظهره وأعماله: أظالم أم عادل؟ أعجوز أم شاب؟ أعامرة ولايته أم خربة؟ أراض جيشه أم متظلم؟ أغنية رعيته أم فقيرة؟ أشحيح أم بخيل؟ أعاقل في تصريف الأمور أم غافل عنها؟ أو وزيره: أهل ومتدين وحسن السيرة أم لا؟ أقادة جيشه متمرسون وذوو باع في أمور الحرب أم لا؟ أندماؤه ظرفاء لائقون أم لا؟ ما يحب وما يكره، أهو منبسط الطبع حسنه في الشراب أم لا؟ أمتين في أمور الدين ورحيم أم ضعيف وجاهل؟ أيميل إلى الهزل أكثر أم إلى الجد؟ أيرغب في الغلمان أكثر أم في النساء؟ كل هذا ليكونوا على بيّنة من أمره إذا ما رغبوا في محالفته أو مخالفته وتصيد عيوبه، وليأخذوا للأمر أهبته إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم يتخذوا ما يرونه مناسباً مثلما حدث لي[٤] في عهد السلطان الشهيد ألب أرسلان، أنار الله برهانه.

(الشافعية والحنفية)

ليس في العالم كله أفضل وأقوم من مذهبي أبي حنيفة والشافعي، رحمة الله عليهما، أما المذاهب الأخرى فبدع وأهواء وشبهات. ما كان أصلب السلطان الشهيد – رحمه الله– وأقومه في مذهبه فقد جاء على لسانه مرات: «واأسفاه! ليت وزيري لم يكن شافعياً!»، وقد كان سياسياً محنكاً ومهيباً جداً. ولقد كنت أخشاه وأهابه وأحسب له حساباً دائماً لاعتقاده الشديد بمذهبه وجديته فيه وانتقاصه مذهب الشافعي.

الخواجة نظام الملك ورسول شمس الملك

لما عقد السلطان الشهيد[٥] العزم على التَّوجه إلى ما وراء النهر وسمرقند، لشق «خان»[٦] سمرقند شمس الملك[٧] عصا الطاعة عليه، استدعى الجيش وأوفد إلى شمس الملك نصر بن إبراهيم

---

(٤) أي نظام الملك نفسه.

(٥) ألب أرسلان السلجوقي.

(٦) خان : كلمة تركية الأصل من ألقاب سلاطين «خطا» و«تاتارستان». وهو لقب يطلق على الأمير والرئيس والعظيم أيضاً. وخاقان هو خان خان أي رئيس الرؤساء. (انظر: مفاتيح العلوم ص ٧٣، والدكتور حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص ٢٧٤).

(٧) هو ناصر الدين أبو الحسن شمس الملك نصر بن طمغاج خان إبراهيم. كان أميراً على سمرقند وما وراء النهر=

رسولاً، أوفدت أنا[٨] « دانشمند الأشتر»[٩] أو (الفقيه الأشتر) مع رسول السلطان ليطلعني على ما سيجري ويأتيني بخبره.

بلّغ رسول السلطان رسالته إلى شمس الملك، فأرسل رسوله مع رسول سلطاننا إليه. ومما جرى به العرف أن يمثل الرسول بين يدي السلطان ويسلّم الرسالة وينقل ما كلف بنقله من أخبار، ثم ينزل بالمكان الذي أعد له. وجرت العادة، أيضاً، أن الرُّسل كانوا يدخلون على الوزير بين الحين والحين يلتمسون إليه أن ينقل إلى السلطان – قبل عودتهم– ما لم يتمكنوا من نقله إليه مشافهة. وحدث أنني كنت في منزلي ألعب الشطرنج مع نفر من جلسائي فتغلّبت على أحدهم وأخذت خاتمه رهينة. ولما كان الخاتم أوسع من أصابع يدي اليسرى، وضعته في إحدى أصابع يدي اليمنى. وفي تلك الأثناء قيل لي: «رسول أمير سمرقند بالباب». قلت: «أدخلوه». وأمرت برفع الشطرنج. فلما دخل وجلس وشرع في عرض ما كان يريد قوله– وأنا أعبث بالخاتم وأتنقل به في إصبعي– وقعت عيناه على الخاتم وإصبعي معاً. ولما أنهى حديثه نهض وانصرف. ثم أمر السلطان بإعادة رسول الأمير وإيفاد رسول آخر من لدنه يأتيه بالجواب. وأرسلت دانشمند الأشتر– وكان ذكياً– مع رسول السلطان هذه المرة أيضاً. لما وصل الرسولان إلى سمرقند، وَمثُلا بين يدي شمس الملك، سأل رسوله: «كيف ألفيت السلطان ألب أرسلان رأياً ومظهراً وعملاً، وكم عدد جيشه ومعداته وأسلحته ووسائله؟ وكيف وجدت ترتيب القصر والبلاط والديوان وقاعدة المملكة؟». قال الرّسول :«إن السُّلطان لا ينقصه شيء من حيث اللّياقة والمنظر والرجولة والسّياسة والهيبة وإنفاذ الحكم والأمر. فأما جيشه فلا يعلم عدده سوى الله وحده؛ أما عُدده وآلاته وأسلحته فحدِّث ولا حرج؛ وأمّا تنظيم القصر والديوان والمجلس والبلاد فعلى أحسن شكل وأجمله. إن مملكته ليست في حاجة إلى أي شيء، اللهم إلا أن فيها عيباً واحداً لولاه لكانت كاملة في كل شيء» . قال شمس الملك: «وما ذلك العيب؟». قال الرسول: «إن وزير السلطان رافضي». قال شمس الملك: «كيف عرفت أنه رافضي؟»، قال: «لقد ذهبت إلى منزله عند صلاة الظهر يوماً، لأقول له شيئاً فرأيته يعبث

= وكان تابعاً للغزنويين والسلاجقة من بعدهم. ولي الإمارة أيام ألب أرسلان، وتوفي في عام ٤٧٤هـ. وجّه ألب أرسلان جيشه إلى ما وراء النهر لتأديبه لكنه – أي ألب أرسلان– لقي مصرعه قبل أن يلتحم معه. (عباس إقبال:حاشية ٢ ص ١١٨).

(٨) أي نظام الملك.

(٩) دانشمند يعني «عالم» (بكسر اللام).وهي مركبة من «دانش» بمعنى «علم» و«مند» بمعنى «ذو أو صاحب» (راجع أيضاً: عباس إقبال حاشية ٣ ص ١١٨، والألقاب الإسلامية ٢٨٧). وكان لقب «دانشمند» يطلق على الفقهاء أيضاً. وقد استعمله بهذا المعنى نظام الملك نفسه في هذا المكان.

بخاتم في إصبع يده اليمنى، وهو يحدثني». فكتب إليّ دانشمند الأشتر تواً: «اعلم أنه قيل عنك كذا وكذا أمام شمس الملك على لسان رسوله». فذعرت جداً خوفاً من السلطان، وقلت: «الشافعية عار في رأي السلطان، وهو يؤنبني على هذا ويلومني في كل حين. إن يتناهى إلى سمعه ما جرى من حديث عني أمام أمير سمرقند، وهو أنّ الجكليين[١٠] نسبوني إلى الرافضة، فسيضيع خاتمة حياتي». وكان من هذا أن أنفقت[١١]، دونما ذنب، ثلاثين ألف دينار طوعاً، وبذلت هدايا وهبات وأعطيات كثيرة كي لا يصل هذا الكلام إلى سمع السلطان.

لقد ذكرت هذا لأبينّ أن أكثر الرسل متسقطو عيوب يركزون على ما في بلاط الملك ومملكته من عيوب وفضائل، ليفيدوا منها وينفذوا من خلالها إلى الطّعن على الملوك وتثريبهم في فرص أخرى. لهذا وجدنا الملوك الأذكياء اليقظين يهتمُّون بتهذيب أنفسهم، ويتحلون بالأخلاق الحسنة، ويسيرون في الناس سيرة حميدة، ويولون المناصب والأعمال للأكفياء واللائقين والمتدينين، لئلا يكون لأحد عليهم أي عيب أو مطعن.

ويجب أن يكون الرسول ممن خدموا الملوك، ومن الشجعان في القول، وممن سافروا كثيراً وطوفوا في البلاد، والآخذين من كل علم بطرف، وذوي الحافظة، وبعد النظر، وأصحاب القامات والأشكال الجميلة، ويفضَّل من كان كبير السن عالماً.و إذا ما أسندت هذه المهمة إلى أحد الندماء فإن الاعتماد يكون أكثر.

ومن الصواب جداً أن يكون الرسول تام الرجولة، شجاعاً، عارفاً بآداب السلاح والفروسية والطعان، ليبرهن للمرسل إليهم أن رجالنا كلهم من هذا الضرب.

ويفضَّل، أيضاً، أن يكون الرَّسول من الأشراف، ليحترمه الآخرون كثيراً، ويتجنَّبوا الإساءة إليه، وألاّ يكون من معاقري الخمر والمزّاحين والمقامرين والثرثارين والمغمورين. ومنذ زمن بعيد والملوك يوفدون الرسل محملين بالهدايا والنفائس الكثيرة يطلبون صلحاً، أو يظهرون عجزاً وضعفاً وليناً ومكراً واحتيالاً، ثم يرسلون الجيوش المجهزة والمحاربين في أثرهم، فيحملون على الخصوم وينتصرون عليهم!.

إن سيرة الرسول وحكمته وأصالة رأيه لدليل على سيرة الملك وحكمته ورأيه وعظمته.

---

(١٠) يقصد بالجكليين شمس الملك وأتباعه. والجكليون أو الجكلية قوم من الأتراك القراخانيين أو الأفراسيابيين الذين كانوا يحكمون في سمرقند وبلاد ما وراء جيحون. (عباس إقبال: حاشية ١ ص ١٢٠).

(١١) أي المؤلف نظام الملك.

الفصل الثاني والعشرون

في تهيئة الأعلاف في المنازل والمراحل[١]

حين يرتحل ركب السلطان في سفر فليس سهلاً توافر العلف والنُّزْل[٢] في كل مرحلة ينزل بها، مما يؤدي إما إلى الحصول على العلف اليومي بجهد ومشقة، وإمّا إلى أخذه بتقسيمه على الأهالي. وليس هذا صحيحاً.

يجب أن يضم إقطاع كل قرية وضواحيها مما فيها منازل تقع على الطريق التي سيمر منها الركب إلى الأملاك السلطانية الخاصة، كما يجب وضع اليد على أقرب قرية للمكان الذي فيه رباط[٣] ولا قرية فيه، لجمع كل غلاتها التي يجب أن تنفق، إنْ يكن ثمة داعٍ لذلك، وإلاّ فبيعها وإرسال أثمانها- كغيرها من الأموال الأخرى- إلى الخزينة.

كل هذا لتجنب إرهاق الرعية والتقصير في توفير العلف. فبه يمكن النجاح في المهمة التي عقد العزم عليها وعدم الفشل في تحقيقها.

(١) المنزل والمنزلة: موضع النزول . والمرحلة: المنزلة يرتحل منها. وما بين المنزلتين مرحلة. (اللسان- نزل ورحل).
(٢) النُّزْل (بضم النون وسكون الزاي) في الأصل: قِرى الضيف. (اللسان- نزل).
(٣) أصل الرباط من مرابط الخيل وهو ارتباطها بإزاء العدو في بعض الثغور. (اللسان- ربط).

الفصل الثالث والعشرون

في تعيين أطماع[1] الجيش

يجب أن يعيَّن للجيش أطماع نقدية ثابتة ومنتظمة. أما أصحاب الإقطاعات منهم فيجب أن تطلق أيديهم فيها، لكن بنظام معلوم. وأما الغلمان الذين لا إقطاع لهم فيجب إظهار أطماعهم وتعيينها، فإذا ما عُرفت أعدادهم يجب إعداد جراياتهم وتهيئتها جميعها ودفعها إليهم في أوقاتها، أو أن يستدعيهم الملك إليه مرتين سنوياً ويأمر بتسليمهم أطماعهم المقررة لا أن يحالوا إلى الخزينة لاستلامها دون أن يراهم الملك. فما أحسن أن يسلّمها الملك إليهم بنفسه، لأن هذا يبعث على غرس روح المودة والألفة والاتحاد بينهم وبينه، ويفضي بهم إلى بذل أقصى الجهود في الخدمة والثبات في القتال.

لقد كان من عادة الملوك القدماء ألا يُقطعوا الجيش شيئاً، بل يدفعوا لكل منهم، بحسب درجته، طِمْعه من الخزينة نقداً أربع مرات في السنة. فكان الجند في يسر ورخاء دائماً، وكان إذا ما طرأ أمر مهم يركب له ألفان أو عشرون ألفاً حالاً. أما عمال الخراج، فكانوا يجمعونه ويحملونه إلى خزينة الملك، ومنها تصرف أطماعاً للغلمان والجيش مرة كل ثلاثة أشهر وهو ما أطلقوا عليه «حساب العشرينية»[2]. وما زال هذا العرف قائماً في آل محمود.

ولينبه على أصحاب الإقطاع، في حال غياب أحد الجند لموته أو لأي سبب آخر، أن يعلنوا ذلك ولا يخفوه. أما القادة، فلينبَّه عليهم– وقد صرفت لهم مرتباتهم– أن يعدوا الجيش كله ويهيئوه لأي مهمة وحادث، فإذا ما تخلَّف أحد فعليهم إبلاغ ذلك حالاً ليكون تخلفه بإذن السلطان، وإنْ لم يفعلوا فيجب معاتبتهم ولومهم وتغريمهم -- أي القادة– أطماع الجند المتخلفين.

---

(١) أطماع: مفردها طمع وهو رزق الجند. وقيل أطماع الجند أوقات قبضها أيضاً (اللسان– طمع).

(٢) الاصطلاح الفارسي: «بيستگاني» و«بيست» في الفارسية عشرون. وحساب العشرينية أربعة أطماع في السنة (مفاتيح العلوم ص ٤٣).

الفصل الرابع والعشرون

في اتخاذ الجيش من كل الأجناس

إنَّ اتخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الأخطار والتخريب والفساد، وعدم الجدِّية والبلاء في الحرب. يجب أن يؤسس الجيش من كل جنس وملّة، وأن يرابط بالقصر ألفا رجل من الديلم وخراسان ويحتفظ بالموجود منهم الآن ثم يهيأ الباقي بعد ذلك. ولا ضير في أن يكون بعض هؤلاء من «الكرجيين»[١] و«شبانكاريي»[٢] فارس لأنهم قوم طيبون لا غبار عليهم.

جيش السلطان محمود

درج السلطان محمود على أن يؤسس جيشه من عدَّة أجناس من الترك والخراسانيين والعرب والهنود والغوريين والديالمة. وكان يضع في أثناء السفر، ثلّة من كل جنس للحراسة في مكان خاص بحيث لم يكن أي فريق منهم يجرؤ على ترك مكانه خوفاً من الفرق الأخرى، بل كانوا يحرسون إلى جانب بعضهم حتى الصباح دون أن تغمض لهم أجفان.

وكان كل جنس منهم يقاتل، في المعارك والحروب، ببسالة ومضاء حفاظاً على سمعته وخوف العار والهزيمة وكيلا يقول أحد بأن الجنود من الجنس الفلاني وهنوا في القتال وتقاعسوا. وكان كل فريق يُبلي في القتال بلاءً حسناً ويبذل غاية جهده إظهاراً لقدرته وتفوقه على الآخرين.

ولأن قاعدة اختيار المحاربين كانت تتم على ذلك النحو، فقد كانوا جميعهم جادين مستبسلين وطلاب سمعة وشهرة. ولا جرم أنهم إذا ما هرعوا إلى السلاح لم يكونوا يتراجعون قبل أن يهزموا الجيش المعادي وينتصروا عليه.

---

(١) نسبة إلى «كرجة» معرب گـرجة، وهي مدينة من مدن خوزستان. (معجم البلدان).

(٢) نسبة إلى «شبانكاره» من قرى إقليم فارس. والشبانكاريون أسرة حكمت في جنوبي فارس من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن الثامن الهجري (فرهنگ فارسي؛ وانظر أيضاً: كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية. ص٣٢٨ الترجمة العربية).

وحين ينتصر جيش ما مرّة أو مرّتين يكتب له الظفر على الأعداء، فإن مائة منه بعد ذلك تغلب ألفاً من جيش العدو[٣]، وإن أي جيش آخر لن يقوى على التصدي له ومقاومته. كما أن جيوش البلدان المجاورة والمحاذية تهاب هذا الملك وتخافه فتضع له عصا الطاعة والولاء.

---

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ (الأنفال: آية ٦٨).

الفصل الخامس والعشرون

في الرهائن وإيداعهم في البلاط

على كل واحد من أمراء العرب والأكراد والديالمة والروم وغيرهم من حديثي العهد بالدخول في طاعة السلطان أن يودع إبناً أو أخاً رهينة في البلاط، بحيث لا يقل عدد الرهائن، بأية حال، عن خمسمائة إن لم يكن ألفاً. وبعد عام يستبدل آخرون بهم، على أن لا يعاد الأولون قبل وصول البدلاء، كي لا يستطيع أحد، بسبب الرهائن، أن يعصي الملك ويتمرّد عليه.

ويجب، كذلك، أن يقدم الديالمة، والقوهستانيون، وأهل طبرستان وشبانكاره وأمثالهم ممن لهم إقطاعات وجرايات وأرزاق خمسمائة رجل منهم، ليقيموا في البلاط لئلا يخلو من الرجال القادرين العاملين حين الحاجة.

الفصل السادس والعشرون

في استخدام التركمان

على الرغم من النفرة والملالة من التركمان وكثرة عددهم، فإن لهم حقًّا ثابتاً على الدولة، إذ أسهموا في خدمتها إبّان قيامها، وتحملوا في سبيلها المتاعب والمشاق، فضلاً عن أنهم من ذوي القربى[1].

يجب اختيار ألف من أبنائهم، وتربيتهم وتنشئتهم على سبيل غلمان من غلمان القصر، لأنهم في عملهم المستمر فيه يتعلمون آداب السلاح والخدمة، ويختلطون بالناس، فتلين قلوبهم، ويخدمون كغلمان، وتزول من نفوسهم وطباعهم ما وقر فيها من نفرة. وكلما دعت الحاجة يركب خمسة أو عشرة آلاف منهم بلباس الغلمان وأسلحتهم لأداء المهمة التي يندبون لها.

كل هذا ، لئلا يظلوا دون نصيب في هذه الدولة، وليكونوا سعداء فرحين فيها، ويكسب الملك الحمد والثناء.

---

(١) إشارة إلى تركمان قبائل غز الذين آزروا السلاجقة الذين كانوا من التركمان أيضاً. لكن ملوك السلاجقة حملوا عليهم وهاجموهم مرات وأنزلوا بهم أشد العقاب، لأنهم كانوا يغيرون باستمرار على مناطق السلاجقة العامرة فينهبون ويسرقون ويقطعون الطرق. (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ١٢٧).

الفصل السابع والعشرون

في عدم ازدحام العبيد في أثناء الخدمة، وتنظيم أعمالهم

يجب، لازدحام العبيد كثيراً في أثناء الخدمة، إسدال الستارة ما دعت الحاجة إلى هذا. وكما يتفرقون حالاً، يجب أن يجيئوا في وقت معين. وحين تكون الأوامر صارمة بهذا، ويلقَّنون مرة أو مرتين كيف يتصرفون فإنهم سيستمرون على هذا المنوال، ولن تعود ثمة حاجة إلى الستارة. حين تصدر الأوامر بأن يَمْثُل في حضرة السلطان، يومياً، عدد معلوم من الغلمان الموكلين بالماء والسلاح والشراب واللباس وأمثالهم، ومن الغلمان الذين بلغوا إلى مقام أمير حجّاب وأمير وعظيم، ليتمكن من المثول بين يديه مناوبة مثل هذا العدد من «عنابر» الغلمان الملحقة بالسراي، ومن الخواص أيضاً دون ازدحام كل يوم.

وقد اتبع في الأزمنة القديمة نظام مقبول في تربية الغلمان وتصنيفهم منذ اليوم الذي كانوا يبتاعون فيه إلى أن يترعرعوا ويتبوّأوا المقامات الرَّفيعة، لكنه لم يعد متبعاً في هذه الأيام. وهأنذا - تمشياً مع شرط الكتاب- أذكر شيئاً منه لاستطلاع الرأي السامي.

ترتيب غلمان السراي

إن هذا النظام ما زال قائماً في ظل السامانيين الذين يرفعون من مرتبة الغلام تدريجياً وَفْقاً لخدماته وكفايته ولياقته. فهم حين يشترون الغلام يضعونه في خدمة الركاب العالي راجلاً بقباء زَنْدنجي[1] وموزج[2] سنة كاملة لا يسمح له فيها بركوب الخيل سراً أو علانية؛ وإذا ما فعل يعاقب.

---

(١) نسبة إلى زَنْدنة (بفتح أوله وسكون ثانيه)، وهي قرية كبيرة من قرى بخارى بها وراء النهر. بينها وبين بخارى أربعة فراسخ في شمالي المدينة. وإلى هذه القرية نسبت الثياب الزندجية- بزيادة الجيم- وكانت مشهورة. (راجع : معجم البلدان، وبلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٦).

(٢) موزج: معرب موزه، وهو الحذاء ذو الساق (فرهنگ واژه هاي فارسي در زبان عربي- معجم الألفاظ الفارسية في العربية- ص ٦٤٦).

وحين تنقضي السنة يكلم رئيس عنبره[٣] الحاجب في أمره، فيخبر الحاجب الملك فيأمر له حينئذٍ بمُهْر تركي بسرج غير مدبوغ ولجام جلدي عادي. وبعد خدمة سنة، بمهر وسوط فقط، يعطى في السنة الثالثة سيفاً معقوفاً يشدّه على وسطه، ويعطى في الرابعة جعبة وكنانة سهام يرتديها عندما يمتطي جواده. أما في الخامسة، فيعطى سرجاً أحسن ولجاماً مكوكباً وقباء ودبوساً[٤]. وفي السادسة، يولى السقاية ويوكل بالماء فيعلّق في وسطه قدحاً. وفي السابعة، يوكل باللباس. وفي الثامنة يعطى خيمة من عمود واحد في ستة عشر وتداً، ويضاف إلى فوجه ثلاثة غلمان صغار ممن اشتروا حديثاً، ويلبس قلنسوة لباد سوداء محلاة بخيوط فضية، وقباء جنزياً[٥]. هكذا يظل يزاد في ألبسته وآلاته وعدده وعدد أفراده ومقامه سنوياً إلى أن يصبح قائد فوج؛ وهكذا دواليك إلى أن يصير حاجباً. وحين تبدو كفاءته وجدارته وشجاعته للجميع، وتتمّ على يديه الأعمال العظيمة، ثم يصبح محطّ أنظار صحبه ومحباً لمولاه يجب ألا يولى الإمارة أو الولاية ما لم يبلغ الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره.

علوّ منزلة سبكتكين

كان ألبتكين مولى للسامانيين وربيباً. ولي قيادة جيش خراسان العليا في الخامسة والثلاثين من عمره. كان صادق العهد وفياً وشجاعاً جداً، وكان تركياً شهماً محبوباً لدى الناس، محباً لجيشه، جواداً معطاءً، يخاف الله ويتّقيه. ولقد جمع كل خصال السامانيين وسيرهم الحميدة، وكانت أموال خراسان والعراق تحت تصرفه كما كان له ألف وسبعمائة عبد وغلام تركي.

اشترى ألبتكين يوماً ثلاثين غلاماً تركياً، كان سبكتكين والد السلطان محمود أحدهم، فكان أول طالع سعد سبكتكين أنه اشتري لألبتكين. وبعد ثلاثة أيام من شرائه، وعلى حين كان يقف في وسط الغلمان أمام ألبتكين، تقدّم الحاجب، وقال لألبتكين: «لقد قضى الغلام فلان الذي كان رئيساً لأحد العنابر، فإلى أي غلام تأمر بعنبره ولباسه وفوجه ومنصبه؟». فوقعت عين ألبتكين على سبكتكين، وجرى على لسانه «وهبتها هذا الغلام الصغير». فقال الحاجب: «يا مولاي، لم تمضِ ثلاثة أيام بعد على شرائك هذا الغلام الصغير الذي يجب أن يمضي سبع سنوات في الخدمة ليصل إلى هذه

---

(٣) رئيس عنبر: ترجمة «وثاق باشي» وقد تابعت فيها مترجمي تاريخ البيهقي (انظر ص: ٨٥ من الترجمة العربية).

(٤) الدبوس: معرب دبوس (بفتح الدال وضم الباء) الفارسية وهو المقمعة (فرهنگ فارسي، والألفاظ الفارسية المعربة ٦٠).

(٥) نسبة إلى جَنزة (بالفتح)، وهي أعظم مدينة بأرّان (الران) بين شروان وأذربيجان. بينها وبين برذعة ستة عشر فرسخاً. ومن أسمائها أيضاً گنجة. كانت تعرف في المائة الثالثة بالمتوكلية، لأن الخليفة المتوكل أحدثها عام ٢٤٠هـ. ويقول بعضهم في النسبة إليها: جنزوي أيضاً (معجم البلدان؛ وبلدان الخلافة الشرقية ٢١٣).

المرتبة، فأنّي تمنح له؟ ». قال ألبتكين: لقد قلت، -وسمع الغلام فانحنى شاكراً- وإنني لأمنحه هذه المنزلة هبة وأعطية، أما الآخرون غيره فيجب أن تطبق عليهم الأصول المرعية سابقاً. ثم سُلِّم العنبر، فآلت إليه كل خدمة سبع أو ثماني سنوات.

وفكر ألبتكين في نفسه: «ما السر في بلوغ غلام غرير اشتري حديثاً منزلة خدمة السبع السنوات؟ قد يكون تحدره من أسرة كريمة بتركستان، أو أن الحظ سيبتسم له ويصل به إلى أعلى الدرجات». وشرع في تدريبه واختباره وإرساله بالأخبار إلى هذا وذاك، وكان يقول له ألبتكين: «اذهب وآتني بالجواب». فكان يذهب ويعود بالجواب على نحو أفضل من نقله الخبر. ولما ثبت له، بالاختبار، أن الغلام يبدي تقدماً يوماً بعد يوم، وقرت محبته في قلبه، وكَّل إليه أمر السقاية، ثم أمره بالانقطاع إلى خدمته هو فقط، وخصَّه بفوج من عشرة غلمان صغار وأخذ يزيد في منزلته يومياً.

ما أن بلغ سبكتكين الثامنة عشرة، إلا وله فوج من مائتي غلام شجاع، وقد ثقف كل خصال ألبتكين وعاداته الحميدة في الجلوس والقيام والحديث والطعام والشراب والمجلس والصيد والرماية واللعب بالطبطابة ومداراة الناس ومراعاتهم والعيش مع الجند عيش الإخوة، حتى إنه لو حصل على تفاحة لا يأكلها إلا مع عشرة آخرين. لقد أحبه الناس قاطبة لطيبته وأخلاقه الحسنة وسيرته الحميدة.

لياقة سبكتكين وجدارته

حدث أن اختار ألبتكين يوماً مائتي غلام وأنفذهم إلى «خلج»[٦] و«التركمان» لتحصيل الأموال المستحقة عليهم، وكان سبكتكين في جملتهم. فلما وصلوا إلى هناك امتنعت الطائفتان عن دفع الأموال كاملة. فغضب الغلمان وشهروا أسلحتهم لحربهم وانتزاع المال منهم عنوة. فقال سبكتكين: «لا أحارب معكم، بل أنفصل عنكم في هذا الأمر». قال له صحبه: «ولِـمَ؟». قال: «إن مولانا لم يرسلنا للحرب، بل قال: اذهبوا واحضروا تلك الأموال والأنعام. إن نحاربهم الآن فيتغلبوا علينا ويهزمونا في هذا شين وعار عظيمان علينا وإضرار كبير بحشمة مولانا وجاهه، هذا شيء. وشيء آخر أن مولانا سيقول: متى أمرتكم بالحرب؟! ولن نجد ما حيينا متفذاً أو حجة لملامته وعتابه الذي لا طاقة لنا به». لما فرغ سبكتكين من قوله هذا، قال أكثر الغلمان: «الصواب ما يقول سبكتكين». ودب الخلاف بينهم، وانتهى الأمر بعدم القتال وعودتهم. لما مثلوا أمام ألبتكين، وقالوا: «لم تحصل

---

(٦) كذا في شعار (ص١٦٢) ودارك (ص١٤٣). كذلك في معجم البلدان (خلج) وتاريخ البيهقي (ص: ٢٢١، ٧٢٥، ٧٢٨)، لكنها في عباس إقبال (ص١٣١): «خلخ» (بالخاء) وكذلك في «حدود العالم» (ص ٨١ وغيرها). وأياً يكن الأمر، فإن «خلج» (بالجيم) و (بالخاء) قبيلتان تركيتان.

الأموال منهم عنوة، مع أنهم عصوا وامتنعوا عن دفعها». قال: «لماذا لم تشهروا السلاح وتحصلوا الأموال بأية وسيلة كانت؟». قال الغلمان: «لقد شهرنا الأسلحة وأردنا قتالهم لكن سبكتكين خالفنا واعترضنا فانقسم الغلمان فريقين. ولما صار الأمر إلى هذا الحال عدنا». فقال ألبتكين لسبكتكين: «لماذا لم تحارب أو تدعهم يحاربون؟». قال سبكتكين: «لأن مولانا لم يكن أمرنا بالقتال، فلو قاتلنا دون أمره لكان كل منا مولى لا عبداً. إنّ من إمارات الطاعة تنفيذ ما يأمر به مولانا، ولو كانت الهزيمة حليفنا فلا بد لمولانا من أن يقول: «من الذي أمركم بالقتال؟»، فمن ذا الذي له الطاقة على هذا العقاب؟. أما لو غلبناهم نحن فلا بد من أن يقتل كثيرون ولا يكون ثمة شكر وتقدير، فضلاً عما ما سنلقاه من ملامة وعتاب. إن تأمرنا الآن بالحرب نتوجه إليهم، فإما أن نحصل الأموال، وإمّا أن نقدم أرواحنا فدية». فأعجب ألبتكين بجوابه، وقال: «حقٌّ ما تقول»؛ ثم أخذ في ترقيته إلى أن بلغ منزلة وصل فيها فوجه إلى ثلاثمائة غلام.

ولما مات أمير خراسان نوح بن نصر ببخارى وكان ألبتكين بنيسابور، كتب إليه لاسيّما أمرائه من بخارى العاصمة: «لقد حدث كذا وكذا وتوفي أمير خراسان مخلفاً وراءه أخاً في الثلاثين من عمره وابناً في السادسة عشرة، فإلى أيهما تعهد بالملك؟ فأمر هذه المملكة منوط بك»[٧]. فسيّر ألبتكين رسوله على وجه السرعة برسالة تقول: «كلاهما أهل للملك، وهما أميران من ولد مولانا. أما أخو الأمير فرجل ناضج مجرب تجرّع مرّ الحياة وذاق أفاويقها، وهو يعرف الناس جيداً ويحفظ لكل قدره ومنزلته، وخير من يحترمهم ويعرف لهم حرماتهم؛ وأما ابن الأمير فطفل لم ير في حياته شيئاً. إنني أخشى ألا يستطيع أن يسوس الناس ويرعاهم وألا يقوى على إصدار الأوامر اللازمة في كل مسألة وأمر. قد يكون من الأصوب تنصيب أخي الأمير».

ثم أتبع الرسالة بأخرى في الموضوع عينه في اليوم التالي. غير أنه وصل بعد خمسة أيام رسول ببشارة تقول: «لقد تم تنصيب ابن الأمير». فاعترى ألبتكين الخجل لرسالتيه اللتين كان أرسلهما. قال: «فلماذا استشارني أولئك الأوغاد اللئام إذاً، وقد أرادوا الاستئثار بالأمر وحدهم؟ إن الاثنين كليهما مني بمنزلة النور من العين. لكنني أخشى أن تسوء الابن رسالتي حين وصولها فيظن أن هواي كان مع عمه الذي أشرت إليه فيها فيقع في قلبه شيء مني ويغضب عليّ ويحقد. حينئذٍ يستغل الأمر ذوو

(٧) يقال إنما كان تدخل ألبتكين في مسألة تنصيب ملك من السامانيين بعد وفاة عبد الملك بن نوح وليس بعد موت نوح بن نصر. كما أن نظام الملك لم يورد اسم عبد الملك في جملة السامانيين في الفصلين: الأربعين والسادس والأربعين من هذا الكتاب. (تعليقات دارك، ص ٣٣٧-٣٣٨).

الأطماع الدنيئة الذين سيجدون المجال متاحاً أمامهم لأن يلوكوني بألسنتهم وتأليب الصبي عليّ».

أرسل ألبتكين في الحال خمسة رجال كل منهم على جمّاز[٨] في إثر الرسولين، وقال لهم: «حاولوا، ما وسعكم الجهد، أن تلحقوا بهما قبل أي يعبرا نهر جيحون وتعيدوهما». وانطلق المجمزون في سرعة فأدركوا أحد الرسولين في صحراء «آموي» في حين كان الآخر قد عبر جيحون. ولما وصلت رسالة ألبتكين إلى بخارى استاء ابن الأمير وأتباعه الذين قالوا: لم يحسن ألبتكين صنعاً حين أشار بتنصيب أخي الأمير، أما درى أن ميراث الأب يصير إلى الابن لا إلى الأخ، وظلوا يرددون هذا النغم، وضغن الصبي على ألبتكين يتزايد يومياً. والتمس ألبتكين الأعذار الكثيرة وبعث بالهدايا الجمّة؛ غير أن هذا لم يجد فتيلاً في نفض غبار الحقد والغضب عن قلب ابن الأمير. وظلّ المفسدون وذوو الأطماع الخاصة يوغرون صدر الأمير الذي اضطرمت نار حقده وغضبه ونقمته.

وكان أحمد بن إسماعيل في أخريات حياته اشترى ألبتكين الذي خدم نصر بن أحمد عدة سنوات. ولما مات نصر خدم نوح بن نصر وتقلد على عهده القيادة العليا لجيش خراسان. ولما مات نوح خلفه ابنه منصور. وانقضت ستِ سنين من عهد منصور وألبتكين ينقده الأموال ويسعى ما وسعه الجهد لوضع الأمور في نصابها دون أن يستطيع المغرضون أن ينالوا منه شيئاً لدى منصور بن نوح أو يوغروا عليه قلبه. وكان وكلاء البلاط[٩] يكتبون إلى ألبتكين عن كل ما يدور في بخارى العاصمة.

لكن المفسدين لم يتركوا منصور بن نوح، بل أوحوا إليه بأنه :«لن تكون أميراً وحاكماً حقيقياً ما لم تقتل ألبتكين. إنه يحكم خراسان من ثلاث وخمسين سنة ويكدس الأموال والثروات، وإن الجيش كله يأتمر بأمره ويطيعه. إن تقبض عليه تفرغ منه بالاً وتملأ الخزينة من أمواله. وليس من حيلة لهذا سوى أن تستدعيه إلى البلاط وتظهر له: «إنك، مذ تولينا الإمارة، لم تأت إلى البلاط ولم تجدد العهد والولاء. إنك محط آمالنا وقد اتخذناك بمثابة الأب. إن قواعد ملكنا راسخة بك، فأنت مدار ما وراء النهر وخراسان، أما ما يدور على الألسن من قيل وقال فليس إلا لأنك لم تأتِ إلينا قط. عليك الحضور إلى البلاط بأسرع وقت ممكن لإعادة كل ما خرج عن قاعدته وأصوله في بلاطنا وقصرنا

(٨) الجمّاز (بفتح فتشديد): من جمز الإنسان البعير والدابة جمزاً وجمزى ، وهو عَدْو (بسكون الدال) دون الحُضْر (بضم الحاء وسكون الضاد) الشديد وفوق العَنَق (بفتح العين والنون). وبعير جماز منه، وراكبه المجمز. (اللسان- جمز).

(٩) وكيل البلاط: العامل الذي يوفده حكام الأقاليم إلى بلاط السلطان لينهي إليهم ما يعنيهم مما يجري فيه ويراقب مصالحهم عند السلطان (تاريخ البيهقي - الترجمة العربية- كشاف المصطلحات التاريخية. ص ٨٠٥).

سيرته الأولى، ليزداد اعتمادنا عليك وثقتنا بك، وتخرس ألسنة ذوي المآرب الخبيثة وتكف عن الكلام». وحين يأتي إلى هنا ادعه وحيداً ومُرْ بضرب عنقه.

نفذ الأمير السديد[١٠] منصور هذا واستدعى ألبتكين إلى البلاط. لكن مُنهو الأخبار كتبوا إلى ألبتكين يخبرونه بالذي يريده منصور من أجله. فأعلن النفير وأمر رجاله بأن يستعدوا للتوجه إلى بخارى. ثم توجه ومعه حوالي ثلاثين ألف خيال من نيسابور إلى سرخس. وبعد ثلاثة أيام من نزوله بها دعا إليه أمراء الجند، وقال لهم: «أود أن أقول لكم شيئاً وأريدكم أن تجيبوا عنه بما ترونه صواباً وفيه فائدتنا ونفعنا جميعاً». قالوا: «سمعاً وطاعة». قال: أتدرون السبب الذي يطلبنا أمير خراسان من أجله أم لا؟ قالوا: «يريد أن يراك لتجديد العهد، لأنك بمثابة الأب له ولآبائه من قبل». قال: «ليس الأمر على ما تظنون. إن الأمير يستدعيني لقتلي وفصل رأسي عن جسدي، فهو طفل لا يعرف أقدار الرجال. إنكم تعلمون أنني أنا الذي حفظت للسامانيين ملكهم سنوات طويلة، وما أزال، ولقد هزمت أمراء تركستان ممن كانوا يطمعون في ملكهم مرات، كما قهرت الخارجين عليهم من كل صوب، ولم أعصهم قط ولو طرفة عين. لقد حافظت على هذا الملك لجده وأبيه وله، وما أزال، لكنه يريد أن يكافئني في النهاية بقطع رأسي دون أن يدرك أن ملكه جسد أنا رأسه، فهل من بقاء للجسد بعد الرأس؟! والآن ما الذي ترونه صواباً؟ ما الحيلة إلى دفع هذا البلاء؟». قال الأمراء جميعاً: «حيلته السيف. ماذا تنتظر منه ما دام يُكنّ لك هذا ويريد أن يكافئك بأعمالك هذه المكافأة؟ لو كان ثمة شخص غيرك لنزع الملك من أيديهم منذ خمسين سنة. نحن جميعاً نعرفك أنت، ولا نعترف به وبأبيه. إن ما نملك نحن وكل الرجال في دولة السامانيين من عيش وجاه وحشمة ونعمة وولاية وزينة ليس إلا منك أنت. فيك وحدك صرنا رجالاً. نحن معك، ومما لا شك فيه أن خراسان وخوارزم ونيمروز[١١] معك أيضاً . ادع إلى خلع منصور بن نوح، ثم نصِّب نفسك أميراً، وهبه بخارى وسمرقند – إن شئت – وإلا ضُمّها إليك أيضاً.

ولأن الأمراء قالوا هذا الكلام عن رغبة أكيدة وتامة، قال ألبتكين: «عفا الله عنكم؟ لقد كان كلامكم عن إيمان واتحاد، وهذا ما أتوقعه منكم. جزاكم الله عني خير الجزاء دائماً. انصرفوا اليوم لنرى ما يحمل إلينا غد».

---

(١٠) فضلاً عن معنى الكلمة لغوياً، فقد كان لقباً لمنصور بن نوح الساماني. (جعفر شعار ص ٤٢٧).

(١١) نيمروز: كلمة فارسية معناها نصف يوم أو الأرض الجنوبية. أطلقت على ولاية سجستان. يقال إنها سميت بذلك لوقوعها في جنوب خراسان أو لأن الشمس تسامتها نصف النهار. (معجم البلدان؛ ومفاتيح العلوم ص ٧؛ وبلدان الخلافة الشرقية ص ٣٧٢).

لقد كان مع ألبتكين في هذا الوقت ثلاثون ألف فارس، وكان في استطاعته تجهيز مائة ألف. وفي اليوم التالي، جاء الأمراء للقاء ألبتكين فخرج إليهم واتخذ مكانه. وبعد مدة وجيزة التفت نحوهم، وقال: «لقد أردت من حديثي معكم أمسِ أن أختبركم لأرى ما إذا كنتم تؤازرونني وتقفون معي وتحمون ظهري إذا ما وقع لي شيء أم لا؟ إن ما سمعته منكم جميعاً لدليل على أصالتكم ونقائكم وحسن عهدكم ووفائكم ورعايتكم حق نعمتي. إنني لراضٍ عنكم، لكن اعلموا أنني لا أستطيع، بعد ما حدث، أن أكف شر منصور وأذاه عني بغير السيف. فهو طفل لا يعرف لأحد حقاً، بل يلقي أذناً صاغية إلى ثلة من الأشرار الأوباش الأرذال دون أن يعرف ما يضره مما ينفعه. إنه يعدّني – وأنا الذي أحمي سلالته– عدواً ويطلب عنقي، في حين أنه يعدُّ من لا يبغون سوى فساد المملكة ودمارها ومن لا يستطيعون رأب أقل صدع فيها أصدقاء، إنني لقادر على نزع الملك منه وتنصيب عمّه مكانه، أو الاستيلاء عليه بنفسي، لكنني أخشى أن تقول الدنيا كلها: «إن ألبتكين الذي حمى للسامانيين ملكهم ستين سنة يخرج عليهم في النهاية – وقد بلغ الثمانين – وينزع الملك منهم بالسيف ويتربع على عرش أسياده كافراً نعمتهم جاحداً لها!.

اعلموا أنني قضيت عمري كله حسن السمعة والفعال، فعليّ ألا أفعل ما يشوّه سمعتي ويسيء إليّ، وأنا على شفا حفرة من القبر. على الرغم من أن منصوراً هو الآثم المذنب، والناس لا يعلمون هذا، فإن بعضهم سيقول: «لقد كان منصور هو المخطئ». وسيقول آخرون: «لا، لقد كان الذنب كله ذنب ألبتكين». ومع أنني لا طمع لي في ملك منصور، ولا رغبة في إلحاق الضرر به، فإنَّ قالة السوء في خراسان لن تنقطع ما دمت فيها، وأن المغرضين سيؤججون عداوة الصبي وحقده عليّ يوماً بعد يوم. لكنه لن يبقى لهم ما يقولون إذا ما تركت خراسان وخرجت من حوزة هذا الصبي. هذه واحدة، والأخرى أنه إن كان لا بد من شرع السيوف من أجل لقمة العيش وقضاء ما تبقى من العمر، فمن الأفضل أن تشرَّع في وجه الكفار ابتغاء ثواب الآخرة. لتعملوا الآن يا أمراء جيش خراسان وخوارزم ونيمروز أن منصوراً هو أمير خراسان وما وراء النهر وأنتم جميعكم جيشه وقادته، وبه كنتم تحت لوائي. انهضوا وامضوا إلى بلاطه وقابلوه وجدِّدوا له العهد وابقوا على ما أنتم فيه من مراتب في الخدمة، فإنني قد عقدت العزم على المضي إلى الهند للغزو والجهاد. إن أُقتل تكتب لي الشهادة، وإن يحالفني التوفيق والنجاح في نصرة الإسلام وعزته فسأرد القوم الكافرين إلى حظيرة الإسلام أملاً في الجنة ورضى الله ورسوله. ثم إن أمير خراسان سيرتاح مني، وتنقطع قالة السوء عني حسناً كنت أم سيئاً. حينئذٍ تكون خراسان وجيشها وأهلها في عهدة منصور وحده».

لما أنهى كلامه نهض، وقال لأمراء الجيش: «تقدموا إليّ واحداً واحداً لأودعكم». وعبثاً حاول الأمراء ثنيه عن عزمه، فأخذوا بالبكاء وتقدموا منه، وعيونهم تترغرغ بالدموع، وجعلوا يعانقونه الواحد تلو الآخر إلى أن ودّعهم جميعاً. ولما انصرفوا كلهم دخل خيمته الخاصة في حين أن أحداً لم يصدق أن ألبتكين سيترك خراسان إلى الهند، لأنه كان له في مملكة السامانيين خمسمائة ضيعة في خراسان وما وراء النهر، ولم تكن ثمة مدينة إلا كان له فيها قصر وبساتين ومحطات قوافل وحمامات ومستغلات كثيرة، فضلاً عن مائة ألف رأس غنم ومائة ألف حصان وبغل وجمل.

وفي اليوم التالي، سمع الأمراء صوت النفير، فتحرك ألبتكين ومعه غلمانه وحاشيته إلى بلخ تاركاً وراءه تلك النعم جميعها. أما أمراء خراسان فصاروا جميعاً إلى بخارى.

لما وصل ألبتكين إلى بلخ، قرّر أن يمكث بها شهراً أو شهرين ليمكن الذين يريدون الغزو من وراء النهر وَخَتُلان[١٢] وطخارستان وأطراف بلخ من تجميع أنفسهم، ثم تقدم نحو الهند غازياً. غير أن المفسدين والمغرضين أوحوا إلى منصور بن نوح أمير خراسان بأن «ألبتكين ذئب عجوز لن تكون في أمن منه وسلام ما لم تقض عليه. يجب إرسال جيش في إثره للقبض عليه وإتيانك به». فأرسل منصور في إثره أميراً بستة عشر ألف فارس إلى بلخ. فلما وصل هذا الجيش إلى «ترمذ»[١٣] وعبر جيحون كان ألبتكين قد اتجه من بلخ إلى «خُلْم»[١٤]. وكان يقع على بعد أربعة فراسخ بين بلخ وخلم وادٍ ضيق محاط بالوديان والقرى من عن يمينه وشماله يعرف بـ «مضيق خلم». نزل به ألبتكين ووضع في أعلاه مائتي خيال من غلمانه للمراقبة والاستطلاع. وكان يملك في هذا الوقت ألفين ومائتي مولى تركي من أفضل الرجال، فضلاً عن ثمانمائة فارس غازٍ كانوا قد التحقوا به من شتى النواحي.

ولمّا وصل جيش أمير خراسان، عسكر في الصحراء أمام المضيق لعدم تمكنه من الوصول إلى المضيق نفسه، وظل على هذه الحال شهرين. بعد مضي الشهرين جاء دور سبكتكين في المراقبة والاستطلاع، فلما وصل إلى قمة المضيق ورأى الجيش منتشراً في الصحراء وطلائعه متحفزة متوثبة قال في نفسه: «لقد ترك مولانا خراسان وما له فيها من نعم وثروة ومضى غازياً، فطمع هؤلاء بروحه وأرواحنا جميعاً. إنني أخشى، لشدة وفاء مولاي بعهوده ومراعاته لهم، أن يلقي بنفسه وأنفسنا إلى التهلكة. لا

---

(١٢) خَتُلان (بفتح وسكون): بلاد مجتمعة وراء النهر قرب سمرقند (معجم البلدان).

(١٣) ترمذ: مدينة على ساحل جيحون كانت من أجل مدن ناحية الصغانيان؛ ما زالت تعرف بهذا الاسم في جمهورية تاجيكستان السوفياتية. (معجم البلدان؛ وبلدان الخلافة الشرقية ٤٨٤؛ وعباس إقبال : حاشية ص ١٣٧).

(١٤) خُلْم: (بضم الأول وتسكين الثاني): مدينة صغيرة شرقي بلخ. (معجم البلدان؛ وبلدان الخلافة الشرقية ٤٦٩).

مندوحة لهذا الأمر من السيف لأن جيش منصور لن يكف عن ملاحقتنا ما دمنا صامتين هكذا. كان الله – تعالى – في عون ذلك الرجل الذي ألحقوا به الظلم، فهم الظالمون ونحن المظلومون». ثم التفت نحو الغلمان الذين كانوا معه، وقال: «إن عبء هذا الأمر يقع علينا نحن. إن يظفروا بنا فلن يبقوا منا على قيد الحياة أحداً. سأحمل عليهم اليوم لأرى ما سيكون، سواء لاقى الأمر قبولاً لدى مولانا أم لا، وليكن ما يكون». قال هذا، ثم ألقى بنفسه ومعه ثلاثمائة فارس من الغلمان على طليعة جيش خراسان فكسرهم حالاً ودلف إلى معسكرهم، وما إن تمكنوا من استلام السلاح وامتطاء الجياد كان سبكتكين ورهطه قد قتلوا أكثر من ألف منهم. وعادوا في سرعة إلى مكانهم على قمة المضيق. ولما أُخبر ألبتكين بما فعل سبكتكين وقتله كثيراً من الأعداء استدعاه، وقال: «لماذا تسرعت؟ كان يجب أن تتحلى بالصبر». قال سبكتكين: «يا مولاي، إلام نصبر؟ لقد عيل صبرنا. علينا أن نسعى لإنقاذ أرواحنا، ولا سبيل إلى هذا إلا بالسيف لا الصبر. سنحارب من أجل مولانا حتى آخر رمق إلى أن يجدّ في الأمر شيء». قال ألبتكين: «أما وقد أثرت ثائرة العدو فمن الواجب اتخاذ خطة أنجع ضده. قل لرجالنا أن يقوّضوا الخيام ويحزموا الأمتعة استعداداً للرحيل والتحرك بعد صلاة العشاء وإخراج الأمتعة والمؤن من المضيق على أن يسير «طغان» بألف غلام سراً إلى الناحية اليمنى من وداي كذا، وتمضي أنت بألف غلام، أيضاً، إلى الجانب الأيسر من وادي كذا، وأخرج أنا ومعي ألف فارس بالمؤن من المضيق إلى الصحراء ونحط الرحال هناك. سيقول الأعداء حين لا يرون أحداً على قمة المضيق في اليوم التالي بأن ألبتكين قد فرّ فيركبون ويسرعون للحاق بنا مارّين بالمضيق. وحين يخرج أكثر من نصفهم منه ويرونني في الصحراء أطبقوا عليهم بسيوفكم من مكامنكم من اليمين واليسار. وحين يدق ناقوس القتال سيتراجع القسم المقابل لي من جيشهم الذي خرج من المضيق للانضمام إلى الذين ما زالوا فيه ليفروا جميعهم معاً، وسيبتلى قسم منهم بشر سيوفكم. سأحمل من الأمام وتخرجون أنتم من المضيق فنحاصر الخارجين منه منهم ونعمل فيهم السيف ونستمر في ضربهم ما قاوموا، وإذا ما ولوا الأدبار نفسح لهم مجال الهرب ونوسع عليهم أبواب الهزيمة. حينئذ نعود ونخرج من المضيق ونقع على معسكرهم للغنائم». فنفذوا هذا وتركوا المضيق.

في صباح اليوم التالي الباكر، كان جيش أمير خراسان يقف بسلاحه على أهبة الاستعداد للحرب. ولما لم يروا على قمة المضيق أحداً، توغلوا فيه فرسخاً واحداً، فرأوا آثار معسكر ألبتكين، وصح يقينهم بفراره. آنذاك نودي على الجيش أن «أسرعوا في إثرهم، فبعد أن يعبر المضيق ونخرج منه سنطبق عليهم في الصحراء بمدة وجيزة ونقبض على ألبتكين». فتقدم الجيش في سرعة تتقدمه

الصفوة الممتازة. ولما أطلوا من المضيق رأوا ألبتكين ومعه ثلاثة آلاف من الخيالة وعدد من المشاة في السهل الممتد هناك. ولما خرج نصف الجيش المعادي من المضيق انقض عليه «طغان» بألف غلام من الجانب الأيسر للوادي وعاثوا فيهم بسيوفهم وردوا من كانوا خرجوا من المضيق على أعقابهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً. أما سبكتكين فانقض عليهم بألف غلام من الجانب الأيمن وأعمل فيهم السيف، ثم التقى بطغان وأخذا يلاحقانهم معاً. وأما ألبتكين فحمل عليهم من الأمام واستطاعوا، بمدة يسيرة، أن يجندلوا عدداً كبيراً منهم. أما أمير جيشهم فأصيب بطعنة رمح في ظهره خرجت من صدره فخرَّ على الأرض. وانهزم الجيش، الذي لاذ أفراده بالفرار، إلى كل ناحية وجدوا إليها منفذاً لهم ومهرباً.

بعد ذلك عبر غلمان ألبتكين المضيق إلى معسكر الجيش المنهزم، فغنموا ما عثروا عليه من جياد وبغال وفضة وذهب وديباج فقط. أما الخيام والسجاد وما إليها من أمتعة ومؤن ووسائل أخرى فتركوها وقفلوا راجعين، حتى إن أهالي قرى بلخ ظلوا يغنمون منها شهراً كاملاً. ولما أحصي عدد القتلى كانوا أربعة آلاف وسبعمائة وخمسين من غير الجرحى.

ثم سار ألبتكين من خلم إلى «باميان»(١٥) حيث تصدى أميرها لقتاله، فقبض عليه ألبتكين وأسره، لكنه عذره لفعلته تلك وعفا عنه وخلع عليه خلعة ودعاه ابنه. وكان هذا الأمير هو الذي لقب من أمراء باميان بـ «شيرباريك»(١٦).

من هناك توجه ألبتكين إلى كابل وهزم أميرها وأخذ ابنه أيضاً، لكنه أحسن معاملته ورده إلى أبيه. ثم مضى إلى غزنين، ففر ابن أمير كابل (لا بد أنه كان في غزنين آنذاك) الذي كان صهر «لويك» أمير غزنين إلى سرخس. ولما وصل ألبتكين إلى مشارف غزنين، خرج إليه «لويك» واشتبك في قتال معه، فأسر ابن أمير كابل ثانية، وهزم «لويك» وحوصرت المدينة . وأقام ألبتكين على مشارف المدينة ضارباً عليها نطاقاً من الحصار. فخافه أهل «زابل»(١٧)، لكنه أمر منادياً ينادي في أتباعه «يجب ألا

---

(١٥) باميان (بكسر الميم): من مدن ولاية طخارستان القديمة بين بلخ وهراة وغزنين. تقع الآن في شمال غربي مدينة كابل الحالية. (معجم البلدان؛ وبلدان الخلافة الشرقية ص ٤٦٠، وعباس إقبال: حاشية ٣ ص ١٤١).

(١٦) يقال إن أمراء باميان عامة كانوا يلقبون قديماً بـ «شيرباميان» أو «شارباميان». أما كلمة «باريك» التي لما تقرأ جيداً أو يعرف أصلها، فربما أنها اسم لذلك الأمير. (عباس إقبال: حاشية٣ ص١٤١). وعن العلاّمة القزويني (ص١٢٢): يقال إن «شيرباريك» هو الملك طاهر بن خلف بن أحمد الصفّاري.

(١٧) زابل: هي «زابلستان» الفارسية عينها، جرياً على عادة الفرس في إضافة السين وما بعدها في أسماء البلدان شبيهاً بالنسبة. وهي كورة واسعة قائمة برأسها جنوبي بلخ وطخارستان؛ وقصبتها غزنين. يقال إنها منسوبة إلى زابل جد رستم بن دستان. (معجم البلدان).

يأخذ أحدكم من أي شخص شيئاً دون أن ينقده ثمنه، وكل من يخالف هذا يعاقب».

وذات يوم، وقعت عين ألبتكين على غلام تركي من غلمانه كان قادماً وهو يعلق مخلاة تبن ودجاجة على طوق سرج حصانه، فقال: «إليّ بذلك الغلام». فأتي به وسأله ألبتكين: «أنى لك مخلاة التبن هذه والدجاجة؟»، قال: «أخذتها من فلاح قروي». قال ألبتكين: «هلاّ تتقاضى راتباً شهرياً؟» قال الغلام: «أجل» . قال ألبتكين: «فلم لم تشترها بنقود إذاً؟ فإنني أدفع لك أجراً شهرياً لئلا تأخذ من فقير شيئاً دونما حق، فضلاً عن أنني أمرت منادياً ينادي عليكم بهذا». وأمر في الحال بشق الغلام نصفين وتعليقه، والمخلاة معه، على قارعة الطريق. ثم أمر بأن يُنادى ثلاثة أيام «إذا ما بلغنا أن أحداً أخذ من شخص شيئاً سنجازيه بما جازينا به هذا الغلام من خواص غلماننا». فخاف الجيش وأمن الناس، وأخذت النعم والخيرات، التي لا يعلم مقدارها سوى الله عزّ وجلّ، تترى على المعسكر يومياً لتباع ثمّة، ولم يدع ألبتكين أحداً من الغلمان يأتي ولو بتفاحة واحدة من المدينة.

لما رأى أهل غزنين ما هم عليه من أمن وعدل ونعمة قالوا: «إننا في حاجة إلى ملك عادل نكون في ظله آمنين على أرواحنا وأموالنا وأبنائنا تركياً كان أم فارسياً». واخترقوا بوابة المدينة ومضوا إلى ألبتكين. ولما رأى «لويك» هذا فرّ إلى القلعة، لكنه خرج منها بعد عشرين يوماً وصار إلى ألبتكين الذي أظهر له رزقاً وأملاكاً يعيش منها، ولم يلحق أذى بأحد، وعدّ غزنين موطناً له. ومن هناك قصد الهند– وكانت المسافة بين غزنين وديار الكفر مسيرة يومين– فأصاب غنائم وفيرة.

وشاعت الأخبار في خراسان ونيمروز وما وراء النهر بأن ألبتكين اقتحم أبواب الهند وأغار عليها وظفر غنائم كثيرة من الذهب والفضة والأنعام والعبيد والتحف الطريفة النادرة التي لا يعلم مقدارها سوى الله وحده. وانضم إليه الناس من شتى الأطراف حتى وصل عدد أتباعه إلى ستة آلاف خيال. واستولى ألبتكين على عدد من الولايات وأخضعها إلى «برشاوور»[١٨]. وتصدّى له ملك الهند بمائة ألف خيال وخمسين ألف راجل وألف وخمسمائة فيل لإخراجه منها. ومن الطرف الآخر أرسل أمير خراسان شخصاً يُدعى أبا جعفر بخمسة وعشرين ألف فارس لحرب ألبتكين أيضاً، والثأر لهزيمة جيشه النكراء وقتلاه على مشارف بلخ وفي مضيق خلم. وترك ألبتكين أبا جعفر يتقدم بجيشه حتى صار على بعد منزلة واحدة من غزنين، فخرج حينذاك برجاله الستة آلاف من غزنين وأطبق على جيش أبي جعفر، واستطاع أن يتغلب على الخمسة والعشرين ألفاً في مدة قليلة

(١٨) في نسخة عباس إقبال: «برصابور» وهي مدينة «بيشاور» الحالية عينها، التي تقع الآن في ولاية البنجاب شمالي غرب الهند (حاشية ص١٤٢).

ويهزمهم هزيمة شنعاء أسوأ ألف مرة مما مني به الجيش السابق على مشارف خلم. أما أبو جعفر فولّى الأدبار وحيداً بعد أن وجد نفسه دون رجال. غير أن القرويين قبضوا عليه. ولم يعرفوه، فسلبوه جواده وكل ما كان معه وأطلقوه. فمضى إلى بلخ راجلاً متوارياً ودخلها متنكراً. أما أنعامهم وعُددهم وغنائمهم فآلت إلى ألبتكين جميعاً، ولم يعد أمير خراسان، بعد هذه المرة، إلى التصدي لألبتكين أو التعرض له، لأن ضعف السامانيين بعد ألبتكين بلغ مداه إذ صاروا هدف أمراء تركستان ونهباً لحملاتهم. ولما فرغ ألبتكين من قتال أبي جعفر تفرغ لملك الهند، فبعث برسائل إلى خراسان وشتى الأنحاء يطلب مدداً. فجاءته أعداد غفيرة طمعاً في الغنائم وطلباً للغزو وصل عددهم إلى أحد عشر ألفاً وخمسمائة خيال وراجل، كلهم من الشباب المدججين بكامل أسلحتهم. وتقدم بهم نحو ملك الهند، ثم حمل على طلائع جيشه بغتة فقتل أكثر من عشرة آلاف هندي، ولم يلته بالغنائم بل خف منسحباً إلى الخلف. فلما حمل عليه جيش الملك لم يجده.

لقد كان ثمة جبل شاهق وشِعْب كانت طريق جيش ملك الهند منه. فما كان من ألبتكين إلا أن تمركز في أول الشعب واستولى عليه، ولما وصل الملك إلى هناك لم يستطع أن يمر منه بل عسكر حيث وقف به المسير، وأقام على تلك الحال شهرين، في حين كان ألبتكين يغير عليهم ليل نهار بغتة باستمرار ويقتل منهم.

وقد أبلى سبكتكين في هذه الحرب بلاءً حسناً، وتمت على يديه أعمال جليلة كثيرة. أما ملك الهند فبقي على ما هو عليه إذ لم يستطع أن يتقدم إلى الأمام أكثر، ولم يكن في استطاعته أن يعود دون بلوغ الهدف وتحقيق الاستقرار.

وفي نهاية الأمر اقترح ملك الهند على ألبتكين: «لقد جئت من خراسان طلباً للرزق، فما بالك في أن أهبك من الأراضي ما تعيش منها على أن تنضم بمن معك إلى جيشي وتصبحوا جزءاً منه تأكلون وتقيمون بسلام آمنين». فرضي ألبتكين بهذا وقبله. وأعطاه الملك عدداً من المدن والنواحي وخمس قلاع، ثم عاد. لكن الملك كان قد أوعز إلى حامية القلاع سرًّا: « لا تسلموه القلاع بعد عودتي». ولما عاد امتنعوا عن تسليمها له. فقال: «لقد نقضوا الآن عهدهم ». وأغار من جديد، ففتح المدن واستولى على القلاع عنوة لكنه توفي في هذه الأثناء. فوقع جيشه وغلمانه في حيرة من أمرهم، لأن الهنود والكفار كانوا يحيطون بهم من كل جانب. وجلسوا يتداولون الأمر ويتدبرونه فقالوا: «لم يترك ألبتكين ولداً نجعله خليفة له، ونسوده علينا. أما نحن فقد حزنا في الهند كثيراً من الاحترام والرفعة والشرف، ولنا في قلوب الهنود هيبة جد عظيمة. إن نشغل أنفسنا بأن يقول أحدنا: أنا أكثر احتراماً

وحشمة، ويقول آخر: أنا الأَوْلى، ويعصى كل شخص ويخالف من جانبه فسيتبدد كل ما لنا من رفعة وهيبة ويتغلب أعداؤنا علينا. وإذا ما دبَّ الخلاف بيننا، فإن السُّيوف التي نحارب الكفار بها سنصوِّبها إلى نحورنا، وتفلت من أيدينا هذه الولاية التي استولينا عليها. لا حيلة لنا سوى أن نختار من بيننا أليقنا وأكفأنا ونجعله أميراً علينا نأتمر بأمره على أنه ألبتكين». فقالوا جميعاً: «لا علاج لأمرنا سوى هذا». ثم أخذوا يستعرضون الغلمان المقدمين مبينين ما على كل منهم من مآخذ وعيوب إلى أن وصلوا إلى سبكتكين. فوجم الجميع حين ذكر اسمه. لكنه نهض من بينهم من قال: «لا عيب في سبكتكين سوى أن في الغلمان الآخرين من اشتري قبله وأكثر منه خدمة، وإلا فإنه لا ينقصه شيء من حيث الفطنة والذكاء والنزال والشجاعة والمروءة والسخاء والبذل ومراعاة الناس وحسن الصحبة والعشرة والدماثة والخوف من الله والوفاء بالعهد والصدق والاستقامة. لقد رباه مولانا ألبتكين فكانت أفعاله تلقى من لدنه كل رضى وقبول دائماً، ثم إنه يجمع سيرة مولانا وخصاله جميعها، يعرف لكل منا قدره ومكانته جيداً. هذا ما أعرفه عنه، والرأي ما ترونه».

وتشعَّبوا في حديثهم، ثم اتفقوا أخيراً على تنصيب سبكتكين أميراً عليهم. وردّ سبكتكين تنصيبهم له، لكنهم أجبروه على ذلك، وحينذاك قال: «إن لم يكن ثمة مناص فإنني أقبل هذا العبء على أن تهبُّوا معي هبَّة رجل واحد على كل من يخالفني أو يشق عصا طاعتي أو ينبذ أوامري ظهرياً ويتوانى في تنفيذها منكم، وتقتلوه». فعاهدوه أوثق عهد وأقسموا على ذلك، ثم أخذوه وأجلسوه مكان ألبتكين، وسلموا عليه بسلام الأمير ونثروا الذهب والفضة من حوله. وتكللت كل تدابير سبكتكين وحملاته بالسداد والنجاح. ثم تزوج من ابنه رئيس زابل (زابلستان) التي ولدت له محموداً، ولهذا قيل له محمود الزابلي. ولما كبر محمود شارك والده في حملات وأسفار كثيرة.

وأنعم خليفة بغداد بلقب «ناصر الدين» على سبكتكين، لما قام به من أعمال جليلة، وأحرز من انتصارات عظيمة في ديار الهند.

ولما توفي سبكتكين خلفه ابنه السلطان محمود الذي كان قد ثقف عن والده تدبير شؤون الملك وإدارته. وكان محمود كاتباً وقارئاً يهوى الإصغاء إلى أخبار الملوك دائماً، ولقد حاز كل الصِّفات والسير الحميدة.

ومضى محمود في طريق الفتح، ففتح ولاية «نيمروز» واستولى على خراسان. أما الهند فتوغل فيها كثيراً واستولى على «سومنات» وجلب «مناة» وتغلب على ملوكها وهزمهم ووصل أمره إلى ما وصل إليه.

لقد هدفت من وراء هذه الحكاية أن يعلم سيد العالم - خلَّد الله ملكه - كيف يكون العبد الجيد، الذي إذا ما قام بخدمات نافعة مقبولة ولم تبدر منه أية خيانة أو ينكث عهداً قط، بل كان الملك به ثابت الأساس مستحكماً فكان بركة على المملكة ونفعاً لها، يجب ألا يكلّم في فؤاده أو يصغىٰ إلى أقاويل الناس المغرضة فيه بل يجب الاعتماد عليه كثيراً. فالأسرات الحاكمة والمدن والممالك في حاجة إلى رجال تستند إليهم وتعتمد عليهم دائماً. فإذا ما نحي أحدهم عن مكانة أو أطيح به تنقرض تلك الأسرة ويمحي ملكها، وتؤول مدنها إلى دمار. مثال هذا أن ألبتكين كان غلاماً جيداً، وبه استحكم ملك السامانيين الذين لم يعرفوا له قدره بل تألبوا عليه، فدالت، بذهابه من خراسان، دولة السامانيين وآلت بفضله هو إلى أسرته من بعده.

يجب الحفاظ على العبيد والغلمان الذين يربون منذ صغرهم ويترعرعون ويكبرون، لأنه قلما يجود الزمان بغلام لائق متمرس. فقد قالت الحكماء: «الخادم والعبد الكفء المتمرس خير من الابن». وفي المعنى نفسه يقول الشاعر:

«عبد واحد مطواع خير من ثلاثمائة ولد، لأن هؤلاء يبغون موت الأب، والعبد ينشد عزّه».

الفصل الثامن والعشرون

في تنظيم المقابلات الخاصة والعامة

لا بدّ للمقابلات السامية من نظام معين بحيث يدخل ذوو القربى أولاً، فالمعروفون من الحشم، فالناس من الطبقات الأخرى كافة. وحين يجتمعون في مكان واحد (هو القصر) لا يكون ثمة فرق بين شريفهم والوضيع.

من إمارات المقابلة رفع الستارة، أما إسدالها فيعني أنه لا يسمح لأحد بالدخول ما لم يُستدعَ وما كان هذا إلا علامة يستدل بها رسل كبراء الدولة وقادة الجيش على وجود مقابلة في ذلك اليوم أم لا. فإن يكن مثولهم بين يدي السلطان واجباً يذهبوا وإلا فلا، لأنه ليس أشد وطأة عليهم من حضورهم إلى القصر وعودتهم دون أن يروا السلطان. فإن يتكرر الأمر بأن يحضروا مرات ويعودوا ولم يقابلوه فإنهم يظنون به الظنون، ويشرعون في التدبير له والمكر به. إن تضييق النطاق على الناس في الوصول إلى الملك ومقابلته يؤدي إلى تردي أحوالهم وبقائها خافية عليه، وإلى تفاقم أمر المفسدين وتماديهم، وسوء حال الجيش ومعاناته، وشقاء الرعية.

ليس ثمة أفضل من أن يوسّع الملك نطاق مقابلاته ويفتح أبوابه على مصاريعها. وفي أثناء جلوسه للمقابلة، على ولاة الثغور والأمراء والسادات والأئمة، بعد دخولهم ومثولهم بين يديه، أن يعودوا ومن معهم حالاً. وإذا ما بقي الخاصة فعلى غلمانهم الذين جاءوا معهم للمثول بين يدي السلطان أن يعودوا، أما الغلمان الذين لا يستغنى عنهم من مثل الموكلين بالسلاح والسقاية وذوق الطعام وأمثالهم فلا بد من بقائهم ما أقام الخاصة.

وإذا ما تكرر الأمر على هذا النحو مرات عدة، يصير عادة تؤول إلى قاعدة تتبع فتتلاشى هذه المشاق والمتاعب ولا تعود ثمة حاجة إلى رفع الستارة وإسدالها. إن أي ترتيب لا يتماشى مع هذا لن يلقَ رضًى وقبولاً.

الفصل التاسع والعشرون

في تنظيم مجلس الشراب وشروطه

يجب تخصيص يوم أو يومين أسبوعياً للمقابلات العامة بحيث يكون الملك في أوج انبساطه ونشاطه، ليتمكن من حضورها كل من اعتاد ذلك ولا يمنع منها أحد. ويجب أن يخبر العامة بأنّ هذا اليوم يومهم، وأن لا يأتوا في الأيام التي تكون المقابلات فيها للخاصة فقط، لئلا تكون ثمة حاجة في أن يؤذن لشخص ويرد آخر.

ويجب أن تكون أسماء من هم أهل لحضور المجالس الخاصة معروفة وعددهم معيناً، ويشترط أن يكون برفقة كل منهم غلام واحد فقط. وليس من اللياقة أن يأتوا بالخمر وسقاتهم معهم، لأن العادة لم تجر قط بشيء من هذا العمل غير المقبول، بل جرت العادة في كل الأعصار أن تحمل الأغذية والنُّقل[1] والأشربة من قصور الملوك إلى بيوت الآخرين، وليس العكس، فالسلطان هو سيّد البلاد والناس كلهم عيال عليه. فليس صحيحاً، إذاً، أن يحمل الطعام والشراب من بيوت من يعولهم السلطان ويؤمن لهم أرزاقهم إلى قصره ومجالسه. ومن المسلم به أن تدبير شؤون السلطان المنزلية وتجهيزاتها أكثر وأحسن وأجمل وأنظف مما لكل أكابر الدولة وعظمائها.

إن تكن علّة إحضارهم الشراب أن الموكل الخاص به يقدم ضرباً رديئاً، تجب معاقبته. لأن كل الأشربة التي يوكل بها من الأصناف الجيدة فلماذا يقدم شراباً رديئاً؟ فبذا ينتفي عذرهم ويقضي على جسارتهم في إحضار الشراب إلى مجلس الملك.

ولا مندوحة للملك من ندامى لائقين، لأن مجالسته للعبيد والخدم بكثرة تزيد من جرأتهم عليه وتسيء إلى عظمته وجلاله وتنال من حرمته وتصدّع أركانها، وتؤدي إلى ركة في طبعه. فهؤلاء إنما يليقون للخدمة حسب. أما معاشرة الملك لكبراء الدولة وقادة الجيش ورؤساء القوم العظماء المحترمين ومخالطته لهم كثيراً أيضاً، فتسيء إلى أبهته وجلاله من حيث تؤدي بهم إلى التواني والتقاعس عن إطاعة أوامره وتنفيذها، فيتجرّأون عليه ويضربون بالخوف والرهبة منه عرض الحائط.

---

(١) النُّقل: ما يُتنقّل به على الشراب: وروي بفتح النون وفتح النون والقاف معاً، (اللسان – نقل).

إنّ من واجب الملك أن يبحث مع الوزير في الأمور الخاصة بالولايات والجيش وعائدات أملاك الدولة وأراضيها والنفقات والعمران والتدابير اللازمة لصد الخصوم، وغير هذا من شؤون المملكة.

* * *

كل هذه هي التي تبعث على الملالة وزيادة التفكير وعذاب النفس، لأن العقل والنفس لا يبيحان المزاح والانفتاح مع تلك الفئات حرصاً على مصلحة الملك. إن طبع الملك لا ينفرد إلا بالنديم. فإذا ما أراد أن ينبسط أكثر في عيشه وحياته بأن يخلط الهزل بالمزاح، ويتبادل الحكايات المضحكة والنوادر مع الندماء فإن هذا لا يضير عظمته في شيء، لأنه إنما يدخرهم لمثل هذه الأمور. وقد تكلمنا على هذا الموضوع في فصل سابق(٢).

---

(٢) يقصد الفصل السابع عشر من هذا الكتاب.

الفصل الثلاثون

في ترتيب وقوف العبيد والخدم

يجب تنظيم وقوف الكبراء وغير الكبراء والعبيد والخدم وتعيين مكان كل منهم، لأن الوقوف والجلوس بين يدي الملوك سواء. ويجب أن يراعى نظام الوقوف مثلما هو الأمر في الجلوس، فيقف خاصة الملك من مثل حملة السلاح، والسقاة وأضرابهم بالقرب من سرير الملك ويلتفون حوله. فإذا ما أراد شخص أن يندس بينهم أبعده حاجب البلاط؛ وإذا ما دلف شخص غريب وسط أي جماعة منهم يُصرخ في وجهه ويمنع من ذلك.

الفصل الحادي والثلاثون

في احتياجات الجيش ومطالبه

إن تكن للجند حاجة ما، يجب أن تطلب بألسنة قادتهم ورؤسائهم، لأنهم إن أجيبوا إلى إجابة حسنة يكونوا قد توصلوا إلى احتياطاتهم بأنفسهم، ويكسبوا احترام أفرادهم، الذين طلبوا ما يحتاجون إليه بأنفسهم فنالوه دون ما حاجة إلى وساطة تذهب باحترامهم لو لجأوا إليها.

وإذا ما تطاول جندي على قائده ولم يحترمه أو يرع حرمته، بل تجاوز حده يجب أن يعاقب كيما يمتاز الرئيس عن المرؤوس.

الفصل الثاني والثلاثون

في معرفة قدر الجاه والسلاح ومعدات الحرب والسفر

يجب حثّ العظماء والمشهورين ممن يمتلكون الألبسة.القيمة الثمينة على امتلاك الأسلحة وآلات الحرب وشراء الغلمان، لأن مظاهر أبهتهم وعظمتهم إنما تكون بهذه الأشياء لا بزينة منازلهم وأثاثها ووسائل تجملها. إن من تتوافر له إمكانات أكثر في هذا المجال يكون أقرب حظوة لدى الملك، وأكثر عظمة وهيبة وجلالة بين أقرانه وأمام الجيش.

الفصل الثالث والثلاثون

في عتاب المقربين وذوي المقامات الرفيعة حين ارتكاب الأخطاء والذنوب

على من ينشدون العظمة والوصول إلى المقامات العالية الرفيعة أن يتحمّلوا الصعاب ويتجملوا بالصبر في أزمانهم. فإذا ما بدت من هؤلاء هنات وأخطاء وعوتبوا جهاراً، فإن ماء وجوههم يراق ولا يرد لهم اعتبارهم وحرمتهم إلا بقدر كبير من الإحسان والمكافئة والتقدير. إنه لمن الأَوْلى، إذا ما ارتكب أحدهم خطأ، أن يغض الطرف عنه في حينه، ثم يستدعى سراً، ويقال له: «لقد فعلت كذا وكذا، لكننا رغبة منا في عدم الإطاحة بمن قربناهم وأوصلناهم إلى هذه المنزلة قد تجاوزنا عن ذلك. عليه أن يتجنب الوقوع في الخطأ، وألا يجرؤ على ارتكاب شيء من هذا القبيل من بعد[1]. لكنه إذا ما أعاد الكرّة يخرج من كنفنا وخدمتنا وحشمنا فيكون حينئذٍ هو الذي اختار هذا لا نحن».

* * *

سئل أمير المؤمنين[2] رضي الله عنه-: «أي الرجال أشجع؟»؛ فأجاب: «من يتمالك نفسه عند الغضب، ولا يأتي بعمل يندم على فعله بعد أن يسكن غضبه، فلات ساعة مندم».

إن كمال عقل المرء في ألاّ يغضب، فإن غضب يجب أن تكون الغلبة لعقله على غضبه وليس العكس. إن من يستولي هوى نفسه على عقله فإن غضبه، حين يثور، يطغى على عقله فيتصرف تصرف المجانين في أقواله وأفعاله. لكن من يكبح عقله جماح نفسه إبّان غضبها، فإن عقله يستطيع طرد أهواء نفسه وميولها والانتصار عليها، فتلقى أقواله وأعماله قبولاً لدى العقلاء، ولا يدري الناس أغاضب هو أم لا.

---

(١) لاحظ انتقال المؤلف هنا من ضمير الخطاب إلى الغيبة أيضاً.

(٢) أي الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

حلم الحسين بن علي (عليه السلام)

جلس الحسين بن علي، رضوان الله عليهما، يوماً ومعه جماعة من الصحابة ووجهاء العرب إلى «الخوان» يأكلون الطعام، وكان يرتدي جبة جديدة ثمينة من الديباج الرومي، وعمامة في غاية الحسن. ولما أراد الغلام، الذي كان يقف على رأسه، أن يضع آنية طعام أمامه شاء القدر أن تسقط من يده على رأس الحسين وكتفه فتتلطخ عمامته وجبته بالطعام؛ فثارت ثائرة الحسين واحمرت وجنتاه خجلاً فرفع رأسه ونظر في الغلام. لما رأى الغلام الأمر على هذه الحال خشي أن يأمر الحسين بتأديبه، فقال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[٣]. فالتفت الحسين رضي الله عنه إليه مبتهجاً، وقال: «يا غلام، لقد عفوت عنك لتكون في أمان تام من غضبي وعقوبتي». فعجب الحاضرون من حلم الحسين وعلو همّته في حال كتلك وأكبروهما.

حلم معاوية[٤]

يقال إنَّ معاوية كان واسع الصدر وحليماً جداً. ففي حين كان يجلس للناس يوماً، والعظماء جلوس أمامه ووقوف، دخل عليه شاب في ثياب رثة فسلَّم وجلس قبالته بكل جسارة، وقال: «يا أمير المؤمنين، قصدتك اليوم في حاجة لا أذكرها ما لم تعد بتلبيتها». فقال معاوية: «اسألني ما يمكن تلبيته». قال الشاب: «اعلم أنني رجل عَزَبٌ لا زوج لي وأن والدتك دون بعل أيضاً، فزوجنيها ليصبح لكل منا زوج وتثاب أنت على صنيعك». قال معاوية: «أنت شاب وهي عجوز لا سنّ في فمها، فما الذي يرغّبك فيها؟» قال: «لقد سمعت أنها ذات أرداف عظيمة، وهو ما أميل إليه». قال معاوية: «والله إن والدي تزوجها لهذا السبب ليس إلاّ. لكنني مع هذا سأتحدث إليها في الأمر، فإن رغبت فيه فليس من هو أولى مني بالقيام بهذه المهمة». ولم يبد عليه أي تغيير، أو أنه تحول من مكانه. فأدرك الناس أن أحداً لن يستطيع أن يكون أحلم منه.

وقالت الحكماء: الصبر جميل لكنه عند المقدرة أجمل، والعلم جميل لكنه مع المهارة والتفنن أجمل، والنعمة جميلة لكنها بالشكر والسعادة أجمل، والطاعة جميلة لكنها بالعلم وخشية الله أجمل.

---

(٣) آل عمران: آية ١٣٤. وقد سقطت «الواو» من «والكاظمين» في الآية الكريمة في أصل الكتاب دون أن ينتبه الدكتور جعفر شعار إلى هذا، فضلاً عن أنه ذكر أنه هذا الجزء من الآية من آية ١٣٤من سورة آل عمران. (انظر: حاشية ١ ص ١٩٢ من نسخته). أما في نسخة عباس إقبال فجاء هذا الجزء من الآية كاملاً إلى نهايتها أي ﴿... وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّـهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(٤) حذف الدكتور شعار هذه الحكاية من هذا الفصل بحجة أنها مستهجنة في نظره. وقد تابع في صنيعه هذا عباس إقبال الذي حذفها لأنها تتنافى مع تدريس الكتاب في المدارس الإيرانية (انظر: حاشية ٣ ص ١٥٥). لكن «دارك» أبقاها على حالها فترجمتها عنه رعاية لأمانة الترجمة.

الفصل الرابع والثلاثون

في الحرس والخفر والبوابين

تجب الحيطة التامة بشأن الحرس والخفر والبوابين الخاصين. وعلى الموكلين بهم معرفتهم جميعاً، والاستفسار عن أحوالهم سراً وعلانية لأنهم أفقر واطمع وأسرع انخداعاً بالمال والإغراء. وإذا ما شوهد بينهم غريب، يجب السؤال عنه والتأكد منه. ويجب أن يراقبوا ويتأكد منهم ويوضعوا تحت الإشراف المباشر كل ليلة حين يتسلمون واجباتهم. ويجب عدم إغفال هذا الأمر ليلاً ونهاراً لأنه دقيق جداً.

الفصل الخامس والثلاثون

في إعداد الخوان وتنظيمه جيداً

كان الملوك دائماً، يعيرون اهتماماً كبيراً لإعداد الخوان في الصباح الباكر، ليجد من يمثلون بين أيديهم ما يأكلون هناك. ولا تثريب على الخاصة إذا لم يتناولوا الطعام في هذا الوقت، بل تناولوه في وقته المضروب، غير أنه لم تكن مندوحة من تهيئة الخوان بكرة.

كان السلطان طغرل- رحمه الله - يحرص على إعداد الخوان جيداً، ويأمر بتهيئة ضروب الطعام المختلفة على أكمل وجه. حتى حين كان يركب مبكراً، طلباً للتنزه أو الصيد، كان يُحمل في موكبه عشرون وسقاً من الأطعمة لزاده في الصحراء. وقد كانت كثرتها تثير عجب الأمراء والأتراك في أثناء تناولهم الطعام ثمة.

وكان من عادة «خانات» تركستان توفير الأطعمة لخدمهم، وفي مطابخهم. فلما ذهبنا إلى سمرقند[1] و «أوزكند»[2] سمعنا ما كان يدور على ألسنة الفضوليين من أن «الجكليين» وسكان ما وراء النهر كانوا يقولون دائماً: «إننا لم نأكل لقمة واحدة على خوان السلطان في المدة الطويلة التي يتردد فيها!».

***

إن همّة كل شخص ومروءته بقدر عظمته وسيادته، ولأن السلطان سيد العالم كله والملوك جميعاً منصاعون إليه يجب أن تكون عظمته وهمته ومروءته وخوانه وصلاته متناسبة مع قدره وجلاله وأفضل من سائل الملوك وأكثر. وفي الخبر أن إغداق الخبز والطعام على خلق الله ، عزّ وجلّ، يزيد في دوام العمر والملك والدولة.

---

(١) زار ملكشاه هذه الحدود مرتين إبّان حكمه، الأولى عام ٤٧١هـ، والأخرى عام ٤٨١هـ. يبدو أن هذه الإشارة إلى الزيارة الأولى (تعليقات دارك ص ٣٣٩).

(٢) وقيل «أوزجند» (بالجيم)، وهي بلد بما وراء النهر من نواحي فرغانة. ويقال إن كلمة «كند» تعني قرية بلغة أهل تلك البلاد، مثلما يقول أهل الشام «كفر» (معجم البلدان).

(قصة) موسى وفرعون

جاء في تواريخ الأنبياء (عليهم السلام)، أن موسى (عليه السلام) أرسل إلى فرعون بالمعجزات والكرامات والمنازل الرفيعة. لقد كان قوام خوان فرعون: أربعة آلاف خروف وأربعمائة بقرة، ومئتي بعير يومياً، مع ما يناسبها من الدجاج والسمك والمشهيات والمقالي والحلوى وغيرها. وكان أهل مصر وجيشها يتناولون الطعام على خوانه كل يوم. وظلّ يدّعي الألوهية ويقيم الخوان أربعمائة سنة.

ولما دعا موسى(عليه السلام): «يا رب أهلك فرعون» استجاب الله، عزّ وجلّ، لدعائه، وقال: «سوف أهلكه في الماء يوماً، فأجعل ثروته وجيشه رزقاً لك ولقومك». ومضت على هذا الوعد سنوات، وفرعون يرتع في ضلاله، ويطوي الأيام بتلك العظمة والجلالة، أما موسى (عليه السلام)، فأخذ يتمنّى على الله، عزّ وجلّ أن يعجّل في هلاك فرعون.

ونَفِد صبر موسى، وصام أربعين يوماً، ثم مضى إلى الطور، وناجى الله، عزّ وجلّ، قائلاً: «يا رب، لقد وعدت أن تهلك فرعون، إنه لم يخفف من غلوائه ودعواه وكفره شيئاً، فمتى تودي به؟» فجاءه نداء الحق تعالى: «يا موسى، إنك تريدني أن أهلك فرعون في أقرب وقت، في حين أن مائة مائة ألف من عبادي لا يريدون ذلك، لأنهم يأكلون من نعمه يومياً، وينعمون بالراحة في عهده. وعزتي وجلالي، لا أهلكه ما أسبغ على الناس نعمته وطعامه تامين». قال موسى: «فمتى تنجز وعدك إذاً؟» قال تعالى: «سأنفذ وعدي متى أمسك عن إطعام الناس، فإذا ما بدأ في تقليل طعامه، اعلم أن أجله أخذ يدنو من نهايته». وحدث، أن قال فرعون لهامان يوماً: «لقد جمع موسى بني إسرائيل حوله، وهو يعمل على إيذائنا. لست أدري إلام تنتهي عاقبة أمره معنا. علينا أن نملأ خزائننا، لئلا نقعد دون ثروة أبداً، وأن نقلل النفقات اليومية إلى النصف. يجب أن يقل عدد الذبائح ألف خروف، ومئتي بقرة ومائة بعير حباً في الادخار».

هكذا أخذت تقلّ تدريجياً كل يومين أو ثلاثة. وكان موسى(عليه السلام) يعلم أن وعد الحق تعالى أخذ في الاقتراب وأن زيادة التوفير لم تكن سوى علامة الزوال والشؤم. ويقول الإخباريون إنه لم يذبح في مطبخ فرعون في اليوم الذي غرق فيه سوى شاتين.

لقد امتدح الله، تعالى، إبراهيم (عليه السلام)لإطعامه الطعام، وحبّه الضيف. وحرّم - عزّ وجلّ - النار على بدن حاتم الطائي لسخائه وحسن ضيافته، وسوف يظلّ الناس يذكرون كرمه ومروءته مدى الحياة.

وذكر الله تعالى الإمام علياً (رضي الله عنه) في القرآن الكريم، وأثنى عليه غير مرة، لإعطائه في الصلاة، سائلاً خاتماً سد به رمق عدد من الجياع، وسوف يظل الناس يلهجون بشجاعته وعلو همته وشهامته إلى يوم الدين.

ليس في الدنيا أفضل من الشهامة، والإحسان، وإطعام الطعام، فهو رأس كل المروءات، يقول العنصري[٣]:

«الكرم أجلّ الأعمال، إنه من شمائل النبي»[٤].

«الدنيا والآخرة للكريم، فكن كريماً تفز بهما».

فإن تكن لأحد نعمة، وابتغى أن تكون له، دون عهد من الملك بذلك، العظمة والسيادة، وأن يتواضع له الناس ويحترموه ويقدروه ويلقبوه سيداً وعظيماً، فقل له أن «ابسط سفرتك يومياً»، فإن شهرة أكثر من اشتهرت أسماؤهم في الورى، لم تكن إلا بإطعام الطعام.

أما البخلاء والممسكون فمذمومون في الدنيا والآخرة. جاء في الأخبار: «البخيل لا يدخل الجنة». ولم تكن في كل أعصار الكفر والإسلام خصلة أحسن من إطعام الطعام.

---

(٣) العنصري(٣٥٠-٤٣١هـ): هو أبو القاسم، الحسن بن أحمد؛ أصله من بلخ. كان أكبر الشعراء في الدولة الغزنوية، ومن مقربي السلطان محمود الذي كان أكبر ممدوحيه. لقب بملك الشعراء، ونال حظوة السلطان واحترامه. (راجع: دكتر رضا زادة شفق، تاريخ أدبيات إيران ص ١٥٢-١٥٧).

(٤) ينقل «دارك» عن «تاريخ أدبيات در إيران» (ج١، ص ٤٢٦) للدكتور ذبيح الله صفا أن البيت الأول من هذين البيتين الذي نسب للعنصري يوجد في منظومة «بندنامه أنوشيروان» المنسوبة إلى بديع البلخي من شعراء القرن الرابع (تعليقات دارك ص ٣٣٩).

الفصل السادس والثلاثون

في معرفة حق الخدم والعبيد والأكفياء

تجب مكافأة كل من يقوم من الخدم بعمل مرضٍ حالاً، ليجني ثمار ما قدمت يداه. أما من يرتكب منهم خطأ في عمله سهواً ودونها قصد فيجب معاقبته بقدر ذنبه، لتقوى رغبة العبيد في الخدمة ويكثر إقبالهم عليها، وتزداد خشية المذنبين، وتستقيم الأمور.

عقوبة الذنب

عربد فتى هاشمي، لسكره، على فريق من الناس، فمضوا إلى والده وشكوا إليه ابنه. ولما همّ الأب بعقاب الابن، قال له: «يا أبت، لقد أذنبت وأنا فاقد وعيي، فلا تعاقبني وأنت تملك صوابك». فسُرَّ الأب لقوله وأعجبه، فعفا عنه.

كسرى أبرويز وباربد

قال (ابن) خرداذبة[١]: «غضب أبرويز على أحد خاصته، فحبسه، ولم يجرؤ أحد على الدنو منه سوى «باربد»[٢] المغني الذي كان يأتيه بالطعام والشراب يومياً. فلما أخبر الملك أبرويز بذلك، قال لباربد: «كيف تجرؤ على الاعتناء بشخص في حبسنا ومساعدته؟ هلاّ علمت أنه لا يجوز الاهتمام بمن نغضب عليه ونسجنه؟» قال باربد: «يا مولاي، إن ما وهبته أنت إياه أهم مما أفعله من أجله». قال أبرويز: «وماذا وهبته؟» قال: حياته، فهي أحسن مما كنت أرسله إليه». قال الملك: «أحسنت. لقد قلت شيئاً حسناً. اذهب فإنني عفوت عنه إكراماً لك».

(١) في الأصل «خردادبة» (بالدال المهملة). ربما كان المقصود به «ابن خرداذبة» صاحب كتاب «المسالك والممالك» الذي يذكر له ابن النديم كتاباً باسم «كتاب اللهو والملاهي» (الفهرست ١٦٥ .طبعة طهران ١٩٧١م) الذي ربما أخذت عنه هذه الحكاية. وقد نشر الأب أغناطيوس عبده اليسوعي قطعة من هذا الكتاب باسم «مختار من كتاب اللهو والملاهي» (المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٦١م).

(٢) كان باربد مغنياً وموسيقياً معروفاً في بلاط كسرى أبرويز (زاهري خانلري: فرهنگ أدبيات فارسي ص ٨٣).

أنوشروان والعجوز الذي كان يغرس جوزاً

كان من عادة سلالة الساسانيين إذا ما فاه أحد أمامهم بكلام جميل يروقهم أو أبدى مهارة ما، أن تنطلق ألسنتهم بلفظة «أحسنت». حينئذٍ يعطي الموكل بالخزانة ذلك الشخص ألف دينار حالاً. وكان ملوك الأكاسرة، وأنوشروان العادل تحديداً، أكثر من غيرهم من الملوك الآخرين عدلاً وهمة ومروءة.

حينما كان أنوشروان خارجاً للصيد يوماً، وخاصته معه، مرّ بأطراف قرية، فرأى عجوزاً في التسعين من عمره يغرس جوزاً، فتملكه العجب، لأن هذه الغراس لا تؤتي أكلها قبل عشر سنوات أو عشرين. قال أنوشروان له: «يا شيخ، أتغرس جوزاً؟»، قال: «أجل يا مولاي». قال أنوشروان: «أفستعيش حتى تأكل من ثماره؟». قال: «غرسوا فأكلنا، ونغرس فيأكلون». فسر أنوشروان لجوابه، وقال: «أحسنت». فناول الموكل بالخزانة العجوز ألف ديناراً حالاً. فقال الشيخ: «يا مولاي؟ لم يسبقني أحد إلى جني ثمار هذا الشجر». قال أنوشروان: «كيف؟». قال الشيخ: «لو لم أكن أغرس جوزاً، ولم يمر مولاي من هنا فيسألني ما سأل، وأجبه بما أجبت، فأنّى لي هذه الألف دينار؟». فقال أنوشروان: «أحسنت، أحسنت». فأعطى الموكل بالخزانة الرجل ألفين آخرين، لجريان «أحسنت» على لسان أنوشروان مرتين.

إحسان المأمون

كان المأمون يجلس للمظالم يوماً، فسلمت إليه رسالة في حاجة ما، فناولها إلى الفضل بن سهل وزيره، وقال له: «اقض حاجة هذا الرجل بسرعة، فعجلة الزمن أسرع من أن تثبت على حال، وهذه الدنيا تمضي سراعاً بحيث لا تمكن المرء من الوفاء لصديقه. نستطيع أن نفعل اليوم خيراً، لكن ربما يأتي يومٌ لا نستطيع معه، لعجزنا، فعل الخير لأحد».

الفصل السابع والثلاثون

في الحيطة في إقطاع الإقطاعيين وأحوال الرعية

إذا ما أنهيت أخبار تنبئ عن الخراب والدمار في ناحية ما، وعن بروز الفرقة بين أهلها، وظُنَّ في أن للقائلين مآرب خاصة، لا بد من ندب أحد الخاصة وإرساله إلى تلك الناحية، دون أن يدري أحد بالمهمة المرسل بها، ليقيم شهراً ثمّة، يستطلع فيه أحوال المدينة والريف، ويرى مظاهر العمران والخراب، ويستمع إلى ما يقول الناس في المقطع والعامل، ثم يعود بالحقيقة، لأن ليس لأولي الأمر هناك من عذر وحجة سوى «لنا خصوم». يجب عدم الإصغاء إلى كلامهم، لئلا يتمادوا في التجرؤ، فيفعلوا ويقولوا ما يشاؤون.

وقد يمتنع المخبرون والمعتمدون عن قول الحقيقة ونقلها لكيلا يتطرق إلى ذهن الملك وأصحاب الإقطاع أنهم من ذوي الأغراض والمآرب أيضاً؛ فتؤول المملكة إلى دمار، والرعية إلى فقر وشتات، وتؤخذ الأموال بالباطل.

الفصل الثامن والثلاثون

في التريث في الأمور

يجب عدم التسرع في الأمور، فإذا ما سُمع خبر ما أو طرأ شيء، يجب تدبّره بتأنٍّ وهدوء إلى أن تنجلي حقيقته، ويتبيّن الكذب من الصدق. فالتسرّع من شأن الضعفاء لا الأقوياء.

وإذا ما تحاجّ خصمان بين يدي الملك، يجب عدم إشعارهما بمن يؤيده الملك ويميل إليه، لئلا يخاف صاحب الحق آنذاك فلا يستطيع بيان حجته، ويزداد الذي على الباطل جرأة فيوغل في كذبه وافترائه. يقول الحق تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1].

فراسة ألب أرسلان

كان في مدينة «هراة» عالم معروف[2]، هو ذلك الشيخ الذي قدم لمولانا مرة. وحدث أن ذهب السلطان الشهيد[3]- أنار الله برهانه- إلى هراة وأقام فيها مدة، وفي هذه الأثناء نزل عبد الرحمن الخال[4] في سراي ذلك الشيخ العالم. وذات يوم، قال عبد الرحمن أمام السلطان على الشراب: «لهذا الشيخ حجرة يأوي إليها ليلاً، ويقال إنه يصلي فيها الليل كله. لكنني رأيت اليوم، وأنا أفتح باب الحجرة، زقّ خمر، وصنماً نحاسياً. إن الرجل يقضي ليله في الشراب وعبادة الصنم». وكان عبد الرحمن الذي أحضر الزق والصنم معه، يدرك أنه حينما يطلع السلطان على هذا الأمر، سيأمر بقتل الشيخ حالاً.

---

(١) الحجرات: الآية ٦.

(٢) يرى عباس إقبال أن نظام الملك ربما يقصد بالعالم المعروف شيخ الإسلام الخواجة عبد الله بن محمد الأنصاري (٣٩٦-٤٨١هـ) العالم والصوفي الهروي المشهور الذي شكاه أهل هراة إلى ألب أرسلان ونظام الملك، وألصقوا به التهم غير مرة، لتعصبه في الدين وإلحاقه الأذى بهم لذلك. ويظن عباس إقبال أيضاً أن نظام الملك تحاشى ذكر اسمه لأنه لم يكن بينهما صفاء ومودة (حاشية ٢ ص ١٦٥).

(٣) أي ألب أرسلان.

(٤) في نسخة إقبال (ص ١٦٦) أن عبد الرحمن هذا كان خال ألب أرسلان.

أرسل السلطان غلاماً وشخصاً في طلب الشيخ، كما أرسل إليّ[٥] من يقول: «ابعث شخصاً في طلب ذلك العالم الشيخ» دون أن أدري علة استدعائه. ثم جاء في الوقت نفسه شخص آخر وقال: «لا ترسل أحداً، ولا تستدع الشيخ».

في اليوم التالي، سألت السلطان: «ماذا كان سبب استدعاء الشيخ العالم أمس، والعزوف عنه بعد ذلك؟» أجاب: «جسارة عبد الرحمن الخال وصفاقته». وقص عليّ الحكاية، ثم قال: قلت لعبد الرحمن الخال: «على الرغم مما قلت ومن إحضارك الزق والصنم، فلن آمر بشيء ضد الشيخ العالم قبل أن أتثبت من حقيقة أمره. عليك بيدي وأقسم بحياتي ورأسي: أصدقٌ ما تقول أم كذب؟» فقال عبد الرحمن: «كذب». قلت: «يا نذل، لمَ افتريت على الشيخ العالم الكذب إذاً، وأردت هدر دمه؟». قال: «لأن له بيتاً جميلاً هو الذي أنزل فيه الآن، وقد ظننت أنك ستهبني إياه بعد أن تقتله».

***

قال علماء الدين: «العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن». من الممكن القيام بعمل لم يقم به بعد، لكن ليس بالإمكان فعل أي شيء فيما تم إنجازه».

يقول بزرجمهر: «العجلة من التهور والطيش، والعجول الذي لا يعرف التأني يظل حزيناً ندمان دائماً، والمتهورون مبتذلون في أعين الناس».

لقد رأيت كثيراً من المسائل والأمور على وشك أن تنجز بنحو حسن، غير أن التسرع أفسدها وأحبطها. العجول في صراع دائم مع نفسه، يقضي عمره في التوبة والاعتذار، وتلقي اللوم، والغُرم. يقول أمير المؤمنين علي –رضي الله عنه–: «التأني محمود في كل شيء إلا في فعل الخير».

---

(٥) أي نظام الملك نفسه.

الفصل التاسع والثلاثون

في أمير الحرس وحملة الدبابيس

كانت إمارة الحرس، فيما تقدم، من أهم الوظائف والمناصب وأجلّها في كل الأعصار. إذ لم يكن في البلاط أعظم وأكثر أبهة بعد الأمير الحاجب العظيم من أمير الحرس، لأن عمله مختص بالعقوبات، والجميع يخشون غضب الملك وعقابه. فإذا ما غضب الملك على شخص ما، فإنه يأمر أمير الحرس بأحد الأشياء الآتية: ضرب العنق، وقطع اليد والرجل، والشنق، والجلد، والزج في السجن، والإلقاء في البئر. ولم يكن الناس يترددون في افتداء أنفسهم وأرواحهم بالمال. لقد كان اللواء والطبل والدف لأمير الحرس دائماً، وكان الناس يخافونه أكثر من الملك غير أن هذا المنصب أضحى خَلِقاً بالياً في هذه الأيام[1]، ولم يعد له بهاء ورونق.

يجب أن يكون في البلاط دائماً خمسون- في الأقل- من حملة الدبابيس؛ عشرون بدبابيس ذهبية الرأس، ومثلهم بدبابيس فضية الرأس، والعشرة الآخرون بدبابيس كبيرة، وأن تكون لأمير الحرس أحسن الوسائل وأدوات الزينة والتجمل وأبهاها، وأتم احترام وأكمله. فإن يستطيع أن يوطن نفسه على كل هذا فبها، وإلا فليستبدل آخر به.

(المأمون وتيسير دقّة الأمور)

في حين كان الخليفة المأمون يجالس ندماءه يوماً، قال: (لي أميرا حرس لا عمل لهما من الصباح الباكر إلى الليل سوى ضرب الرقاب، والشنق، وقطع الأيدي والأرجل، والجلد، والزّج في السجن. الناس يمتدحون أحدهما ويثنون عليه، ويعرفون له حقه باستمرار، وهم عنه راضون، وبه مسرورون؛ في حين أنهم يسبُّون الآخر ويذكرونه بالشرّ والسوء وهم دائمو الشكوى والتذمر منه، يلعنونه ويدعون عليه ما ذُكر اسمه، ولست أدري سبباً لهذا. ليت أحداً يستطيع أن يتبين لي حقيقة الأمر. إن عمل الرجلين واحد، فَلِمَ يُثني الناس على أحدهما، ويتذمرون من الآخر؟!. قال أحد

---

(١) أي عصر المؤلف.

الندماء: «إن يتفضل مولاي بندبي لهذا الأمر، وإمهالي ثلاثة أيام آته بحقيقته». قال المأمون: «لك هذا».

مضى النديم إلى منزله، وقال لأحد خدمه الأكفياء: «لقد ندبتك للمهمة الآتية: في بغداد – في هذه الأيام– أميرا حرس، أحدهما مسن، والآخر كهل[٢]. عليك أن تنهض صباح غد الباكر وتمضي إلى بيت الأول، فحين يخرج من حجرته إلى السراي، راقبْ سلوكه: كيفية جلوسه وأقواله وأعماله، وأنعم النظر في تصرفه وأوامره حين يدخل الناس عليه، ويساق المجرمون إليه. انتبه لكل هذه الأشياء وأحط بها جيداً، ثم أطلعني عليها. وبعد غد امض باكراً كذلك إلى سراي الأمير الآخر، وراقب كل ما يجري من أحاديثه وتصرفاته من أولها إلى آخرها، ثم عد لي بخبرها أيضاً». فقال الخادم: «سمعاً وطاعة».

في اليوم التالي، نهض الخادم باكراً، ومضى إلى سراي أمير الحرس المسن وجلس. ما هي إلا مدّة، حتى جاء فرّاش، ووضع شمعاً على الصُّفة، وفرش المصلّ، ووضع عليه بضعة مصاحف وأدعية وسبحات. حينئذٍ ظهر رجل مسن، فصلّى عدة ركعات، ثم أقبل الناس جميعاً. وجاء الإمام، فأقام الصلاة، وصلّيت الجماعة. قرأ الرجل ما تيسر له من القرآن والأدعية؛ ولما فرغ من أوراده تناول السبحة وأخذ يسبح ويهلل، والناس يتواردون ويلقون السلام، بعضهم يذهب وبعضهم يجلس إلى بُعيد شروق الشمس. حينئذٍ سأل الأمير: هل من مذنب فأجيب: «فتى ارتكب جريمة قتل». قال: «أمن أحد يشهد عليه؟».فقيل له: «لا، هو نفسه مقرٌّ بجرمه». قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. أدخلوه لأراه». فأدخل الشاب. ولما وقعت عين الأمير عليه: قال «أهذا هو؟» قيل له: «أجل».قال : «لا تبدو على هذا الفتى سيما المجرمين، بل إن نور الإسلام والأصالة والإنسانية يشع منه. إنه ليس ممن يرتكبون مثل هذا الإثم. أحسب أنهم يكذبون. لن أستمع إلى قول أحد فيه. ما هذا الكلام؟! إن هذا الجرم لا يصدر عن هذا الفتى. انظروا كيف أن سيماه وملامحه تشهد له». وفي حين كان الفتى ينصت مصغياً، قال أحدهم: «أيها الأمير، إنه هو نفسه مقرٌّ بجرمه» فصاح به الأمير: «اخرس، فمن ذا الذي يسألك؟ ألا تخاف الله، أتحمّل نفسك وزر دم فتى مسلم عبثاً؟ إن هذا الفتى أعقل من أن يفعل أو يقول شيئاً يكون فيه هلاكه وحتفه!». وكان هدف الأمير من ذلك أن ينكر الفتى أقواله ويتراجع عنها.

---

(٢) الكهل لغة، الرجل إذا جاوز الثلاثين. وقيل من زاد على ثلاثين إلى الأربعين، وقيل من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين. (اللسان –كهل).

ثم التفت الأمير نحو الفتى، وقال: «ما تقول؟». قال الفتى: «لقد شاء قضاء الله وقدره أن يتم الأمر علي يديّ خطأ. إن بعد هذه الدار دار أخرى لا طاقة لي فيها على عذاب الله، عزّ وجلّ، نفّذ حكم الله فيّ». غير أن أمير الحرس تصامم، والتفت نحو الناس، وقال: «إنني لا أسمع ما يقول. أيقر هو أم لا؟» قالوا: «أجل، إنه يعترف». قال الأمير: «يا بنيّ، لا تبدو عليك سيما المجرمين. فلربما أن خصماً لك ممن يبغون هلاكك حملك على أن تقول هذا. فكّرْ جيداً».قال الفتى: «أيها الأمير، لم يحملني على هذا أحد، إنني مذنب، فنفّذ حكم الله فيّ». لما أيقن أمير الحرس أن الفتى لن يتراجع عن قوله، وأن لا جدوى لتلقينه إياه، وأنه يعرّض نفسه للموت، قال له: «أحقٌّ ما تقول؟» قال: «أجل» قال الأمير: «أأنفّذ فيك حكم الله؟». قال: «نفّذه». والتفت الأمير إلى الناس، وقال: «أرأيتم في حياتكم فتى يخاف الله، مسلماً بصيراً بالعواقب من مثل هذا الفتى؟ إنني لم أر قط. إن نور السعادة والإسلام وإمارات الأصالة تشع منه مثلما ينبعث الضياء من الشمس. إنه يعترف خوفاً من الله، ويعلم أنه يجب أن يموت. إنه يرغب في أن يمضي إلى الله، عزّ وجلّ، نقياً شهيداً. فلم يبق بينه وبين الجنة حيث الحور والقصور إلا خطوات. هؤلاء هم أهل السعادة والمغفرة والجنة». ثم قال للفتى: «اذهب واغتسل، ثم عد وصلّ ركعتين، وسل الله، عزّ وجلّ، وتب إليه واستغفره، كي أنفّذ فيك حكمه وقضاءه». فذهب الفتى واغتسل، ثم عاد. وأمر الأمير بمصلى، فصلّى الفتى ركعتين وتاب إلى الله واستغفره، ثم عاد ووقف بين يدي الأمير الذي قال: «كأنني أرى الآن أن هذا الفتى سيرى المصطفى، ﷺ، في الجنة، وسيكون مع الشهداء من مثل حمزة والحسن والحسين وأمثالهم». هكذا جعل الأمير يدلي بأحاديث الموت بهذه الحلاوة والعذوبة في قلب الفتى حتى حُبب إليه الإسراع في قتله. ثم أمر بتعريته وتعصيب عينيه، وهو ماضٍ في أحاديثه عن الموت على النحو نفسه. وجيء بسيّاف ماهر سيفه هو الماء في صفائه، ووقف على رأس الفتى دون أن يشعر به. وأشار الأمير بعينه بغتة، فضرب السيّاف عنق الفتى في سرعة خاطفة، وقطع رأسه بضربة واحدة.

ثم أمر الأمير بإيداع آخرين قبض عليهم بجرائم مختلفة السجن، للبت في أمورهم والتثبت منها. ونهض، ومضى إلى حجرته.ثم تفرق الناس. وعاد الخادم إلى النديم، وحدثه بكل ما رأى.

وفي صباح اليوم التالي الباكر، مضى الخادم إلى سراي أمير الحرس الكهل وجلس ينظر، فأخذ الناس وأعوانه يتوافدون واحداً تلو آخر، حتى غص السراي بهم. ولما طلعت الشمس وارتفعت في السماء، خرج الأمير من حجرته وجلس للناس مقطب الحاجبين، متهدل العينين كأنه كان يقتل

ملاكاً طوال ليله[٣]. ووقف أعوانه أمامه. ولم يكن يرد التحية على من يحييه، وإذا ما اتَّفق وردَّ على أحدهم، فكأنه في حنق عليه.

انقضى وقت، ثم سأل: «أأُحْضِرَ أحدٌ؟»، فقيل له: «فتى، قبض عليه سكران فاقد الوعي ليلة أمس». قال: «إليّ به». فأُتي به، ولما وقعت عيناه عليه، قال: «أهذا هو؟». قالوا: «أجل». قال: «كنت أبحث عنه منذ مدة طويلة. إنه ابن حرام، مفسد، شرير، لص، قاطع طريق، عربيد، لا يخشى الله، مثير للفتنة، ولا مثيل له ببغداد. يجب ألا يكتفى بإقامة الحد عليه، بل يجب ضرب عنقه. لم يكن له من عمل ليل نهار سوى مطاردة أبناء الناس، يسيء إلى سمعة الصبيان حيناً، ويلطخ سمعة النساء حيناً آخر. لم يكن يمر يوم دون أن يأتي إليّ عشرة منهم يشكونه ويتذمرون من شره. إنني لفي طلبه منذ وقت طويل». لقد قال الأمير كثيراً من هذا، حتى إن الفتى رغب في أن يضربوا عنقه تخلصاً من كلم لسانه. ثم أمر الأمير بإحضار بضعة سياط جيدة، وقال: «القوه على الأرض، واجلسوا على رأسه ورجليه، واجلدوه أربعين سوطاً بنحو يعضُّ فيه الأرض بأسنانه».

ولما كانوا يرغبون في إيداع الفتى السجن بعد جلده حضر ما يربو على خمسين رجلاً من الوجهاء المعروفين، فشهدوا له بالصلاح، والستر والمروءة، وكرم الضيافة، وحسن السيرة والاعتقاد وتشفعوا له بالإفراج عنه بعد جلده، على أن يقدم هدية أيضاً. غير أن الأمير لم يحفظ لهم حرمة، ولم يعرهم اهتماماً، وأودعه السجن. فعادوا، وهم عليه ساخطون حاقدون، والناس يدعون عليه ويلعنونه. ونهض وصار إلى حجرته. وعاد خادم النديم، فأطلع سيده على كل ما جرى.

وفي اليوم الثالث، مضى النديم إلى أمير المؤمنين المأمون، وتلا عليه ما سمع من سيرة أميري الحرس وسلوكهما. فتملك المأمون العجب، وقال: «عفا الله عن هذا الشيخ المسن! وعلى ذلك الكلب اللعنة! فلقد ارتكب سفاهة بحق رجل شريف سكران فما تراه -والعياذ بالله- يفعل بالقاتل؟». وأمر بتنحيته عن إمارة الحرس وعزله منها، وإخراج الفتى من السجن. أما الأمير المسن فأبقاه في منصبه، وخلع عليه خلعة من جديد، وارتاح باله من شتى الوجوه.

(٣) ترجمة المثل الفارسي: «گويى همه شب فرشته كشته است».

الفصل الأربعون

في ترفق الملك بخلق الله - عز وجل - ورد كل ما تحيد من الأمور والقواعد عن نصابه إليه

إنّ المملكة- أية مملكة- معرضة للابتلاء، في أي وقت بنازلة سماوية، وطالع سوء ونحس، كأن يتحول الحكم فيها من أسرة إلى أخرى، أو تضطرب أمورها، فتشتعل نار الفتن والاضطرابات، وتسلّ السيوف، فيكثر القتل والحرق والغارة والظلم. وفي أوقات الفتن والاضطراب هذه، يعاقب الشرفاء ويُنَحَّوْن، ويتولّى الأرذال مقاليد الأمور، فيعمل القوي منهم ما يحلو له، وتسوء حال المصلحين ويضعف أمرهم، وتقوى شوكة المفسدين، ويصل الأدنون إلى الإمارة، ويسود المنحطون والسفلة، ويُنَحّى الأصلاء والفضلاء ويحرمون. ولا يتورع الأذلاء من أن يطلقوا على أنفسهم ألقاب الملك والوزير، فيتلقّب الأتراك بـ«الخواجات»، وهؤلاء بالترك. ويتخذ الترك والفرس معاً ألقاب العلماء والأئمة، وتتصدّى نساء البلاط للحكم والسلطة، وتضعف أمور الشرع، ويصبح الناس فوضى، ويتطاول الجند، ويمحي التمايز بين الناس، فلا يبقى للأمور من يتداركها. وليس بعيداً أن يتخذ التركي عشرة موالٍ، وليس عيباً أن يكون للفارسي عشرة موالٍ من الترك والأمراء. بذا تخرج أمور المملكة عن أنظمتها وقواعدها وتنهار. أما الملك فلا تتاح له، لقلقه وتحيُّره وانشغاله بالحروب، فرصة التفرغ لتلك الأمور أو التفكير فيها.

مع أول طالع سعد سماوي وأفول أيام النحس والتعاسة، وإقبال زمن الأمن والرخاء، يظهر الله تعالى، في الناس، ملكاً عادلاً عاقلاً من أحفاد الملوك، ويهبه مُلْكاً يمكنه من قهر الخصوم وإذلالهم جميعاً، ويمنحه علماً وعقلاً للتمييز بين الأمور والاستفسار والتحرّي عما كان عليه تقاليد الملوك السالفين وقواعدهم في شتى الأمور والموضوعات، ولاستنطاق الكتب والأسفار ومطالعتها. ولن يمر طويل وقت حتى يعيد نظام الملك وقواعده إلى ما كانت عليه، ويظهر للناس أقدارهم، فينزّل ذوي الجدارة منازلهم الحقيقة بهم، ويحدّ من سلطة غير اللائقين والمتسللين ويحيلهم إلى أعمالهم وحرفهم، ويمحو كفرة النعم من على وجه الأرض، ويؤازر أنصار الدين وأعداء الظلم، ويقمع

البدع والأهواء، بإذن الله وحسن توفيقه. ونذكر الآن نماذج لغيض من فيض ما قد يقع من أحداث، لتكون أدلة على خروج الأمور عن أصولها وقواعدها، ويتأملها سلطان العالم، خلّد الله ملكه، في كل ما يُصْدِر من أوامر وأحكام، إن شاء الله.

فمن الأمور التي أبقى عليها الملوك في مختلف الأعصر، إكرام أبناء الملوك وعدم تركهم نهباً للضياع والحرمان، إذ جعلوا لهم ما يحتاجون إليه لكفاف عيشهم، كي تظل بيوتاتهم على ما كانت عليه من قبل؛ وجعلوا للسادة والعظماء والمستحقين والعلماء والعلويين والمصلحين والمستورين والغزاة والمرابطين في الثغور، وأهل القرآن نصيباً من بيت المال، حتى إن أحداً لم يبق محروماً على عهدهم. فكسبوا بذلك دعاء الناس لهم بالخير، وثواب الدنيا والآخرة.

أفعال خير الرشيد وزبيدة

يقال إن جماعة من المستحقين رفعوا إلى هارون الرشيد مظلمة فيها: «نحن عباد الله وأبناء هذا العصر، بعضنا أهل قرآن وعلم، وبعضنا أهل شرف ورفعة، وبعضنا مَنْ لآبائهم حقوق على هذه الدولة لما قدموه لها من خدمات حميدة نافعة. وقد عانينا نحن المشاق والأتعاب أيضاً. إننا مسلمون أنقياء لنا نصيب في بيت المال الذي في حوزتك لأنك خليفة الأرض وأمير المؤمنين. إن يكن المال للعباد فأنفق علينا منه، فنحن مؤمنون ومستحقون. أما أنت، حافظاً للمال وخليفة، فلا يصيبك منه أكثر من عشر، وفي هذا كفافك، في حين أنك تنفق الآلاف يومياً على الشهوات والأرزاق والأطعمة، ونحن لا نجد الخبز. ومن عجب أنه يظن[1] (أي الرشيد) أن ما في بيت المال ماله. إن يستقطع لنا نصيبنا فبها، وإلا نلوذ به إلى الله متظلمين وملتمسين نزع بيت المال منه ووضعه في يد ذي شفقة ورحمة على المسلمين ممن يدّخرون الذهب والنعم من أجل العباد، لا العباد من أجلها». لما قرأ الرشيد الرسالة تغيّر لونه، ولم يجب عنها في يومه ذاك، وعاد من البلاط إلى قصره الخاص قلقاً مضطرباً. لما رأت زبيدة الرشيد على غير عادته وطبعه، سألته: «ماذا جرى لأمير المؤمنين؟». فقال لها: «لقد كتبوا إليّ كذا وكذا، ولو لم يخوفوني بالله، لعاقبتهم». قالت زبيدة: «لقد أحسنت في عدم إيذائك إيّاهم، فقد ورثت الخلافة كابراً عن كابر، وورثت معها سيرهم وشمائلهم وطبائعهم وأفعالهم أيضاً. انظر ما فعل الخلفاء قبلك مع عباد الله عزّ وجلّ، وانح نحوهم؛ فالسيادة والعظمة والملك لا تزهو بغير العدل والبذل، فذا يجري في مستقر ذاك. ليس من شك في أن ما في بيت المال للمسلمين، وأنت تنفق منه شيئاً كثيراً. أنفق من أموال المسلمين بالقدر الذي تريدهم أن ينفقوا من أموالك، وإلا فهم معذورون في تضجرهم وتشكّيهم منك».

---

(١) يعود المؤلف هنا- فيما هي عادته أحياناً - إلى الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أيضاً.

وحدث، أن رأى كل منهما في منامه في تلك الليلة أن: «الساعة قامت، وأحضر الخلائق يساقون واحداً واحداً للحساب، والمصطفى، صل الله عليه وآله، يتشفّع لهم فيمضون إلى الجنة. وأمسك أحد الملائك بيديهما (الرشيد وزبيدة)، ليأخذهما إلى مكان الحساب، فاعترضه ملك آخر، وقال: إلى أين أنت ماضٍ بهما؟ لقد أرسلني المصطفى، صلى الله عليه وآله، وقال: لا تدعهما يتقدمان ما دمت حاضراً، لئلا يعتريني فيهما الخجل ولا أستطيع أن أقول بشأنهما شيئاً، لأنهما حسبا أن أموال المسلمين أموالهما، فحرما المستحقين، ونصّبا نفسيهما مكاني». وأفاقا من نومهما حيرانين ذاهلين، فقال هارون لزبيدة: «ما دهاك؟!». قالت: «رأيت في منامي كذا وكذا، فاعتراني الفزع». قال هارون: «ورأيت مثل هذا في المنام أيضاً». ثم شكر الله تعالى على أن يوم البعث كان رؤيا لا حقيقة.

في اليوم التالي فتحا باب الخزائن، وأمرا منادياً ينادي في الناس: «على المستحقين أن يحضروا، لنعطي كلاً من بيت المال نصيبه، ونوفيه حاجته ومراده».

فتدافع الناس، بكثرة، حتى بلغ ما قسم الرشيد من أعطيات وجرايات ثلاثة آلاف دينار[٢]. ثم قالت زبيدة للرشيد: «إن بيت المال في حوزتك، وأنت الذي تُسأل عنه في الآخرة لا أنا. اعلم أنك بإزاحة عبء بعض الأمور عن كاهلك والخروج من عهدتها قد أصبت توفيقاً في هذا الأمر. إن ما أعطيته المسلمين لم يكن إلا من أموال المسلمين، أما أنا فسأعطي الناس من أموالي الخاصة ابتغاء رضى الله وثواب الدار الآخرة. إنني أعلم علم اليقين أن لا بد من الرحيل عن هذا العالم، وترك النعمة والثروة. وعليّ أن أقدم بنفسي زاداً من دنياي لآخرتي».

وأخرجت زبيدة ما يساوي بضعة آلاف ألف دينار[٣] من الجواهر والفضة والثياب من خزائنها، وقالت: «يجب أن ينفق هذا كله في سبل الخير، ليظل أثره، ودعاء الناس بالخير يترى إلى يوم الدين».

وأمرت بحفر الآبار الكبيرة الواسعة، وإقامة الأحواض وصهاريج الماء في كل مرحلة من المراحل الممتدة على طريق الحج من الكوفة إلى مكة والمدينة، على أن تبنى جميعها من قمتها إلى قاعها بالحجر والآجر المشوي والجصّ والملاط، لتوفير المياه للحجيج في الصحراء التي كان يموت فيها سنوياً آلاف الحجاج عطشاً.

وحُفرت الآبار، وأقيمت الأحواض والصهاريج، وزاد - مع ذلك - كثير من المال. فأمرت زبيدة

(٢) أي ثلاثة ملايين دينار.

(٣) أي بضعة ملايين دينار.

بتحصين الثغور والقلاع، وشراء الأسلحة والخيل والسهام للغزاة، وعدد من الضياع والأملاك ليكون في كل حصن وقلعة من الطعام والعلف والخيول ما يكفي - عند الضرورة - ألف غازٍ أو ألفين سنة كاملة.

وزادت ثمة أموال أيضاً بنيت بها، بأمر زبيدة، مدينة مسورة بسور منيع من جهاتها الأربع على حدود «كاشغر»(٤) و«بلور»(٥) و«شنكان»(٦) أطلق عليها اسم «بذخشان»(٧) ما زالت قائمة وعامرة إلى اليوم(٨). وأقيم حصن آخر قبالة «راشت»(٩) و«فامر»(١٠) على حدود «ختلان» باسم «واشجرد»(١١)، مازال قائماً عامراً أيضاً، وما زالت خيوله ومخازن أسلحته باقية على حالها. وأنشئ على هذا النحو «رباط» بمساحة حصينة في «أسفيجاب»(١٢) ما زال قائماً عامراً. ومن الحصون التي بُنِيَتْ أيضاً،

(٤) كاشغر: كانت مدينة وقرى ورساتيق في وسط بلاد الترك يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي؛ وكان أهلها مسلمين (معجم البلدان).

(٥) بُلُور (بضم الأول والثاني): اسم قديم لولاية كانت تقع في شمالي كشمير الحالية (عباس إقبال: حاشية٢ ص١٧٨).

(٦) شنكان: لم أعثر على شيء عن هذا الاسم.

(٧) بذخشان: جاء في «بلدان الخلافة الشرقية» (ص ٤٧٩): «أما موضع مدينة بذخشان فلم تفصح عنه كتب المسالك التي انتهت إلينا. إلا أنه نظراً لمناعة أكثر هذه البلاد فمن المحتمل ، على ما يبدو، أنها كانت في الوادي حيث تقوم اليوم مدينة فيض آباد قصبة البلاد الحالية (ما وراء النهر)».

ويقول عباس إقبال: «اسم ولاية في مشرق بلخ وجنوب غربي كاشغر، (حاشية٣ ص١٧٨).وأشار المقدسي إلى حصن زبيدة هذا في بذخشان ووصفه بأنه عجيب (أحسن التقاسيم٣٠٣).

(٨) أي أيام المؤلف.

(٩) راشت: اسم بلدة بأقصى خراسان، وهي بين جبلين. كان منها مدخل الترك إلى بلاد الإسلام للغارة عليهم. يقال إن الفضل بن يحيى أقام هنالك باباً حصيناً أيضاً (معجم البلدان).

(١٠) فامر: مدينة من أقاليم نهر سيحون، شرقي أشرو سنة (بلدان الخلافة الشرقية ٥١٧).

(١١) واشجرد: (بالشين المفتوحة والجيم المكسورة): من قرى ما وراء النهر، في أعالي نهر القباذيان (معجم البلدان؛ وبلدان الخلافة الشرقية ٤٨٣).

(١٢) أسفيجاب أو أسبيجاب (بفتح الأولى وسكون الثاني): بلدة كبيرة من بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان، كانت لها ولاية واسعة وقرى كثيرة. ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلد لا خراج عليه إلا هذه البلاد، لأنها كانت ثغراً عظيماً، فكانت تعفى من الخراج، ليصرفه أهلها في ثمن السلاح، ويكون عوناً لهم على المقام بتلك الأرض(معجم البلدان). أما مدينة أسبيجاب فتتفق هي وموضع سيرام التي تقع على نحو من ثمانية أميال شرق جكمنت على نهر أريس أو بدم، وهو رافد من روافد سيحون اليمني (بلدان الخلافة الشرقية ٥٢٧).

حصن على طريق خوارزم باسم «فراوة»[١٣]، وثانٍ في «دربند»[١٤]، وآخر في الإسكندرية، وعشرة أخرى كل واحد منها كالمدينة. وعلى الرغم من كل هذا العمران، فقد زادت أموال أخرى أمرت زبيدة بتوزيعها على المساكين والمجاورين في مكة والمدينة وبيت المقدس.

(عمر بن الخطاب والمرأة الفقيرة)

قال زيد بن أسلم[١٥]: «كنت مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ خرج ليلة يعسّ أحوال الرعيّة بنفسه. فلما تخطينا المدينة إذا بحائط خرب تنبعث منه نار. فقال لي عمر: «يا زيد، هلم بنا إلى ذلك المكان لنرى من ذا الذي يوقد ناراً في منتصف الليل». فاتجهنا صوبه، ولما اقتربنا منه، إذا امرأة قد وضعت قديرة على النار، وأمامها طفلان نائمان، وهي تقول: «تعاليت يا رب، أنصفني من عمر، فهو شبعان ونحن جياع!».

لما سمع عمر منها ذلك، قال لي: «يا زيد، لقد وكلتني هذه المرأة إلى الله من بين كل خلقه، ابق أنت هنا، لأقترب منها وأستفسر عن حالها». فاقترب منها، وقال: «ماذا تعدّين من طعام في الخلاء في منتصف الليل؟» قالت: «إنني امرأة فقيرة، ليس لي في المدينة بيت أملكه، ولا ألوي على شيء. أتيت إلى هذا المكان أمس خجلاً من بكاء طفليّ وصراخهما جوعاً، لأنني لا أملك ما أقوتهم به، ولئلا يعرف الجيران أنهما يبكيان جوعاً. لقد أسقط بيدي فكلما جعلا يبكيان جوعاً ويطلبان طعاماً أضع هذه القديرة على النار، وأقول لهما: ناما واستريحا إلى أن ينضج الطعام، فأدخل على قلبيهما السرور، وعلى هذا الأمل ينامان. وحين يستيقظان ولا يجدان شيئاً يعاودان الصراخ والبكاء. ولقد أنمتهم الساعة بالتعلة نفسها. إننا لم نأكل في هذين اليومين شيئاً، أما هذه القدر فليس فيها سوى الماء». فتألم عمر، وقال: «إنه لحق أن تدعي على عمر وتكليه إلى الله تعالى». وقال لها، ولم تعرفه: «اصبري قليلاً، وابقي هنا حتى أعود إليك». وتركها وعاد، فلما وصل إليّ[١٦]، قال: «هيا بنا إلى بيتي».

---

(١٣) فراوة: بليدة من أعمال «نسا» بينها وبين دهستان وخوارزم. يذكر ياقوت أنه كان يقال لها «رباط فراوة»، وأن عبد الله بن طاهر هو الذي بناها في خلافة المأمون (معجم البلدان). ويقال إن «فراوة» تطابق مدينة «قزل أروات أو أرواط» الحديثة (هذا الاسم تحريف قزل رباط)، وهي المحطة الثانية من محطات سكة حديد تركمنستان الحالية بعد بحر الخزر. (بلدان الخلافة الشرقية ٤٢١؛ وعباس إقبال حاشية٦ ص١٧٨).

(١٤) دربند: أو باب الأبواب، ويقال له الباب، غير مضاف، أيضاً. وهي دربند شروان، كانت محكمة البناء، موثقة الأساس، وأحد الثغور العظيمة (معجم البلدان).

(١٥) هو أبو أسامة، زيد بن أسلم، مولى عمر بن الخطاب. توفي عام ١٣٦هـ (البستي: مشاهير علماء الأمصار، ص٨٠)

(١٦) أي: إلى زيد بن أسلم.

لما وصلنا إلى باب بيته، وقفت عنده، ودخل هو ثم خرج يحمل جرابين على كتفيه. فقال لي: «لنعد ثانية إلى تلك المستورة ». فقلت: «إن يكن لا بد من الذهاب، فدعني أحمل الجرابين لأتكفل هذا العبء». قال عمر «يا زيد، إن تتعهد هذا العبء، فمن يتولى عبء الذنوب عن عنق عمر؟».

وقطع عمر الطريق كلها بحمله إلى تلك المرأة، فأنزل الجرابين من على ظهره ووضعهما أمامه، وكان في أحدهما دقيق، وفي الآخر أرز وحمص ودهن وألية. ثم قال لي «يا زيد، اجمع ما تجد هنا من شيح وقيصوم وأتني به بسرعة». ورحت أسعى في طلب الحطب وجمعه، في حين تناول عمر الإناء وأحضر ماء، وغسل الأرز والحمص، ووضعهما في القدر، وأضاف إليهما دهناً وألية، ثم صنع من الطحين «كماجة»[١٧] كبيرة. وأتيته بالحطب فأعد الطعام بنفسه، وصنع الكماجة على الجمر. لما نضج الخبز والطعام، ملأ عمر الوعاء طعاماً وفتّ الخبز فيه، ولما برد، قال للمرأة: «أيقظي الطفلين ليأكلا». فأيقظتهما، ووضع الطعام أمامهما وابتعد عنهم، ثم بسط سجادته وشرع يصلي. ولما نظر عمر إليهم، بعد مضي وقت، فرأى أنهم قد شبعوا جميعاً وأن الطفلين يلاعبان الأم، نهض من حيث هو، وقال: «أيتها المرأة، عليك بالطفلين، وأنا بالجرابين، وزيد بالقدر والوعاء، وهيا بنا إلى منزلك». ففعلوا ومضوا.

لما عادت المرأة وأطفالها إلى البيت ووضع عمر الجرابين ثم همّ بالعودة، قال للمرأة: «ترفّقي بعمر وارحميه ولا تكليه إلى الله بعد، فليس له طاقة على عذابه وعتابه، عزّ وجلّ. إنه لا يعلم الغيب ليعرف حال كل فرد. كلي أنت وطفلاك مما أحضرت وأخبريني، حال نفاده، لآتيك بغيره».

(موسى «عليه السلام») والرفق بالحيوان[١٨]

يقال: لما كان موسى (عليه السلام) يرعى الغنم يوماً، أيام كان راعياً للنبي شعيب (عليه السلام) ولمّا يأته الوحي، انفردت شاة عن القطيع، فأراد أن يعيدها إليه. غير أن الشاة فرّت ومضت في الصحراء، ولما لم تر القطيع استمرت في جريها من شدة الذعر. وتبعها موسى إلى فرسخين أو ثلاثة، حيث أعياها الجهد فسقطت من الإعياء إلى حدٍّ لا تَقْوَ معه على النهوض.

لما أدركها موسى رقّ لحالها، وقال: «أيتها المسكينة، لمَ كنت تهربين، وممَّ كنت تخافين؟». ولما رأى أن

---

(١٧) لفظة «كماج» فارسية، لم تذكرها المعاجم العربية، ولم أجدها في كتب المعربات. لكن صاحب «المنجد» ذكر أنها معربة عن الفارسية. والكلمة مستعملة في عدد من لهجات بلاد الشام.

(١٨) وردت هذه الحكاية بنحو آخر في تاريخ البيهقي ص ٢٢٠ (الترجمة العربية).

لا طاقة لها على السير أهوى إليها وحملها إلى مقربة من القطيع. فما إن وقعت عليه عيناها حتى هشّ له قلبها، وعادت إليها قوتها وحيويتها، فأنزلها موسى من على عنقه، وهرعت الشاة إلى القطيع وانضمت إليه. حينذاك نادى الحقّ، تعالى، ملائك السموات، وقال: «أرأيتم ترفّق عبدي بتلك الشاة البكماء، وكيف أنه، على ما تكبّده من جهد وتعب، لم يؤذها، بل واساها وأحسن إليها؟! وعزّتي، لأرفعنّه وأتخذنّه «كليمي»، وأجعله نبياً، وأنزل عليه الكتاب، ليظل الناس يتحدثون عنه مدى الحياة». ثم وهبه كل هذه الكرامات.

الحاج المروذي والكلب الأجرب

كان في مدينة «مرو الروذ»[١٩] رجل يدعى «الحاج الرئيس». وكان محتشماً مشهوراً، وذا نعمة وضياع ومستغلات كثيرة، ولم يكن بخراسان في زمانه من هو أشهر منه وأقدر. خدم السلطانين محموداً ومسعوداً. وقد كنا رأيناه[٢٠]. لقد زاول في فتوّته وشبابه ضروب الاستبداد والوحشية والتعذيب، والشدة في تحصيل الأموال وابتزازها والمطالبة بها، وتشتيت شمل العائلات، فلم يكن ثمة أقسى وأطيش وأكثر استخفافاً منه. غير أنه صحا من سباته في نهاية الأمر، فكفّ عن التسلط على الناس وإيذائهم، وتحول إلى فعل الخير من مثل: مواساة الفقراء، وإنشاء القناطر ومحطات الاستراحة على الطرقات. ثم حرّر كثيراً من العبيد، وسدّد ديون المفلسين والمعدمين، وكسا اليتامى، وأعان الحجاج والغزاة، وبنى مسجداً جامعاً في مدينته، كما أنشأ مسجداً جامعاً عظيماً بنيسابور. وبعد أن قدّم كثيراً من أعمال الخير، مضى لأداء فريضة الحج في أيام الأمير جغري[٢١]، رحمه الله.

لما وصل إلى بغداد أقام بها حوالي شهر. وفي تلك الأثناء، خرج من المنزل يوماً، فرأى في ممر بالسوق كلباً شديد الجرب، وقد تساقط شعره كله عن جسمه، وأعياه الألم وأقعده. تألم الرجل لحال الكلب، وقال: «إنه ذو روح أيضاً! ومن مخلوقات الله عزّ وجلّ»، ثم قال لخادم له: «اذهب، واحضر مَنَوي خبز، ورسناً». ووقف في مكانه إلى أن جاءه الخادم بما أراد، فأخذ يفتت الخبز بيده، ويلقي به أمام

---

(١٩) مرو الروذ: المرو الحجارة البيض تقتدح بها النار، والروذ - بالذال المعجمة - معرب «الرود» - بالدال المهملة- وهو النهر بالفارسية، فكأنه مرو النهر. ومرو الروذ مدينة كانت قريبة من مرو الشاهجان، وكانت تقع على نهر عظيم فسميت به. (معجم البلدان). تقع في مرو الروذ اليوم مدينة «بالأمر غاب» أي (مرغاب الأعلى) على طريق بلخ. ومرو الروذ غير مرو الشاهجان التي كانت تقع في محل «مرو» الحالية (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ١٨١).

(٢٠) يقصد المؤلف نفسه هنا.

(٢١) هو الأمير جغري داود السلجوقي أخو طغرل الأول ووالد السلطان ألب أرسلان. (عباس إقبال: حاشية ١ ص١٨٣).

الكلب إلى أن أشبعه وأمّنه، وآنذاك وضع الرسن في عنقه وسلمه إلى الخادم، وقال: «خذه إلى البيت الذي ننزل فيه». وعاد من السوق فوراً.

ولمّا وصل إلى البيت، أمر بشراء ثلاثة منواتِ دُهْنٍ وإذابتها على النار وإتيانه بها حالاً. ثم تناول قضيباً خشبياً لفّ على رأسه قطعة قماش قديمة وصوفاً، ونهض من مكانه واقترب من الكلب، وأخذ يغطّ القضيب بالوعاء الذي فيه الدهن المذاب، ويدهن جلد الكلب بيده إلى أن دهنه كله، ثم قال لخادم له: «لست بأكثر وقارٍ مني، وليس بعائبي ما قمت به، ويجب ألا يعيبك – وأنت خادمي – أيضاً. أريدك أن تدق مسماراً في الحائط تربط به الكلب، وأن تقدم له منوي خبز يومياً، الأول صباحاً، والآخر مساء، وأن تدهن جلده بالدهن المذاب الحار مرتين في اليوم، وتطعمه ما يتبقى على «السفرة» من العظم وفتات الخبز، إلى أن تتحسن حاله». وشرع الخادم بتنفيذ ما أمره به سيده. وبعد أسبوعين إذا الكلب ينسلخ عنه الجرب، وينبت الشعر في جلده ويسمن جيداً، وتتحسن حاله بحيث لم يعد سهلاً إخراجه – حتى بالعصا – من ذلك البيت.

ومضى الحاج الرئيس بالقافلة، فأدى فريضة الحج، وأنفق في تلك الطريق مالاً كثيراً، ثم عاد إلى مرو الروذ التي توفي فيها بعد سنوات. وبعد انقضاء مدة على وفاته رآه أحد الزهاد في المنام على براق، والحور والغلمان من خلفه وأمامه، ومن على يمينه ويساره يسوقونه ببطء فرحين ضاحكين في روضة من رياض الجنة. فهرع نحوه وسلم عليه، فما كان منه إلا أن شدّ إليه عنان البراق، وردّ على الزاهد السلام، فسأله الزاهد: «يا فلان، لقد كنت في بدء حياتك رجلاً مؤذياً للناس غير رحيم بهم، متطاولاً عليهم، لكنك لما أفقت من سباتك، كففت عن إيذائهم، وعدلت عن سيرتك الأولى، حتى إن ما قمت به من عمل الخير، وبذل الصدقات، وإنفاق الأموال على المستحقين لم يقم به أحد، فضلاً عن أدائك فريضة الحج. قل لي بأي عمل بلغت الدرجة التي أنت فيها الآن؟». فقال: «أيها الزاهد: لقد عجبت في أمر الله تعالى! ومن الأفضل أن تعتبر أنت أيضاً، ولا تتكئ على الطاعة وتغترّ بالعبادة كثيراً. اعلم أن مكاني كان معداً في جهنم للمعاصي التي كنت أرتكبها في شبابي، وإن لم تكن ثمة فائدة لما قدمت من طاعة وأنفقت من خيرات بعد ذلك، وإن كل صلاتي وصومي قد رميت في وجهي وأنا في النزع الأخير. إن الطاعات والصدقات والخيرات والمساجد والمآوي، والجسور، وأداء فريضة الحج، ذهبت كلها هباءً منثوراً، وإن اليأس بلغ بي حداً قطعت معه الأمل في الجنة وأيقنت أن لا بد من عذاب النار والأصوات تتهادى إلى سمعي أن: «لقد كنت كلباً من كلاب الدنيا، لكننا غفرنا لك، ومحونا عنك جميع معاصيك، فأدخلناك الجنة، وحرّمنا عليك النار، بإحسانك إلى كلب

خلعت له عنك رداء الكبر، ورحمته وترفقت به». ثم رأيت ملائك الرحمة آتين مسرعين كالبرق، فخلصوني من أيدي ملائكة العذاب ومضوا بي إلى الجنة. إن ذلك العمل هو الوحيد الذي انتشلني – من بين طاعاتي كلها – من حال الشقاء تلك».

لقد ذكرت هذه الحكاية، ليعلم سيد العالم– خلّد الله ملكه– أن الإحسان خصلة جيدةً حميدة. ففي إحسان موسى (عليه السلام) إلى الشاة، والحاج الرئيس إلى الكلب نالا ما نالا من درجات في الدنيا والآخرة. من هنا يعرف إذاً ثواب الله – عزّ وجلّ– لمن يحسن إلى مسلم معوز ويأخذ بيده. ولخشية ملك الزّمان ربّه وتقديره عواقب الأمور، فما كان إلاّ عادلاً في كل حال، وما كان العادل إلا محسناً وكريماً. إن يكن الملك على هذا النحو، فإن جميع عمّاله وأفراد جيشه ينسجون على منواله، ويقتدون به. ولا جرم، من أن ينعم خلق الله، ويجنوا ثمرات هذا في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى.

* * *

كان من عادة الملوك اليقظين أن يرعوا حرمة المسنين المجربين جوّابي الآفاق، وأن يتعهدوا الماهرين في الأعمال، والعارفين بشؤون الحرب، بأن يجعلوا لكل منهم مقاماً ومنزلة أثيرة لديهم. لقد كانوا يتدبرون، مع الحكماء والمسنين الذين طوّفوا الآفاق، الأمور التي ترتبط بشؤون المملكة ومصالحها وعمرانها وأبنيتها الرفيعة، والأمور التي تتصل بترقية هذا وتنحية ذاك، وإقامة علاقات مع الآخرين، والتعرف إلى أحوال المملكة، والتحقق من أمور الدين، وأمثالها. وكانوا إذا ما جدّ طارئ عدواني وحربي يتخذون التّدابير كلها مع من مارسوا الحروب ولهم فيها خبرات وتجارب كثيرة، فيأتي الأمر وفاقاً للهدف المرسوم. وكانوا إذا ما نشبت الحرب، يرسلون إليها من خاض غمار المعارك الكثيرة، وهزم الجيوش الكثير عددها واحتل القلاع، وذاع اسمه في العالم باسم «الرّجل الشُّجاع». وكانوا، على الرغم من كل هذا، يرسلون شخصاً مسناً ممن جابوا البلاد ومن ذوي الخبرات، لتجنّب الوقوع في الخطأ. لكن ما يحدث الآن، أنه إذا ما طرأ طارئ يندب له من لا خبرة لهم من الأطفال والشباب المبتدئين، ومن هنا يبرز الخطأ. إنه لمن الصّواب، – درءاً للأخطار– أن تتخذ الاحتياطات والمحاذير الكافية في هذا الموضوع دائماً.

فصل في الألقاب [٢٢]

فكثرت الألقاب كثرة هائلة، وكلّما كثرت ذهب بهاؤها، وقلّت أهميتها. كان الملوك والخلفاء يضنون دائماً في المخاطبة بالألقاب ومنحها، لأن الحفاظ على ألقاب الأشخاص ومراتبهم وأقدارهم

(٢٢) جاء هذا الفصل مستقلاً في بعض طبعات الكتاب.

جزء من شرف المملكة. فإذا ما كان لقب تاجر ما أو زارع ولقب رجل آخر وجيه معروف واحداً، لا يكون ثمة فرق بين الإثنين، ويصبح مقام المعروف والمغمور واحداً إذاً. وإذا ما كان لقب أيّ إمام أو عالم أو قاضٍ «معين الدولة» ولقب أي غلام أو رئيس تركي ممن لا يدرون من العلم والشريعة شيئاً، ولا يعرفون القراءة والكتابة «معين الدولة» أيضاً، فأيّ فرق يبقى، إذاً، بين العالم والجاهل، وبين القضاة وغلمان الترك في المنزلة؟ فلقبهم واحد، وليس هذا بصحيح.

كانت ألقاب أمراء الترك دائماً من مثل: حسام الدولة، وسيف الدولة، ويمين الدولة، وشمس الدولة، وأمثالها. أما ألقاب «الخواجات»[٢٣]، و«العمداء»[٢٤]، و«المتصرّفين»[٢٥] فكانت من مثل: عميد الملك، وظهير الملك، وقوام الملك، ونظام الملك، وكمال الملك[٢٦]. غير أن هذا التفاوت قد زال الآن، فالأتراك يتلقبون بألقاب الفرس، والفرس يتلقبون بألقاب الترك، دون أن يروا في هذا غضاضة. لقد كان اللّقب عزيزاً دائماً.

السلطان محمود وطلبه الألقاب من الخليفة

لما تولى السلطان محمود السلطنة طلب إلى أمير المؤمنين القادر بالله أن يمنحه لقباً، فمنحه لقب «يمين الدولة». وبعد أن استولى محمود على ولايتي «نيمروز» و«خراسان»، وعلى مدن وولايات لا حد لها في الهند، إذ وصل إلى «سومنات» وجلب معه «مناة»، كما استولى على سمرقند وخوارزم. ثم مضى إلى قوهستان العراق[٢٧]، ثم استولى على الري وأصفهان وهمدان وطبرستان. بعد كل هذا أرسل إلى أمير المؤمنين رسولاً محمّلاً بالهدايا والتحف الكثيرة، يطلب إليه مزيداً من الألقاب، لكن الخليفة لم يجبه إلى طلبه. ويقال إنه – أي محمود – بعث رسوله بالهدايا إليه أكثر من عشر مرات، دون جدوى. لكن الخليفة منح «خاقان»[٢٨] سمرقند ثلاثة ألقاب: ظهير الدولة، ومعين خليفة الله،

---

(٢٣) الخواجات: جمع خواجة وهو لفظ فارسي بمعنى المعلم أو الكاتب أو التاجر أو الشيخ أو السيد، واستعمل في العالم الإسلامي لقباً. (الألقاب الإسلامية ص٢٧٩).

(٢٤) العميد لغةً السيد، وقد أضيفت إليه كلمات فتكونت منه بعض الألقاب المركبة من مثل: عميد الملك، عميد الدولة وغيرها (الألقاب الإسلامية ص ٤٠٩).

(٢٥) المتصرف: الحاكم والوالي، ومن ينفذ تصرفه في الأمور. استعمل لقباً – في حال إضافته إلى ياء النسب – في عصر المماليك (الألقاب الإسلامية ٤٤٩).

(٢٦) راجع في هذا الموضوع الألقاب الإسلامية ص ٦٢-٦٤.

(٢٧) أي مناطق العراق الجبلية. وقوهستان: معرب «كوهستان»؛ كوه بمعنى جبل، واستان بمعنى منطقة.

(٢٨) أصل الكلمة تركي، هو (قاغان) ويقال إن أصل خاقان: «قان قان» أو «خان خان». وكان هذا اللقب يطلق على رؤساء الترك من المسلمين.

(راجع: الألقاب الإسلامية ٢٧١؛ وفرهنگ واژهاي فارسي درزبان عربي ١٩٤، وفرهنگ فارسي).

وملك الشرق والصين، فغبطه محمود عليه وأخذته الغيرة، فأرسل رسوله إلى الخليفة مرة أخرى، وقال: «لقد فتحت في بلاد الكفر الفتوح، ووطدت عز الإسلام في الهند وخراسان والعراق، واستوليت على ما وراء النهر، وكنت أحارب بالسيف باسمك. إن الخاقان- وهو الآن من مطيعيّ وعمالي- يمنح ثلاثة ألقاب، في حين أمنح أنا لقباً واحداً بعد كثير من الهدايا والالتماسات». فأجابه الخليفة: «اللّقب تشريف للرجل يزداد به شرفاً، ويعرفه به الملأ أيضاً. اعلم أن للنَّاس أسماء وضعها لهم آباؤهم وأمهاتهم، وكنّى وضعوها هم لأنفسهم، وألقاباً يمنحها الملك إياهم، وأن ما زاد على هذه الثلاثة حشو وباطل وكذب؛ والعاقل لا يتطلي عليه الباطل والمحال. إن الناس يدعون الإنسان باسمه في صغره، وهذا ما يرضي والديه لأنهما هما اللّذان اختارا له هذا الاسم، لكنه ما إن يصير رجلاً يميز الحسن من القبيح جيداً، يختار بوحي عقله وفكره وعلمه كنية لنفسه، وكما قيل: «الكنى بالمنى». ثم يدعوه الناس تعظيماً له بالكنية التي اختارها ليفرح بهذا ويسر.

فإذا ما أبدى امرؤ لياقة ومهارة في المملكة والأمة، فإن الملك يمنحه لقباً -على سبيل التشريف- على قدره يظهره على أقرانه ويجعل له فضلاً عليهم. فيكون من يمنحه الملك أو الخليفة لقباً أفضل مما منحه إياه والده، ومما اختار هو لنفسه. ثم يدعوه الناس بما خلعه عليه الملك، وذلك هو اللقب.

إن كل ما يتخطى هذه الأشياء الثلاثة من ألقاب ليس سوى لقب حسب... إن الخاقان لقليل علمه، وهو تركي من أمراء الأطراف، ولقد أجبناه لطلبته لقلّة علمه ورعاية لشرفه. أما أنت، فعلى معرفة بكل علم، ومنّا قريب، إن رأينا فيك وثقتنا بك، واعتمادنا عليك، وتيقّننا من تديّنك، لأفضل وأرفع وأكثر من أن تطلب إلينا لقباً يجري على ألسنة الناس ويسطَّر في كتاب، أو أن تتوقع ما يتوقعه قليلو المعرفة والعلم».

وأسقط بيد محمود لما سمع هذا الجواب. غير أنه كان ثمة امرأة تركية الأصل، تقرأ وتكتب وتعرف اللّغة[٢٩]، حلوة الحديث. كانت هذه المرأة تؤم قصر محمود دائماً تتحدث إليه وتطايبه وتمازحه وتعاشره، وتقرأ بين يديه كتباً وحكايات فارسية، وكانت جريئة معه إلى أبعد مدى. ففي حين كانت تجالسه يوماً وتطايبه، قال لها: «لقد جهدت كثيراً في أن يزيد الخليفة في لقبي، لكنه لم يفعل، على حين أن للخاقان - وهو من مسخريّ - عدة ألقاب، وليس لي سوى لقب واحد. لو أن شخصاً يستطيع سرقة «عهد» الخليفة إلى الخاقان أو الحصول عليه، بطريقة من الطرق، ويأتيني به لأعطيته ما يريد».

---

(٢٩) ربما كان يقصد «الفارسية».

قالت المرأة: «يا مولاي، أنا الذي أذهب وأحضر العهد، على أن تعطيني ما أريد». قال محمود: «لكِ هذا». قالت المرأة: «ليس لديّ من المال ما أنفقه لتحقيق رغبة مولاي. إن تجعل لي مدداً من الخزينة، فإما أن أضحي بروحي في سبيل هذا الأمر وأقضي دونه، وإمّا أنْ أُحقق مراد مولاي». قال: «اطلبي ما تشائين». ثم أعطاها ما طلبت من المال والثروة والجواهر والملابس والأنعام والتحف والهدايا ومؤونة الطريق.

اصطحبت المرأة ابنها، الذي كان في الرابعة عشرة من عمره والذي كانت عهدت به إلى مؤدب لتأديبه وتعليمه، ومضت من غزنين إلى «كاشغر» حيث اشترت عدداً من الغلمان الترك والجواري، وأشياء كثيرة من التحف والمسك والحرير و«الطرقو»[٣٠] وأمثالها مما كان يؤتى به من «خطا» و«الصين»[٣١]، ثم مضت في صحبة التجار إلى «أوزجند» ومنها إلى سمرقند. وبعد ثلاثة أيام ذهبت للسلام على الخاتون[٣٢] جارية تركية آية في الجمال تحمل إليها أشياء كثيرة من تحف الصين وخطا، ثم قالت لها: «كان لي زوج تاجر يجوب العالم ويصحبني معه، ولقد كان ينوي الذهاب إلى خطا لكنه لما وصل إلى «ختن» أسلم فيها الروح. حينئذٍ عدت من هناك وجئت إلى كاشغر، وحملت معي هدية إلى «خانها» - أميرها -، فقابلت خاتونه «زوجه». وقلت لها: «كان زوجي أحد خدم الخاقان الأجلّ، وكنت أنا جارية خاتون خاقاني. لكنهما أعتقاني وزوّجاني ذلك الرجل الذي أنجبت منه هذا الصبي. وزوجي مقيم المثوى في «ختن» حيث التحق بالرفيق الأعلى. إن هذا القدر الذي خلفه بعده ليس سوى ما وهبه إياه الخاقان الأجلّ والخاتون. أما الآن، فإنني لأتطلع إلى عدل الخاقان الأجلّ وعلوّ همته بأن يشملني وهذا اليتيم بعطفه ورعايته، فيأمر بإرسالنا مع دليل جيد إلى جانب «أوزجند» وسمرقند. وسوف نظل نلهج بمدحكم والثناء عليكم والدعاء لكم ما حيينا».

لقد قال لنا «خان» كاشغر وزوجه قولاً كريماً وأكرما وفادتنا وودّعانا، وكتبا رسالة إلى «خان» أوزجند ليحسن معاملتنا ويرسلنا في صحبة جيدة إلى سمرقند. وها نحن أولاءِ نحلّ عقد رحالنا الآن بسمرقند في ظل دولتكم ومنعتكم، حيث لا عدل اليوم مثل عدلكم في العالم كله، ولا إنصاف

(٣٠) الطرقو أو الطرغو أو الترغو: نوع من الحرير (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ١٨٨).

(٣١) الصين: معرب «چين» الفارسية. كذا جاء في نسخة شعار (ص ٢٣٣) وفي نسخة دارك (ص ٢٠٤): لكن الكلمة وردت «ختن» في نسخة إقبال (ص ١٨٨) فتكون ترجمتها: «من خطا وختن».

(٣٢) خاتون: لفظ تركي الأصل معناه السيدة، دخل العالم الإسلامي عن طريق الأتراك. وكان يرد أحياناً مع الاسم، فكان يقول في هذه الحال مقام لقب السيدة للإشارة إلى الجليلات من النساء لاسيّما أميرات الأسر الحاكمة (الألقاب الإسلامية ٢٦٦-٢٦٥).

مثل إنصافكم. فلقد كان زوجي يقول دائماً: (إن يتح لي الوصول إلى سمرقند فلن أبرحها أبداً). لقد جاء بي اسمكم وشهرتكم، إلى هنا، فإن تروا أن في مصلحتكم قبولي وإحاطتي بعنايتكم وعطفكم، أحطّ الرحال هنا؛ ثم أبيع ما لديّ من أشياء أشتري بها منزلاً وضيعة بالقدر الذي يؤمن لنا قوتنا، وأقوم على خدمتكم، وأربي هذا الصبي الذي آمل أن يهبه الله، عزّ وجلّ، ببركاتكم السعادة والتوفيق». فقالت الخاتون لها: «لا تقلقي، فلن آلو جهداً في إكرامك والإحسان إليك، والاحتفاظ بك. سأجعل لك منزلاً ورزقاً على النحو الذي ترغبين، ولن أدعك تعزُبين عني لحظة، وسأطلب إلى الخاقان أن يقضي لك كل ما تطلبين وتحتاجين إليه».

قبّلت السيدة الأرض بين يدي الخاتون، وقالت: «أنتِ الآن مولاتي ولا أعرف أحداً سواك، أرجو أن تسعي لي لدى الخاقان الأجلّ، وتقدميني إليه لأطلعه على حالي، فأسمع رأي مولاي الخاقان أيضاً». قالت الخاتون: «سأقدمك إليه في أي وقت ترغبين». فقالت المرأة: «أودّ المثول بين يديه غداً». قالت الخاتون: «وهو كذلك».

وفي اليوم التالي، مضت المرأة إلى قصر الخاتون. ولما عاد الخاقان من البلاط وعرضت عليه الخاتون حال المرأة، أمر بإحضارها إليه. وجيء بها، فقبّلت الأرض بين يديه، وقدمت إليه غلاماً تركياً وجواداً جميلاً وأشياء من تحف مختلفة هدية، وقالت: «لقد عرضت على الخاتون بعض حالي. وباختصار، فإنه لما مات زوجي – أطال الله بقاء مولاي- قال لي شريكه بشأن ما كنا نحمله من بضائع إلى «خطا»: «يجب ألا نعيده». ومضى به إليها. أما ما تبقى، فأخذ خان الصين بعضه، وأعطينا خان كاشغر بعضه وأنفقنا نحن قسماً في الطريق. مجمل القول إنه لم يبق لي من كل ذلك سوى بضع تحف، وأنعام معدودة، وهذا اليتيم. ألا يقبلني الخاقان الأجلّ جارية له، مثلما قبلتني الخاتون العظيمة، لأقضي باقي عمري في هذه الخدمة الجليلة». فخاطبها الخاقان بأدب جمّ، وردّ عليها رداً جميلاً، وأجاب طلبتها.

وأخذت المرأة، بعد ذلك، تهدي الخاتون، كلما ذهبت إليها كل يومين أو ثلاثة، خاتمين من «اللعل» أو «فيروزج»، أو مقنعة مقصبة، أو تحفة ثمينة قيمة، وتقص عليها حكايات وأساطير شيقة، حتى إن الخاقان والخاتون لم يعودا يحتملان يوماً واحداً دونها. لقد أخجلتهما برفضها ما عرضاه عليها من قرية وَضَيْعة خاصة. وكانت المرأة تركب كل بضعة أيام من السراي الذي أنزلاها فيه وتمضي إلى القرى المجاورة، التي تبعد ثلاثة أو أربعة أو خمسة فراسخ عن المدينة، بحجة «إنني أشتري ضيعة»، وتقيم ثلاثة أو أربعة أيام ثم تعود إلى المدينة- دون أن تشتري- عائبة الضيعة مصطنعة الأعذار.

لما أرسل الخاقان والخاتون في طلبها يستفسران: «لماذا قاطعتنا ولم تأتِ إلينا؟»، فأجيبا بأنها: «ذهبت منذ يومين أو ثلاثة لشراء ملك في القرية كذا» فرحا جداً، وقالا: «لقد ألقت عصا الترحال هنا». وقضت ستة أشهر في خدمتهما على هذا النحو أخبرتها الخاتون في خلالها عدة مرات: (إن الخاقان يقول لي دائماً: «إنه ليعتريني الخجل حين أراها- أي أنت -، فقد أدت لنا خدمات جلّى، وكانت تأتينا بالتحف والهدايا كل بضعة أيام، في حين أنها لم تقبل شيئاً مما عرضنا عليها. إنني لم أرَ امرأة بهذه الطيبة قط، ما الذي يجب أن نفعله نحوها؟» أما أنا، فأكثر خجلاً منه ألف مرة). وأما المرأة فكانت تقول: «ليس ثمة نعمة أحسن عندي من رؤية مولاي ومولاتي اللذين جعل الله – عزّ وجلّ – رزقي عليهما. إنني لن أتردد في طلب أي شيء إذا ما احتجت إليه». وراحت تعلف الخيول جيداً لتسمينها، وأعطت – سرًا- ما كان لديها من ذهب وجوهر ومفروشات وألبسة تاجراً كان يتردد بين غزنين وسمرقند في تجارة له، ثم أرسلت خمسة خيّالة على خمسة جياد أصيلة باتجاه طريق بلخ وترمذ، وقالت لهم: «أريد من كل واحد منكم أن يتوقف بجواده في منزل من منازل الطريق إلى أن أصل إليه». ثمّ مضت إلى الخاتون، وقد كان الخاقان يجلس معها، فبعد أن أطرتهما وأثنت عليهما معاً، قالت: «جئت اليوم في حاجة، لا أدري أأقولها وأطلبها أم لا؟»، قالت الخاتون: «يا له من عجب هذا الذي أسمعه منك، كان يجب أن نكون قد قضينا لك مائة حاجة إلى اليوم، انطقي بحاجتك». قالت المرأة: «تعلمان أنني لا أملك في الدنيا سوى ابن هو محط آمالي. إنني لمهتمة بتربيته جداً، فقد ختم القرآن، ووكلته إلى مؤدب أحسن تأديبه وتعليمه، إذ قرأ عليه كتباً ورسائل بالعربية والفارسية. وأملي كبير في أن يتاح له حظ حسن في عهد مولاي ومولاتي. ليس ثمة وثيقة على وجه المعمور، بعد كتاب الله تعالى وحديث رسوله الأكرم، أعظم من عهد أمير المؤمنين إلى الملوك ، لأن كاتب عهود أمير المؤمنين أفضل من جميع الكتاب، وألفاظ العهود ومعانيها أحسن الكلام وأعذبه. ألا يتفضل مولاي ومولاتي- إن يريا ذلك- عليّ بالرسالة التي تعرف بـ«عهد أمير المؤمنين» مدة ثلاثة أو أربعة أيام ، ليقرأها ابني على مؤدبه بضع مرات. إنه لكثير جداً أنَ يتعلم منها خمسة ألفاظ، فهي كفيلة بأن تمنحه ببركاتها السعادة وحسن الحظ». فقالا لها: «أي حاجة هذه التي تريدين منا! لِـمَ لَـمْ تطلبي مدينة أو ناحية لنهبك إياها؟ إنك لم تطلبي في خلال هذه المدة شيئاً، وتجيئين الآن لتطلبي شيئاً ملقى – كخمسين مثله- في خزانتنا وقد تراكم عليه الغبار والتراب. ما قيمة قطعة من الورق؟ إن تريدي نمنحك الرسائل كلها». قالت المرأة: «حسبي الرسالة التي أرسلها الخليفة». وأمر الخاقان والخاتون أحد الخدم أن يصحبها إلى الخزانة ويعطيها أية رسالة تريد.

ذهبت المرأة إلى الخزانة، فأخذت عهد الخليفة، ومضت به إلى منزلها. وفي اليوم التالي أمرت بأن تسرّج الخيول وتحمّل البغال، وأعلنت: «إنني ماضية إلى القرية كذا لشراء أملاك، وسأبقى هناك أسبوعاً واحداً». وغادرت تواً، ونزلت بتلك القرية . وكانت المرأة قد حصلت من قبل على «وثيقة مفتوحة»[٣٣] فيها: «يجب احترام هذه المرأة ومن معها، وإكرام وفادتهم في كل مكان يحلون به ويقيمون فيه في ولايتي سمرقند وبخارى، يشترون هناك الأملاك ويؤسسون الضياع. وعلى الولاة والعمال والرؤساء ألا يتوانوا في بذل كل عون ممكن لهم، وتوفير كل ما يطلبون، وتقديم ما يحتاجون إليه من الأطعمة».

وفي منتصف إحدى الليالي، تركت المرأة القرية إلى «ترمذ» مارةً بمدينة «كش»[٣٤] على بعد ثلاثة فراسخ من سمرقند، فوصلت إليها بعد خمسة أيام. وكانت تعرض «الوثيقة المفتوحة» أينما احتاجت إليها، ثم تمتطي جيادها قريرة العين. أما الخاقان فلم يستطلع خبر ذهابها إلا بعد أن عبرت «جيحون» ووصلت إلى بلخ، ولم يراوده أي شك عن «عهد الخليفة» قطّ.

ومضت المرأة من بلخ إلى غزنين تحمل «العهد» إلى السلطان محمود. فما كان من محمود إلا أن أرسله بيد أحد العلماء من ذوي القدرة على المناظرة والجدل، وحمّله عدداً من الهدايا إلى أمير المؤمنين القادر بالله، ورسالةً تقول: «في حين كان أحد خدمي يتجول في سوق سمرقند، مرَّ بمسجد فيه مؤدب بيده كتاب يعلّم منه الصِّبيان، فوقعت عليه -على «عهد أمير المؤمنين»- بين أيدي أطفال صغار يعبثون به، فذا يشده إلى طرف، وذلك إلى طرف آخر، ويمرغونه في التراب. لما عرف الخادم العهد أخذته عليه الغيرة، فأحضر قدراً من الزبيب أعطاه الأطفال وحصل عليه منهم بثمن بخس لا يساوي الورق الرخص، ثم حمله إلى غزنين وقدمه إليّ، وهأنذا أبعث به إلى مولى العالم. إن يتفضل أمير المؤمنين بتقدير هواي معه وخدماتي له فيمنحني مزيداً من الألقاب، فإنني سأعتزّ بها أكثر من اعتزازي بناظريّ، وأجعلها تاج رأسي، وأحتفظ بها في أعزّ مكان في بيتي. لقد حجب مولاي الألقاب عني، على الرّغم من طاعاتي وخدماتي وتوقّعاتي، ومنحها من لم يعرفوا لأوامره وخلعه وعهوده قدرها، بل استخفوا بها استخفاف خاقان سمرقند وأهانوا الألقاب التي مُنحوها».

لمّا وصل العالم إلى بغداد وأوصل الهدايا وسلّم الرسالة، تملّك الخليفة العجب، فأمر بكتابة رسالة

---

(٣٣) هذه ترجمة للفظة «گشاده نامه». وقد آثرت هذه الترجمة على ترجمة مترجمي «تاريخ البيهقي» لها بـ«كتاب مفتوح» لما لهذا الاصطلاح من مفهوم معاصر خاص. (تاريخ البيهقي. الترجمة العربية – كشاف المصطلحات التاريخية ص٤٠٨).

(٣٤) كش: مدينة من مدن الصغد فيما وراء النهر. لعلها هي المعروفة اليوم بكتاب (بلدان الخلافة الشرقية).

عتاب إلى الخاقان. ومكث رسول محمود ستة أشهر في قصر الخليفة، ظل يوافي القصر في خلالها برسائل يطلب فيها ألقاباً لمحمود، دون أن يتلقى جواباً شافياً، إلى أن كتب يوماً يستفتي: «إذا ما ظهر في طرف من أطراف الدنيا ملك يشهر سيفه من أجل عزّة الإسلام ويحارب الكفار والمشركين أعداء الله، تعالى، ورسوله الأكرم، ويحوّل بيوت الأوثان إلى مساجد، ويجعل ديار الكفر ديار إسلام، وأمير المؤمنين بعيد عنه تفصل بينهما الأمواه العظيمة والجبال الشاهقة والصحارى المخوفة، بحيث لا يستطيع أن يعرض كل ما قد يحدث له على الخليفة في كل حين، ولا يتمكن من تنفيذ مطالبه وأوامره أيضاً، أفيحق له – والحال هذه – أن ينيب عن الخليفة أحد الأشراف ليرجع إليه في الأمور أم لا؟». ثم أعطى فتواه هذه شخصاً يسلّمها إلى قاضي قضاة بغداد يداً بيد. فبعد أن قرأها القاضي من ألفها إلى يائها قال: «يحقّ له ذلك».

أخذ العالم المذكور نسخة من فتوى قاضي قضاة بغداد ووضعها مع رسالة كتب فيها: «فقد طالت إقامتي ببغداد. إن سيد العالم يمتنع عن منح محمود ما يتطلّع إليه من ألقاب– على الرغم من خدماته وطاعاته الكثيرة جداً –، ولا يحقق للسلطان الغازي ما يصبو إليه من آمال، بل يضايقه إلى هذا الحدّ. إن يسرْ محمود، بعد الآن، بمقتضى هذه الفتوى وحكم الشرع بخط قاضي قضاة بغداد نفسه، فلا جُناح عليه». فما إن قرأ الخليفة الفتوى والرسالة حتى بعث إلى وزيره بحاجب حالاً بأن «ادع إليك الآن رسول محمود وأكرمه، وهدّئ من روعه، ثم اعطه ما أمرنا به من خلعة ولواء ولقب واصرفه راضياً مسروراً».

هكذا، أضيف إلى محمود، بعد كل خدماته المرضية ومساعيه المتواصلة وهواه وذكاء رسوله العالم، لقب «أمين الملة»[٣٥] الذي ظل يلقب به وبلقب «يمين الدولة»[٣٦] طوال حياته.

أما اليوم، فإذا لم يكن لأقل الناس شأناً سبعة أو عشرة ألقاب يغضب ويسخط. غير أنه لم يكن للسامانيين الذين كانوا ملوك زمانهم لسنوات طويلة، وحكموا بلاد ما وراء النهر من أطرافها إلى أطرافها، وخراسان والعراق وخوارزم ونيمروز وغزنين، سوى لقب واحد، إذ أطلق لقب «ملك الملوك» على نوح، ولقب «الأمير السديد» على والده منصور، و«الأمير الحميد» على نوح والد منصور، و«الأمير الرشيد» على نصر والد نوح، و«الأمير العادل» على إسماعيل بن أحمد، و«الأمير الماضي» في التواريخ. وأطلق على أحمد «الأمير السّعيد»، وهكذا دواليك.

---

(٣٥) الألقاب الإسلامية ٢١٧.

(٣٦) المرجع نفسه ٥٤٤.

يجب أن يكون اللقب مناسباً لصاحبه، كأن تكون ألقاب القضاة والأئمة وعلماء دين المصطفى (عليه السلام) مثل: مجد الدين، وشرف الإسلام، وسيف السنة، وزين الشريعة، وفخر العلماء، وأشباهها، لأن الدين والإسلام والشَّريعة والسنَّة والعلم منوطة بالعلماء والأمة. وعلى الملوك وذوي الدراية والمعرفة بالحق والباطل ألا يجيزوا لمن ليسوا بعلماء أن يتلقّبوا بهذه الألقاب، بل عليهم ردع من يُقدم على هذا ومعاقبته ليعرف كل شخص قدره ومرتبته.

وكان قادة الجيش، والأمراء والمستقطعون والعمال يلقّبون بألقاب أضيفت إليها لفظة «الدولة»، من مثل: سيف الدولة، وحسام الدولة، وظهير الدولة، وجمال الدولة، وشمس الدولة، وأمثالها. أما العمداء، والعمال، والمتصرفون الأخيار، فكانوا يلقبون بألقاب أضيفت إليها لفظة «الملك» من مثل: عميد الملك، ونظام الملك، وكمال الملك، وشرف الملك، وشمس الملك، وأمثالها. ولم تجرِ العادة قط في أن يخلع أمراء الأتراك على أنفسهم لقب «خواجة». لقد كانت الألقاب التي تضاف إلى «الدين» و«الإسلام» خاصة بالعلماء، والتي تضاف إلى «الدولة» خاصة بالأمراء، والتي تضاف إلى «الملك» خاصة «بالخواجات». أما ما عدا هذا، فلم يكن يسمح لأحد بأن يتخذ لنفسه لقباً مما يتصل بالدين والإسلام، بل كان يعاقب لتكون فيه عبرة لمن يعتبر.

أكثر ما يكون الهدف من اللَّقب، أن يُعرف به صاحبه. هب أن مائة شخص في مجلس أو جمعٍ ما، من بينهم عشرة باسم محمد، ثم نوديَ: «يا محمد». فإنَّ المحمدين جميعهم يردون: «لبَّيك» لظن كل منهم أنه هو المعنيّ. لكنه إذا ما كان لقب أحدهم «المختص»، ولقب الثاني «الموفق»، ولقب الثالث «الكافي»، ولقب آخر «الرَّشيد» وأمثالها، ونودي من وسط المحفل: يا أيها «الكامل» أو «الموفق»، فإنَّ محمداً صاحب هذا اللَّقب يعرف حالاً أنه هو المقصود.

يجب ألا يحمل لقب «فلان الملك» أحد غير الوزير والطغرائي[٣٧] والمستوفي[٣٨] وعارض[٣٩] السلطان، وعميد بغداد، وعميد خراسان، وعميد خوارزم. أما غير هؤلاء فلهم أن يتلقّبوا بألقاب

---

(٣٧) الطغرائي: رئيس ديوان الطغرى. والطغراء أو الطغرى كلمة أعجمية محرّفة من «الطرّة»، وهي التي كانت تكتب في أعلى المناشير فوق البسملة بالقلم الجلي، تتضمن اسم الملك وألقابه. (راجع: فرهنگ نفيسي، ومعجم الأدباء ١٠: ٥٧؛ ووفيات الأعيان ١ : ٤٤٢ في ترجمة الطغرائي الحسين بن علي الأصفهاني).

(٣٨) المستوفي: المحاسب، يتبع ديوان الاستيفاء، وهو ديوان المحاسبة. ومن معانيه رئيس ديوان المحاسبة الذي يحاسب المحاسبين الآخرين، أو محاسب بلاد أو ولاية بكاملها (تاريخ البيهقي - الترجمة العربية - ص ٨٠٤؛ وشعار ص ٤٠٨).

(٣٩) العارض: رئيس ديوان الجند الذي توكل إليه نفقات الجيش وأرزاق جنده، وله الحل والعقد والإثبات والإسقاط (تاريخ البيهقي ٨٠٢؛ ثم انظر ص ٥٣٦ من المتن أيضاً).

غير مضافة إلى لفظة «الملك» من مثل الخواجة السديد، والخواجة الرَّشيد، والخواجة المختص، والأستاذ الأمير، والأستاذ الخطير، والأستاذ المكين وأمثالها، لتتّضح درجة العظيم ومرتبته عمّا دونه، وينماز الصَّغير من الكبير، والخاص من العام، ويظلّ للديوان رونقه وبهاؤه.

فإذا ما استقامت أمور المملكة، وكان المالك عادلاً يقظاً يعير أعمال المملكة اهتمامه ويتابعها بنفسه ويستقري عادات الأسلاف ويفيد منها، وإذا قيّض الله له وزيراً فطناً فاضلاً عالماً عارفاً بالعادات والتَّقاليد، فإنَّه يستطيع أن يدبّر الأمور تدبيراً حسناً، ويُجري الألقاب مجراها الحقيقي، ويدحر العادات المبتدعة بالرَّأي الصائب والحكم السَّديد والسَّيف الحديد.

الفصل الحادي والأربعون

«في عدم إسناد عملين لشخص واحد،
وفي تشغيل العاطلين وعدم حرمانهم،
وإسناد المناصب والأعمال إلى المتدينين الحقيقيين والأصلاء،
وحرمان ذوي المذاهب السيئة والمعتقدات الخبيثة وإبعادهم»

لم يُسنِد أحد من الملوك الأيقاظ والوزراء الأذكياء، في أي عصر من العصور، عملين إلى شخص واحد، أو عملاً واحداً إلى شخصين قط، فكانت شؤونهم، لهذا، مُنظمة ذات بهاء ورونق. لأنه إذا ما أُنيط عملان بشخصٍ واحد، لا مناص من أن يتسرّب الخلل إلى أحدهما أو يتوانى فيه على حساب الآخر، فالمتصدّي إذا أراد القيام بواجبه نحو أحدهما خير قيام وتعهده والاهتمام به بجدّ فلا مندوحة من تسرّب الاختلال والتقصير إلى الآخر، وبالعكس. وإذا أنعمنا النظر جيداً، نلاحظ أن ثمة خللاً وتقصيراً في عملي متصدي العملين كليهما، وأن الشخص نفسه مناط تقصير وملامة دائماً، وأن مولّيه إياهما في تشكٍّ وتذمر دائمين. أما إذا وُلّي شخصان عملاً واحداً، فإن هذا العمل يظل دون إنجاز، لتواكل أحدهما على الآخر. قيل في الأمثال: «إن وجود سيدتين في المنزل مدعاة لقذارته، ووجود مشرفين عليه مدعاة لدماره». لأن كلاً من الشخصين لا بدّ أن يقول في نفسه دائماً بأنه إذا ما أرهقت نفسي في القيام بواجبي في هذا العمل، وحافظت عليه، ولا أدع الخلل يأخذ إليه طريقه، يظنّ رئيسنا أن هذا ليس إلا من كفاية رفيقي ومهارته، لا نتيجة اهتمامي وجدّي وتفانيّ وجلَدي، وهكذا الأمر بالنسبة للآخر أيضاً. لكنه إذا دقّقنا النظر نجد أن ذلك العمل يظلّ في اختلال دائم، حتى إذا ما سأل رئيسهما: «لماذا لم يُنجز هذا العمل، بل قُصِّر فيه؟». يقول أحدهما: «إنه تقصير رفيقي، ويُحمّله مغبّة ذلك»، ويقول الآخر: «إن رفيقي سبب التقصير كلّه»، ويُلقي التّبِعة والجرم كله عليه. لكن إذا ما عدنا إلى الأصول والعقل، يتبيّن لنا أن ليس الجرم جرم هذا ولا ذاك، بل الجرم كلّه على من ولاّهما عملاً واحداً.

فمن دلائل غفلة الملك وعجز وزيره تولية أحد عمال الديوان عملين أو ثلاثة أو خمسة أو سبعة.

أما في هذه الأيام، فثمة من يتسنم سدّة عشرة مناصب، دون أن تكون فيه أية كفاية. وإذا ما جدّ منصب جديد، فإنه لا يألو جهداً في اتخاذه لنفسه، ولو أدّى به الأمر إلى دفع المال مقابل ذلك، فهؤلاء دون أن يحسب مُولوه حساباً لما إذا كان هذا الشخص أهلاً لهذا العمل أم لا، ضليعاً في الكتابة والتصرف في الأمور وإدارتها أم لا، وأخيراً أيستطيع أن يثبت جدارته ويقوم بما وُكّل إليه من أعمال أم لا، في حين يُحرم عدد كبير من الأكفياء واللائقين وذوي الجَلَد، والمُجرَّبين والمعتمدين ممن لزموا بيوتهم عاطلين، دون أن يخطر ببال أحد أن يسأل نفسه: «لماذا يُعهد بعدة مناصب وأعمال إلى المغمورين ممن لا كفاية ولا لياقة ولا أصل ولا فضل لهم ويُحرم الأصلاء المُعتمدون - لاسيّما أصحاب الحق على الدولة، ممن قدّموا لها خدمات جليلة، وأظهروا فيها كفاية ولياقة فائقتين- حتى من عمل واحد - ويظلون عاطلين هكذا؟!». وينتابني[1] أعجب من هذا، وهو أن مولّي الأعمال في كل العهود كانوا يندبون لها من هم على مذاهبهم وشركائهم في العقيدة من الأصلاء المتقين، حتى إذا ما رفض أحدهم وأبدى تمنّعاً ولم يُجبهم إلى ذلك، كانوا يجبرونه ويسندون العمل إليه قسراً. لا جرم في أن المال لم يكن يذهب سدًى، وأن الرعايا كانوا في راحة واطمئنان، وكان المستقطعون يتمتعون بسمعة حسنة ويعيشون عيشة هادئة، وكان الملك يقضي أيامه ناعم البال رخيّ الحال. لكن لا وجود لهذا اليوم، لأنه يُسمح لليهودي والزرادشتي والرافضي بِتَوَلّي الكتابة للأتراك (السلاجقة) وإدارة شؤونهم. لقد استولت عليهم الغفلة، فليست فيهم حمية على الدين، ولا شفقة على المال، ولا رحمة بالرعية. فالدولة وصلت إلى أوج كمالها، وإنني لأخشى عليها العين، ولست أدري إلامَ ستؤول الأمور، إذ لم تكن لأي زرادشتي ومسيحي ورافضي الجرأة حتى على إظهار نفسه في عهد محمود ومسعود وطغرل وألب أرسلان، أو على القدوم إلى أي تركي، فقد كان كل كَتَبَة التّرك والقائمين على شؤونهم والمتنفذين فيها من خراسان، ومن الحنفية أو الشافعية الأطهار. ولم يكن الترك ليُفسِحوا المجال أمام كتبَة العراق وعمّال خراجها من ذوي المذاهب السيئة، بل لم يكونوا ليجيزوا استخدامهم أو توليهم أي عمل. وكانوا يقولون: «هؤلاء على مذهب الديالمة ومِنْ أتباعهم. فإن يوطدوا أقدامهم، يُلحِقوا بالأتراك الضّرر، ويُحِيقوا بالناس الأذى. إنه لمن الخير ألا يكون للأعداء وجود بين ظهرانينا». ولا جرم في أنهم كانوا يعيشون في منأى عن المصائب والمتاعب والآفات. لكن الأمور وصلت الآن إلى حد انبثّوا فيه في البلاط والديوان بكثرة، حتى إنه ليجري وراء كل تركي مائتان

---

(١) أي نظام المُلك نفسه.

منهم. لقد تدبَّروا أمرهم بينهم على ألا يسمحوا لأي خراساني أن تطأ قدماه القصر والديوان أو يتسنى له الحصول على لقمة العيش. سيأتي يوم يصحو فيه الترك على فساد تلك الطبقة، فيتذكرون قولي من أن الديوان قد خلا من الكتاب والمتصرفين الخراسانيين. لقد كان الأتراك إذا ما قدم عليهم من يسألهم عمل كاتب أو فراش أو «ركابدار»[٢] يسألونه: من أي مدينة أنت، ومن أية ولاية ؟ ما مذهبك؟ فإن قال: حنفي أو شافعي من خراسان وما وراء النهر، أو من مدينة سنية قبلوه، وإن قال: شيعي من قم و«كاشان»[٣]و«آبه»[٤] و«الري» ردّوه قائلين: «انصرف، فنحن نقتل الأفعى ولا نربّيها». إنهم لم يكونوا ليقبلوا أحداً ولو بذل الأموال والنعم الوفيرة، بل كانوا يقولون له: «اذهب مصحوباً بالسلامة، ووفّر ما تريد أن تعطيه لنا على نفسك، واجلس في بيتك وانفقه على طعامك وشرابك».

كان السلطان طغرل والسلطان ألب أرسلان، إذا ما تناهى إلى أسماعهما أدنى شيء بأن أميراً أو تركياً ما مهّد سبيل أي رافضي إليه، يغضبان عليه ويعاتبانه.

ألب أرسلان وأردم الرافضي

نُقل إلى السلطان الشهيد ألب أرسلان يوماً أن أردم اتخذ يحيى كبير[٥]إحدى القرى كاتباً له، فساءه ذلك لما كان يقال إن: «كبير القرية باطني»، وقال لأردم في مجلسه: «أنت عدوّي، وخصم مملكتي»، فخرّ أردم على الأرض، وقال: «يا مولاي، ما هذا الكلام؟! إنني أقلّ عبيدك شأناً، أيّ قصور بدا منّي في رضوخي وموالاتي إلى الآن؟». قال السلطان: «إن لم تكن عدوّي، فلِم تستعمل خصمي في خدمتك؟». قال أردم: «فمن ذاك؟». قال السلطان: «كبير القرية الحقير كاتبك»، قال: «من يكون هو في العالم؟! هب أنه سمٌّ كلّه، فما الذي يستطيع فعله في الدولة؟». فقال السلطان لبعض رجاله: « اذهبوا واحضروا ذاك الرجيل». فذهب من أحضره في الحال. فقال السلطان له: «يا

---

(٢) الركابدار: القائم على الركائب. واستعملت الكلمة كما هي مثلما استعملها مترجماً «تاريخ البيهقي» (راجع كشاف المصطلحات التاريخية ص(٨٠٢).

(٣) كاشان: مدينة بما وراء النهر (معجم البلدان).

(٤) آبه: بُلَيْدة كانت تقابل ساوه وتُعرف بين العامة بآوه. كان أهلها شيعة، وأهل ساوه سنية، وقد كانا يتحاربان على المذهب (معجم البلدان).

يقال إنه كان يُطلق عليها «آوه ساوه» تمييزاً لها عن «آوه» القريبة من همذان (بلدان الخلافة الشرقية ٢٤٦). و«آبة» أو «آوه» اليوم قرية من أعمال ناحية «جعفر آباد» بمحافظة «ساوه».

(٥) ترجمة للفظة «دهخدا» وهي تقابل «المختار» في عاميات بلاد الشام و«العمدة» في العامية المصرية.

رجيل، أنت باطني تقول ببطلان حق خليفة الله». قال الرجل: «يا مولاي، لست بباطني، بل شيعي إمامي، يعني رافضي». قال السلطان: «ما أحسن الرافضية مذهباً حتى اتخذتها ترساً تدرأ به عنك الباطنية!!». وأمر الحُجّاب بجلده، ثم أُخرِج من القصر نصف ميّت. ثم التفت السلطان إلى زعماء القوم، وقال: «ليس الذنب ذنب هذا الرجيل، بل ذنب أردم الذي استعمل كافراً في خدمته. لقد قلت لكم مرة ومرتين ومائة مرة: أنتم الأتراك جيش خراسان وما وراء النهر، إنكم لغرباء في هذه الدّيار. لقد أحرزنا هذه الولاية بالسيف والقوة، وكلنا مسلمون أنقياء. إن أغلب أهل الدَّيلم والعراق لمن ذوي المذاهب والعقائد والأديان الخبيثة السيئة، وإن بين الأتراك والديالمة خلافات وإحناً ليست بنت اليوم، بل متمادية في القِدم.

لقد أعزّ الله، عزّ وجلّ، الترك اليوم وسلّطهم على رِقاب الدّيالمة، لأنهم مسلمون خلّص أطهار لا يعرفون البدع والأهواء، أما الديالمة فهم منشأ البِدع والمذاهب الفاسدة، وخصومنا. إنهم سيظلون يُدينون لنا بالطاعة والولاء – ما داموا عاجزين–، لكنه إذا ما اشتد ساعدهم قليلاً، وآنسوا من جانبنا ضعفاً، لن يُبقوا آنذاك على وجه الأرض تركيًا، من حيث المذهب، ومن حيث الولاية، فأولئك قومٌ أدنى من الحمير والبقر، لا يعرفون عدوّهم من صديقهم». ثم أمر بإحضار مائتي درهم من شعر الخيل، وسلّ شعرة منها، وقال لأردم: «اقطع هذه» فتناولها أردم وقطعها. فناوله السلطان خمس شعرات غيرها، فقطعها أيضاً، فناوله عشراً أخرى، فقطعها بسهولة ويُسر كذلك. ثم نادى السلطان أحد الفرّاشين، وقال له: «اجدل هذا الشعر رسناً»، فمضى وجدله رسناً من ثلاثة أذرع وأتى به إلى السلطان، فأعطاه أردم ليقطعه، فلم يستطع، على ما بذل من جُهدٍ وقوة. حينئذٍ قال السلطان له: «إن الأعداء كهذا الشعر، يسهل قمعهم، واحداً واحداً، واثنين اثنين، وخمسة خمسة، لكن تصعب زحزحتهم إذا ما تكاثر عددهم، وتفاقم أمرهم، وشدوا أزر بعضهم. حينئذٍ يصبحون شُغلنا الشاغل بما يقومون به من أعمال الشغب والفتنة. إن هذا إلاّ جواب قولك: «حتى لو كان هذا الرجيل سمًا كُلّه، فما الذي يستطيع فعله في الدولة؟» إنهم إذا ما أخذوا يتسرّبون إلى صفوف الترك واحداً في إثرِ آخر، ويتسنمون لهم الأعمال والكتابة، ويقفون إلى أحوالهم من كثب، لن يمضي طويل وقت حتى يظهر التّمرد والخروج والفتنة في العراق، أو على إغارة الدّيالمة على المملكة. فهم جميعهم متكاتفون سرًا وعلانية، يسعون بينهم إلى هلاك الترك. أما وأنت تركي، يجب أن يكون جيشك خراسانيًا، وأن يكون عُمّالك وكَتَبَتك وأعوانك ومُتصدّو شؤونك خراسانيين أيضاً، وهكذا الأمر بالنسبة للترك جميعاً، لئلاّ يجد الخلل له طريقاً إلى شؤونهم وأمورهم. إن تمُدُد يدك إلى مخالفي الملك وأعدائه فإنك ترتكب خيانة بحقه وبحق نفسك، أما إن كنت ترى أنك مُحِق فيما تقوم به تُجاه نفسك

من أعمال، فالملك لا يرى أن من المناسب والحكمة كف يد الحزم وتجنّب الحيطة والإبقاء على الخَوَنة. أنا المكلَّف برعايتك وحمايتك، ولست أنت الموكل بحمايتي وحِفظي. فالله -عزّ وجلّ- ملّكني عليكم، ولم يُملّكم عليّ. هلاّ علمت أن من يصادق خصوم الملك يُعدّ واحداً منهم، وأن من يصاحب اللصوص لص مثلهم؟».

وفي حين كان الكلام ينساب من على لسان السلطان، كان الخواجة الإمام المشطّب[٦]، والقاضي لوكر[٧] حاضرين، فالتفت إليهما، وقال: «ما تقولان فيما أقول؟». قالا: «إن ما يقول مولى العالم، هو قول الله - عزّ وجلّ- ورسوله (ﷺ) في الرافضة وأهل البِدع والباطنية وأهل الذّمة». ثم قال المشطب: يروي عبد الله بن عباس[٨] أن الرسول عليه السلام قال لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يوماً: «إن أدركت قوماً لهم نَبْز[٩]، يقال لهم الرافضة يلفظون[١٠] الإسلام فاقتلهم، فإنهم مُشركون».

وقال القاضي لوكر: يروي أبو أمامة[١١] أن النبي عليه السلام قال: [تظهر][١٢] في آخر الزمان فئة يقال لهم الرافضة، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم». ثم قال المشطب: (لقد كفّر سفيان بن عيينة[١٣] الرافضة

---

(٦) هو الفقيه المعروف، أبو المظفر المشطب بن محمد الفرغاني، من فقهاء الحنفية. كان يعيش في عهد السلاجقة والخواجة نظام الملك والخليفة. توفي عام ٤٨٦ هـ (عباس إقبال: حاشية ١ ص ٢٠٣).

(٧) لم يستطع الذين حققوا هذا الكتاب ممن اطلعت على طبعاتهم أن يظفروا بأية معلومات عن القاضي لوكر، ولم أستطع أنا أيضاً. وتحسن الإشارة إلى أنه جاء في نسخة إقبال (ص ٢٠٣) هكذا... وقاضي إمام أبو بكر... أي القاضي الإمام أبو بكر! واعترف إقبال أنه لم يهتد إلى شيء عنه. وقد يكون «أبو بكر» أنسب من «لوكر».

(٨) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، كنيته أبو عباس. وُلد قبل الهجرة بأربع سنوات، ومات بالطائف عام ٧٨هـ وقيل عام ٧٠. وقبره هناك مشهور يُزار (مشاهير علماء الأمصار ص٩).

(٩) النَّبْز (بفتح النون وسكون الباء): اللقب.

(١٠) لفظ (بفتح الفاء وكسرها) الشيء: طرحه.

(١١) أبو أمامة: هو أبو أمامة الباهلي: اسمه الصدى بن عجلان بن وهب. مات سنة ست وثمانين، وهو ابن إحدى وسبعين سنة. كان من صحابة الشام. (مشاهير علماء الأمصار ص٥٠).

(١٢) إضافة يقتضيها التركيب والمعنى معاً.

(١٣) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، وُلد بالكوفة سنة سبع ومئة. ثم انتقل إلى مكة. جالس الزهري وهو ابن ستة عشرة سنة ونيف. كان - رحمه الله - من الحفاظ المتقنين، وأهل الورع في الدين ممن عُني بعلم كتاب الله وكثرة تلاوته له وسهره فيه. اهتم بعلم السنن وواظب على جمعها والتفقه بها إلى أن مات. حجّ أكثر من سبعين مرة. تُوفي بمكة عام ١٩٨هـ (مشاهير علماء الأنصار ص ١٤٩).

مُحتجاً بقوله تعالى: ﴿لِيغيظ بهم الكفار﴾[١٤]، وقوله: ﴿أشِدّاء على الكُفّار﴾[١٥]، ثم قال: «إن من يقدح في أحد صحابة رسول الله (ﷺ) فهو كافر بحكم الآية المذكورة»[١٦].

ويقول الرسول عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى جعل لي أصحاباً ووزراء وأصهاراً، فمن سبّهم فعليه لعنة الله والناس أجمعين، لا يقبل الله لهم عدلاً ولا صَرْفاً»[١٧]. ويقول الله، عزّ وجلّ، في أبي بكر، رضي الله عنه: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[١٨].

وقال القاضي لوكر: «يُروى أن عقبة بن عامر[١٩]، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): «لو كان بعدي نبيّ، لكان عُمر بن الخطّاب». قال المشطب: رَوى جابر بن عبد الله[٢٠]، رضي الله عنه، فقال: أُتي النبي (ﷺ) بجنازةٍ فلم يصلِّ عليها. قالوا: يا رسول الله ما رأيناك تركت الصلاة على أحد إلاّ على هذا. قال: إنه كان يُبْغِض عثمان، أبغضه الله».

وقال القاضي لوكر: «يَروي أبو الدرداء[٢١]، رضي الله عنه، أن النبيّ، عليه السلام، قال في حقّ عليّ بن أبي طالب، رضوان الله عليه: «الخوارج كلاب النار». وقال المشطّب: يروي عبد الله بن عبّاس، وعبدالله بن عمر[٢٢]، رضي الله عنهما، أنّ النبيّ (ﷺ) قال: «ليس للقدرية ولا للرافضة في الإسلام

---

(١٤) هذان الاقتباسان من الآية الكريمة: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّار...﴾ (الفتح: آية ٢٩).

(١٥) راجع الحاشية السابقة.

(١٦) يقول الدكتور جعفر شعار: «لا علاقة للآية المذكورة بالرافضة. لكن المؤلف يحمل هنا وفي المواطن الآتية على الروافض بحكم تعصّبه المذهبي، ويعدّهم من غير المسلمين بل خارجين عن الإسلام، ثم يُغالي في مدح الخلفاء. إن أكثر هذه الأخبار ليست ذات قيمة عند الشيعة» (حاشية ٣ ص٢٥١ ثم انظر: عباس إقبال، حاشية ٣ ص٢٠٤).

(١٧) الصَّرْف: (بفتح الصاد وسكون الراء): التوبة، والعدل: الفدية (اللسان– صرف).

(١٨) التوبة: آية ٤٠.

(١٩) هو عقبة بن عامر بن عبس الجهني، أبو أسيد، وقيل أبو عامر من صحابة رسول الله (ﷺ). مات وهو والٍ بمصر سنة ثمانٍ وخمسين هجرية (البُستي: مشاهير علماء الأمصار ص٥٥).

(٢٠) جابر بن عبد الله بن عمرو. من بني جشم بن الخزرج، كنيته أبو عبد الله. كان أبوه من شهداء أُحُد، شهد العقبتين مع أبيه، ثم شهد بدراً. مات بالمدينة سنة ثمان وسبعين بعد أن كُفّ بصره، وكان له من العمر أربع وتسعون سنة (مشاهير علماء الأمصار ص١١).

(٢١) هو عُوَيمر بن عامر بن زيد الأنصاري. مات سنة ٣٢هـ وقبره بباب الصغير بدمشق (مشاهير علماء الأمصار ص٥٠).

(٢٢) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، كنيته أبو عبد الرحمن. وُلِد قبل الوحي بسنة واحدة. كان من صالحي الصحابة وقُرّائهم وزُهّادهم، ومن أكثرهم تتبعاً لآثار رسول الله (ﷺ) وأكثرهم استعمالاً لها. اعتزل الفِتن وقعد في البيت=

تصيب». وقال القاضي لوكر؟: يروي سهل بن سعد[٢٣]، رضي الله عنه، أن الرسول، عليه السلام، قال: «القدريّة مجوس هذه الأمّة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم». والرافضة كلّهم قدريّو المذهب.

وقال المشطب: تروي أمّ سلمة[٢٤] عن رسول الله (ﷺ): كان عليه السّلام عندي يوماً، إذ أتاه عليٌّ وفاطمة معاً ليرياه ويسألاه، فرفع، عليه السلام، رأسه وقال: «يا عليّ، أبشّرك ورهطك بالجنة. لكنه يخرج بعدك قومٌ يدعون حبّك والإخلاص إليك، ويُجرون الشّهادة على ألسنتهم، ويقرأون القرآن، هؤلاء هم الرافضة. فإذا ما أدركتهم فجاهد فيهم، لأنهم مُشركون كَفَرة». قال عليّ: «يا رسول الله، ما علامتهم؟». قال الرسول (ﷺ): «لا يُقيمون صلاة الجماعة، ولا يحضرون صلاة الجُمعة، ولا يُؤدّون صلاة الجنازة، ويطعنون في السّلف». وفي هذا الموضوع أخبار وأحاديث وآيات كثيرة، إن أذكرها جميعاً، فإنها تحتاج إلى كتاب وحدها.

تلكم هي حال الرّافضة، فما ترى حال الباطنية، وهي أسوأ من الرافضة بكثير؟ إنه ليس ثمّة فرض أولى على أي ملك يظهر هؤلاء على عهده من محوهم من على وجه المعمور، وتخليص مملكته من شرّهم وتصفيتها منهم، ليهنأ في مُلكه ودولته ويعيش عيشة راضية. وهكذا يُنهى عن إسناد الأعمال والمناصب إلى اليهود والنصارى والمجوس، وعن توليتهم شؤون المسلمين.

=عن الناس إلاّ أن يخرج حاجًا أو مُعتمراً أو غازياً إلى أن وافته المنيّة على حاله تلك بمكة وهو حاج سنة ثلاث وسبعين هجرية. وبها دُفِن (مشاهير علماء الأمصار ص١٧).

(٢٣) هو سهل بن سعد بن مالك الساعدي. كان اسمه «حَزناً» فسمّاه رسول الله (ﷺ) «سهلاً»، وكنيته أبو العباس. مات بالمدينة سنة إحدى وتسعين هجرية، وقيل سنة ثماني وثمانين، وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة (مشاهير علماء الأمصار ص٢٥).

(٢٤) أم سلمة هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية. كان أبوها أحد أبناء قريش المعدودين، وكان يلقّب بلقب «زاد الراكب»، لأنه كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد. وكانت أمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة الكنانية. تزوّجها الرسول (ﷺ) في شهر شوّال من السنة الرّابعة للهجرة. أما زوجها الذي مات عنها قبل أن يتزوّجها الرسول فهو أبو سلمة: عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة الصّحابي الفارسي، ابن عمّة الرسول: برّة بنت عبد المُطّلب بن هاشم، وأخوه (ﷺ) من الرّضاعة، أرضعتهما ثُوَيْبة مولاة أبي لهب. كان لأبي سلمة وزوجه هند ماضٍ مجيد في الإسلام. فقد كانا من بين السابقين الأوّلين، وهاجرا معاً إلى الحبشة، ثمّ قدما إلى مكّة، وخرجا منها إلى يثرب مهاجرَيْن. صحبت أم سلمة الرسول في غير غزوة. (راجع أخبارها مُفصّلة في: الدكتورة عائشة عبد الرحمن -بنت الشاطئ-، تراجم سيّدات بيت النّبوّة ص ٢٠٩- ٢١٩، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان. الطبعة الأولى ١٩٦٧م).

أبو موسى الأشعري والكاتب النّصراني

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، يجلس في المسجد بالمدينة وأبو موسى الأشعري معه يعرض عليه حساب أصفهان مُهيّئاً بدقّة، ومكتوباً بخطّ جميل يُعجب النّظار، وينال رِضاهم. سأل عمر أبا موسى: «خطّ من هذا؟». فقال: «خطّ كاتبي»، قال عمر: «ابعث في طلبه لأراه». قال أبو موسى: «لا يستطيع دخول المسجد». قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: «أبِهِ جنابة؟»، قال أبو موسى: «لا، إنه نصراني». فغضب عمر وضرب أبو موسى على فخذه بشدّة، حتى قال أبو موسى: «أحسب أن فخذي قد كُسِرت»، قال عمر: ألم تقرأ قول ربّ العِزّة وأمره حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[٢٥]». قال أبو موسى: «لقد عزلته الساعة، وأمرت بعودته إلى بلاد العجم». ولقد ضرب الحكيم[٢٦] مثلاً بديعاً في هذا المعنى، فقال شعراً:

«ما أجمل أن يحذر المرء أعداء صديقه، وأن يصاحب أصدقاءه»

«لا تأمن لطائفتين من الناس: أصدقاء عدوّك، وأعداء صديقك»

* * *

يقال إن السلطان ألب أرسلان لم يُكلّم أردم بعد هذا شهراً كاملاً وأشاح بوجهه عنه، إلى أن تشفّع له كبار القوم لدى السّلطان في أوقات انبساطه، وتكلّموا معه في أمره كثيراً، حتى لان له قلبه ورضِيَ عنه، وتغاضى عن الأمر.

* * *

لنعد الآن إلى ما كنّا فيه من حديث، فنقول إنّه حين يُولّى المغمورون والطغام أعمال الدولة وشؤونها، ويترك الأصلاء وأولو الفضل والمشهورون المعروفون عاطلين مهملين، وتُسند إلى أحد الأشخاص خمسة مناصب، ويُحرم آخر حتى من عمل واحد، فإن هذا لآية على جهل الوزير وعدم كفايته ولياقته. فإن لم يكن الوزير كفؤاً وعالماً حكيماً، فإمارة هذا أنه يبغي زوال المُلك والدولة وإفساد شؤونها، فيكون ألدّ الخصوم وأسوأهم. وحين يُوَلّى شخص عشرة أعمال ويحرم تسعة من أي

(٢٥) المائدة: آية ٥١.

(٢٦) يظن دارك أن نظام الملك ربما يشير إلى الحكيم الموصلي الذي كان –فيما يقول صاحب «چهار مقاله ص٩٨–٩٩»، «المقالات الأربع» –: «من طبقة المنجمين بنيسابور، وممن خدموا نظام الملك الطوسي الذي كان يستشيره في المهمّات، ويسترشد برأيه وتدبيره. (تعليقات دارك ص٣٤١–٣٤٢).

عمل يزيد، والحال هذه، عدد العاطلين المحرومين من رعايا تلك المملكة على عدد العاملين فيها. وحين تؤول الأمور إلى هذا الوضع، فإن العاطلين يشدّون أزر بعضهم بعضاً، ولا يدرى آنذاك أيمكن تلافي ما يحدث وتداركه أم لا؟.

من هذا القبيل أن أحدهم[٢٧] كان يسعى إلى تدمير الملك يوماً بادّعائه التّوفير، وزعمه لسلطان الدنيا وسيّدها أن العالم صاف وأن ليس فيه مخالف أو عدو يستطيع المقاومة. لقد ادّعى، لهذا، أن لا حاجة لأربعمائة ألف رجل لهم رواتب في الدولة، وأنه يجب أن يُكتفى بسبعين ألف فارس يُدّخرون لما قد يطرأ من أحداث ومهام. فبهذا تسترد الدولة جرايات الجند الآخرين غير السّبعين ألفاً ورواتبهم، فتؤمّن لخزانة الدّولة في كل سنة بضعة ألف ألف دينار، فتمتلئ بالذهب والمال في مدّة يسيرة.

لمّا أطلعني[٢٨] سيّد الدّنيا[٢٩] على هذا الكلام، عرفت مَنْ هو صاحبه وأيقنت أنه لا يبغي به سوى فساد المملكة، فأجبت مولاي: «الأمر ما تراه يا مولاي، لكنّه إن يكن لديك أربعمائة ألف رجل، فليس من شك في أن تستحوذ على خراسان وما وراء النهر إلى حدود كاشغر، وعلى «بلاساغون»[٣٠]، وخوارزم، ونيمروز، والعراق، والعراقين[٣١] وفارس، وولاية مازندران، وطبرستان، وأرمينيا، وأرّان[٣٢] وبلاد الشام إلى أنطاكية وبيت المقدس. لقد كنت أطمح أن يكون لك سبعمائة ألف رجل بدلاً من هذه الأربعمائة ألف. فلو كان رجالك أكثر، لحزت غزنين والسند والهند، وكل تركستان والصين، والصين الأقصى[٣٣]، واليمن، والحبشة، وبلاد البربر وأرض النّوبة،

---

(٢٧) يرجع دارك معتمداً على «راحة الصدور» للراوندي (ص١٣٣) أن نظام الملك يقصد هنا منافسه تاج الملك أبا الغنايم الفارسي (المرزبان بن خسرو فيروز) الذي كانت تسنده وتحميه «تركان خاتون» زوج ملكشاه السّلجوقي (تعليقات دارك ص٣٤٢).

(٢٨) يقصد نظام الملك نفسه هنا.

(٢٩) أي ملكشاه السلجوقي (شعار: حاشية ص ٢٥٦).

(٣٠) بلاساغون: بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر (معجم البلدان).

(٣١) المقصود بالعراقين هنا عراق العرب وعراق العجم. إذ كان عراق العجم يطلق على المناطق الجبلية أو إقليم الجبال الممتدّة من سهول العراق والجزيرة في الغرب إلى مفازة فارس الكبرى في الشرق. أما عراق العرب فكان يطلق على القسم الأسفل من ما بين النهرين. ويُطلق على الكوفة والبصرة أيضاً، وهذا هو الشّائع المعروف (بلدان الخلافة الشرقية ٢٢٠-٢٢١).

(٣٢) أرّان (بالفتح والتشديد): اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة. كان بينها وبين أذربيجان نهر يقال له الرّس (معجم البلدان. ويُراجع لمزيد من الاطّلاع على هذا الإقليم: بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٢١).

(٣٣) بالفارسية: ماچين مُخفّف «مهاچين» أي چين بزرگ. ويقال إن أصل الكلمة الفارسية سنسكريتي (فرهنگ نفيسي).

وكانت لك ثمة أشياء في المغرب والشام، والشّامات والأندلس إلى القيروان، وحطّت لك الروم عصا الطّاعة. إن عدد ولايات كل ملك رهن بعدد جيشه، تكثر بكثرته وتقلّ بقلّته، وكلما قلّ عدد الجيش تناقص عدد الولايات، وبالعكس.

لا يخفى على الرّأي السّامي أنه حين يحتفظ بسبعين ألف رجُل من أربعمائة ألف وتُنسخ أسماء الآخرين من الديوان، إن هذا العدد الأخير- على كل حال- أكثر من العدد الأوّل!. إن الثّلاثمائة والثلاثين ألف رجل، وكلّهم حملة سيوف، إذا ما فقدوا الأمل في هذه الدّولة، فإمّا أن يفزعوا إلى أمير أو ملك آخر، وإمّا أن ينتخبوا رئيساً لهم، فيجرّوا على الدولة من الويلات والمتاعب ما يستنـزف كل ما تجمع في خزائنها لسنوات عدّة دونها اطمئنان إلى عواقب الأمور. الممالك لا تُصان إلاّ بالرّجال، والرّجال لا يحفظهم إلاّ المال. أما من يقول للملك: «صُن الذّهب وسرّح الرّجال» فليس هو في الحقيقة إلاّ عدوّ الملك، لا يبغي سوى دمار المُلك وفساده، فالأموال لم تجمعها غير أيدي الرّجال. يجب ألاّ يُصغى إلى كلام ذلك الرّجل أو يُلتفت إليه».

إن العاطلين و المحرومين من العمّال في مزاجهم سواء، فإذا ما كانت لبعضهم مناصب كبيرة في الدّولة التي أدّوا فيها أعمالاً مهمّة، فعُرِفوا بها واشتهروا، وأصبح لهم على الدّولة حقّ الخِدمة، فليس صحيحاً أن تُتجاهل حقوقهم، وأن يظلّوا محرومين متروكين دون أن ينالوا نصيبهم، أو أن يُسند إليهم أي عمل. ليس هذا من المروءة والمصلحة في شيء، بل الواجب أن يولّوا أعمالاً، أو يُمنحوا ما يمكنهم من أن يعيشوا به عيش الكفاف، لتُقضى لهم بهذا بعض حقوقهم، وينالوا نصيبهم في الدّولة.

وثمّة فريق من أهل العلم والفضل والمروءة والشّرف، ممّن لهم في بيت المال نصيب وممن يستحقّون الاهتمام وتولّي المناصب، فلا هم يولون عملاً ولا هم واجدون في الدّولة اهتماماً ونفعاً، ولا حتّى عيشاً. إنهم إذا ما ظلّوا محرومين، لا نصيب لهم في الدّولة، ودالت الأيام إلى عهدٍ يصبح كلّ أعوان الملك فيه من الجهلة والفاسدين الذين لا يُطلعونه على أحوال هؤلاء المستحقّين، ولا يولون العاملين منهم أعمالاً، ولا يُجرون على الشّرفاء والعلماء جرايات أو يُؤمّنون لهم سُبُل معيشتهم، فإنّهم يفقدون حينئذٍ أملهم في الدّولة، ويُصبحون من أعدائها والمتسقّطين عيوبها، فيشرعون بالمجاهرة بِعيوب العمّال (عمّال الخراج) والكُتّاب ومُقرّبي الملك، وبثّها على الملأ بعيداً عن أسماعه. ثم يأخذون في اصطناع الأراجيف، وأخيراً يُسَوّدون عليهم من هو أكثر عدّة وجيشاً وثروة، ويبدأون بإثارة الشّغب، ويخرجون على الملك، فيضرمون نار الفِتن والاضطراب في المملكة، كالذي فعلوه على عهد فخر الدّولة.

حُسن تدبير فخر الدّولة

يُقال إنه كان في الرّي على عهد فخر الدّولة، وقد كان الصّاحب بن عبّاد وزيراً له، مجوسي ثري مُقتدر يُدعى «بزرجوميد»[٣٤]، بنى مقبرة لنفسه على جبل «طبرك»[٣٥]، تُطل على قبة فخر الدولة ما زالت قائمة إلى اليوم، وتُعرف باسم «ديده سپاهسالاران» (مطل القادة). لقد عانى بزرجوميد متاعب شتّى، وأنفق أموالاً طائلة في إقامته تلك المقبرة من طبقتين على قمة ذلك الجبل. وكان في الري مُحتسب اسمه «باخراسان»، يقال إنه صعد إلى المقبرة بحيلة من الحِيَل في اليوم الذي انتهى فيه العمل فيها، وأذّن للصّلاة من عليها، فانتهك قُدسيّتها - على مذهبهم - وأبطل حُرمتها، فأصبحت تُعرف منذ ذلك الحين بـ«مطلّ القادة».

وفي أخريات عهد فخر الدّولة، نقل إليه رجال بريده يوماً - وقد كان صاحب بريد-: «إن ثلاثين أو أربعين شخصاً يخرجون باكراً كل يوم من المدينة إلى «مطلّ القادة»، ويظلون إلى أن يلقع الاصفرار الشمس». حينئذٍ يهبطون وينتشرون في المدينة. وإذا ما سألهم أحد: «لم تذهبون إلى المطلّ يوميًّا؟». يقولون: للتّنزه». وأمر فخر الدّولة بعض رجاله أن: «امضوا إلى هناك، وإليّ بأولئك الناس، ثم هاتوا كل ما تجدونه معهم». فمضى عدد من رجال القصر وصعدوا الجبل إليهم، لكنهم - حين لم يستطيعوا الوصول إلى المطلّ - صرخوا بأعلى أصواتهم من أسفل ليُسْمِعوا الموجودين فيه. فلما أطلّ أولئك الرّجال ورأوا حاجب فخر الدّولة مع فريق من حاشيته، أنزلوا لهم سُلّماً يصعدون به إليهم. فلما صعد رجال فخر الدولة إليهم رأوا عندهم شطرنجاً ممدوداً، ونرداً ودواة وقلماً وقرطاساً «كاغذاً» وسفرة، وإبريقي ماء وجرّة، وحصيراً مبسوطاً. فقال الحاجب: «انهضوا، فإن فخر الدولة يستدعيكم». ومضى بهم إليه.

تصادف أن الصّاحب بن عبّاد كان جالساً إلى فخر الدولة حين وصولهم، فسألهم فخر الدولة: «من أنتم، ولمَ تذهبون إلى هذا المطلّ يومياً؟»، قالوا: «للتّنزّه». قال :«إن التّنزّه يكون في يوم أو يومين أو عشرة. لكنكم تتردّدون على هذا المكان يوميًّا منذ مدّة طويلة، أصدقوني القول». قالوا: «ليس بخافٍ على الملك ولا على أحد، أننا لسنا لصوصاً ولا مجرمين، ولا نخدع نساء الناس ونغويهنّ، أو نختطف أطفالهم من على الطّرقات. إن أحداً لم يأتِ الملك قطّ في يوم من الأيام يشكونا إليه عن أذى وباطل.

(٣٤) بزرجوميد: معرب بزرگ أوميد أو «أميد». وبزرگ بالفارسية: كبير، وأميد: أمل، وهو اسم مجوسي.

(٣٥) طبرك (طبرك بفتح أوله وثانيه والراء): قلعة على رأس جُبيل بقرب من مدينة الري على يمين القاصد إلى خراسان (معجم البلدان. ثم راجع أيضاً: بلدان الخلافة الشرقية ٢٤٠ و٢٥٢).

إن يؤمّنا الملك على أرواحنا وأنفسنا نخبره من نحن». قال فخر الدّولة: «لقد أمنتكم على أرواحكم وأنفسكم وأموالكم»، وأقسم على ذلك لأنّه كان يعرف أكثرهم.

لما حصلوا منه على الأمان، وأمنوا على أرواحهم، قالوا: «نحن قوم من الكُتّاب والمتصرّفين الذين ظلّوا عاطلين في عهدك، ومحرومين من أي نصيب في دولتك. إن أحداً، لم يولنا أي منصب أو عمل، أو حتى يلتفت إلينا. ونسمع الآن بظهور ملك بخراسان يقال له محمود يجتذب إليه ذوي الفضل والموهبة وأهل العلم، ولا يتركهم يهيمون على وجوههم. إننا نتطلّع بآمالنا إليه بعد أن فقدنا الأمل في هذه المملكة، وأننا نسير إلى المطل يوميًّا لنشكو إلى بعضنا بعضاً الدّهر، ونسأل كل من يصل إلينا من جانب محمود عن أخباره، ونكتب رسائل إلى أصدقائنا بخراسان نُطلعهم على أحوالنا، ونستفسر منهم تمهيداً للتوجّه إلى هناك. فلقد أضحينا فقراء، ونحن قومٌ ذوو عيال. إن الضّرورة لتُرغِمنا على ترك أوطاننا ومسقط رأسنا وبيوتنا، واختيار الغُربة سعياً وراء العمل. هذه هي حالنا، والأمر الآن أمر مولانا».

لما سمع فخر الدولة منهم هذا، التفت إلى الصاحب بن عبّاد، وقال: «ماذا ترى؟ ما الذي يجب فعله؟». قال الصاحب: «لقد أعطاهم الملك الأمان، وهم أهل قلم، وأبناء أُناسٍ أُصلاء، وإنّني أعرف بعضهم. لأن أمر أهل القلم منوطٌ بي، فليُعهد إليّ بهم، لأتّخذ ما يلزم نحوهم، وسأتلو على مسامع مولاي الكريمة أخبارهم غداً». فأمر فخر الدولة الحاجب الذي أتى بهم بأن يأخذهم إلى قصر الصاحب بن عبّاد ويُنزلهم هناك. ومضى الحاجب بهم إلى حيث أمره مولاه، ووضعهم في قصر الصّاحب وعاد. لكن أولئك الرجال كانوا في حيرة واضطراب، خوفاً مما سيُنزله الصاحب بهم من عقوبة. ولما عاد الصاحب من قصر فخر الدولة إلى قصره هو، ألقى عليهم نظرة. ثم جاءهم أحد الفرّاشين ومضى بهم جميعاً إلى حجرة كأنها الجنة في زينتها وفراشها الفاخر ومساندها المصفوفة، وقال لهم: «اجلسوا حيث تشاؤون». فتوزّعوا، وجلسوا على المفارش، وجيء بالشّراب. ولمّا شربوا، جيء بالطّعام، فأكلوا وغسلوا أيديهم. ثم أعدّ لهم مجلس غناء وطرب، وجيء بالخمرة، فراحوا يحتسون كؤوس الطّلا، ويستمعون إلى غناء المطربين، إذ لم يكن ثمّة أحد في مجلسهم ذاك سوى الفرّاشين الثلاثة الذين كانوا يقومون على خِدمتهم، ولم يكن أحد يعلم شيئاً عن حالهم تلك، فقد كانت المدينة بأسرها رجالاً ونساءً في قلقٍ عليهم، وكانت نساؤهم وأبناؤهم يبكون ويندبون.

بعد ثلاثة أو أربعة أيام جاءهم أحد حُجّاب الصّاحب بن عبّاد، وقال: «إن الصاحب يقول: اعلموا أن قصري ليس سجناً، وأنكم ضيوفي اليوم واللّيلة. فلو أريد بكم سوء لما أُحضرتم إلى

قصري». وبعد أن عاد الصّاحب من الدّيوان إلى قصرِه، وكان مُنهمِكاً في أمرهم، أمر بإحضار خيّاط حالاً ليخيط عشرين جبّة من الدّيباج، ثم أمر بتهيئة عشرين جواداً بسُرُج مزركشة. ولما انتُهِيَ من إعداد هذا كلّه مع إشراقة صباح اليوم التّالي، دعا الصاحب الرّجال جميعهم إليه وألبس كل واحد منهم جبّة وعمامة، وأعطاه جواداً وغطاءً مُزركشاً لسرجه، وعيّن له عمله، وجعل لبعضهم جرايات دائمة، ووصلهم جميعاً، ثم صرفهم إلى منازلهم فرحين مسرورين. وفي اليوم التالي حضروا عند الصاحب جميعاً للسّلام عليه، فقال لهم: «لتقروا الآن عيناً. فلا تكتبوا لمحمود بعد الآن، ولا تشتكوا ولا تعملوا على زوال مملكتنا».

ولما مثُل الصاحب بين يدي فخر الدّولة، سأله: «ماذا فعلت مع تلك الجماعة؟». قال الصاحب: «يا مولاي، أعطيت كلاً منهم جواداً مُطهّماً، وخلعة وصلة، وعيّنت له عملاً من بين الأعمال التي انتزعتها من أصحاب العملين في الدولة والدّيوان، ثم صرفتهم إلى بيوتهم بعد أن عرف كلٌّ عمله». فراق لفخر الدّولة ذلك وأقرّه، ثم قال: لو فعلت غير هذا، لما كان فعلك صحيحاً. ليتك أقدمت على ما أقدمت عليه السنة قبل عشر سنوات، فما كانوا ليرغبوا في خصومنا. يجب ألاّ يُسند لأي شخص بعد الآن سوى عمل واحد، ليكون لكلّ المتصرّفين أعمال، وليكون للأعمال جميعاً رونق وبهاء. فإذا ما وُلّي شخصٌ واحد عملين أو ثلاثة، تضيق سُبُل العيش على الآخرين، ويقول حكام الأطراف ومُتسقّطو عيوب دولتنا: ألم يبق في مملكتهم رجال حتى يعهدوا بعملين إلى رجل واحد؟! ويحملوننا على عدم الكفاية والجدارة. ألم تر أن الحكماء قالت: «لكلّ عملٍ رجال؟». إن في المملكة وظائف كبيرة ومتوسّطة وصغيرة، فليُعط لكلّ عامل ومتصرّف عملاً واحداً وَفقاً لكفايته وفضله ولياقته وآلته حسب. وإن يكن لأحد شغل، وجاء يطلب آخر، فيجب ألاّ يُلبّى طلبه أو يُسمح له بذلك، لكي يقضى على هذا التّقليد المحدث في المملكة. فإذا ما وُلّي كلّ عامل في المملكة عملاً واحداً فقط، فإنّه يُؤدّي –بالضّرورة– إلى إعمارها».

***

إن الملك زينته العمّال (عمّال الخراج) وكِبار الجيش، وإن على رأس كل العمّال والمتصرّفين وزيراً. فحين يكون الوزير سيّئاً خائناً ظالماً متطاولاً يكون العمّال جميعهم كذلك، بل أسوأ وأكثر خروجاً على القواعد والأصول المرعيّة.

وإذا ما وُجد ثمّة عامل بارع في إدارة دقّة الأمور، أو كاتب أو مُستوف، أو خبير في أنواع المعاملات

ممّن لا نظير له في المملكة من ذوي المذاهب السّيئة والعقائد الفاسدة من مثل اليهود والنّصارى والمجوس، وآذى المسلمين واستخفّ بهم لحجّة في العمل أو الحساب، فتجب تنحيته ومعاقبته إذا ما تظلموا منه واشتكوا، ولا يغرّنّك قول شفعائه: «إنه لا يوجد في المملكة كلّها كاتب أو محاسب أو عامل مثله. إن ينحّ عن عمله، فإنّ أضراراً بالغة ستلحق بالمعاملات جميعها، ولا يستطيع أحد أن يقوم بهذه المهمّة بعده». إنهم يكذبون، ويجب ألاّ يُصْغى إلى كلامهم، بل يجب استبدال آخر بذلك الشخص مثلما فعل عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه.

عمر بن الخطّاب والعامل اليهودي

وهذا ما حدث في أيّام سعد بن أبي وقّاص، إذ كان عامله في سواد بغداد[٣٦]، وواسط، والأنبار، وتلك النّواحي إلى تُخوم خوزستان[٣٧] والبصرة يهوديًّا. لقد كتب سكّان المناطق المذكورة إلى أمير المؤمنين عُمر يشكون إليه العامل اليهودي ويتظلّمون منه، فقالوا: «إن هذا الرّجل يُؤذينا بذريعة العمل والمعاملة، دون حقّ، ويستهزئ بنا ويستخفّ. لقد عيل صبرنا، فإن يكن لا بد مما ليس منه بد، فاجعل علينا عاملاً مسلماً كي لا يعاملنا بخلاف الأصول والقواعد، ولا يسومنا الأذى والعذاب لأننا على دينٍ واحد، وإذا ما تصرّف خلافاً لهذا، فإنه لأحبُّ إلينا أن نتحمّل وطأة الأذى والاستخفاف من مسلمٍ لا من يهودي».

لما قرأ أمير المؤمنين عمر الرسالة قال: «أيتسنّى ليهودي يعيش على وجه الأرض سالماً أن يشعر بالتّفوّق والفضل على المسلمين؟!». وأمر أن يكتب إلى سعد بن أبي وقاص: «اعزل ذلك اليهودي، ووَلِّ عمله مسلماً».

ولما قرأ سعد الرسالة، أمر بندب خيّال إلى العامل اليهودي أنّى وُجِد، والمجيء به إلى الكوفة. ثم بعث برُسُلٍ آخرين إلى مختلف نواحي بلاد العجم ليأتوا بالعمّال المسلمين من حيث يجدونهم إلى الكوفة.

لما أُحضِر اليهودي والعمال الآخرون جميعاً، لم يرَ سعد في عمال العرب والعجم من المسلمين من له القدرة والكفاية على القيام بعمل اليهودي، ولم يجد فيهم من يعرف أصول المعاملة مثله، أو أن له خبرته وقُدرته على تحصيل الأموال، والإعمار، ومعرفة الناس والإحاطة بما حُصِّل وما لم يُحصَّل من

(٣٦) يرى عباس إقبال هنا أيضاً (حاشية ٢ ص٢١٤) أن قول نظام الملك: «في سواد بغداد» لا معنى له في أيام سعد ابن أبي وقّاص، للسّبب نفسه الذي ذكر في حاشية ٣ ص٧.

(٣٧) هي محافظة خوزستان الحاليّة، ومركزها الأهواز.

خراج. فاضطرّ إلى إبقائه على رأس عمله وكتب إلى أمير المؤمنين رسالة تقول: «لقد امتثلت أمر أمير المؤمنين، فأحضرت اليهودي، وعقدت مجلساً، جمعت فيه كلّ العمال والمتصرّفين في ديار العرب والعجم، فلم يكن في العرب من له دراية بأحوال العجم وشؤونهم. أما عمال العجم، فتبيّن لي بعد استقراء أن ليس فيهم من له كفاية اليهودي ومهارته في المعاملة، وحُسن تصرّفه وإدارته ومعرفته الناس. لقد اضطررت إلى إبقائه في عمله كي لا يتسرّب الخلل إلى شتى أنواع المعاملات، ولكي يستمرّ تحصيل الأموال. وإني في انتظار أمر أمير المؤمنين».

لما وَصَلَت الرّسالة إلى أمير المؤمنين عُمر، وقرأها، تملّكه العجب، فقال: «يا للعجب! يختار غير ما اخترت، ويرى غير ما رأيت!». وتناول القلم وكتب في أعلى الرّسالة نفسها: «مات اليهودي». ثم أعادها إلى سعد بن أبي وقّاص.

إنّ ما عناه عمر بقوله: «مات اليهودي» هو: «هب أن اليهودي مات، وكلّ نفسٍ ذائقة الموت. فالموت بمثابة العزل عن العمل. واعلم أن العمل يجب ألاّ يتوقّف بموت أي عامل أو عزله، بل يجب ندب رجل آخر له، فلِم تظلّ عاجزاً هكذا؟».

لما تسلّم سعد الرّسالة وقرأ توقيع عمر في أعلاها، عزل اليهودي فوراً، وعيّن مسلماً مكانه. وتسلّم المسلم عمله، فتبيّن بعد سنة أن ما أُنجِز على يده أفضل بكثير مما أُنجِز على يد اليهودي، وأن شؤون العمران قد نمت وازدهرت. حينئذٍ قال سعد بن أبي وقّاص لأمراء العرب: «أنْعِم بأمير المؤمنين عمر رجلاً عظيماً. فقد كتبت في أمر ذلك اليهودي وشؤون الولاية رسالة طويلة، لكنّه أجابني بكلمتين، فكان الأمر كما قال لا كما كنت أعتقد، ونجّانا مما كنّا فيه».

***

ثمّة قولان مشهوران، صَدَرا عن رجلين عظيمين، كلاهما صائب مقبول، وسوف يظلاّن مضرب المثل في العرب والعجم إلى يوم الدين. الأول قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «مات اليهودي». فأنّى وجد عامل يجيد مهنة الكتابة[٣٨]، وله مهارة وخبرة في إدارة الأمور وتصريفها، لكنه متطاول ظالم، خبيث المذهب، وأُريد لهذا تنحيته، فيتصدّى شفعاؤه ومن يحدبون عليه قائلين: «يجب ألاّ يُعزَل، فهو كاتب ممتاز، وعامل جَلد، وليس ثمة من هو أفضل منه في عمله» وأمثال هذا الكلام، فما على الحاكم إلاّ أن يقول: «مات اليهودي». فبهاتين الكلمتين ترد أقوالهم كلّها وتبطل، ويُعزل ذلك العامل.

(٣٨) بالفارسية: «دبيري» وهي تقابل المصطلح المعاصر المعرّب (السكرتارية).

أما القول الآخر، فإنه لما ودّع نبيّنا (ﷺ) الدار الفانية، لم يجرؤ أحد من صحابته على أن يقول إنه -عليه السلام- قد مات سوى أبي بكر الصّدّيق، رضي الله عنه. فما إن وُلّيَ الخلافة، وآلت إليه أمور المسلمين بعد النبيّ، عليه السلام، حتى اعتلى المنبر وخطب في الناس، فقال: «مات محمد». ثم قال: «أيها المسلمون، من كان يعبُد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت».

فأُعجِب المسلمون بقوله الذي صار مضرب المثل في العرب، بحيث إذا ما ألّمت بأحدهم مصيبة عظمى، ودّع فيها عزيزاً أثيراً لديه، وأراد الناس تهوين الأمر وتخفيف وقعه عليه، فإنهم يقولون له في عنفوان النازلة: «مات محمد». فإن يكن ألاّ يموت أحد من بني آدم، فليس من هو أولى من محمد المصطفى عليه السّلام.

* * *

لنعد الآن إلى ما بدأنا به كلامنا... قلنا إن العمال وأعمالهم منوطون بالوزير، وإنّ الوزير الصالح يجعل سُمعة مليكه وسيرته حسنتين. فما الملوك العظام الذين دان لهم العالم والذين سوف تظل أسماؤهم مُقترنة بِذكر الخير إلى يوم القيامة، إلاّ أولئك الذين كان لهم وزراء أخيار. كذا كان الأنبياء الأعاظم: فكان لسليمان، عليه السلام، آصف بن برخيا، ولموسى عليه السلام، أخوه هارون، عليه السلام، ولعيسى عليه السلام، شمعون، ولمحمد المصطفى، عليه السلام، أبو بكر الصديق، رضي الله عنه. أما الملوك العظام، فكان لكيخسرو جودرز، ولمنوچـهر سام، ولافراسياب بيران ويسه، ولكشتاسب[٣٩] جاماسب، ولرستم زواره، ولبهرام جور خره روز، ولأنوشروان العادل بزرجمهر. وكان لخلفاء بني العباس أمثال آل برمك، وللسامانيين البلعميون، وللسلطان محمود الغزنوي أحمد حسن[٤٠]، ولفخر الدولة الصاحب بن عباد، وللسلطان طغرل أبو نصر الكندري[٤١]. بذا أضحت سُنّة الأنبياء، وسيرة الملوك أنشودة يُترنّم بها ومثلاً يُضرَب. ومثل هذا كثير.

أما الوزير، فيجب أن يكون نقي الدين، حسن الاعتقاد، حنفي المذهب أو شافعياً طاهراً، كُفؤاً، حسن التدبير والمعاملة، كريماً، ومحباً للملك. وما أحسن أن يكون الوزير من صُلب وزير، فذا أفضل

---

(٣٩) وتُكتب جشتاسب أيضاً.

(٤٠) هو أحمد بن الحسن الميمندي. كنيته أبو القاسم أو أبو الحسن، ولقبه شمس الكفاة. وزر للسلطان محمود الغزنوي وابنه مسعود. تدرج في المناصب على عهد محمود إلى أن نال الوزارة. توفي عام ٤٢٤هـ (فرهنگ فارسي).

(٤١) هو أبو نصر محمد بن منصور الكندري، عميد الملك. كان وزير السلطان طغرل، وكان عالماً، حنفي المذهب. كان يرافق السلطان طغرل في بعض أسفاره ولقاءاته. لكن السلطان ألب أرسلان عزله عن الوزارة عام ٤٤٥ - بتحريك من نظام الملك- وحبسه، وما لبث أن قُتل في السنة الآتية (فرهنگ فارسي).

وأهيَب وأبرك. فمنذ عهد أردشير بن بابكان[٤٢] إلى أيام يزدجرد بن شهريار[٤٣] آخر ملوك العجم، لم يكن الملوك إلاّ أبناء ملوك، ولم يكن الوزراء إلاّ أبناء وزراء. وظل الأمر على هذا الحال حتى ظهور الإسلام. فلما دال ملك ملوك العجم. أدبرت الوزارة عن الوزراء أيضاً.

سليمان بن عبد الملك وجعفر البرمكي[٤٤]

يقال إنه لما كان سليمان بن عبد الملك جالساً للناس يوماً، وكان كبار رجال دولته وندماؤه حاضرين، جرى على لسانه: «إن لم يكن ملكي أكثر من ملك سليمان بن داود عليهما السلام، فليس بأقل منه، اللهم إلا أنه كانت له حكومة على الريح والشياطين والجن والوحوش والطيور مما ليس لنا. أما من حيث الكنوز وأدوات التّجمّل والزينة، والملك، والجيش، ونفوذ الحكم ومنعته التي لنا، فمن ذا الذي كان له مثلنا قبلنا في عرض العالم وطوله؟ أيعوزني شيء من مقومات الملك لا أملكه؟». فقال له أحد الزعماء: «يعوزك أهم مقوّمات الملك وأفضلها مما لا تملكه في حين كان للملوك من قبلك». قال سليمان: «ما الذي كان للآخرين ولا أملكه الآن؟». قال الرجل: «ليس عندك الوزير الذي يوائمك». قال سليمان: «كيف ذلك؟»، قال الرجل: «أنت ملك ابن ملك، يجب أن يكون وزيرك ابن وزير، كفؤاً ومباركاً». قال سليمان: «أيوجد وزير على النّحو الذي وصفت في العالم كله؟». قال الرجل: «أجل». قال سليمان: «أين؟». قال الرجل: «في بلخ». قال سليمان: «من ذاك الشخص؟». قال الرجل: «هو جعفر البرمكي الذي ورث آباؤه الوزارة كابراً عن كابر إلى أيام أردشير بن بابكان. وكان «النوبهار»[٤٥] – وهو معبد قديم- ببلخ وقفاً عليهم. ولما أشرقت شمس

---

(٤٢) أردشير بن بابكان: هو ابن بابك مؤسس سلسلة الساسانيين. اشتهر بحروبه وفتوحاته الكثيرة (فرهنگ فارسي).

(٤٣) هو يزدجرد الثالث من أخلاف كسرى أبرويز، وابن الأمير شهريار. كان آخر ملوك آل ساسان. قُتل عام ٣١هـ (فرهنگ فارسي).

(٤٤) يقول عباس إقبال: «إن هذه الحكاية، فيما يظهر، أسطورة كلها، إذ لم يكن جعفر البرمكي معاصراً لسليمان بن عبد الملك، ولم يكن لسليمان وزير بهذا الاسم، وهذه الإمارات...(حاشية ص٢١٩).
أما دارك فنبّه في تعليقاته (ص٣٤٢) على وجود الحكاية بنصّها الحرفي في كتاب «تاريخ برامكة ص ٢-٩» (مجهول المؤلف. الطبعة الأولى، طهران ١٣١٢ شمسي) مع اختلاف في اسم بطل الحكاية – إن جاز التعبير- فهو في سير الملوك: جعفر، وفي «تاريخ برامكة» – وهو بالفارسية -: «برمك». ولا يشك دارك في نقل نظام الملك هذه الحكاية عن الكتاب المذكور. ويرى العلاّمة محمد القزويني (ص ١٧٧ – حواشي ترجمة مرتضى مدرسي) أن المقصود «خالد ابن برمك» وليس «جعفر بن برمك».

(٤٥) «النوبهار» بالفارسية لفظة مركبة من كلمتين: «نو» بمعنى جديد، و«بهار» بمعنى الربيع. فمعنى «نوبهار»: أول الربيع وبواكيره. كان «النوبهار» بناء للبرامكة في بلخ، اتّخذوه بيتاً للنار، ونصبوا حوله الأصنام وزيّنوه بالديباج والحرير، وعلّقوا عليه الجواهر النّفيسة مضاهاة لبيت الله الحرام في مكة. (راجع تفاصيل أكثر عنه في: معجم البلدان، وبلدان الخلافة الشرقية ص ٤٦٣ – ٤٦٤ ومصادره، ومقدمة ميرزا عبد العظيم خان محقق كتاب «تاريخ برامكة» (ص ح – يد).

الإسلام وخرج السلطان من يد ملوك العجم، اتخذ آباؤه بلخ دار مقام لهم وظلّوا هناك. لقد كانت الوزارة وراثية فيهم، وهم الذين صنّفوا كتباً في السير ونظام الوزارة، وكانوا حين يفرغ أبناؤهم من تعلّم الخط والأدب والكتابة، يضعون تلك الكتب بين أيديهم ليقرأوها ويعوا ما فيها، ويسيروا على هَديها. لقد اقتدى الأبناء بآبائهم في سيرتهم اقتداءً كاملاً من شتّى الوجوه، وليس في الدنيا كلها من هو أليَق لوزارتك من جعفر. والأمر ما يراه الخليفة».

ما إن سمع سليمان بن عبد الملك - الذي لم يكن في بني أميّة وآل مروان أعظم منه وأقدر -هذا الكلام حتى وطّن الفؤاد على استقدام جعفر من بلخ، والعهد إليه بالوزارة. غير أنه قال في نفسه: «لربما أن جعفراً ما زال مجوسيّاً»، لكنه لما سمع بأنه كان قد وُلِد مسلماً غمرته الفرحة، وأمر بكتابة رسالة إلى والي بلخ ليرسل جعفراً إلى دمشق، ويُعطيه ما يحتاج إليه من نفقات الطريق ووسائل الزينة والتّجمل ولو ألف دينار، وأن يرسله إلى العاصمة في أبهى آيات الإجلال وأكملها.

وأرسل الوالي جعفراً إلى دمشق، فكان كلّما وصل إلى مدينة يخرج كبارها لاستقباله، ويُقيمون له المآدب، إلى أن وصل إلى دمشق. ولما وطأت قدماه أرض دمشق خرج كبراء الدولة والجيش، إلاّ سليمان بن عبد الملك، عن بكرة أبيهم لاستقباله والترحيب به. واخترقوا به المدينة في أتم مظاهر الإجلال والاحترام وأنهاها إلى حيث أنزلوه في قصر لا يطاوله أي قصر جمالاً وروعة.

بعد ثلاثة أيام مضوا به إلى سليمان بن عبد الملك ليمثل بين يديه. فلما دخل القصر، ووقعت عينا سليمان عليه، راقه منظره ومرآه. ولما دخل إلى بهو المجلس صحبه الحُجّاب إلى المكان الذي أُعِدّ له بالقرب من سرير الملك فأجلسوه، وعادوا.

وبعد أن جلس جعفر، أخذ سليمان ينظر إليه بدقة وإنعام نظر، وإذا به يُقطّب جبينه، ويقول في غضب: «انهض من أمامي». فخفّ الحُجّاب على الفَوْر، وأخذوه وأعادوه، دون أن يدري أحد علّة ذلك. وبعد أن صلّى سليمان الظهر، استخفّه نشاط للشّراب، فحضر العظماء وجلس النّدمان، ومُدّت الأيدي إلى الصّهباء، وأُديرت الكؤوس مرّات، ودبّ فيهم النشاط والنّشوة. فلما رأى من في المجلس انفراد طبع سليمان وانفراج أساريره، قال أحد الخاصّة: «مولاي الملك، لقد أمرت بإحضار جعفر البرمكي من بلخ بأسمى آيات الإعزاز والإكرام لشأن عظيم، لكن ما إن مَثُل بين يديك وجلس حتى ثبَّطت عزيمته وأفترت همّته، وأمرت بإخراجه. فما كان سبب ذلك؟ فالقوم في عجب». قال سليمان: «لو لم يكن جعفر من أسرة عريقة، ولم يأت من مسافة بعيدة، لأمرت آنذاك بضرب عُنُقه حالاً، لكنه كان يحمل معه سُمّاً قاتلاً أتى به هدية لي في أول مرة يلقاني فيها». فقال أحد العظماء من

النّدامى: «أيأمرني مولاي بالذهاب إليه لبحث الموضوع معه والبتّ فيه، فنعرف ما يقول، أيعترف أم ينكر». قال سليمان: «اذهب». نهض الرّجل وترك المجلس إلى جعفر، وهناك سأله: «لقد ذهبت اليوم لمقابلة سليمان، أفكنت تحمل معك سُمّاً؟». قال جعفر: «أجل، وما زال معي. إنه هذا الذي تحت فصّ خاتمي، فعلى هذا سار آبائي من قبل. لقد انتهى إليّ هذا الخاتم إرثاً عن والدي، لكنه لم يحدث قطّ أن تسبّبت أنا أو أحد آبائي حتى بإيذاء نملة وهلاكها، فكيف إذا وصل الأمر إلى آدمي؟! أجل، لقد اعتدنا حمله رغبةً في الحزم والحيطة في الأمور، فما أكثر ما لاقى آبائي من لدن الآخرين خسفاً وتعذيباً من جراء المال والثروة. ففي الوقت الذي استدعاني فيه سليمان بن عبد الملك، لم يُطلعني أحد على حقيقة الموضوع الذي كان يطلبني من أجله؛ فقلت في نفسي إنّه إذا ما طلب إليّ «ثَبَت الكنوز» أو سألني شيئاً لا أستطيع الوفاء به، أو سامني عذاباً لا طاقة لي عليه، لا بدّ لي أن أضع فصّ الخاتم في فمي وأرشُف سمّه تخلّصاً من العذاب والهوان».

لما سمع الرّجل حديث جعفر هذا، عاد توًّا إلى سليمان، وتلا على مسامعه ما قال جعفر. فعجِب سليمان لذكاء جعفر وبُعد نظره، وفرد أسارير وجهه، وقبِل عذره، ثم أمر بإحضاره إلى بابه في موكب خاص. فذهب العظماء جميعهم إلى باب القصر الذي كان فيه، وأتوا به إلى البلاط معزّزاً مكرّماً، وكذلك فعلوا في اليوم التالي.

لما مثُل جعفر بين يدي سليمان، مدّ إليه سليمان يده مصافحاً، وأخذ يسأله عن مشاق الطّريق ويلاطفه بكلام جميل، ثمّ أجلسه وألبسه خلعة الوزارة في الحال، ووضع الدّواة أمامه ليوقع جعفر بضعة تواقيع على مرأى منه. ويُقال إن سليمان لم يُرَ قطّ بما كان عليه من فرح وابتهاج في ذلك اليوم.

لما خرج سليمان من مجلسه في القصر، استخفه نشاط للشّراب، فأعد لهم مجلس زيّن بالذّهب والجواهر، وفرش بفرش موشّحة بخيوط من ذهب لم يرَ النّاس لها نظيراً قط، ثم جلسوا للشّراب. وعلى حين كان سليمان نشوان جذلاً، سأله جعفر: «كيف عرف الملك، من دون آلاف الناس، أنه كان معي سمّ؟». قال سليمان: «إنَّ معي شيئاً أعزُّ عليَّ من كل ما أملك وكل ما في الخزائن جميعها لا يفارقني أبداً. إنهما خرزتان كالجزع[46]، لكنهما ليستا جزعاً حقيقياً، حصلت عليهما من خزائن

(٤٦) الجَزْع أو الجِزع (بفتح الجيم وكسرها): ضرب من الخرز، وقيل: هو الخرز اليماني الذي فيه بياض وسواد تشبه به العين، كما في قول امرئ القيس:

كأنّ عيون الوحش حول خبائنا　　　وأرحلنا الجزع الذي لم يثقّب

سمي جزعاً لأنه مجزع أي مقطع بألوان مختلفة، أي قطع سواده ببياضه. (اللسان – جزع).

الملوك، وهما مربوطتان في ذراعي دائماً. فإذا ما أوجستا رائحة السم في أي مكان، أو مع أي شخص، أو في الطعام والشراب، تتحركان فوراً وتتماسان، وتظلان في حركة واضطرام دون أن يقرّ لهما قرار. حينئذٍ أعلم أن ثمة سمّاً في المجلس، فأحتاط للأمر وأتأهب له. فلما تخطيت أنت عتبة بهو المجلس، شرعت الخرزتان في الحركة، وكان حركتهما تزداد حدّة وهيجاناً كلّما كنت تتقدّم إلى الأمام أكثر في المجلس. لمّا استقر بك المجلس أمامي، أخذتا تتماسا تماساً لم يدع لي مجالاً للشّك بأنك تحمل معك سمّاً. اعلم أنه لو كان أحد غيرك لما أبقيت على حياته. ولمّا أخرجوك، أخذت الخرزتان بالسُّكون، لكنهما لم تتوقفا إلا بعد خروجك من القصر». آنئذٍ كشف سليمان عن ذراعه وأراها جعفراً، وقال: «أرأيت في الدُّنيا شيئاً أعجب من هذا في حياتك؟». كان العظماء جميعهم ينظرون إلى الخرزتين في عجب. قال جعفر: «رأيت في حياتي شيئين عجيبين لم أر مثلهما قط: الأول هذا الذي أراه مع الملك، والآخر ما رأيته مع ملك طبرستان». فقال سليمان: «كيف كان ذلك؟ أسمعني». قال جعفر: «لما وصل إليّ والي بلخ أمر مولاي بإرسالي إلى دمشق، أذعنت للأمر، وتأهبت للرحلة وأعددت للطريق عدّتها، فتوجهت من نيسابور إلى طبرستان لبضاعة كانت لي هناك. لمّا وصلت إلى طبرستان استقبلني ملكها وأنزلني في قصره بمدينة آمل، وبعث إليّ القرى[٤٧]. كنا نلتقي يومياً في المجلس، وعلى الخوان، ونذهب إلى أمكنة مختلفة تنزهاً. وذات يوم قال لي في نشوة: «أتنزهت في البحر إلى الآن؟». قلت: «لا». قال: «أنت ضيفي في نزهة بحرية غداً». قلت: «سمعاً وطاعة». ثم أمر الملاحين بأن يعدوا السفن ويهيؤوها للغد.

في اليوم التالي، مضى بي الملك إلى ساحل البحر حيث ركبنا سفينة، والمطربون يعزفون ويغنُّون، والملاحون يقودون السفينة إلى أن مضوا بنا إلى لجة البحر، في حين كان السُّقاة يديرون ابنة الكرم دون انقطاع. وكنا – الملك وأنا- نجلس قريبين جداً إذ لم يكن بيننا أحد. لقد كان في إصبع الملك خاتم فصه من الياقوت الأحمر، وكان جميلاً إلى أبعد حدود الجمال، صافياً وملوناً، حتّى إنّني لم أر مثله في حياتي. ولقد جعلني جماله أديم النظر فيه.

لما رأى الملك أنّي أُديم النظر في الخاتم، نزعه من أصبعه ووضعه أمامي، فانحنيت احتراماً له، وقبلت الخاتم ووضعته أمام الملك من جديد. لكنه تناوله ووضعه أمامي مرة أخرى، وقال: «إنَّ خاتماً خرج من إصبعي هدية وعطاء لا يعود إليها». فقلت: «إن هذا الخاتم لا يليق إلا بالملك» ووضعته أمامه، غير أنه عاد فوضعه أمامي. ولأن الخاتم كان آية في الإبداع، وثميناً قلت: «إن من

---

(٤٧) القِرى (بكسر القاف): طعام الضيف.

يهب هذا الخاتم ثملاً، قد يندم على فعلته صاحياً، فيتنابه هم لذلك». ووضعت الخاتم أمام الملك أيضاً، فتناوله هذه المرة ورماه في البحر. فقلت آنذاك: «آه، وا أسفاه على الخاتم، لو كنت أعلم أن الملك لن يعيده إلى إصبعه حقاً، أو أنه سيلقي به في البحر لقبلته، لأنني لم أر ياقوتاً كهذا قط». قال الملك: «لقد وضعته أمامك مرات، ولما رأيتك تحدّق النّظر فيه كثيراً أخرجته من إصبعي ووهبتكه. وعلى الرغم مما كان للخاتم من جمال في نظري، فلولا أنه لم يكن في عينيك أجمل لما منحتكه. لقد كان الذّنب ذنبك لأنك لم تقبله. أما وقد قذفت به في البحر فقد ذهبت نفسك عليه حسرات! إلاّ أنّني سأفعل ما يعيده إليك من جديد». وقال لأحد غلمانه: «اذهب واستقل زورقاً إلى الشّاطئ، ثم امتط جواداً وامضِ إلى القصر مسرعاً، وقل للموكل بالخزانة[٤٨]: أريد الصندوق الفضي الصغير كذا. خذه، وهاته إليّ على وجه السُّرعة». وقبل أن يرسل الملك الغلام، قال للملاح: «أنزل مراسي السفينة، وأوقفها في مكانها إلى أن أخبرك بما يجب عمله». فنفّذ الملاح ما أمر به؛ أمّا نحن فأخذنا نشرب الخمر إلى أن عاد الغلام بالصّندوق الصغير الذي أُمر بإحضاره، ووضعه أمام الملك. حلّ الملك «هميانه»[٤٩]، واخرج منه مفتاحاً فضياً فتح به قفل الصندوق، ونزع غطاءه، ومدّ يده فيه فأخرج سمكة ذهبية وألقاها في البحر. غارت السمكة في الماء، وانحدرت إلى قعر البحر غائبة عن الأنظار. ما هي إلا مدّة قصيرة إذا بها تظهر على سطح الماء والخاتم في فمها، فأمر الملك أحد الملاّحين بأن يخف بزورق إلى حيث ظهرت. فمضى الملاّح والتقطها والخاتم في فمها، وأتى بها إلى الملك الذي نزع الخاتم من فمها وألقى به أمامي. فقبّلت الأرض بين يديه، وتناولت الخاتم ووضعته في إصبعي. وأعاد الملك تلك السمكة إلى الصُّندوق وقفله، ثم أعاد المفتاح إلى مكانه أيضاً».

***

وكان في إصبع جعفر آنذاك خاتم، فأخرجه ووضعه أمام سليمان بن عبد الملك، وقال: «يا مولاي، هذا هو الخاتم». فتناوله سليمان ونظر إليه ثم رده إلى جعفر، وقال :«يجب ألا يضيع تذكار رجل كذلك الرّجل».

***

ليس هدف الكتاب هذه الحكاية، لكنني ذكرتها لأنها حكاية عجيبة وغريبة ومناسبة للمقام. إنّ

---

(٤٨) في الفارسية خزينه دار.

(٤٩) الهميان (بكسر الهاء وسكون الميم) : يقال إنها من الألفاظ الفارسية المعربة. وهو الكيس تجعل فيه الدراهم ويشد على الحقو. ومن معانيه الأخرى: شداد السراويل، والتكة. (راجع: المعرّب من الكلام الأعجمي ٣٤٦ ومصادر المحقق، وفرهنگ واژه هاى فارسى درزبان عربى ٧٠٧ ومصادرة أيضاً).

هدفي من هذا الفصل هو أن أشير إلى أنه إذا ما بزغ فجر عهد مشرق خيِّر، ودال زمان الضعف والانحطاط، فإمارة ذلك ظهور ملك صالح سديد الرَّأي، يُطْمس في عهده، المفسدون، ويختار الوزير والعمال ومتصدو شؤون الدولة من الأصلاء والأخيار، ويوكل كل عمل إلى من هو أهل له، فلا يسند عملان إلى رجل واحد أو عمل واحد إلى رجلين، ويرفع ذوو المذاهب النقية الطاهرة، ويسام أصحاب المذاهب السيئة الخسف، ويضرب على أيدي الظالمين، وينشر الأمن على الطرقات، وتبث هيبة الملك في نفوس الجيش والرعية، ويحرم عديمو الفضل والأصل من أي عمل، ويُتصدى للأطفال(٥٠) ممن لا خبرة لهم ولا مراس ويكبح جماحهم، وتتدبر أمور الملك مع الكهول والشيوخ والحكماء، وتوكل قيادات الجيش إلى الكهول المجربين لا الشبان الناشئين، ويشرى الرجال لمواهبهم لا لأموالهم، ولا يباع الدين بالدنيا، وتعاد الأمور جميعاً إلى نصابها وقواعدها، وتكون منزلة كل شخص على قدره ومستواه. كل هذا لتستقيم الأمور الدينية والدنيوية، ويكون عمل كل شخص وفقاً لكفايته، أما إذا ما خرج أي أمر على هذه القاعدة وسار على خلافها، فإن الملك لا يسمح به، بل يعيد الأمور إلى نصابها بميزان العدل، ويقوِّمها بالسَّيف بتوفيق الله تعالى وحده.

---

(٥٠) لا يشكّ دارك معتمداً على «راحة الصدور ص ١٣٤» في أن نظام الملك يشير هنا إلى محمود بن ملكشاه من «تركان خاتون» ويعنيه، إذ كانت أمه تعمل على أن يكون -على صغره- ولياً للعهد، في حين كان هوى نظام الملك والسلطان نفسه مع «بركيارق» ابنه من «زبيدة خاتون». (تعليقات دارك ص ٣٤٢؛ ثم راجع أيضاً: راحة الصدور ص ١٣٤).

الفصل الثاني والأربعون

في النساء وحرم القصر، وحد المرؤوسين ومراتب قادة الجيش(١)

يجب عدم تمكين من هم تحت سلطة الملك وفي خدمته من أن يكون لهم نفوذ وقوة، لما ينجم عن هذا من إخلال عظيم يذهب بجلاله وأبهته وهيبته، وأخص من هؤلاء النساء. فهنّ محجّبات مستورات، ناقصات العقول، الغاية منهن الإنجاب لحفظ بقاء النسل. إن أفضل النساء وأجدرهن بالإيثار والقبول، أحسنهن نسباً، وأكثرهنّ لياقة وستراً وتقوى. وفي الوقت الذي تمتد فيه أيدي نساء الملك إلى السلطة ويتدخلن في شؤون الحكم، فإنّ دورهن لا يتعدى ما يوحي به إليهن ذوو المآرب والأطماع الخاصة، لأن ليس لهنّ القدرة، مثل الرجال، على استطلاع الأحوال في الخارج برأي العين. معظم أوامرهنّ تصدر بوحي من أقوال متصدري أكثر شؤونهن، من مثل الحاجبة والخادم. لا بد، والحال هذه، من أن تأتي أغلب أحكامهن وأوامرهن مغايرة للحقائق والوقائع؛ فينشأ الفساد، ويضار الملك في جلاله ووقاره وحرمته؛ ويسام الناس الأذى والخسف، ويتسرب الخلل إلى الدين والملك، وتصبح أموال الناس وثرواتهم عرضة للنهب والزوال، ويلحق الأذى والهوان بكبار رجال الدولة.

إنّه لم ينتج عن تسلّط زوج أي ملك عليه في أي عصر – على مرّ العصور– سوى الذلّ والعار والشر والفتنة والفساد. دعنا نذكر نماذج قليلة في هذا الموضوع، علّها تكشف عن كثير من الأمور وتجلوها.

(آدم والمرأة)

كان آدم عليه السلام أول رجل أطاع المرأة، فجرّ عليه ذلك الخسران والعذاب والمحنة. فلما

---

(١) يبدي دارك حيرته في عنوان هذا الفصل ويصفه بالغموض وأنه من المعميات، لورود عبارة «مراتب قادة الجيش» أو ما في معناها في جميع مخطوطات الكتاب سوى واحدة، وهو ما لا يناسب موضوع الفصل. (تعليقات دارك ص٢٤٢). وقد يكون هذا أيضاً سبباً في خلو عنوان هذا الفصل نفسه من العبارة المذكورة في نسخة عباس إقبال.

أطاع حواء وأكل «الحنطة»[٢] طرد من الجنة (السماء)، وظل يبكي مائتي[٣] سنة إلى أن عفا الله تعالى عنه، وقبل توبته.

قصة سياوش[٤]

كانت «سوذابة»[٥] امرأة كيكاوس[٦] مهيمنة عليه. فلما بعث كيكاوس رسولاً إلى رستم[٧] يطلب إليه ابنه سياوش الذي كان رستم قد ربَّاه وتعهده حتى سن الرجولة، وقال: «أرسله إليّ، فإني في لهفة وشوق إلى لقائه». أرسل رستم سياوش إلى أبيه.

لقد كان سياوش وسيماً جداً. فلما رأته سوذابة من وراء الحجاب فتنت به، وقالت لكيكاوس: «مر سياوش أن يأتي إلى دار الحريم لتراه أخواته». فقال له كيكاوس: «اذهب إلى دار النساء فأخواتك يرغبن في رؤيتك». قال سياوش: «سمعاً وطاعة، لكن من الأفضل أن يبقين في مكانهن، وأبقى أنا في الإيوان». ولما ذهب إلى هناك، ألقت سوذابة، بنفسها عليه، وضمته إليها راغبة فيه. فغضب سياوش، وخلّص نفسه من بين يديها، وخرج من دار الحريم، وعاد إلى مكانه. فخشيت سوذابة أن يخبر سياوش أباه بالموضوع، وقالت في نفسها: «من الأفضل أن أسبقه إلى ذلك». فمضت إلى كيكاوس، وقالت: «لقد هجم عليّ سياوش وتعلق بي راغباً فيّ، لكنني أفلت من يده». وامتلأ قلب كيكاوس على سياوش، ووصل الخوض والخطورة في الموضوع حداً قيل فيه لسياوش: «يجب أن تخترق النار ليرضى عنك الملك». قال سياوش: «الأمر ما يراه الملك، فإنني طوع أمره ورهن إشارته».

---

(٢) هذا هو المشهور في التراث الفارسي. وفي القرآن الكريم أن آدم وحواء نُهيا عن الاقتراب من «الشَّجرة». يقول تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: آية ٣٣؛ وانظر: الآيات ١٨-٢١ من سورة الأعراف أيضاً). واختلف في هذه الشجرة، فقيل هي شجرة المحنة، وشجرة الكافور، وشجرة العلم- علم الخير والشر-، وقيل السنبلة، والحنطة، وغير ذلك. (راجع: الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ١٩، والسيوطي: نزهة المجالس، ص ١٢).

(٣) في روايات أخرى: ثلاثمائة سنة (قصص الأنبياء ص ٢٣).

(٤) هو سياوش بن كيكاوس أحد ملوك الكيانيين. ومعنى سياوش بالفارسية: صاحب الجواد الأسود. (فرهنگ فارسي). وعرّب في الترجمة العربية للشاهنامة: «سياوخش».

(٥) سوذابة (بالذال المعجمة). معرب «سودابة» (بالدال المهملة).

(٦) يقال إن معرب كيكاوس: قيقاوس أيضاً (فرهنگ فارسي).

(٧) رستم أو رستهم أو روستم بالفارسية: القوي البنية، الضخم. وهو رستم بن زال. بطل إيراني معروف كان له قدرة فوق قدرة البشر. خدم ثلاثة من ملوك الكيانيين: كيقباد، وكيكاوس، وكيخسرو. (فرهنگ فارسي).

كُوِّم الحطب في الصحراء على مساحة ربع فرسخ مربع(٨)، ثم أشعلت فيه النيران. ولما تصاعد لهيبها، صعد كيكاوس إلى رأس جبل هناك، وقال لسياوش: «اخترق النار»(٩) فذكر سياوش، الذي كان يمتطي صهوة فرسه «شبرنج»(١٠)، اسم ربه، ثم وثب به في النار، وغاب عن الأنظار. وبعد مدّة، خرج من النار سالماً، دون أن تمسَّ حتى شعرة واحدة فيه أو في جواده بأذى، بمشيئة الله عزَّ وجلّ، فعجب جميع من كانوا هناك لذلك. وقبس الموبذون من تلك النار قبساً، ومضوا به إلى المعبد، وما زالت تلك النار مشتعلة في مكانها، لأنّها قضت بالحق.

بعد هذا الحكم، ولّى كيكاوس سياوش أميراً على بلخ، وأرسله إليها، لكنه كان بسبب سوذابة ممتلئ الفؤاد على والده، فكان يقضي حياته بألم وعذاب. لقد أضمر في نفسه ألا يبقى في ولاية إيران، وراح يفكّر في أن يصير إلى الهند أو الصين والصين الأقصى. لكن «بيران ويسه»(١١) وزير «أفراسياب»(١٢)، وقائد جيشه، تمكن من معرفة السّر الذي كان يراود نفس سياوش، فعرض نفسه عليه، وشرع يطوي أفراسياب ويثني على جميل خصاله أمام سياوش، ويلتمس إليه، حتى قبل سياوش عرضه ورحّب به، ودخل في عهد معه. ثم قال له بيران ويسه: «البيت واحد، والنجاد واحد. إن أفراسياب يعزّك ويقدّرك أكثر من أبنائه. فأنّى أردت أن تعيد حبل المودة بينك وبين أبيك، يتدخل في الأمر، ويأخذ على كيكاوس عهداً وثيقاً، فتُرسل حينئذٍ إلى أبيك بألف إعزاز وإكرام».

وتحول سياوش من بلخ إلى تركستان، فزوجه أفراسياب ابنته(١٣)، وكان يكرمه ويعامله أحسن من بنيه وأكثر، مما أثار حفيظة «جرسيوز»(١٤) أخي أفراسياب وحسده عليه، فانضم إليه الوشاة وقالة

---

(٨) أي تسعة كيلومترات مربعة.

(٩) أورد الفردوسي في الشاهنامة قصة سياوش وسوذابة مفصلة (البيت ٥٠٢ وما بعده. ثم راجعها في الترجمة العربية ١: ١٥٥-١٦١).

(١٠) معرب: شبرنگ أي الأدهم. والكلمة الفارسية مؤلفة من كلمتين: «شب» أي الليل، و«رنگ» أي اللون.

(١١) بيران معرّب: پيران. عرف بيران ويسه بالتعقل والحكمة. كان وزير أفراسياب ومستشاره وقائد جيشه الأعلى. وهو من أبرز شخصيات الشاهنامة. (فرهنگ فارسي؛ وتعليقات شعار ص ٤٢٤).

(١٢) أفراسياب: ملك مشهور من ملوك الترك التورانيين. كان معاصراً لملوك الكيانيين. حارب الإيرانيين مدة طويلة، لكنه أسر وقتل في عهد كيخسرو. (فرهنگ فارسي). ومعنى أفراسياب «جناح الطاحونة» (مفاتيح العلوم ٦٣).

(١٣) كان اسمها فرنكيز (معرب فرنگيس). لما قتل زوجها سياوش، كانت حاملاً، فأراد خصومه إسقاط الجنين، لكن پيران ويسه حال دون ذلك (فرهنگ فارسي).

(١٤) معرب: كرسيوز، وقد عربت في الشاهنامة إلى «كرسيوز».

السوء، واختلقوا الحيل والدسائس إلى أن ألّبوا أفراسياب عليه، فقُتل مظلوماً بتركستان. وعمّ إيران العويل لمقتله، وهاج المحاربون وتأهبوا للقتال، وجاء رستم من سجستان إلى العاصمة ومضى إلى دار حريم كيكاوس دونما استئذان، وجرّ سوذابة من ناصيتها إلى الباب وقطّعها بالسّيف إرْباً إرْباً، ولم يجرؤ أحد على أن يقول له: خيراً فعلت أو شراً. ثم شمّر القوم للحرب، ومضوا إلى تركستان انتقاماً لسياوش وطلباً بثأره. ودارت رحى الحرب عدة سنوات، ذهب ضحيتها بضعة آلاف من الجانبين. وكانت سوذابة سبب هذا كله، لأنها كانت مهيمنة على الملك.

* * *

لقد اختط الملوك، وأولو العزم من الرجال لأنفسهم طرقاً، وعاشوا حياة لم يكن للنساء أو وصيفاتهن فيها أدنى علم بأسرارهم، وقضوا حياتهم في منأى عن قيودهن وأهوائهن وأوامرهنّ، ولم يقعوا تحت ربقة نيرهن قط، وهكذا فعل الإسكندر.

الإسكندر ودارا

يحدثنا التاريخ أنه لما قدم الإسكندر من بلاد الروم، وهزم دارا بن دارا ملك العجم، الذي قتله أحد خدمه في أثناء هزيمته، وأنه كانت لدارا ابنة جميلة جداً، في غاية الكمال والجمال، كذلك كانت أختها وبضع فتيات أخر كنّ في حماه وحرمه. يحدثنا أنه قيل للإسكندر: «إنه لمن المناسب أن تمر من أمام دار نساء دارا وترى الأقمار وملائك الحسن، لا سيّما ابنة دارا التي لا نظير لها حسناً وجمالاً». لقد كان هدف أصحاب هذا الكلام أن الإسكندر حين يرى ابنة دارا متقبة بجمالها، سيتزوجها ولا شك. غير أن الإسكندر أجابهم: «يجب ألا تهزمنا نساؤهم بعد أن هزمْنا رجالهن». فلم يستجب لهم، ولم يذهب إلى دار حريم دارا.

(خسرو وشيرين[١٥] وفرهاد[١٦])

أما قصة (كسرى) وشيرين وفرهاد، فمعروفة، إذ أحبّ (كسرى) شيرين حباً قلدها فيه زمام أمره وأطلق لهواها العنان، فكان ينفذ ما تقول. لا جرم إذاً في أنها تجاسرت، ومالت إلى فرهاد مع أنها كانت زوج كسرى الملك.

---

(١٥) الشائع في المصادر العربية تعريب «خسرو» بـ «كسرى» لكنني احتفظت بالأصل الفارسي لشهرة قصة «خسرو وشيرين». وشيرين هي معشوقة كسرى أبرويز وزوجه أيضاً (فرهنگ فارسي). وقد نظم قصة خسرو وشيرين شعراً الشاعر نظام الگنجوي، ثم قلده الشاعر أمير خسرو الدهلوي.

(١٦) فرهاد: حجّار ونقاش معروف، كان معاصراً لكسرى أبرويز ومنافسه في حب شيرين (فرهنگ فارسي).

(أقوال في الموضوع)

سئل بزرجمهر: (ما السبب الذي كان وراء انهيار ملك آل ساسان في حين مقاليد أمرهم كانت بيدك، وأنه لا نظير لك اليوم في العالم كله رأياً وتدبيراً وحكمة وعلماً؟). فقال: «كان سبب ذلك شيئين: أحدهما، أنهم قلَّدوا الأعمال العظيمة المهمّة للصغار الناشئين: والآخر أنهم كانوا خصوماً للعلم وأهله.

يجب أن يشرى العظماء والعقلاء ويقلدوا جلائل الأعمال. لقد كان عملي مع النساء والأطفال. وهذان الصنفان لا عقل لهما ولا علم. وليعلم أنه متى أنيطت شؤون أية مملكة بالنساء والأطفال، فإن الملك سيزول عن تلك الأسرة».

ويقول النبي (ﷺ): «شاوروهنَّ وخالفوهنَّ». فلو كنَّ تامات العقول لما حضَّ الرَّسول عليه السَّلام على العمل بخلاف رأيهنَّ.

رأي النساء وعلمهنَّ

ورد في الأخبار أنه لما اشتدّت وطأة المرض على النبي (ﷺ) في آخر العهد، ووصل به الضعف إلى حدٍّ أنه لما حان وقت صلاة الفرض، والصحابة بانتظاره في المسجد لأدائها جماعة، لم تسعفه طاقته على الذهاب. وكانت عائشة وحفصة – رضي الله عنهما- تجلسان آنذاك عن جانبي الرسول عليه السلام، فقالت له عائشة: «يا رسول الله، هذا أوان الصَّلاة، ولا طاقة لك على الذَّهاب إلى المسجد. فمن تأمر من الصحابة بأن يصلي بالناس؟». قال: «أبو بكر». فقالت مرّة ثانية: «من تندب للصلاة بالنَّاس؟» قال: «أبو بكر». فقالت الثالثة: «من تأمر بأن يصلي بالنَّاس؟» قال: «أبو بكر». وانقضت برهة، ثم قالت عائشة لحفصة بصوت خفيض :«لقد قلت ثلاث مرات. فقولي له أنت مرّة واحدة. إنَّ أمير المؤمنين أبا بكر رجل رقيق القلب وهو يحبك حباً جمًّا، فحين يرى مكانك في المحراب خالياً يغلبه البكاء ولا يستطيع أن يتمالك نفسه، فتبطل الصلاة عليه وعلى الناس. لكن عمر رجل صلب قوي القلب، فمره أن يصلي بالناس». فلمّا كلَّمت حفصة الرسول، عليه السلام، بهذا النحو، قال(ﷺ): «مثلكن مثل يوسف وكرسف. لن آمر من تريدان بأن يصلي بالناس، بل آمر بما فيه الصواب والصّلاح. قولا لأبي بكر أن يتقدم ويصلي بالناس الجماعة».

ومتن الخبر[١٧]: «أنتن صواحبات يوسف وكرسف». لقد أمر الرسول عليه السلام بخلاف ما أرادت عائشة على جلالها وعلمها وزهدها وتقواها، فما ظنّك برأي النساء الأخريات وعلمهن؟!!

(١٧) حذف الدكتور شعار هذا الخبر وتعليق المؤلف عليه لعدم مناسبته – في رأيه- لشأن النساء (حاشية ٤ ص ٢٨٣) فترجمته عن نسخة دارك (ص ٢٤٧).

قصة يوسف وكرسف

يقال : كان على عهد بني إسرائيل ما ينص على أن كل من عصم نفسه عن ارتكاب الكبائر أربعين سنة، وصام، وأدى الصلوات في أوقاتها، ولم يؤذ أحداً، تُقضى له من لدن الله، عزّ وجلّ، ثلاث حاجات، يجاب فيها لأي شيء يطلبه.

وكان في ذلك العهد رجل تقي خيّر من بني إسرائيل اسمه يوسف، وكانت له زوج مثله تقية مستورة اسمها كرسف. فكّر يوسف هذا الذي سلخ أربعين سنة من عمره على وتيرة واحدة في طاعة الله وعبادته، وقال في نفسه مرّة: «والآن، ما الشيء الذي أسأله الله عزّ وجلّ: عليّ أن أتدبّر الأمر مع شخص آخر ليكون ما أطلبه على أحسن ما يرام». وأجال فكره، غير أنه لم يهتدِ للشّخص المناسب. ولما دخل بيته، ووقعت عيناه على زوجه، قال في نفسه: «ليس أحب إليّ في الدنيا كلها من زوجي، فهي نصفي الآخر وأم أولادي. خيري خيرها، وهي أحب لي من الخلق جميعاً. إنّه لصواب أن أفضي إليها بالأمر لتدبيره معاً». ثم قال لامرأته: «اعلمي أنني سلخت أربعين سنة من عمري في الطّاعة، تقضى لي بها أي ثلاث حاجات أطلبها. وليس في العالم أجمع من هو أحب خيراً لي منك، فماذا تقولين؟ ماذا أطلب إلى الله عزّ وجلّ؟». قالت المرأة: «إنّك تعلم بأن ليس لي في هذه الدنيا سواك، وأنك قرّة عيني. إنّ النساء نزهة الرجال ومغناهم، فلكي ينشرح قلبك لرؤيتي دائماً، وتعيش سعيداً معي دائماً، اسأل الله تعالى أن يهبني أنا زوجك جمالاً لم يهبه أية امرأة أخرى، حتى إذا ما رأيتني، كلّما دخلت عليّ، بذاك الحسن والجمال، يغتبط قلبك، ونعيش سعداء مرحين ما حيينا».

أعجب الرجل كلام امرأته، فدعا الله وقال:«يا ربّ، هب امرأتي هذه حسناً وجمالاً لمّا تهبه امرأة غيرها». فاستجاب الله تعالى دعاء يوسف، وأصبحت امرأته في اليوم التالي غير تلك التي باتت ليلة أمس، إذ غدت بصورة لم ير الناس لها مثيلاً قط.

لما رآها يوسف على هذه الصورة من الجمال، أصابه ذهول وحيرة وكاد يخرج من جلده(١٨) فرحاً. وأخذت المرأة تزداد جمالاً وحسناً يوماً بعد يوم. لقد بلغ حسنها في أسبوع واحد حداً بهرت فيه الناظرين، إذ لم يستطع أي ناظر إليها أن يديم فيها النظر. لقد كانت أحسن ألف مرة من الشمس والقمر، وأجمل من الحور والملائك وألطف. وشاع خبر جمالها في العالم، فأخذت النساء تفد من المدن والأرياف والأماكن النائية لرؤيتها، وتتناقل أخبارها في تعجب شديد.

---

(١٨) أصل المثل الفارسي: «از شادي در پوست نمي گنجيد».

وذات يوم، نظرت المرأة إلى نفسها في المرآة ورأت ما هي عليه من جمال تام، وراحت تسرّح النظر في تصوير وجهها وشعرها وشفتيها وأسنانها وعينيها وحاجبيها، فانتابها عجب وكبرياء، فطغت عليها نوبة من غرور، وقالت: «أنى بمثلي اليوم في العالم كله، ومن ذا الذي له ما لي من حسن وجمال؟ ماذا ينقصني حتى أكون لهذا الرجل الذي لا يأكل سوى خبز الشعير- حتى هذا الخبز لا يشبع منه شبعاً كاملاً-، والذي لا يلوي من نعم الدنيا على شي، بل يقضي العمر في شغف وضنك؟! إنني بملوك الأرض وأكاسرتها[١٩] أليق، فهم سيأخذونني مزينة بالذّهب، إذا ما رأوني!

ودبّ الهوس في نفس المرأة، وأخذت تعلب برأسها التمنيات، فشرعت في العناد والعصيان واللّجاجة، والمشاجرة والنزاع، وسقط الكلام، وبذيئه وسوء التصرف، وجعلت تردد على مسامع زوجها في كل آن: «أنى لي أن أكون لك وأنت لا تجد ما يشبعك من خبز الشّعير؟!».

لقد كان لها من يوسف ثلاثة أو أربعة أطفال، عزفت عن الاعتناء بهم وانصرفت عن غسلهم وإطعامهم وتنويمهم. ووصل عدم التوافق والتفاهم بينهما حداً خيّم فيه الضّجر والملل على يوسف، وأضحى حيران عاجزاً جداً لا حول له ولا قوة. لكنه اتجه صوب السّماء، وقال: «يا رب، صيّر هذه المرأة دبة». فاستجاب الله سبحانه وتعالى له، وصيّرها دبة في الحال نكالاً بها. ولم يعد لها من شغل يومي- والماء يسيل من عينيها- سوى الطواف حول البيت، وعدم الابتعاد عنه. أما يوسف، فقد أضنته تربية الأطفال الصغار والعناية بهم، وغسلهم وإطعامهم وتنويمهم، وتخلف في طاعة الله عزّ وجلّ، وعبادته إياه فلم يعد يؤدي حتى الصلاة في أوقاتها. وأعيته الحيلة والعجز فاتجه إلى السّماء مضطراً، ورفع يديه، وقال: «يا ربّ، أعد هذه الدبة امرأة كما كانت، وألهمها الهداية بأن تعتني بتربية هؤلاء الأطفال الصّغار، وتهتم بهم كما كانت عليه من قبل، كي يتسنى لي أن أتفرغ لعبادتك ربي الكريم من جديد». وفي الحال، أعيدت الدبة امرأة كما كانت، فانصرفت إلى الاهتمام بأطفالها، والاعتناء بهم، ولم تتذكر هذه الحال قط وخيّل إليها أن ما حدث لم يكن سوى رؤيا رأتها في منامها. أما عبادة يوسف أربعين سنة فذهبت هباءً منثوراً، وحبطت بهوى المرأة وتدبيرها. وغدت هذه الحكاية مثلاً في العالم، لئلا يطيع أحد أمراً لامرأة بعدُ.

(رأي للمأمون في الموضوع)

قال الخليفة المأمون يوماً: «لا كان ملكاً، من يأذن للنساء في أن تتحدث معه في شؤون المملكة

---

(١٩) أكاسرة: جمع كسرى، معرّب «خسرو».

والجيش والخزانة والسياسة والتدخل فيها، أو أن يحمين أحداً. فإذا ما أتيح لهن المجال، وأصغى الملك إليهن فرقّى شخصاً وعاقب آخر، وولّى رجلاً عملاً وعزل آخر، فلا مندوحة من أن ينهال الناس على بابهن مرّة واحدة، ويرفعوا إليهن حاجاتهم ومطالبهم لإمكان قضائها وتلبيتها لديهن بسرعة.

فحين يرين رغبة النّاس فيهن، ويشاهدن جموعاً من الجيش والرعية في القصر، يندفعن في تحقيق الأماني الباطلة، ويتعهدن تدبر الأهواء الفاسدة، فيجد الأشرار وذوو المذاهب الخبيثة طريقهم إليهن بسرعة بحيث لا يطول الأمد على زوال حرمة الملك وجلاله، وعلى اندثار رونق البلاط والديوان وحرمتهما، فيتلاشى قدر الملك وعظمته. حينئذٍ ينهال عليه اللوم من الأطراف، وتضطرب أمور المملكة، ويفقد الوزير سيطرته وهيبته، ويُنال الجيش في كرامته.

* * *

ما الحيلة إذاً للنجاة من هذا الغمّ كله؟ على الملك أن ينحو ما تعارف عليه الناس، وما سلكه الملوك العظماء أولو الرأي السديد من قبل. فالله، عزّ وجلّ، يقول: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[٢٠]. فلو كانت لهن القدرة على القيام بشؤون أنفسهن لما وكل الله أمرهن إلى الرجال. إن كل من يجعل النساء قيّمات على الرجال يتحمّل وحده جرم أي خطأ وانحراف، لأنه هو الذي سمح بذلك وتخطى العادة المتبعة.

(أقوال أخرى في الموضوع)

قال كيخسرو: «من أراد من الملوك إبقاء الملك في أسرته، وصيانة مملكته من الدمار والخراب، والحفاظ على حرمته وعظمته من الاندثار من على وجه المعمور، فعليه ألا يفسح المجال لنسائه أو يسمح لهن بالتدخل في شؤون غير من هم تحت إشرافهن وخدمتهن وألا يصدرن أمراً لغير وكلائهن وعمالهن ومتولي إقطاعاتهن. بهذا يحافظ على العادة القديمة ويريح فكره مما قد ينتابه».

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «كلام النساء عورة مثلهن، فكما يجب ألا يظهرن على الملأ، يجب ألا يذاع حديثهن في الملأ أيضاً».

* * *

(٢٠) النساء، آية ٣٤.

هذا القدر الذي ذكرت في الموضوع كافٍ، وسيتجلى بوضوح في موارد كثيرة أخرى، فيعرف حينئذٍ أن السداد والنفع فيما قلت.

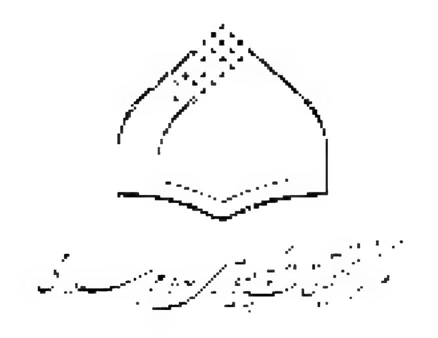
في المرؤوسين

خلق الله، عزّ وجلّ، الملك لتكون له القدرة والرفعة والعظمة على سائر الناس، ويكون الخلق تحت إمرته ورعايته، يؤمّن لهم سبل عيشهم، ويقودهم إلى ما فيه رفعتهم وعظمتهم. على الملك أن يصرف الخلق ويجعلهم في وضع يعرفون فيه حدود أنفسهم وأقدارهم دائماً، فلا يمكنهم من إلقاء حلق الانقياد من آذانهم، وشق عصا الطاعة. وعليه أن يبصرهم بعيوبهم ومحاسنهم بين الحين والحين، لئلا يذهلوا من أنفسهم، وألا يطيل لهم القياد يفعلون ما يشاؤون. يجب أن يعرف قدر كل منهم ومكانته، وأن يكون على دراية بأحواله والتثبّت منها باستمرار، لكي لا تزل عن صراط الطاعة أقدامهم، وكي يؤدّوا ما يؤمرون به حسب.

مثال هذا ما قال بزرجمهر بن البختكان[٢٠] لأنوشروان العادل يوماً: «إن الولاية للملك، والملك هو الذي يضع زمام أمور الولاية بيد الجيش لا بيد الرعية. غير أنه لا حبّ للولاية في نفوس الجيش وليس لهم شفقة على أهلها أو رحمة، لا همّ لهم سوى جمع الأموال وكنزها، غير مبالين بدمار الولاية وفقر ناسها وإملاقهم. حين يكون للجيش القدرة على أن يعيث في البلاد فيعذب ويقتل ويكبل ويسجن ويغصب ويجبي ويعزل ويولي من يشاء، فأي فَرْقٍ يبقى ثمة بين الملك وبينهم؟ إن زمام كل هذه الأمور لم يكن إلاّ بيد الملوك لا بيد الجيش، فهم لم يقبلوا قط أن تكون للجيش مثل هذه السلطة والقدرة. إن تيجان الذهب، وركائب الذهب، والسرر، وضرب السكة لم تكن لغير الملوك في كل الأعصار». ثم قال: «إذا ما أراد الملك أن يفاخر الملوك، ويكون له الفضل عليهم أجمعين، فليهذّب أخلاقه ويصقلها». قال أنوشروان: «أنّى لي ذلك؟»، فقال بزرجمهر: «خلّص نفسك من الخصال السيئة، وتمسّك بالحسنة واعمل بها». قال أنوشروان: «وما الخصال السّيئة؟»، قال بزرجمهر: «الخصال السيئة هي: الحقد، والحسد، والتكبر، والغضب، والشّهوة، والحرص، وطول الأمل وبُعْده، واللجاجة، والكذب، والبخل، والخلق السيء، والظلم، والأنانية، والتّسرع، وكفران النّعمة والعقوق، والخفة والطيش. أما الخصال الحميدة فهي: الحياء، وحسن الخلق، والحلم والعفو،

(٢٠) بزرجمهر معرب بزرگمهر. يقال إنه كان وزير أنوشروان العادل. ينسب إليه كتاب «پندنامه بزرگمهر بختكان»، «كتاب نصيحة بزرجمهر بن البختكان» باللغة البهلوية. (فرهنگ فارسي).

والتواضع، والسَّخاء، والصدق ، والصَّبر، والشُّكر، والرَّحمة، والعلم، والعقل، والعدل. إن من يتحلى بالخصال الحسنة ويطبقها، يستطيع أن يسيِّر الأمور جميعها دون حاجة لأي مستشار أو مدبّر يرجع إليه في من هم تحت يده، وفي شؤون المملكة».



الفصل الثالث والأربعون

في عرض أحوال ذوي المذاهب الخبيثة
أعداء الملك والإسلام

وددت أن أكتب بضعة فصول في خروج الخارجين ليعلم العالم أجمع مدى إشفاقي على هذه الدولة، وشدة هواي وميلي لملك آل سلجوق، لا سيّما لمولاي[١]، خلّد الله ملكه، وأبنائه وأسرته، جنّب الله عهده شر الحسد والعين.

لم يخل عصر من الخارجين ممن خرجوا في كل مكان في العالم على الملوك والأنبياء، عليهم السلام، منذ عهد آدم، عليه السلام، إلى يومنا هذا. وليس ثمة فرقة أكثر شؤماً وتخريباً وسوءاً من هؤلاء القوم[٢] لأنهم يبيّتون الشّر لهذه المملكة من وراء حجاب، ويسعون إلى إفساد الدين. كلُّهم آذان صاغية تنتظر نداء القيام على الدولة، وأعين ساهرة تترقّب إشارة الخروج عليها.

وإذا ما نزلت - والعياذ بالله - بهذه الدولة القاهرة نازلة سماوية، فإن هؤلاء الكلاب يظهرون من أوكارهم ومعاقلهم، ويخرجون على دولتنا بدعوى التشيّع، مستمدّين أكثر قوتهم ومددهم من الرافضة والخرمية[٣]، ولن يألوا جهداً في بث الشّر، والفساد، والقتل، والبدع. إنهم يدّعون الإسلام في الظاهر، لكنهم ينهجون نهج الكفار في الباطن. باطنهم خلاف ظاهرهم، وقولهم عكس عملهم. وليس ثمة من هو ألدّ عداوة لدين محمد عليه السلام، أو أكثر شؤماً وويلاً على ملك مولانا منهم في الدولة اليوم، ممن يتسنمون المقامات الرّفيعة[٤] ولهم فيها هالة، من يَطلُّون برؤوسهم من أقبية الشيعة وليسوا منهم، بل هم في حقيقة أمرهم من هؤلاء القوم (الإسماعيلية) يدبّرون شؤونهم سرّاً،

(١) أي ملكشاه السلجوقي.

(٢) المقصود بهؤلاء القوم فرقة الإسماعيلية الذين كان أكثرهم يستوطن القلاع، فسموا «أهل القلاع». (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ٣٣٥).

(٣) هم البابكية أصحاب بابك الخرمي، ويقال لهم المحمّرة أيضاً فيما سيجيء.

(٤) يعرّض نظام الملك هنا بمعارضيه من وزراء ملكشاه الذين لم يكن مذهبهم مذهبه، من مثل: مجد الملك القمي الذي كان شيعياً، وتاج الملك الشيرازي الذي عرف بميله إلى الإسماعيلية. (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ٢٣٦).

ويدعمونهم، ويدعون لهم، في حين أنَّهم يغرون سيد الدنيا ويخدعونه بأنهم يعملون على الإطاحة بخلافة العباسيين. إن أكشف عن القدر غطاءها[٥]، تبن فضائحهم وأعمالهم الشائنة للعيان، لكنني بما تظاهروا به لمولاي – خلّد الله ملكه– وزعموا– حتى ملّني، لا أخوض في هذا الموضوع. هذا سبب، وسبب آخر هو كثرة التوفيرات التي يتظاهرون بها حتى جعلوا مولاي حريصاً على المال يتكالب عليه، وأظهروني صاحب غرض ومآرب. إنَّ نصيحتي في هذه الحال لا تلقى قبولاً، ولا تجدي فتيلاً.

سيتضح للملك في اليوم الذي أتنحى فيه جانباً فسادهم ومكرهم وسوء فعلهم، ويعلم أيضاً مدى ما كان لي من شفقه وهوى وميل في دولته القاهرة، وأنني لم أكن بغافل عن أحوال هذه الطائفة وما كان يدور في خلدها، بل لقد كنت أعرضها على الأعتاب السامية دائماً، ولم أتركها تفوته وتخفى عليه. لكنني لما رأيت أنَّ أقوالي لم تكن تلقى لديه قبولاً، ولم يصدِّقها، عزفت عن تكريرها.

لكنِّي أدرجت في خروج هؤلاء القوم خاصة باباً موجزاً في كتاب «السِّير»[٦] هذا، يشتمل على أهم ما يتعلق بهم من مثل: من هم الباطنية؟ وما مذهبهم واعتقادهم؟، أين ظهروا بادئ ذي بدء، كم مرّة خرجوا، وعلى يد من قهروا وهزموا في كل مرة؟. فما هذا إلا تذكرة لأرباب الملك وحماة الدين

لقد خرج هؤلاء القوم الملاعين في أرض الشام واليمن والأندلس، وعاثوا فيها قتلاً، لكنني لا أتطرق إلا إلى ما كان من أمرهم في ديار العجم، على سبيل الاختصار. ومن يشأ أن يقف على جميع أحوالهم، وعلى المفاسد التي ابتدعوها في الملك ودين محمد المصطفى عليه السلام، فليقرأ كتب التاريخ عن بكرة أبيها، لا سيّما «تاريخ أصفهان»[٧]. سأذكر جزءاً من مائة فقط مما فعلوه في أرض العجم التي تشكل اليوم القسم الرئيسي من ملك مولانا مولى العالم ليكون على علم بأمرهم من بدايته إلى نهايته.

---

(٥) في الفارسية: «اكر بنده نهنين از سر آن ديگ بردارد» معنى هذا مجازياً: «إن أكشف القناع عن أسرارهم».

(٦) هذه هي الإشارة الوحيدة المختصرة إلى اسم الكتاب «سير الملوك».

(٧) أكبر الظن أنه يريد كتاب حمزة بن الحسن الأصفهاني الذي ذكره ابن النديم باسم «كتاب أصفهان وأخبارها». (الفهرست ١٥٤ طبعة تجدد. طهران ١٩٧١). وذكره الإمام أبو نعيم الأصفهاني وياقوت الحموي باسم «كتاب أصفهان». (راجع : كتاب ذكر أخبار أصفهان لأبي نعيم ١ : ٣٠٠ طبعة ليدن ١٩٣١م؛ ومعجم الأدباء ٨ : ١٤٠ – ترجمة لغدة الأصفهاني–).

وذكر بروكلمان الكتاب باسم «تاريخ أصفهان». (تاريخ الأدب العربي ٣: ٦١ الترجمة العربية– دار المعارف بمصر ١٩٦٢م).(يراجع لمزيد من الاطلاع على هذا الكتاب الذي لما يصل إلينا مقال: «حمزة بن الحسن الأصفهاني» ومصادره للدكتور حسين علي محفوظ. مجلة سومر العراقية. المجلد التاسع عشر. الجزء الأول والثاني ص ٦٣– ٩٥ بغداد ١٩٦٣م).

الفصل الرابع والأربعون

في خروج مزدك، وماهية مذهبه، وكيفية قضاء أنوشروان العادل عليه وعلى أتباعه[١]

أول من جاء بمذهب المعطّلة[٢] في العالم كله رجل ظهر على أرض العجم في عهد الملك قباذ[٣] ابن فيروز، لقبه موبذ الموبذين[٤]، واسمه مزدك بن بامدادان. وقد عزم أنوشروان العادل على أن يردم مذهب المجوسية على رؤوس أصحابه ويقضي عليهم، ثم ينشر مذهباً جديداً في العالم. كان سبب ظهور مزدك أنه كان ذا معرفة جيدة بعلم النجوم، فقد كان يستدل من مسيرها بأن شخصاً سيظهر في هذا الزمان بدين يبطل الدين الزرداشتي واليهودي والمسيحي، وعبادة الأوثان، ويفرضه على رقاب الناس بالمعجزات والقوة، ويظل قائماً إلى يوم الدين. فوقع في روعه أنه هو المقصود بهذا ولا أحد سواه.

شرع مزدك يفكر في الطريقة التي يدعو بها الناس، ويبحث عن سبل جديدة لذلك. لقد تأمل الأمر من جميع جوانبه، فوجد أن له في مجلس الملك حرمة واحتراماً تامَّين، وأنه مسموع الكلمة لدى كل رجالات الدولة وزعمائها، وله منزلة رفيعة جداً، وأنهم لم يسمعوا منه شيئاً محالاً قط قبل أن يدّعي النبوة.

بعد أن تدبَّر مزدك هذا، أمر خدمه بأن يشرعوا بحفر نفق يبدأ من نقطة ما إلى أن ينتهي تدريجياً ببيت النار على أن ينفذ الشق من وسط النّار نفسها. بذا أوجد ثقباً صغيراً ينفذ من خلال المعبد، عند

---

(١) ذهب عباس إقبال إلى أن أغلب روايات هذا الفصل أسطورية وبعيدة عن الواقع التاريخي، وأن أكثرها تهم ألصقها مخالفو مزدك به وبأصحابه. (حاشية ٢ ص ٢٣٨).

(٢) المعطلة: الذين لا يثبتون الباري عزّ وجلّ (مفاتيح العلوم ص ٢٥).

(٣) قباذ (بالذال المعجمة): معرب قباد (بالدال المهملة) مثل أستاذ (بالذال المعجمة) معرب أستاد (بالدال المهملة الفارسية.(انظر مفاتيح العلوم ٢٥؛ ومعرب الجواليقي ٢٦٥).

(٤) واستعملت : «الموبذة» أيضاً.

المكان الذي كانت تشعل منه النار تماماً. ولمّا فرغ من إنشاء النفق، ادّعى النّبوة، وقال: «إنما بعثت لأبعث دين زرادشت من جديد. فقد نسي الناس معنى «الزند»(٥) و«الأوستا»(٦)، وهم لا ينفّذون أوامر الله كما أتى بها زرادشت، شأنهم في هذا شأن طائفة من بني إسرائيل أقلعوا عما جاء به موسى عليه السلام، من أوامر الله- عزّ وجل- ونواهيه في التوراة، فأرسل الله عزّ وجل نبياً بحكم التوراة أيضاً(٧)، ليزيل الخلاف بين بني إسرائيل، ويعيد حكم التوراة من جديد، ويهدي الخلق إلى صراط مستقيم. والآن أرسلني الله تعالى لأبعث الدين الزرادشتي، وأهدي الناس إلى سبيل الحق والصّواب».

تناهي كلام مزدك هذا إلى سمع الملك قباذ. وفي اليوم التالي، استدعى قباذ الموبذين والأعيان، وجلس للمظالم، ثم استدعى مزدك، وقال له على رؤوس الأشهاد: «أأنت تدعي النبوة؟». قال: «أجل، وقد بُعثت لتقويم الدين الذي جاء به زرادشت بعد أن أفسده مخالفونا، وأدخلوا فيه الشبهات، وأوضّح معاني الزند والأوستا التي تخبط الناس في فهمها وإدراكها»، فقال قباذ: «وما معجزتك؟». قال مزدك: «معجزتي أنني أنطق النار التي هي قبلتك ومحرابك، وأسأل الله، عزّ وجلّ، أن يأمر النار لتشهد على نبوتي بنحو يسمعه الملك وكل من معه». فقال الملك: «يا عظماء إيران وموابذتها، ما تقولون بما يقول مزدك؟». قالوا: «إنه يدعونا أولاً إلى ديننا وكتابنا، وهو لا يخالف زرادشت في هذا، ثم إن في الزند والأوستا أقوالاً لكل منها عشرة معانٍ، ولكل موبذ وحكيم فيها رأي وتفسير خاص، لكن قد يأتي مزدك بتفاسير أحسن وعبارات أبين وأفضل. أما ما يدعيه من أنه ينطق النار التي تعبد، فشيء عجيبٌ حقاً وليس في طاقة آدمي. والرّأي ما يراه الملك». فقال قباذ لمزدك: «إن تنطق النار أشهد لك بالنبوة». قال مزدك: «ليضرب الملك موعداً يأتي فيه ومعه العظماء والموبذون إلى المعبد، ليرى أنّ الله عز وجل ينطق النار بدعائي. وإن يشأ فليأت اليوم، وفي هذه الساعة». قال قباذ: «موعدنا جميعاً المعبد غداً».

في اليوم التالي، أرسل مزدك أحد غلمانه إلى الثقب، وقال له: «عليك كلما سمعتني أدعو الله

(٥) الزند: شرح الأوستا وتفسيرها باللغة البهلوية في عهد الساسانيين. وقيل هو الكتاب الذي أظهره مزدك وزعم أن فيه تأويل الأوستا. نسب أصحاب مزدك إلى «زند» فقيل: «زندي»، وعرّبت الكلمة فقيل للواحد «زنديق» وللجماعة زنادقة (مفاتيح العلوم ص ٢٦).

(٦) عرّبت كلمة «الأوستا» بـ«الأبستا». وهو كتاب المجوس الذي جاء به زرادشت(مفتاح العلوم ص ٢٦).

(٧) أغلب الظن أنه يعني هارون أخا موسى عليهما السلام. يقول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم: آية ٥٣).

بصوت عالٍ، أن تتقدم تحت الثقب وتقول: «إن صلاح عباد الله بأرض إيران بما يقول مزدك، ففيه سعادتهم في الدنيا والآخرة».

وجاء الملك والموبذون إلى المعبد، ونودي على مزدك؛ فتقدم ووقف إلى جانب النار، ودعى الله بصوت عالٍ، وعظَّم زرادشت، ثم سكت. فإذا صوت ينبعث من خلال النار بالجملة التي ذكرنا. لمّا سمع الملك ومن معه ذلك تملكهم العجب، ووطّن قباذ نفسه على الإيمان بمزدك. ثم تركوا المعبد.

أخذ قباذ، بعد ذلك، يقرِّب إليه مزدك أكثر فأكثر يوماً بعد يوم إلى أن آمن به في النهاية، ثم أمر بصنع كرسي ذهبي مرصع بالجواهر له، يوضع على سده قاعة العرش. فكان الملك يجلس على سرير ملكه، ومزدك على كرسيه فيبدو أكثر ارتفاعاً من الملك.

وشرع الناس يدخلون في مذهب مزدك، بعضهم دخله عن رغبة ورضى، وبعضهم دخله إرضاءً للملك، وقسم أمّوا العاصمة من الولايات والأطراف ودخلوا في مذهب مزدك سراً وعلانية. غير أن أكثر العظماء والرَّعية والجيش، لم يرغبوا في مذهب مزدك، لكنهم لم يجرؤوا على قول شيء احتراماً للملك.أما الموبذون، فلم يعتنق أحد منهم مذهب مزدك، وقالوا: «لننتظر ما سيطلع علينا به مزدك من الزند والأوستا».

لما رأى مزدك أنّ الملك دخل في مذهبه، وأن الناس - من بعيد وقريب- قبلوا دعوته، طرح مسألة الأموال على بساط البحث، وقال: «إن الأموال يجب أن توزَّع بين الخلق، فكلهم عباد الله، وأبناء آدم يجب أن ينفقوا من أموال بعضهم على كل ما يحتاجون إليه، كي يتساوى الجميع، ولا يظل ثمة معوز محتاج».

ولما أقنع مزدك قباذ وأتباع مذهبه بهذا، ورضوا بإباحة الأموال، قال: «إن نساءكم كأموالكم، يجب أن تعدوا نساءكم مثل أموالكم، وكل من يرغب في أية امرأة فليواصلها. ليس في ديننا غيرة وحمية، لئلا يظل أحد دون نصيب من لذّات الدنيا وشهواتها، وتفتح أبواب الآمال والأماني على مصاريعها». وزاد إقبال الناس - والعامة خاصة- على مذهب مزدك رغبة في النساء. ثم سنّ مزدك قانوناً يقضي بأنه إذا ما استضاف شخص عشرين رجلاً في بيته وأعدّ لهم الطعام والخمر، وهيأ مجلس غناء وطرب وكل مقتضيات الضيافة، على الضيوف أن ينهضوا واحداً واحداً ويواصلوا زوجه دونما عيب أو حرج.

وجرت[٨] العادة أنه إذا ما أراد شخص أن يدخل منزلاً ليواصل امرأة أن يضع قلنسوته على باب

(٨) حذف الدكتور جعفر شعار هذه الفقرة لبذاءتها، لكنني ترجمتها عن نسختي دارك وعباس إقبال مراعاة لأمانة الترجمة.

المنزل ثم يدخل وحتى إذا ما جاء آخر للغرض نفسه ورأى القلنسوة على الباب، يرجع أدراجه لأنه يدرك أن ثمة شخصاً في شغل.

***

أرسل أنوشروان رسولاً إلى الموبذين سرًّا، وقال: لماذا هذا الصمت المطبق؟ لم لا تتكلمون شيئاً في أمر مزدك، وتنصحون والدي: فأي محال هذا الذي ألزم به نفسه حتى صار فريسة مكر هذا الوبش الطرّار[٩] وغدره؟ لقد بدّد هذا الكلب – مزدك – أموال الناس وهتك ستر حرمهم وأعراضهم، وهيمن على عوامهم. قولوا لي: بأي حجة يفعل هذا، ومن ذا الذي أمره به؟ إن تلوذوا بالصمت أكثر، فإنكم تعرّضون أموالكم للنهب ونساءكم للهتك، وملكنا للزوال. هبّوا جميعاً، واذهبوا إلى والدي، وأطلعوه على حقيقة الحال، وانصحوه. ثم ناظروا مزدك، وأنعموا النظر فيما يورد من حجج». ثم بعث، أيضاً، برسائل إلى عظماء الرجال ومشهوريهم سرًّا، تقول: «لقد غلب على والدي هوس فاسد، فأخلّ عقله، حتى أضحى لا يميز ما ينفعه مما يضرّه. اسعوا جادين في معالجته وتقويمه؛ ولتحذروا الاصغاء إلى كلام مزدك والعلم بما يقول، ولا تنخدعوا مثلما انخدع أبي. إن هذا لباطل والباطل لا أساس له، ولا نفع لكم فيه غداً».

خشي العظماء كلام أنوشروان وتهديده، وتراجع له بعض من كانوا ينوون الدخول في مذهب مزدك، وقالوا: «لننتظر إلامَ يصير أمر مزدك. أنّى لأنوشروان هذا الكلام؟». وكان عُمْرُ أنوشروان في هذا الوقت ثمانية عشر عاماً.

واتفق الموبذون بينهم، وذهبوا إلى قباذ، وقالوا له: «إننا لم نقرأ منذ عهد آدم عليه السلام، إلى الآن – في أي تاريخ من التواريخ –، ولم نسمع عن أي نبي ممن ظهروا في بلاد الشام بمثل هذا الذي يدعي مزدك. يبدو لنا أنه منكر». قال قباذ: «خاطبوا مزدك في الموضوع لنرى ما يقول». فاستدعى الموبذون مزدك، وقالوا له: «ما حجّتك على ما تدعيه؟». قال: «كذا أمر زرادشت، وجاء في الزند والأوستا، غير أن الناس لا يعونه. فإن كنتم في ريب من أمري فاسألوا النار». وذهبوا إلى النار مرة أخرى وسألوها، فانبعث من خلالها صوت يقول: «الأمر على ما يقول مزدك، لا على ما تقولون أنتم». واعترى الموبذين الخجل مرة أخرى وعادوا أدراجهم. وفي اليوم التالي، قابلوا أنوشروان وشرحوا له الأمر. فقال: «إن مزدك يلاقي نجاحاً لأن مذهبه هو مذهب المجوس عينه إلاّ في أمرين».

---

(٩) الطرّار: اللص، النشّال الذي يشق كُمَّ الرجل ويسلّ ما فيه من الطر، وهو القطع والشق. (اللسان – طرر).

بعد سنة على هذا الكلام، سأل قباذ مزدك في خلال حديث جرى بينهما، فقال: «أدخل الناس في هذا المذهب راغبين فيه؟». قال مزدك: «لو قبل أنوشروان هذا المذهب ولم يتمرد عليه ويمنعهم من دخوله، لدخلوا فيه دفعة واحدة». قال قباذ: «أوليس هو على هذا المذهب؟». قال مزدك: «لا». قال قباذ: «إليّ بأنوشروان». وجيء بأنوشروان، فلما رآه قباذ قال له: «ألست على مذهب مزدك؟». قال أنوشروان: «كلاّ، والحمد لله». قال قباذ:«لماذا؟» قال أنو شروان: «لأنه طرّار محتال». قال قباذ: «أي محتال ينطق النار؟». قال أنوشروان: «ثمة أربعة أشياء متضادة، لا لون لها: الماء والنار والتراب والهواء. قل له أن ينطق الماء والتراب والهواء مثلما أنطق النار لأؤمن به». قال قباذ: «إن كل ما يقوله مزدك من تفسير الزند والأوستا». قال أنوشروان: «إن الذي جاء بالزند والأوستا لم يدعُ إلى إباحة الأموال والنساء، ولم يقل بتفسيره أحد من الحكماء في السنوات المنصرمة كلها. ما الدين إلا لصون الأموال والنساء. فإذا أبيحا، فأي فرق يبقى بين الإنسان والحيوان ؟ إن البهائم هي التي تتساوى في الرعي والضِراب لا الناس العقلاء!». قال قباذ: «ليكن، ولكن كيف تخالفني وأنا أبوك؟!». قال أنوشروان: «لقد تعلمت هذا منك، وإلا فلم تكن هذه عادتي من قبل. خالفتك بعد أن رأيتك خالفت والدك. أعرض عن هذا، لأعرض أنا عنه أيضاً».

وانتهى الجدال بين الثلاثة بأن قال قباذ ومزدك لأنوشروان ببساطة: «هاتِ دليلاً ترد فيه هذا المذهب وتبطل دعوى مزدك، أو إيت بمن حجته أقوى من حجة مزدك وأصح، وإلا ستنال جزاءك لتكون فيك عبرة للآخرين». قال أنوشروان: «أمهلاني أربعين يوماً أقدم بعدها حجتي، أو آتي بشخص يتصدى لجواب مزدك». قالا: «لك هذا». وتفرّقوا على هذا الأساس.

لما عاد أنوشروان من عند أبيه، أرسل في اليوم ذاته رسولاً إلى مدينة «جول»[١٠] في فارس برسالة إلى موبذ حكيم طاعن في السن كان يقطن تلك المدينة، تقول: «احضر بأقصى سرعة؛ فقد جرى بيني وبين الملك ومزدك كذا وكذا».

لما انقضت الأربعون يوماً، جلس قباذ للناس، واعتلى سرير الملك. وجاء مزدك فمضى إلى سدة العرش، وجلس على كرسيه. وأمر الملك بإحضار أنوشروان، ثم قال مزدك لقباذ: «سله عما أتى به

---

(١٠) معرّب «گـول» التي جاءت بهذا الشكل في النسخ الثلاث. وقد رأى عباس إقبال (حاشية ١ ص ٢٤٣) وتابعه دارك وشعار أن ليس في فارس مدينة معروفة بهذا الاسم، بل ربما تكون محرفة عن «گـور» (جور) أو فيروز أباد الحالية. فقد كان فيها معبد معروف.

(راجع تعليقات دارك ص ٣٤٣ والمصادر التي اعتمدها. ثم انظر في جور: معجم البلدان؛ وبلدان الخلافة الشرقية ص ٢٩١).

إلينا من جواب». قال قباذ: «بم أتيت؟ ادلُ به». قال أنوشروان: «ما أزال بصدد هذا». قال مزدك: «لات حين تدبير. مر بمعاقبته». ووجم قباذ. أما مزدك فأشار بأخذ أنوشروان. ولما أقبل من أمروا بأخذه نحوه، ضرب بيده على زاوية الإيوان(١١)، وقال لأبيه: «يا لها من عجلة هذه التي استحوذت عليك في القضاء على أسرتك بنفسك!! إن الأجل المضروب بيننا لم ينته بعد». قال: «وكيف؟». قال أنوشروان: «لقد سألتكما أربعين يوماً كاملة فيها هذا اليوم. فحين ينقضي تستطيعان أن تفعلا ما يحلو لكما». وصاح قادة الجيش والموبذون قائلين: «حقٌّ ما يقول. لقد اتفقتم على أربعين يوماً، لا تسعة وثلاثين». قال قباذ: «خلّوا عنه اليوم». ورفعت الأيدي عن أنوشروان، فنجا من براثن مزدك.

ولما ترك قباذ المجلس، وتفرق الحضور، وعاد مزدك، ومضى أنوشروان إلى بيته، وصل الموبذ الذي أرسل أنوشروان في طلبه من فارس على بعير جمّاز، وقد كان يسأل الناس إلى أن اهتدى إلى منزل أنوشروان. ونزل عن بعيره، فدخل المنزل مسرعاً ثم أسرّ إلى أحد الخدم: «اذهب، وقل لأنوشروان: لقد وصل موبذ فارس، وهو يريد أن يراك»، فدخل الخادم مسرعاً وأخبر أنوشروان.

خرج أنوشروان، لفرحه، من الحجرة مسرعاً وعانق الموبذ، وقال: «اعلم أيها الموبذ أنني نجوت اليوم من قبضة الموت». ثم قصّ عليه كل ما جرى. فقال الموبذ: «هوّن عليك، فالأمر على ما قلت أنت، فأنت على الحق، ومزدك على الباطل. سأتولى جواب مزدك عنك، وأجعل قباذ يندم على ما فعل، وأعيده إلى سواء السبيل. لكن، عليك أن تسعى الآن وتيسر لي – بأية وسيلة – مقابلة الملك قباذ، قبل أن يعلم مزدك بقدومي». قال أنوشروان: «هذا مطلب يسير، سأقوم بما يمكّنك من مقابلة الملك وحيداً الليلة».

ومع صلاة العصر، مضى أنوشروان إلى قصر أبيه وطلب مقابلته. فلما رأى أباه أثنى عليه، وقال: «لقد وصل الموبذ، الذي سيتولى إجابة مزدك من فارس، وقد طلب إليّ أن ألتمس من الملك بأن يتفضل وحيداً الليلة بالاستماع إلى كلامه والنظر في حجته. ثم يأمر بما يراه مناسباً». فقال قباذ: «حسن جداً، أحضره».

وعاد أنوشروان. ولما جنّ الليل، مضى بالموبذ إلى الملك. فحيا الموبذ قباذ وأطراه وأثنى على آبائه الصّيد، وقال له: «لقد غلط مزدك، فنبوته كاذبة وادّعاؤه باطل». قال الملك: «كيف؟» قال الموبذ: «إنني أعرفه جيداً، وأعرف مدى علمه. إنه على معرفة بشيء من علم النجوم، لكنه أخطأ في تقديره

(١١) الإيوان: فارسية معربة.

لأحكامها وتنبؤه بها. إن «الاقتران»(١٢) الحالي ينبيء بأنه سيظهر رجل يدّعي النبوة، ويأتي بكتاب ومعجزات غريبة، ويشق القمر نصفين(١٣)، ويدعو الناس إلى عبادة الله، ويجيء بدين حق طاهر، ويبطل المجوسية والمذاهب الأخرى كافة، ويبشر بالجنة، ويتوعد بجهنم، ويحمي، بحكم الشرع، الأموال، ويصون النساء ويحصّنها، ويتبرأ من الشيطان، ويتلقى الوحي من جبريل- عليه السلام-، ويخرب بيوت النار والأوثان، ويبث دينه في أرجاء الأرض فيبقى إلى يوم الدين وتشهد السموات والأرض على نبوته.

لقد منّى مزدك نفسه بذلك، وخُيّل له أنه ذاك الرجل ولا أحد غيره، في حين أن ذلك الرجل - أولاً وقبل كل شيء - عربي ومزدك أعجمي، وأنه ينهى الناس عن عبادة النار وينكر زرادشت، ومزدك يحذو حذو زرادشت ويدعو إلى عبادة النار أيضاً. إن ذلك النبي لا يبيح لأحد حتى النظر إلى حرم الآخرين، أو أخذ ولو ذرة صغيرة من أموالهم، بل يأمر بقطع اليد بدرهم فضة بغير حق؛ أما مزدك فقد أباح النساء والأموال. إن ذلك النبي يتلقى الأمر من السماء ويوحى إليه عن طريق جبريل - عليه السلام-، أما مزدك فيتحدث بوحي من النار. إن ذلك سيأتي بكتاب جديد، أما مزدك فلا يصدر إلا عن الزند والأوستا.

خلاصة الأمر، إن مذهب مزدك لا أساس له. سأفضحه أمام الملك غداً، وأثبت أنه على الباطل، وأنه لا يهدف إلا إلى إزالة «الكسروية» عن أهل بيتك، وتبديد كنوزك، ومساواتك بأقل الناس شأناً. فأعجب قباذ بكلام الموبذ، وهشّ له قلبه.

وفي اليوم التالي، لما جاء قباذ إلى المجلس، وجلس مزدك على كرسيه، ووقف أنوشروان أمام سرير الملك. وحضر الموبذون وكبار القوم، قال الموبذ لمزدك: «أتسأل أنت أم أسأل أنا؟». قال مزدك: «أنا». فقال الموبذ: «بما أنك ستكون السائل وأنا المجيب، تعال إذاً إلى مكاني هنا، لأتحول أنا إلى مكانك هناك». فاعترى مزدك الخجل، وقال: «إن الملك هو الذي أجلسني هنا. سلني أجبك». قال الموبذ: «لقد أبحت الأموال! أوليس يبني الناس القناطر، ويقيمون الرُّبُط(١٤)، ويفعلون الخير ابتغاء الدار الآخرة؟». فأجاب مزدك: «أجل». قال الموبذ: «فإذا ما أبيحت الأموال، لمن يكون ثواب أفعال

---

(١٢) الاقتران أو «القِران» (بكسر القاف): هو اجتماع زُحل والمشتري، خاصة، إذا أطلقت. فإذا ما عُني قران كوكبين آخرين قيّد بذكرهما (مفاتيح العلوم ١٣٤).

(١٣) إشارة إلى الآية الكريمة، ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر :آية ١) .

(١٤) جمع رباط.

الخير هذه في الآخرة؟». وعيي مزدك عن رد الجواب. فقال له الموبذ: «لقد أبحت النّساء أيضاً!! فإذا ما وطئ عشرون رجلاً امرأة واحدة، وحملت المرأة، لمن يكون الوليد؟». وعجز مزدك عن الإجابة أيضاً. فأردف الموبذ: «لقد جئت لتبدد الأموال، وتقرض النسل مرة واحدة. إن هذا الملك إنما هو ملك يتربع على العرش لأنه ابن الملك فيروز، وعنه ورث الملك، مثلما ورث فيروز نفسه الملك عن أبيه أيضاً. فإن وطئ زوجَ الملك عشرةٌ مثلاً، وأنجبت ولداً، ماذا سيقال له، وابن من يكون؟ أليس هذا استئصالاً للنسل؟ وإذا ما استؤصل النسل، أفلا يخرج الملك من هذه الأسرة؟ أليست تقاس الرفعة والانحطاط بالغنى والفقر؟ إن يكن الرَّجل فقيراً فلا مناص له- لاحتياجه وعوزه- من أن يخدم الأثرياء ويقوم على أمرهم، وهنا يمتاز العظيم عما دونه منزلة. وإذا ما أبيحت الأموال فإن الرفعة والانحطاط يمّحيان من الوجود، فيتساوى أقل الناس شأناً بالملوك، بل تنتفي الملوكية. لقد جئت أنت لتبدد الأموال والملك عن بيوتات ملوك العجم!». ولم يحر مزدك جواباً، ولاذ بالصمت المطبق. فقال له قباذ: «أجبه». قال مزدك: «جوابه أن تأمر الآن بضرب عنقه». قال قباذ: «لا يجوز ضرب عنق أي شخص دون دليل». قال مزدك: «لأسأل النار ما تقول، فإنني لا أنطق عن الهوى». أما الناس الذين كانوا في أشد حالات الحزن والألم على أنوشروان، انقلبوا فرحين مسرورين لنجاته من القتل.

وتغير قباذ على مزدك، وانقلب عليه لأن مزدك قال له: «اقتل الموبذ» و«اقتل أنوشروان»، فلم يقتلهما. وأما مزدك فقال في نفسه: إن الحل الوحيد، وقد كثر أتباعي من الرعية والجيش، أن أتخلص من قباذ أولاً، ثم أقتل أنوشروان وغيره من المخالفين.

واتفقوا على أن يصيروا جميعاً إلى المعبد غداً. ليروا ما تأمر النار، ثم انصرفوا.

ولما أرخى الليل سدوله، استدعى مزدك اثنين من أعوانه وأتباع مذهبه، وأغدق عليهما الذهب، ونصحهما، ووعدهما بأنه سيرفعهما إلى مرتبة القيادة، وأخذ عليهما قَسَماً بأن لا يبوحا بهذا الكلام لأحد. ثم أعطاهما سيفين، وقال: «حين يجيء قباذ إلى بيت النار غداً، ويحضر العظماء والموبذون، عليكما، إذا ما أمرت النار بقتل قباذ، أن تسُلا سيفيكما بسرعة وتقتلاه، فإن أحداً لن يأتي بسيف إلى المعبد». قالا: «سمعاً وطاعة».

وفي اليوم التالي، ذهب قباذ، وذهب العظماء والموبذون إلى بيت النار. لكن موبذ فارس، قال لأنوشروان: «مر عشرةً من رجالك بأن يُخفوا سيوفهم تحت ألبستهم ويأتوا معك إلى بيت النار مخافة أن يكون مزدك قد بيّت غدراً ومكراً». فنفّذ أنوشروان هذا، ومضى إلى المعبد.

وكان مزدك، كلما أراد الذهاب إلى بيت النار، يلقن تلميذه ما يقول من تحت الثقب. فلقنه ما يقول هذه المرّة أيضاً، ومضى إلى هناك، ثم قال لموبذ فارس: «سل النار لتتحدث إليك». وعلى الرغم من كثرة سؤال الموبذ النار، فإنها لم تجبه. حينئذٍ خاطب مزدك النار: «احكمي بيننا، واشهدي على صدق دعواي». فانبعث من خلال النار صوت يقول: «لقد دبّ الضعف إليّ مذ أمس، أطعموني أولاً من قلب قباذ وكبده لأزداد قوة، ثم أقول لكم ما يجب فعله. ما مزدك إلا هاديكم إلى الراحة الأبدية الخالدة». فقال مزدك: «قوّوا النار وأطعموها». فشرع ذانك الرجلان سيفيهما، واتجها صوب قباذ، فقال موبذ فارس لأنوشروان: «حذار». فتقدم أنوشروان برجاله العشرة بسيوفهم المستلة واعترضوا سبيل ذينك الرجلين، ولم يمكناهما من أن ينالا قباذ بالسيف. فصاح مزدك: «إنما تنطق النار بأمر الله». وانقسم الناس فريقين، قال أحدهما: «ألقوا قباذ في النار حياً أو ميتاً». وقال الآخر: «يجب التريُّث في الأمر، لنفكّر فيه أكثر وأفضل». وعادوا في نهاية ذلك اليوم، وكان قباذ يقول: «لربما أنني اقترفت ذنباً حتى تريد النار أن تتقوى مني. إنه لأحبُّ إليّ أن أصطلي بنار الدنيا على أن أتلظى بنار جهنم».

واجتمع موبذ فارس بقباذ وحيداً مرة أخرى، وحدثه عن الملوك والموبذين القدامى، وأورد أدلة من كل المذاهب وعرض حججاً شتى مؤداها: «ليس مزدك بنبيّ، بل خصم الأسرة المالكة. والدليل أنه أراد أن يقتل أنوشروان أولاً، ولما لم يحالفه التوفيق تحول إليك. ما الذي أدخل في روعك أن الصوت ينبعث من النار! أفتكلمت النار قبلاً حتى تنطق الآن؟ سأعمل، جهدي، لكشف هذه الحيلة، وأبين للملك أهيَ النار التي تتكلم أم شخص آخر!». هكذا جعل الموبذ الملك يندم على ما فعل. ثم قال له أيضاً: «لا تحسبن أنوشروان طفلاً. إنّ باستطاعته أن يحكم العالم ويسوده، فإذا ما أردت أن يدوم الملك في أسرتك، لا تفوّت عليه أي رأي يراه. وإياك أن تفضي إلى مزدك بمكنونات قلبك وأسراره».

ثم قال الموبذ لأنوشروان: «يجب أن تسعى إلى استمالة أحد خدم مزدك وغلمانه وتغريه بالمال، فلربما أطلعنا على حقيقة أمر النار، لنتمكن من اقتلاع جذور الشك من قلب أبيك دفعة واحدة». واستطاع أنوشروان أن يظفر بشخص تمكن من أن يصادق أحد خدم مزدك، وأن يأخذه إلى أنوشروان بحيلة ما. فجلس إليه أنوشروان وحيداً، ونثر أمامه ألف دينار، وقال: «إني سائلك شيئاً، فإن تصدقني الجواب، أمنحك هذه الألف دينار حالاً، وأجعلك من مقربيّ، وأبوأك منزلة رفيعة، وإلا أفصل رأسك عن جسدك الآن». فخاف الرَّجل، وقال: «إن أصدقك القول، أتفي بما قلت؟». قال أنوشروان: «أفي به وأكثر». قال الرجل: «أقول إذاً». قال أنوشروان: «قل لي ما الحيلة التي لجأ إليها

مزدك في إنطاقه النار؟». قال الرجل: «إن أقل الصدق، أفتستطيع أن تحميني وتحفظ سرّي». قال أنوشروان: «أستطيع». قال الرجل: «اعلم أن بالقرب من بيت النار قطعة أرض اشتراها مزدك، وأحاطها بأربعة جدران عالية، وأقام من هناك نفقاً يمتد إلى ما تحت النار في المعبد، وأوجد ثقباً صغيراً جداً في وسط النار. وكان يرسل تلميذاً له في كل مرة ويلقنه: «امضِ إلى تحت النار، وضع فمك على الثقب، وقل كذا وكذا..». فكان كل من يسمع ذلك يظن أن النار هي التي تتكلم».

لما سمع أنوشروان هذا الكلام أيقن أنه صحيح. فغمرته الفرحة، ووهب الرجل ألف دينار. لما سجى الليل، مضى أنوشروان بالرجل إلى أبيه ليعيد على مسامعه ما قال له. فعجب قباذ جداً لاحتيال مزدك وتجاسره، ونفض عن قلبه الشك دفعة واحدة. وأحضر أنوشروان الموبذ حالاً، فأثنى عليه قباذ وحيّاه، ثم أطلعاه على حقيقة الحال. فقال الموبذ: «لقد قلت لمواليّ، إن هذا الرجل محتال». قال قباذ: «لقد اتضح هذا. لكن، كيف السبيل إلى إهلاكه؟». قال الموبذ: «يجب ألا يعلم أنك قد ندمت، أو أنك على علم بحيلته. ادع إلى اجتماع آخر أناظره فيه أمام من في المجلس جميعاً، والقي في نهاية المطاف ترسي، وأقر بعجزي، ثم أعود إلى فارس. بعد ذلك، يجب أن تنفذوا كل ما يقوله أنوشروان ويراه صواباً، ليتمّ استئصال هذه الطينة الخبيثة ومحوها».

بعد عدة أيام، أمر الملك قباذ بحضور كبار رجال مملكته وموبذيها لمساندة موبذ فارس، ومناظرة مزدك، وتأمل دعوته ملياً. وفي اليوم التالي، حضر الجميع. وجلس الملك على سريره، ومزدك على كرسيه، وأدلى كل شخص بما عنده. أما موبذ فارس فقال: «إني لأعجب من أمر تكلم النار!». قال مزدك: «لا يجوز العجب من قدرة الله وفعله. ألم تر أن موسى عليه السلام جعل من عصاه حية، وفجّر من الحجر اثنتي عشرة عيناً، وقال: «لأغرقن فرعون وجنوده»[١٥]؟ فأغرق،

---

(١٥) الذي في القرآن الكريم أنه أوحي إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: الآية٦٣)، ثم راجع: (سورة الأعراف آية ١٣٦، وسورة طه آية ٧٧-٧٨ وسورة القصص آية ٤٠ وسورة الزخرف آية ٥٥ وسورة الذاريات آية ٤٠). غير أنه قيل في الآية السابقة: «ويقال إنه — البحر — انفلق اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق يسيرون فيه، حتى قيل إنه صار فيه أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً وفي هذا نظر...».

(أبو الفداء: قصص الأنبياء ٢: ٨١ – ٨٢ الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٦٨ م). أما قصة الاثنتي عشرة عيناً، فلا علاقة لها بغرق فرعون وجنده، لأنه لما جاز موسى – عليه السلام – ببني إسرائيل البحر إلى الشاطئ الشرقي ولم يجدوا ماء لشربهم وسقيا دوابهم، شكوا إلى موسى، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فلما ضربه انبجست منه اثنتا عشرة عيناً. قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا...﴾ (الأعراف:آية ١٦٠).

(راجع: عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص ٢١١. مطبعة المدني. القاهرة ١٩٦٦ م).

وسخر الله - عزّ وجلّ - الأرض له، فقال: «يا أرض ابلعي قارون» فخسف به الأرض[١٦]. ألم ترَ أن عيسى - صلوات الله عليه- كان يحيي الموتى[١٧]؟ كل هذه الأمور ليست في قدرة بشر، بل هي من قدرة الله عز وجل». هكذا شأني، فقد أرسلني الله، وسخَّر لي النار، فإن تطيعوا ما أقول وتقول النار وتأخذوا به، تنجوا في الدنيا والآخرة، وإن تعصوا، فترقبوا عذاب الله وهلاكه». ونهض موبذ فارس، وقال: «إنني لا أقوى على جواب رجل يتلقى كلامه من لدن الله والنار، والنار مسخرة بأمره. وهأنذا ألقي ترسي[١٨] أمام شخص لم أستطع أن أفعل ما فعل، بل وقفت أمامه عاجزاً. إنني ذاهب، لأنه ليس لي الجرأة على أكثر من هذا». وغادر الموبذ فوراً، واستلم طريق فارس. وانصرف قباذ من المجلس. أما مزدك فمضى إلى المعبد ليقضي سبعة أيام في عبادة النار؛ وأما الناس، فعادوا إلى منازلهم، والفرحة تغمر معتنقي مذهب مزدك منهم خاصة، فازداد اعتقادهم وإيمانهم به رسوخاً واستحكاماً.

لما حلَّ الظلام استدعى قباذ أنوشروان، وقال له :«لقد ذهب الموبذ، وأحالني عليك لأنك جدير بالقضاء على هذا المذهب. فما الحيلة الآن؟». قال أنوشروان: «إن يعهد مولاي إليّ بالأمر ولا يفضي به إلى أحد سواي، فإنني أتعهد بأن أتكفل به سرًا بنحو تمحي فيه بذور مزدك والمزدكية من على وجه الأرض». قال قباذ: «لن أبوح بهذا السر لأحد غيرك، ولن يجاوزنا نحن الاثنين». فقال: أنوشروان :«لما أعلن الموبذ عجزه على الملأ، وعاد إلى فارس عمت الفرحة مزدك والمزدكيين، وقويت قلوبهم، فقالوا: «سيتحقق لنا بعد الآن، كل ما نفكر فيه ونوطن العزم عليه». إن قتل مزدك سهل جداً، لكن أتباعه كُثُر. فإن نقتله، يفرّ المزدكيون وينتشروا في بقاع الأرض ويبدؤوا في دعوة الناس إلى مذهبهم، ويستولوا على الجبال استيلاء محكماً، فيسبّبوا لنا ولمملكتنا المتاعب والمشكلات. يجب أن نفكر في حل لا ينجو معه من سيوفنا واحد منهم، بل نهلكهم جميعاً ونبدّد شملهم». فقال قباذ: «ما الطريق الأفضل في نظرك؟». قال أنوشروان: (ما أراه هو أن يرفع الملك من منزلة مزدك، ويقدّره أكثر مما هو عليه الآن، بعد أن يخرج من تعبّده ويمثل بين يديه. ثم يقول له - في خلال حديثه معه- حين يختلي به: «إن أنوشروان قد لانت عريكته، منذ ذلك اليوم الذي استسلم فيه موبذ فارس، وأقرّ بعجزه، وهو الآن، يوطّن عزمه على الإيمان بك، ويَعضّ أصابعه ندماً على أقواله السالفة». ولنرَ ما يقول).

---

(١٦) قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص: آية ٨١).

(١٧) قال تعالى:﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ (آل عمران: آية ٤٩).

(١٨) كناية عن الاستسلام. والاصطلاح الفارسي: «سپر بيوكندم» أو «سپر بيفكنم».

لما مثل مزدك بين يدي قباذ في ذلك الأسبوع، أكرمه جداً وبجّله وأبدى له تواضعاً جماً، ثم أخبره بما قال أنوشروان. فقال مزدك: «إن أكثر الناس ينظرون إلى أعمال أنوشروان، ويصغون إلى أقواله. فحين يعتنق هذا المذهب المختار، فسيدخله الناس كافة. ولقد تشفعت إلى النار، ودعوت الله تعالى بأن يجعل هذا المذهب نصيباً لأنوشروان ورزقاً». قال قباذ: «أجل، إن أنوشروان وليّ عهدي، وإن الرعية والجيش يحبونه جداً. وحين يدخل مذهبنا، لا تبقى للناس أية حجة. إنني لأعاهد الملة على أن أقيم لك آنذاك منارة حجرية في وسط دجلة على رأسها جوسق[١٩] ذهبي أسطع من الشمس مثلما شاد كشتاسب[٢٠] لزرادشت جوسقاً من ذهب على سروة «كشمر»[٢١]. فقال مزدك لقباذ: «انصحه أنت، وأنا أدعو له الله وإني لعلى يقين من استجابة الدعاء».

---

(١٩) الجوسق: فارسي معرب عن «كوشك»، وهو القصر، وكل بناء رفيع عالٍ، وقيل الحصن. قال النعمان بن عدي ابن نضلة - أو نضيلة - من بني عدي بن كعب والي عمر بن الخطاب على ميسان (بين البصرة وواسط) من أبيات ليعزله عمر:

لعلّ أمير المؤمنين يسوؤه تنادُمُنا في الجوسق المتهدّم

(معرب الجواليقي ٩٦-٩٧)

(٢٠) معرب كشتاسب. وعرّب أيضاً على «كيشتاسب» (مفاتيح العلوم ٦٤) وعلى «بشتاسب» و«بشتاسف» (فرهنگ فارسي).

وهو كشتاسب بن لهراسب الملك الكياني. كان يرغب في انتزاع الملك من والده ولما لم يتسنّ له ذلك، مضى إلى بلاد الروم وتزوج ابنة القيصر. ثم عاد إلى إيران وتولى الملك. وفي السنة الثلاثين لحكومته ظهر زرادشت، فقبله وآمن به مما أدى إلى ظهور العداء بين الكيانيين والتورانيين (فرهنگ فارسي). وقد ذكر الفردوسي كشتاسب وأخباره في الشاهنامة (راجع: الترجمة العربية ١ : ٣١١- ٣٦٩). كان لقب كشتاسب الهِرْبذ (بكسر الهاء وسكون الراء) أي عابد النار. لقب به لأن زرادشت أتاه بالمجوسية فقبلها. (مفاتيح العلوم ٦٤).

(٢١) كِشمر: (بكسر الكاف وسكون الشين) أو كاشمر: قرية من قرى إقليم قوهستان من أعمال خراسان. ذكرها القزويني باسم «كشم» خطأً، مثلما ذكرها الثعالبي باسم «كشمير». أما سروة كشمر، فقصتها طويلة ومعروفة في التراث الفارسي. يقال إنها إحدى سروتين أمر زرادشت صاحب المجوس بغرسهما. أما الأخرى فسروة «فريومد» (من أعمال سبزوار). مع هذا، فقد اختلف فيمن غرس السروة. فقيل إن زرادشت هو الذي غرسها تخليداً لاعتناق كشتاسب المجوسية. وقيل إن كشتاسب هو الذي غرسها، بل غرس الشجرتين. ويقال إن سروة كشمر كانت شجرة عظيمة جداً لم ير مثلها في عظمها، حتى إنها حالت دون وصول ضرر الزلازل إلى كشمر. ذكرها صاحب الشاهنامة ونفر من الشعراء الفرس.

ويذكر أن الخليفة المتوكل أمر بقطع هذه السروة العظيمة في ٢٤٧هـ وحملها قطعاً على الجمال لرؤيتها واستعمالها في بناء قصره «الجعفرية» بسامراء، فقطعت ولم تُجدِ شفاعة الشافعين وتضرّعهم. لكنها لما وصلت إلى ضفاف دجلة كان المتوكل قد لقي حتفه غيلةً على يد ابنه، فقال علي بن الجهم:

فـأنّ سـرى بـسبيله «المتوكل» فالسّرو يسري، والـمنيّة تَنْزِلُ

مـا سُرْبِلَتْ إلا لأن إمـامنـا بـالسّيف مـن أولاده متسربـل

(راجع في سروة كشمر: نزهت القلوب ١٨٣؛ ومزديسنا وتأثير آن در أدبيات پارسي ٣٣٩-٣٤٣؛ وثمار القلوب للثعالبي ٥٩٠- ٥٩١؛ وآثار البلاد للقزويني ص ٤٤٦؛ وبلدان الخلافة الشرقية ٣٩٥).

ولما أطبق الليل أطلع قباذ أنوشروان على كل ما جرى. فقال أنوشروان: «ليدعْ مولاي مزدك بعد أسبوع ويقل له: لقد رأى أنوشروان رؤيا أفزعته ليلة أمس، إذ جاءني مع تباشير الصباح الباكر، وقال: «رأيت في المنام ناراً عظيمة تتقدم مني فرحت أبحث عن ملجأ، وإذا شخص وسيم الصورة يتقدم نحوي، فقلت له: ما تريد النار مني؟ قال: النار غاضبة عليك، لأنك كنت تعدّها كاذبة. قلت: أنّى تعلم أنت هذا؟ قال: الوحي – جبريل – يعلم كل شي. وأفقت من نومي، وهأنذا ماضٍ الآن إلى بيت النار». ومضى يحمل معه شيئاً من المسك والعود والعنبر ليلقي بها في النَّار، ويتعبد عندها ثلاثة أيام بلياليها، ويتضرع إلى الله). وأخبر قباذ مزدك بما قال أنوشروان. ونفّذ أنوشروان ما أخذ نفسه به أيضاً؛ ففرح مزدك فرحاً عظيماً.

بعد أسبوع واحد على هذا الحديث، طلب أنوشروان إلى أبيه أن يقول لمزدك بأن أنوشروان قال لي: (لقد وضح لي بجلاء أن هذا المذهب حق، وأن مزدك رسول الله. سأعتنق مذهبه وأنضم إليه، بيد أن ما يَشْغلني هو أن أكثر الناس يخالفونه. إنني أخشى أن يخرجوا ويتألبوا علينا؛ وينتزعوا الملك من أيدينا عنوةً. ليتني أدري كم عدد أتباع هذا المذهب ومن هم ؛ فإن يكونوا على ما نبغي من عدد وعدة، فبها ونعمت، وإلا فلأتريث إلى أن يشتد عودهم، ويقوى ساعدهم، ويكثر عددهم. وسأمدهم بما يحتاجون إليه من مؤونة وسلاح وعتاد. حينئذٍ نظهر المذهب في أتم قوته، ونفرضه على رقاب الناس عنوة، وبحد السيف. فإن يقل مزدك: «إن عددنا كثير». قل له: أعدّ جريدة[٢٢] بأسماء أتباع المذهب جميعاً لنعرضها عليه – أي أنوشروان– ليزداد قلبه بأساً وجرأة، ولكي لا تبقى له ثمة ذريعة يتذرع بها». فبهذا نستطيع أن نعرف عدد المزدكيين، ومن هم الذين دخلوا في مذهب مزدك).

ونقل قباذ هذا الكلام إلى مزدك، ففرح واستبشر، وقال: «لقد اعتنق هذا المذهب خلق كثير». فقال قباذ: «أعد جريدة بأسمائهم كي لا يبقى – كما قلت– لأنوشروان أي عذر». وأعدّ مزدك الجريدة وأتى بها إلى قباذ، فعدّهم قباذ، فإذا هم اثنا عشر ألف رجل من المدن والقرى والجيش. قال قباذ: «سأدعو أنوشروان الليلة، وأعرض عليه الجريدة، وستكون علامة دخوله المذهب، بأن آمر في الحال أن ينفخ في الأبواق، وينقر على الطبول والدفوف، وأشيع الفرحة في الخارج كأنني رزقت طفلاً. فإذا ما سمعت أصوات الزمر والنقر فاعلم أنّ أنوشروان قد اعتنق هذا المذهب».

ولما رجع مزدك، وجنّ الليل، دعا قباذ أنوشروان، وأراه جريدة الأسماء وأخبره بالعلامة التي اتفق مع مزدك عليها. فقال أنوشروان: «حسن جداً. مر بالنفخ في الأبواق، والنقر على الطبول؛ وحين

(٢٢) في الحديث: «كتب القرآن في جرائد». (اللسان – جرد). وجريدة هنا بمعنى «فهرس» أو «ثَبَت».

ترى مزدك غداً، قل له: «لقد استجاب أنوشروان لنا ودخل في مذهبنا بعد أن رأى جريدة الأسماء، وعرف عدد الأتباع، وقال: لو كان عددهم خمسة آلاف، فذا حسبنا، أما وهم الآن أثنا عشر ألفاً، فلا خوف علينا حتى لو صار العالم كله خصمنا. علينا من الآن فصاعداً أن نتداول نحن الثلاثة: مولاي، ومزدك، وأنا، كل شيء معاً. ثم أرسل من يستدعيني. وبعد هزيع[٢٣] من الليل، سمع مزدك أصوات الأبواق والطبول، فأخذته الفرحة، وقال: «لقد دخل أنوشروان في مذهبنا».

وفي اليوم التالي، ذهب مزدك إلى قاعة العرش، فجلس قباذ على السرير، ونقل إليه كل ما قال أنوشروان. فسرّ مزدك جداً. ولما تركا القاعة، جلسا وحيدين، وبعثا من يستدعي أنوشروان. وحضر أنوشروان ومعه تحف وأشياء ذهبية هدية إلى مزدك. فوضعها أمامه، ونثر الذهب والدر بين يديه، وأخذ يعتذر إليه عما مضى. ثم تداولوا في كل شيء. وفي ختام حديثهم قال أنوشروان لأبيه: «أنت مولى العالم، ومزدك رسول رب العالمين. فمن الأفضل ،إذاً، أن تولياني قيادة هؤلاء القوم، لأجهد في جعل كل من ليس في مذهبنا وطاعتنا في العالم، يقبل عليه رغبة وطواعية». فقالا له: «لك ما تريد». قال أنوشروان: «إن هذا الأمر في حاجة إلى أن يرسل مزدك رُسلاً إلى أتباعه في المدن والقرى والأطراف يخبرونهم بأن عليهم أن يعدوا أنفسهم من الآن ولمدة ثلاثة أشهر للمجيء إلى قصرنا جميعاً من الأداني والأقاصي في أسبوع كذا وكذا. أما نحن، فعلينا أن نبدأ منذ الساعة وإلى ذلك اليوم، بإعداد الوسائل اللازمة لهم من سلاح وركائب، بحيث لا يدري أحد بما نحن فيه البتة. وحين يأزف ذلك اليوم تبسط لهم «خواناً» يتّسع لهم جميعاً، بل يزيد. وبعد أن يتناولوا الطعام يتحولون من قصر إلى آخر حيث مجلس الشراب، فيشرب كل واحد سبعة أقداح. بعدئذٍ يلبسون الخلع - كل بما يناسبه- خمسين خمسين، وأربعين أربعين، وثلاثين ثلاثين، وعشرين عشرين إلى أن يلبسوا جميعاً . مع حلول الليل، نفتح «بيت السلاح»[٢٤] على مصراعيه، ونعطي من لا أسلحة معهم ما يحتاجون إليه من السلاح والدروع والزرود. ثم نخرج في الليلة نفسها، فنؤمّن كل من يدخل في مذهبنا، ونقتل كل من يأبى ذلك». فقال قباذ ومزدك: هل على هذا من مزيد؟».وعلى هذا انصرفوا.

كتب مزدك رسائل إلى شتى الأرجاء يخبر فيها القاصي والدّاني أن :«عليكم أن تحضروا إلى العاصمة في شهر كذا ويوم كذا بكامل أسلحتكم ووسائلكم، وبقلوب قوية، فإن الأمور في صالحنا، والملك إمامنا وقائدنا».

(٢٣) الهزيع من الليل: الطائفة منه نحو ثلثه أو ربعه. (اللسان- هزع).

(٢٤) في الفارسية: زراد خانة.

وفي اليوم الموعود، حضر الإثنا عشر ألف رجل إلى العاصمة، وصاروا إلى قصر الملك حيث رأوا خواناً مبسوطاً لم ير أحد مثله قط. وجاء قباذ، فجلس على السرير، وجلس مزدك على كرسيه. أما أنوشروان فوقف مشمّراً عن ساعده كأنه يقول: «إنني أنا المضيف». ومزدك يكاد يخرج من جلده فرحاً».

وأخذ أنوشروان يُجْلس كل واحد منهم إلى الخوان حسب منزلته إلى أن أجلسهم جميعاً. وبعد أن فرغوا من الطعام تحولوا إلى قصر آخر، فرأوا مجلس أنس وطرب لم يَرَوْا له مثيلاً. وجلس قباذ على السرير، ومزدك على الكرسي. وأُجلس الباقون بالترتيب الذي جلسوا فيه على الطعام. وشرع المطربون يرهفون الأسماع، والسقاة يديرون ابنة الكرم. وبعد أن أديرت الخمر مرتين، دخل مائتا غلام وفرّاش يحملون في أيديهم أردية ديباج ومآزر قصب، ووقفوا في أطراف المجلس ساعة، أمرهم أنوشروان بعدها أن: «المكان غاص هنا . خذوا الثياب إلى ذلك القصر، ليتسنى لنا نقل الضيوف إليه عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين لارتداء خلعهم. ومن هناك يذهبون إلى ميدان اللعب بالطبطابة وينتظرون فيه إلى أن يلبس الجميع ويأتوا إليه، ثم توجه الملك ومزدك إلى الميدان لتفقده وإلقاء نظرة عليه. ثم نأمر بفتح بيت السلاح وإحضار السلاح».

بيد أن أنوشروان: كان قد أرسل في اليوم السابق شخصاً إلى القرى يطلب مائتي رجل وثلاثمائة من المرتزقة بمعاولهم ومساحيهم، لتنظيف القصور والحدائق والميادين وإزالة ما فيها من أوساخ وقاذورات وفضلات. ولما جيء بهم، جمعهم أنوشروان جميعاً في ميدان اللعب بالطبطابة، وأمر بإغلاق بوابته بإحكام، ثم خاطبهم: «أريدكم أن تحفروا في هذا اليوم وهذه الليلة اثنتي عشرة ألف حفرة، عمق كل منها ذراع ونصف، وأن تُبقوا تراب كل حفرة إلى جانبها». ثم أمر الحراس أن يضعوهم في السراي الصغير داخل الملعب، بعد أن ينتهوا من الحفر، وألا يسمحوا لأي منهم بالانصراف. وفي الليل، سلّح أنوشروان أربعمائة رجل خبأهم في السراي الصَّغير أيضاً، وقال لهم: «كلّما بعثت بعشرين عشرين ممن في المجلس إلى القصر، خذوهم من القصر إلى السَّراي الصَّغير، ومنه إلى الميدان، ثم عرّوهم، وألقوا كل واحد في حفرة على رأسه إلى سرّته، بحيث تبقى أرجلهم في الهواء ثم هيلوا عليهم التراب، وطأوهم بأرجلكم حتى يستقروا في الحفر جيداً».

ولما ذهب الموكلون بالألبسة[٢٥] إلى القصر الذي أمرهم أنوشروان بالذهاب إليه، أحضر مئتا جواد

(٢٥) ترجمة : جامه داران (تاريخ البيهقي. الترجمة العربية. كشاف المصطلحات التاريخية ص ٨٠٠).

بقرابيس الذهب والفضة، وأحضرت التروس وأنطقة السيوف أيضاً. فأمر أنوشروان: «لتؤخذ إلى ذلك القصر أيضاً». فأخذت.

ثم شرع أنوشروان يرسل الرجال عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين، إلى القصر الآخر حيث كان يتولاهم رجاله، فيأخذونهم إلى الميدان والسراي الصغير فيه، ثم يلقون بهم في الحفر، ويهيلون عليهم التراب إلى أن أهلكوا جميعاً. وبعد أن ألقوا جميعهم في الحفر، قال أنوشروان لأبيه ومزدك: «لقد ألبس الرجال الخلع جميعاً، ووقفوا في الميدان بانتظام. ألا تنهضان لإلقاء نظرة عليهم، فستريان زينة لم تريا أجمل منها قط!!». ونهض قباذ ومزدك كلاهما، وصارا إلى القصر الآخر، ثم إلى الميدان والسراي الصغير. وسرّح مزدك نظره، فلم ير على أرض الملعب في شتى أرجائه سوى أرجل تتمايل في الهواء. حينئذٍ التفت أنوشروان إلى مزدك، وقال: «ليست ثمة خلع أحسن من هذه نخلعها على جيش أنت قائده. لقد جئت لتبديد أموال الناس وثرواتهم وهتك نسائهم، ونزع الملك من بيتنا!». ولما كانت قد أقيمت بأمر أنوشروان دكة عالية، وحفرت حفرة في مقدمة الميدان، أمر بأن يساق مزدك إلى الدّكة، ويلقى في الحفرة إلى صدره واقفاً على رجليه، وصدره ظاهر. وصُبُّ الجص من حوله في الحفرة ليظل مصلوباً منتصباً فيه، ثم قال أنوشروان: «انظر الآن إلى أتباعك وسرّح نظرك فيهم!!». قال لأبيه: «أرأيت رأي العقلاء وتدبيرهم؟ إن مصلحتك الآن في أن تلزم القصر مدة إلى أن يسكن عن الجيش والرعية الغضب، لأن منشأ هذا الفساد ضعف رأيك وتدبيرك».

وأجلس أنوشروان أباه في القصر، وأمر بإخلاء سبيل القرويين الذين أحضروا لحفر الحفر، وفتح بوابة الميدان لتدخل جموع الجيش والناس للتفرج والمشاهدة. فأخذت الجموع تنتف لحية مزدك وشاربه إلى أن فارق الحياة. ثم وضع أنوشروان والده في السلاسل والأغلال، واستدعى أرباب الدولة وعظماءها، ثم تبوأ العرش بالحجة والحق، وأطلق يده في العدل والبذل. وظلت هذه الواقعة من ذكرياته.

الفصل الخامس والأربعون

خروج سنباذ المجوسي على المسلمين من نيسابور إلى الري وفتنته

منذ هذه الأيام- عهد أنوشروان- لم يرفع أحد من هؤلاء القوم رأسه، إلا ما كان من أمر امرأة مزدك «خرمة بنت فاده» التي كانت قد فرّت مع رجلين من المدائن إلى ضواحي الري وأطرافها، وأخذت تدعو الناس، والرجلان معها، إلى مذهب زوجها سرًّا إلى أن اعتنقه خلق كثير من المجوس. وأطلق الناس عليهم لقب «الخرمية» لكنهم كتموا أمرهم، ولم يجرؤوا على إعلان مذهبهم، بل طفقوا طوال تلك المدة يفتشون عن حجة يتسترون وراءها للخروج وإظهار مذهبهم على رؤوس الأشهاد.

ولما قتل أبو جعفر المنصور الدوانيقي أبا مسلم الخراساني صاحب الدولة ببغداد عام ١٣٧ لهجرة محمد (ﷺ)، كان في نيسابور رئيس مجوسي اسمه سنباذ كانت تربطه بأبي مسلم صحبة قديمة، وله في عنقه حق صداقة وخدمة سالفتين. فأبو مسلم هو الذي قرّبه ورقاه إلى درجة قائد جيش. فما كان من سنباذ بعد قتل أبي مسلم إلا أن أعلن تمرده وخروجه، وتقدم بجيش من نيسابور إلى الري، وأخذ يدعو مجوس الري وطبرستان، لأن نصف أهل قوهستان والعراق كانوا رافضة ومزدكية. وأراد أن يظهر الدعوة، فعمد أولاً إلى قتل أبي عبيدة الحنفي عامل المنصور على الري، واستولى على الخزائن التي كان وضعها أبو مسلم هناك. ولما قوي أمره، خرج يطلب دم أبي مسلم مدعياً أنه رسوله إلى أهل العراق وخراسان، وزعم: «إن أبا مسلم لم يقتل، لكنه لما همّ المنصور بقتله، دعا اسم ربه الأعلى، عزّ وجل، فصار حمامة بيضاء، وطار من بين يديه. إنه الآن في حصن من نحاس، والمهدي ومزدك معه، سيظهرون ثلاثتهم، يتقدمهم أبو مسلم، ومزدك وزيره. ولقد وصل إليّ قاصد برسالة من أبي مسلم».

لمّا سمعت الرافضة اسم المهدي، وسمع المزدكيون اسم مزدك، التفّ حول سنباذ من الرافضة والخرمية خلق كثير. فعظم شأنه، وتفاقم أمره، إذ وصل عدد أتباعه إلى أكثر من مئة ألف شخص بين

خيّال وراجل. وكان كلّما اختلى بالمجوس، يقول لهم: «لقد آذنت دولة العرب بالأفول، هذا ما قرأته في أحد كتب الساسانيين. لن أعود إذا لم أدمّر الكعبة التي اتّخذوها بدل الشّمس قِبلةً لهم. أما نحن فسنجعل الشّمس قبلة لنا، مثلما كانت الحال عليه قديماً». وكان يقول للخرمية: «إن مزدك شيعي وهو يأمركم بأن تضعوا أيديكم في أيدي الشيعة». وظلّ سنباذ يوقع على هذا النغم نفسه للمجوس، وغلاة الشيعة، والخرمية، إلى أن استطاع أن يكسب إليه الفرق الثلاث ويستميلها. ثمّ استطاع أن يقتل بعض قادة المنصور، ويهزم جيوشه إلى أن ندب جهوراً العِجْلي لحربه بعد سبع سنوات.

وجمع جهور جيوش خوزستان وفارس، وتقدم نحو أصفهان حيث ضمّ إليه مرتزقتها، وعرب قم، وعجليي كرج[1] ثم مضى في سبيله إلى أن وصل إلى مشارف الري حيث اشتبك مع سنباذ في حرب ضارية ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع، قُتل سنباذ بيد جهور في أثناء نزال بينهما. فتفرقت جموعه، وعاد كل منهم إلى مكانه. واختلطت الخرمدينية بالمجوسية والتشيع وأخذ كل منهم يتصل بالآخر سرّاً، ويقوى وينمو يوماً عن يوم إلى أن أخذ المسلمون والمجوس يطلقون لقب «الخرمدينية» على هذه الطائفة.

وبعد أن قتل جهور سنباذ، دخل الري، وقتل من وجد فيها من المجوس، وأغار على منازلهم ونهبها، وسبى نساءهم وأبناءهم واتخذهم عبيداً.

---

(١) كَرَج (بفتح الكاف والراء): معرب «كره» كانت تقع بين همذان وأصفهان. أول من مصّرها أبو دلف القاسم بن عيسى العِجْلي وجعلها وطنه فعرفت بـ «كرج أبي دلف». (معجم البلدان).
لا يعرف الآن الموضع الحقيقي لكرج. غير أن كي لسترنج يذهب إلى أنه يجب البحث عن موضعها بالقرب من منابع النهر المار بساروق والملتقي بنهر قراصو الحالي، استناداً إلى ما ذكر من أنها كانت وراء جبال راسمند المعروفة اليوم باسم راسبند. (بلدان الخلافة الشرقية ٢٣٣).

الفصل السادس والأربعون

خروج الباطنية والقرامطة، لعنهم الله، وإظهار المذهب السيئ

إن سبب ظهور مذهب القرامطة، هو أنه كان لجعفر الصادق- رضي الله عنه- ابن اسمه إسماعيل، مات قبل أبيه تاركاً وراءه ابناً اسمه محمد. لقد عاش محمد هذا إلى أيام هارون الرشيد، ويقال إنه لما لمّح أحد الزبيريين أمام الرشيد بأن جعفراً الصادق يبيّت للخروج، ويدعو الناس سرًّا ويسعى للوصول إلى الخلافة بغير حق، أمر الرشيد، بإحضار جعفر من المدينة المنورة إلى بغداد وسجنه فيها. ومات محمد هذا في السجن، فدفن في مقبرة قريش[1].

وكان لمحمد بن إسماعيل مولى حجازي اسمه «مبارك»، كان يجيد الكتابة بخطٍّ دقيق يسمى «المقرمط»، فأطلق عليه لقب «قرمطويه». وكان لمبارك صديق أهوازي اسمه عبد الله بن ميمون القدّاح. يقال إنه جلس يوماً إلى مبارك وحيداً، وقال له: «كان مولاك محمد بن إسماعيل صديقي، وقد أفضى إليّ بأسراره التي لم يبح بها لك، ولا لغيرك». فدهش مبارك لهذا، ورغب في معرفته. وأخذ عبد الله بن ميمون على مبارك يميناً أن: «لا تفش ما أقول لك لأحد إلا لمن هو أهل له».

---

(١) يذهب عباس إقبال (حاشية ١ ص ٢٦٠) – ويوافقه الدكتور جعفر شعار وينقل عنه حرفيًّا ص ٣٢٢- إلى: «لقد توفي الإمام جعفر الصادق عام ١٤٨هـ في حين أن خلافة الرشيد بدأت عام ١٧٠هـ. لذا، فإن عَدَّ هذا الإمام معاصراً للرشيد لخطأ تاريخي آخر من أخطاء مؤلف سياست نامه».

إن هذا الكلام صحيح تاريخياً، لكن عبارات المؤلف أعلاه، وهي واحدة في النسخ الخطية كلها – فيما يقول دارك ص ٣٤٣- يشوبها الاضطراب والتناقض وعدم الدقة التاريخية. يقول النوبختي: «ولد موسى بن جعفر عليه السلام في سنة ثمان وعشرين ومائة، وقد قدم هارون الرشيد المدينة منصرفاً من عمرة شهر رمضان، ثم شخص هارون إلى الحج وحمله معه، ثم انصرف على طريق البصرة، فحبسه عند عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور، ثم أشخصه إلى بغداد فحبسه عند السندي بن شاهك، فتوفي في حبسه ببغداد لخمس ليالٍ بقين من رجب سنة ثلاثة وثمانين ومائة، وهو ابن خمس أو أربع وخمسين سنة. ودفن في مقابر قريش، ويقال في رواية أخرى إنه دفن بقيوده، وإنه أوصى بذلك....» (فرق الشيعة ص ٨٤-٨٥ والمصادر التي أحال عليها محقق الكتاب أيضاً).

وراح يعرض عليه أقوالاً عن رموز حروف المعجم على لسان الأئمة مشوبة بشيء من كلام أهل الطبائع[٢] وألفاظ الفلاسفة، وقد أكثر فيها من ذكر الرسول (ﷺ)، والأنبياء – عليهم السلام–، والملائكة، واللوح والقلم والعرش الكرسي. ثم افترقا، فاتجه مبارك إلى الكوفة، ومضى عبد الله نحو قوهستان العراق في طلب أهل التشيّع.

لقد كان موسى بن جعفر سجيناً[٣]، في حين مضى مبارك في نشر دعوته سرّاً حتى نشرها في سواد الكوفة. وأطلق أهل السنة على بعض من استجابوا لدعوته لقب «المباركية» وعلى بعضهم الآخر «القرمطية». أما عبد الله بن ميمون فكان يدعو الناس إلى هذا المذهب في قوهستان العراق وكان مشعبذاً بارعاً، وأستاذاً في الشعبذة[٤] وإجرائها. قد أورد محمد بن زكريا اسمه في كتاب «المخاريق»[٥] وعده في جملة أساتيذ الشَّعبذة. واستخلف عبد الله بن ميمون رجلاً اسمه «خلف»[٦]، وقال له : «امضِ إلى الري، وادعُ إلى الشيعة، فالناس في الري وقم وكاشان رافضة كلهم، وسيستجيبون لدعوتك سريعاً، فيعظم أمرك ثمة ويعلو شأنك». أما هو فتوجه إلى البصرة خوف البلية.

---

(٢) أهل الطبائع: هم الفلاسفة الدهريون الذين ينكرون وجود الله، ويحلّون الطبيعة أو الدهر محله. (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ٢٦٠).
وفي القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: آية ٢٤).

(٣) هذه العبارة تؤكد الاضطراب والتحريف اللذين نبّهت عليهما في بداية هذا الفصل، مما لا يدع مجالاً للشك في أن كلمة «موسى» قد سقطت من النسخ الخطية.

(٤) شعبذة (بالذال المعجمة) معرب: «شعبده» (بالدال المهملة) الفارسية (انظر: فهرست ابن النديم ٣٦٩). لكنها في عربية اليوم: «شعوذة».

(٥) لم أجد هذا الكتاب في ثبت كتب الرازي في فهرست ابن النديم. يذكر دارك نقلاً عن حواشي الترجمة الإنجليزية لكتاب «چهار مقاله» أن اسمه الكامل: «مخاريق الأنبياء» أو «حيل الأنبياء» وهو من كتب الرازي المغرقة في الكفر، ومن الكتب الأثيرة لدى القرامطة. (تعليقات دارك ٣٤٣)، وترجمته الانجليزية لكتاب سير الملوك هذا ص٢١٤). وجاء في ثبت كتبه في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (٢: ٣٥٩) ما يلي « كتاب فيما يرومه من إظهار ما يدعي من عيوب الأولياء». وقد علّق ابن أبي أصيبعة عليه، فقال: «وهذا الكتاب إن كان قد ألف، والله أعلم، فربما أن بعض الأشرار المعادين للرازي قد ألفه ونسبه إليه، ليسيء من يرى ذلك الكتاب أو يسمع به الظن بالرازي، وإلاّ فالرازي أجل من أن يحاول هذا الأمر، وأن يصنّف في هذا المعنى؛ وحتى إن بعض من يذمّ الرازي، بل يكفّره كعلي بن رضوان المصري وغيره يسمون ذلك الكتاب (كتاب الرازي في مخاريق الأنبياء)».

(٦) هو خلف الحلاج الذي كان صاحب محلجة قطن (دولة الإسماعيلية في إيران. حاشية ٢ ص ٤٤ نقلاً عن مخطوط كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر» لأبي بكر محمد بن أيبك. الجزء السادس، ورقة ٦٦). وقد أشار ابن النديم إليه دون أن يذكر اسمه، فقال: «أول من قدم من بني القداح إلى الري وأذربيجان وطبرستان رجل حلاج القطن...». (الفهرست ٢٣٩).

ومضى خلف إلى الري، وأقام في قرية «كُلين»[٧] في ناحية «بشاوية»[٨]، وأخذ يشتغل بالطرازة[٩] التي كان أستاذاً فيها. ومكث ثمة مدة لم يستطع أن يفضي فيها بأسراره لأحد، إلى أن تمكن بعد جهد جهيد[١٠] من أن يستميل إليه شخصاً لقّنه أصول المذهب، مدعياً أنه مذهب أهل البيت وأنه سريّ. لكنه سيعلن على الملأ بظهور «القائم»[١١]، وإن ظهوره لقريب. عليك أن تتعرف على هذا المذهب، لئلا تكون جاهلاً به حين يظهر المهدي. ثم أخذ أهل القرية يتقفون هذا المذهب، إلى أن تصادف وسمع كبير قرية «كُلين»، وهو يتجول خارجها يوماً، صوتاً يخرج من أنقاض مسجد هناك، فاتّجه نحوه وأخذ ينصت إليه، فإذا خلف يشرح مذهبه- مذهب القرامطة - إلى أحد الرجال.

لما عاد كبير القرية، قال لأهلها : (أيها النّاس، أفسدوا على هذا الرجل أباطيله وترهاته وأحبطوها، ولا تلتفّوا حوله، فإنّني أخشى، بما سمعت منه، أن يكون دمار هذه القرية على يديه. إن خلفاً هذا ألكن لا يقوى على تلفظ حروف: الطاء، والراء، والحاء. فلقد سمعته يقول: «هذا باب باتنه الرهمة»[١٢].

ولما علم خلف بوقوف الناس على حقيقة أمره، فرّ من تلك القرية إلى الري، وفيها مات. وكان قد تمكن من أن يجر بعض أهل «كُلين» رجالاً ونساءً إلى مذهبه. وخلفه، بعد موته، ابنه أحمد بن خلف الذي اقتفى خطى والده، دون أن يعلم أحد بالري بأمرهم، حتى اهتدى أحمد إلى رجل اسمه «غيّاث» كان حاذقاً جداً بالنحو والأدب فجعله خليفته في الدعوة.

شرع غيّاث هذا يوشي أصول مذهبهم بآيات من القرآن وأخبار الرسول وأمثال العرب والشعر. وألّف كتاباً باسم «البيان» ذكر فيه معاني الصلاة والصوم وألفاظ الشرع على نحو ألغاز ومعميات[١٣]. ثم دخل في مناظرة أهل السنة. وشاع في قم وكاشان وآبه هذا الخبر: «لقد ظهر في

---

(٧) كُلين (بضم الكاف): قرية كانت المرحلة الأولى من الري لمن يريد «خوار» على طريق الحج (معجم البلدان - كلين).

(٨) بشاوية: معرب «بشابويه» الفارسية: القسم الجنوبي من ناحية غار الواقعة في حوض نهر شور ونهر كرج. ومركزها المعروف قرية «محمد علي خان» على بداية طريق قم- طهران. (فرهنگ فارسي). يقال إنها ما زالت تعرف بفشاوية. (بلدان الخلافة الشرقية ٢٥١).

(٩) يقال إن الكلمة فارسية الأصل. (اللسان- طرز)

(١٠) الاصطلاح الفارسي هو: «به هزار حيلت» وترجمته الحرفية: «بألف حيلة».

(١١) القائم: لقب المهدي المنتظر.

(١٢) تحريف لقوله تعالى: ﴿...لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ...﴾ (الحديد: آية ١٣).

(١٣) ترجمت هذه العبارة عن نسخة إقبال (ص ٢٦٢) بعد أن وضح عدم سلامة أصلها في النسخة المعتمدة، وفي نسخة دارك أيضاً. فهي فيها: «ودر آن كتاب معنى نماز وروزه ولغتهاي شرعي برطريق لغت يادكرد». وهي في نسخة إقبال: «ودر آن كتاب... بر طريق لغزياد كرده». فقد تكون «لغت» صحفت عن «لغز». ولما استشرت صديقي الأستاذ الدكتور غلام حسين يوسفي في الأمر، وافقني على ما ذهبت إليه وأقره.

قرية كُلين رجل مناظر يقال له غيَّاث يبشر بأخبار سارة، ويعلِّم النَّاس مذهب أهل البيت». فقصد أهل هذه المدينة غيَّاثاً وأخذوا يتعلمون عليه المذهب، إلى أن لقف الفقيه «عبد الله الزعفراني»[١٤] الخبر، وعرف أن المذهب بدعة، وألَّب أهل الري على غيَّاث، ففر إلى خراسان. وأطلق أهل السنة بالري على فريق ممن اتبعوا هذا المذهب «الخَلَفيّة»، وعلى فريق آخر «الباطنية».

ومع حلول عام ٢٠٠هـ فشا هذا المذهب. وخرج بالشام في السنة نفسها رجل يقال له «صاحب الخال»[١٥]، واستولى على معظمها. أما غيَّاث الذي فرَّ من الري إلى خراسان، فأقام في «مرو الروذ»، ودعا فيها الأمير حسين بن علي المروروذي، فاستجاب له. وقوي نفوذ حسين هذا في خراسان، لا سيّما في «طالقان»[١٦] و«مهنة»[١٧] و«بارياب»[١٨] و«عرشستان»[١٩] غور. فلما اعتنق هذا المذهب، دخله خلق كثير من تلك النواحي أسوة به.

عيَّن غيَّاث خليفة له في مرو الروذ لدعوة الناس هناك، ومضى هو إلى الري، وجعل يدعو أهلها سرًّا من جديد، واتخذ له في ناحية بشاوية خليفة كان ذا معرفة واسعة بالشعر العربي، والأحاديث الغريبة، وكنيته

---

(١٤) قد يكون المقصود بعبد الله الزعفراني، الزعفراني المعتزلي الذي تنسب إليه فرقة «الزعفرانية» التي انفصلت عن فرقة النجارية». (انظر: الملل والنحل ١: ١١٦-١١٨؛ والفَرق بين الفِرق ١٢٧؛ وأحسن التقاسيم ٣٩٥؛ ودولة الإسماعيلية في إيران ٤٦ ومصادره).

(١٥) صاحب الخال أو صاحب الشامة. في اسمه أقوال وروايات مختلفة، وأكثرها رواجاً أنه عرف باسم «الحسين بن زكرويه». لقب بصاحب الخال لخال كان على خده الأيمن. المهم أن أشير هنا إلى خطأ نظام الملك تاريخياً، الذي التفت إليه دارك قبل(ص ٣٤٣). فقد ذكر المؤلف أن خروج صاحب الخال بأرض الشام كان عام ٢٠٠هـ في حين أنه كان عام ٢٩٠هـ وأنه قد هزم وقتل على يد الخليفة المكتفي عام ٢٩١هـ. (راجع: تاريخ أخبار القرامطة ٦٩-٩٠ والطبري ٨: ٢١٨ حوادث عامي ٢٩٠و ٢٩١).

وجاء في نسخة عباس إقبال (ص ٢٦٢) أنَّ ذلك كان عام ٢٨٠هـ، لكنه تدَّ عنه.

(١٦) الطالقان مدينة بخراسان: كانت تقع بين مرو الروذ وبلخ (معجم البلدان). ولم يبق لهذا الاسم ذكر في الخارطة اليوم فيما يقول كي لسترنج (بلدان الخلافة الشرقية ٤٦٥).

(١٧) مهنة، وقيل ميهنة: كانت قصبة رستاق أبيورد. (بلدان الخلافة الشرقية ٤٣٦).

(١٨) بارياب: مدينة من مدن خراسان القديمة. كانت تقع بين مرو الروذ وبلخ، وما زالت آثارها باقية إلى اليوم باسم «خير آباد». (تعليقات جعفر شعار ص ٤٢٤)، وذكرها ياقوت باسم «فيرياب».ومن أسمائها أيضاً «فارياب» (راجع: بلدان الخلافة الشرقية ٤٦٧).

(١٩) في الفارسية: غَرْجستان وغَرْشستان (بفتح العين وسكون الراء) كانت ولاية برأسها ليس لها سلطان ولا لسلطان عليها سبيل. وكانت تعرف عند البلدانيين العرب بـ «غرج الشار». الغرج بمعنى الجبال، والشار بمعنى الملك. أي «جبال الملك». كان يحدها من الغرب هراة، ومن الشرق غور، ومن الشمال مرو الروذ، ومن الجنوب غزنة. (معجم البلدان؛ وبلدان الخلافة الشرقية ٤٥٨).

«أبو حاتم»[٢٠]. ومضيا يدعوان الناس. وكان غيّاث وعد الناس بخراسان أن القائم الذي يدعى «المهدي» سيظهر في وقت قريب في سنة كذا. فوطّن القرامطة نفوسهم على هذا. أما أهل السنة، فبلغهم خبر عودة غيّاث مرة أخرى، وأنه يدعو الخلق إلى مذهب «السبعية»[٢١].

وأزف موعد ظهور المهدي، ولم يظهر. فبان كذب غيّاث، وأخذ السبعيون من مذهبه عليه مآخذ وعيوباً. لهذين السببين، غضبوا عليه، وتفرقوا عنه. أما أهل السنة، فمضوا في طلبه ليقتلوه، لكنه توارى عن الأنظار مضطراً، ولم يُدْرَ أين سارت ركائبه.

التف السبعيون، بعد ذلك، حول سبط من أسباط خلف، وقضوا معه حيناً من الدهر. ولما شعر بدنو أجله نصّب ابنه «أبا جعفر الكبير» خلفاً له. لكن أبا جعفر هذا، ابتلي بالسوداء[٢٢]، فأناب عنه رجلاً كنيته «أبو حاتم الكينتي»[٢٣] (؟) وما إن شفي أبو جعفر وتحسنت حاله، حتى قوي مركز أبي حاتم، فاستأثر بالرياسة دون أن يعر أبا جعفر أي اهتمام؛ فخرجت الرياسة من أسرة «خلف».

وبثّ أبو حاتم الدعاة في المدن المحيطة بالري من مثل: طبرستان، وجرجان، وأذربيجان، وأصفهان ودعا الناس إلى مذهبه ومقالته. فاستجاب أحمد بن علي أمير الري لدعوته، وصار باطنياً[٢٤].

ثم تألّب أهل ديلمان على علويي طبرستان، وقالوا لهم: «أنتم تدّعون: إنما المذهب هو هذا الذي نحن عليه حسب. غير أن المسلمين يكتبون إلينا من مختلف الأرجاء بأن لا تصغوا إليهم- أي إليكم-

---

(٢٠) جعل صاحب «دولة الإسماعيلية في إيران» أبا حاتم هذا وأبا حاتم الكينتي(؟) الآتي ذكره شخصية واحدة، وقال: «ولا ريب أن الإشارة هنا لأبي حاتم الرازي الفيلسوف المعروف وأحد دعاة الإسماعيلية المشار إليهم بالبنان...». (ص٤٦). مهما يكن، فأبو حاتم الرازي، مشهور بأحمد بن حمدان، وقد توفي عام ٣٢٢. وهو من كتّاب الإسماعيلية والمصنفين فيها، ومن دعاتها في الري، وقد أفاد من حماية مرداويج الزياري له. ولما وقف مرداويج إلى جانب الإسماعيلية، مضى أبو حاتم إليه في أذربيجان، وفيها توفي بعد سنوات.

كان أبو حاتم معاصراً لأبي زكريا الرازي، وكانت له معه معارضات. له من الكتب: الزينة، وكتب الجامع، وكتاب أعلام النبوة. وقد طبع قسم من الكتاب الأخير باعتناء بول كراوس (فهرست ابن النديم ٢٤٠؛ ودائرة المعارف فارسي).

(٢١) السبعية: فرقة تنسب إلى محمد بن إسماعيل. سميت بهذا لأن أصحابها يُنْهون الإمامة إليه، وهو الإمام السابع. (راجع فرق الشيعة ٧١-٧٣).

(٢٢) السوداء والسويداء: مرض «الماليخوليا». الهوس.

(٢٣) يبدو أن المحقق الدكتور جعفر شعار شكّ في «الكينتي» فوضع بعدها علامة استفهام (ص ٣٢٧). ومما يذكر أن ابن النديم ذكره أيضاً بـ«أبي حاتم الورساني» (الفهرست ٢٣٩).

(٢٤) راجع موضوع اعتناق أحمد بن علي مذهب الإسماعيلية واحتمالات رده: «دولة الإسماعيلية في إيران» ص ٤٩، ومراجعه أيضاً.

فمذهبهم سيئ، وهم أهل بدعة. إنكم تحتجّون بأن العلم قد خرج من آل بيتنا، في حين أن العلم لا يمضي مع النسب. إن تتعلموا تعرفوا، وكل من يتعلم تتاح له المعرفة أيضاً. فالعلم لا يورث. إن الله – عزّ وجلّ – أرسل النبي ﷺ للناس كافة، وأنه – عليه السلام – لم يجعل له في الدين قوماً خاصة، وآخرين عامة، حتى يقال إنه قال للخاصة كذا، وللعامة كذا. لقد تبيَّن لنا أنكم كذَّابون».

ولما كان أمير طبرستان شيعياً يناصر العلويين، فقد عصوه أيضاً، وقالوا له: «ائتنا بفتوى من بغداد ومدن خراسان وما وراء النهر – على أن يصحبك رسول منا ذهاباً وإياباً – تشهد بأن: مذهبكم هو مذهب المسلمين الأطهار، وأن ما تقولون وتفعلون هو ما أمر به الله ورسوله، لكي نقبلكم ونعتنق مذهبكم، وإلا فالسيف بيننا وبينكم. فنحن أبناء جبال وأهل أدغال». وأفاد أبو حاتم من هذه الحال فتحول من الري إلى الديلم حيث قابل زعيمهم «اسيار شيروي ورداوندي»[٢٥] وأعلن انضمامه إليهم، ثم شرع ينهش لحوم العلويين[٢٦]، ويلتمس لهم المعايب، وقرَّر أن: «دولتهم لم تكن شرعية. فالعلوي يجب أن يكون علوي دين لا نسب». ووعد الديالمة: «سيظهر قريباً إمام أنا على علم بدعوته ومذهبه». فرغب أهل ديلمان وجيلان في إجابته، وراجت بضاعته لديهم أيام سيار شيرو[٢٧]، وردحاً من عهد «مرداويج بن زيار»[٢٨]. مساكين أهل ديلمان وجيلان، فقد كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار[٢٩] كانوا يريدون أهل السنة[٣٠]، فوقعوا في شباك أهل البدعة؛ ومع ذلك فقد قضوا معه ردحاً من الزمن. غير أنهم لما رأوا أن الوقت الذي منّاهم بظهور الإمام فيه قد انقضى، قالوا: «إن هذا المذهب لا أساس له، ولا مراء في أن هذا الرجل لص طرّار». فانفضوا من حوله دفعة واحدة، وصاروا إلى محبة أهل بيت رسول الله (ﷺ)، ومضوا في طلب أبي حاتم ليقتلوه، لكنه لاذ بالفرار،

---

(٢٥) كذا في طبعة جعفر شعار (ص ٣٢٨). وطبعة دارك (ص٢٨٦). وفي طبعة عباس إقبال: «شروين بن ورداوند» (ص ٢٦٤). وهو تصحيف «أسفار بن شيرويه» كما في المصادر المعتمدة (راجع: المصادر التي أشار إليها مؤلف كتاب «دولة الإسماعيلية في إيران» في حواشي الصفحات ٥٠-٥٢ وفرهنگ فارسي أيضاً).

(٢٦) أي يغتابهم ويشنّع عليهم، أو يأكل لحومهم أمواتاً فيما نص القرآن الكريم. واصل الاصطلاح الفارسي: «ودرپوستين علويان افتد».

(٢٧) كذا أيضاً.

(٢٨) مرداويج بن زيار مؤسس سلسلة آل زيار التي يعود نسبها إلى ملوك إيران القدماء، والتي حكمت في نواحي طبرستان وجرجان وجيلان وغيرها من أوائل القرن الرابع الهجري إلى أواسط القرن الخامس، وانقرضت على يد الغزنويين (فرهنگ فارسي – مرداويج؛ وآل زيار أيضاً).

(٢٩) أصل المثل الفارسي: «ازباران بگريختند در ناودان آويختند». وترجمته الحرفية: «لقد فرّوا من المطر، فتلقّاهم المزراب». لكنني آثرت ترجمته بمعادله في العربية لشيوعه ورواجه.

(٣٠) أي كانوا يريدون أهل السنة تخلصاً من علويي طبرستان وأميرها فيما تقدم.

ومات في مفره، فتهلهل أمر مذهب السبعية وأصابه الوهن، ودبّ فيه الضعف، فتراجع عنه خلق كثيرون، ولحقوا بأهل السنة، وتابوا إلى الله توبة نصوحاً.

أما السبعيون فهاموا على وجوههم حيناً، لكنهم ظلُّوا يلتقون ويتفقون سراً إلى أن آل أمر المذهب إلى شخصين: أحدهما عبد الملك الكوكبي الذي كان يقطن في «كردكوه»[٣١]، والآخر إسحاق الذي كان يقيم بالري.

في ظهور الباطنية في خراسان وما وراء النهر

أغوت الباطنية أمير خراسان نصر بن أحمد. وفي خراسان ندب حسين بن علي المروروذي[٣٢] — الذي كان غيّاث قد صيره باطنياً- وهو يُحتضر، محمداً النخشبي[٣٣] للدعوة وعيّنه خلفاً له ونائباً. وكان النَّخشبي متكلِّماً معدوداً في فلاسفة خراسان. وأوصى حسين المروروذي النخشبي أن يعمل ما بوسعه في أن ينيب عنه شخصاً هناك- أي في خراسان-، ويعبر جيحون إلى بخاري وسمرقند لجرّ أهلها إلى هذا المذهب، واستمالة بعض أعيان أمير خراسان نصر بن أحمد، تقوية لأمره.

ولما مات حسين المروروذي، خلفه النخشبي، فاستجاب خلق كثيرون من أهل خراسان لدعوته. ثم عين النخشبي خليفة له في مرو الروذ رجلاً من زعماء الباطنية يقال له «ابن سوادة»، كان قد فرّ من أيدي سنّيي الري إلى خراسان عند حسين بن علي المروروذي. أما المروروذي نفسه، فعبر جيحون إلى بخارى، لكنه لما رأى أن لا نفع يرتجى لمذهبه هناك، وأنه لا يجرؤ على إظهاره، ترك بخارى إلى «نخشب». وفي نخشب استطاع أن يستميل إليه أحد ذوي قرباه «بكر النخشبي» الذي كان نديماً لأمير خراسان. واستطاع بكر أن يدخل في هذا المذهب صديقاً له اسمه «الأشعث» كاتب الأمير الخاص الذي كان منه بمنزلة النديم. ولما دعوا «أبا منصور الجغاني» عارض الأمير وزوج أخت الأشعث للدخول في المذهب، لبّى دعوتهم. ودخل في مذهبهم أيضاً «آيتاش» الحاجب الخاص الذي كان صديقاً لهم. ثم قالت هذه الثلة لمحمد النخشبي: «لا داعي لوجودك في نخشب. تعال إلى الحضرة[٣٤] بخارى، تصل بدعوتك إلى عنان السماء في أقصر وقت، وندخل في مذهبك العظماء والأعيان».

---

(٣١) كردكوه: قلعة كانت في وسط الجبل، وكانت ترى من دامغان (نزهت القلوب).

(٣٢) نسبة إلى مرو الروذ.

(٣٣) وقيل: محمد النسفي أيضاً. ونخشبي ونسفي نسبة إلى «نخشب» و«نسف»، وهما اسمان لمدينة واحدة كان يسميها العرب «نسف» والفرس «نخشب»، كانت تقع بين جيحون وسمرقند. وقد اشتهرت في التاريخ بأنها موطن المقنّع (بلدان الخلافة الشرقية ٥١٣، وراجع: عن النسفي ومؤلفاته: فهرست ابن النديم ص ٢٣٩-٢٤٠).

(٣٤) الحضرة: العاصمة، المركز. والكلمة مستعملة في الكتب التاريخية.

وترك النخشبي نخشب إلى بخارى، وأخذ يجالس فيها هو وثلته الأعيان والعظماء يدعوهم إلى مذهبه، وكان يأخذ على كل من يستجيب له عهداً بأن: «لا تبح بشيء لأحد ما لم أقل لك».

وكان النخشبي يدعو الناس إلى الشيعة أولاً، ثم يجرهم تدريجياً إلى «السبعية» إلى أن دخل في مذهبه رئيس بخارى وصاحب خراجها، ووجوه المدينة وتجارها. وأدخل في مذهبه أيضاً «حسن ملك» الذي كان من خاصة الأمير ووالي «إيلاق»[٣٥]، وعليًا الزرّاد الذي كان الوكيل الخاص. ولقد كان أكثر من ذكرنا من مقربي الأمير ومعتمديه.

وبعد أن كثر أتباع النخشبي، وجّه اهتمامه إلى الأمير نفسه، فأوعز إلى خاصته بأن يذكروه بالخير أمام نصر بن أحمد في صحوه وسكره. وذكره أولئك مرات أمام نصر الذي أنابهم بأن ينقلوا إليه أنه - أي نصر - يرغب في رؤيته ولقائه. ثم مضوا به إلى نصر، وأخذوا يشيدون بعلمه ويثنون عليه أمامه، حتى شغف به أمير خراسان فقربه وأعزه. وكان النخشبي يلقي على مسامع الأمير شيئاً من مقالته في كل مرة يجلس إليه. وكان الندماء والمقربون - ممن اتبعوا مذهبه - يكيلون له عبارات المدح والاستحسان والإعجاب كلما فاه بشيء، ويقولون: «هذا هو الصَّحيح». وأخذ نصر بن أحمد يكرمه ويرفع من قدره أكثر فأكثر يومياً، حتى إنه أضحى لا يطيق دونه صبراً. وباختصار، فقد انتهى الأمر باستجابة نصر بن أحمد لدعوته، وهيمنة النخشبي ونفوذه حتى أصبح تعيين الوزراء وتنحيتهم رهن إرادته. وراح الأمير ينفّذ كل ما يقول.

ولما وصل النخشبي إلى هذا الحد جاهر بدعوته، فسانده أتباعه وأظهروا مذهبهم علانية، وازدادوا قوة وجرأة، وصار الأمير يجالس السبعيين. غير أنّ الترك وقادة الجيش لم يرق لهم أن يتحول الأمير إلى القرمطية، فقد كان لقب قرمطي يطلق في تلك الأيام على من يعتنق هذا المذهب.

أما علماء المدينة وضواحيها وقضاتها فجمعوا أنفسهم، ومضوا جميعاً إلى القائد الأعلى للجيش، وقالوا له: «حذار حذار، فالإسلام في ما وراء النهر في محنة وضياع. لقد أضل هذا النخشبي الحقيرُ الأمير وجعله قرمطياً، وحرف الناس عن سبيل الحق. ولقد آل أمره إلى حد يدعو فيه الناس إلى مذهبه جهاراً وعلانية. لا نستطيع أن نلوذ بالصمت أكثر من هذا». فقال: «إني شاكر لكم هذا. عودوا واهدأوا بالاً. فسيأتي الله تعالى بما فيه الصلاح إن شاء الله».

---

(٣٥) إيلاق: كانت من مدن بلاد الشاش المتصلة ببلاد الترك. (معجم البلدان). ويقال إنها مدينة كانت تقع بين فرغانة وطشقند الحالية على بعد عشرة فراسخ (٦٠ كيلومتراً) من الأخيرة. (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ٢٦٧).

في اليوم التالي، كلَّم قائد الجيش نصر بن أحمد في الأمر، دون جدوى. وثارت ثائرة الجند، فقالوا: «لن نوافق- بأية حال- على ما اختار الأمير، أو نسهم فيه». أما قادة الجيش فبدأوا يتبادلون الرسائل سرًّا بأن «ما الحيلة؟»؛ واستطاعوا أن يعرفوا ما يكنّه كل واحد منهم، وهو أنهم لن يرضوا بما أخذ الأمير نفسه به. لقد كانوا كلهم من ذوي العمائم سوى أميرين تركيين دخلا في هذا المذهب. وأخيراً، اتفق قادة الجيش على أن: «لا نريد أميراً كافراً، سنقتل الأمير، ونجعلك أنت يا قائد الجيش الأعلى أميراً، ونقسم لك بأننا لن نتراجع عن هذا». واستجاب القائد الأعلى لهم تديناً وطمعاً في الحكم، وقال: «إن أول ما يجب أن نتدبره، هو أن نجتمع نحن قادة الجيش معاً، ونتعاهد، ثم نتداول في كيفية الاستيلاء على زمام الأمور بنحو لا يدري به الأمير». فقال قائد عجوز يقال له «طلن أوكا»: «تدبير الأمر أن تخبر، أنت يا قائد الجيش، الأمير: «إن قادة الجيش يطلبون إليّ أن أقيم لهم مأدبة»؛ ولن يقول- بأية حال-: «لا تفعل»، بل سيقول: «ولمَ لا إن تستطع». حينئذٍ قل له: «إنني لست عاجزاً من حيث الطعام والشَّراب، لكنني لا أقدر على إعداد ما يحتاج إليه المجلس من سجاد وفراش وآلة وأدوات زينة ذهبية وفضية». وسيقول لك: «خذ ما تحتاج إليه من خزانتنا، وبيت شرابنا، ودار فراشنا». فقل له: «إنني سأقيم لهم مأدبة على أن يتجهوا بعد الطعام لغزو الكفار في بلاساغون التي استولى عليها كفرة الترك، وجاوز صراخ المتظلّمين مداه»، كيما لا يسيء بك الظن. ثم هيئ نفسك لإعداد مستلزمات الوليمة، ومر الجنود أن: «استعدوا لضنك يوم كذا». ثم استعر كل ما في خزانة الملك وبيت شرابه وفراشه من آلة ذهبية وفضية، وفرش الديباج والتحف، وخذها إلى قصرك. وفي اليوم الموعود، وبعد أن يجيء الجند جميعهم إلى قصرك، أغلق بابه بدعوى كثرة الناس، ثم أدع إلى إحدى الحجرات قادة الجيش لشرب «الجلاَّب»[٣٦]، وفاتحهم في الأمر – توطئة لقتل الأمير ومبايعة القائد الأعلى- إننا- ونحن الأصل- معك، أما الآخرون، وهم الفرع- فإنهم سيوافقوننا- بعد أن يسمعوا رأينا- أيضاً، وينضمون إلينا. حينئذٍ نعاهدك ونغلظ لك الأيمان، ونعقد لك البيعة بالإمارة، ثم نخرج من الحجرة ونجلس إلى الخوان. وبعد الطعام، ننتقل إلى مجلس الشراب، فيشرب كل منا ثلاثة أقداح، ثم نهب آنية المجلس ذهبيها وفضيها قادة الجيش، ونخرج حالاً، ونتوجه إلى قصر الأمير، فنقبض عليه ونقتله، ولا نؤمن أحداً من ندمائه وأتباع مذهبه، بل نقتلهم جميعاً، ثم ننهب كل ما في خزينته وإصطبله وقصره، ونجلسك على العرش فوراً. بعد ذلك نأمر الجيش بأن يشرعوا سيوفهم ويمضوا إلى المدينة والريف ليقتلوا كل من يجدون من القرامطة كافة، ويحرقوهم، وينهبوا ثرواتهم وممتلكاتهم». فقال القائد الأعلى: «هذا هو التدبير».

---

(٣٦) الجلاب: معرب «گـلاب» الفارسية المركبة من «گـل» أي «الورد» و «آب» أي «ماء».ومعناها هنا نوع من شراب يعقد من العسل أو السكر بماء الورد. (فرهنگ واژهاى فارسى در زبان عربى ١٦٠).

في اليوم التالي، قال القائد الأعلى لنصر بن أحمد: «إن قادة الجيش يريدونني أن أقيم لهم وليمة، ويطالبونني بها يومياً». فقال نصر: «إن تستطع فلا تقصر». قال القائد الأعلى:«لست عاجزاً من حيث الطعام والشراب، لكنه يتعذر عليّ أن أهيئ ما يحتاج إليه المجلس من فرش وآلة وزينة ذهبية وفضية. فإما أن يولم المرء وليمة جيدة، وإلا فلا». قال نصر: «خذ ما تحتاج إليه لهذا الغرض من خزانتنا وبيوت شرابنا، وبيت فراشنا». فقبّل القائد الأرض بين يدي نصر بن أحمد وانصرف.

وفي اليوم التالي، قال للجند: «عليكم أن تجهدوا يوم كذا». ثم حمل كل ما في خزانة نصر بن أحمد وبيتي شرابه وفراشه من أطباق الذهب وضروبها، وأقام وليمة لم ير أحد مثلها آنذاك. فأمّ قصره جميع قادة الجيش، كلٌّ وفوجه. ثم أمر القائد الأعلى بإغلاق باب القصر، ودعا إليه كبار رجال الجيش وقادته في حجرة خاصة، فبايعوه وعاهدوه، ثم خرجوا إلى الخوان مباشرة. بيد أن أحدهم تسلل من القصر عن طريق السقف، وخفّ إلى نوح بن نصر وأخبره بما حاكه قادة الجيش. فامتطى نوح صهوة جواده حالاً، ومضى إلى قصر والده على جناح السرعة، وقال له: «علام الجلوس، وقادة الجيش قد عقدوا البيعة والعهد للقائد الأعلى الساعة؟! إنهم سيتحولون بعد الطّعام إلى مجلس الشّراب، فيشرب كل منهم ثلاثة أقداح، ثم ينهبون كل ما في المجلس من آلة الذهب والفضة، وما أخذوه من خزانتك، ويخرجون إلى قصرنا فيقتلونك ويقتلونني، ويقتلون كل من يجدون فيه. إنّ الغرض من وراء هذه الوليمة هو هلاكنا». فقال نصر لنوح: «فما الحيلة الآن؟». قال نوح: «أن ترسل الآن اثنين من خاصة خدمك إلى القائد الأعلى، وقبل أن ينهض الجمع عن الطعام إلى الشراب، ليهمسا في أذنه: «يقول لك الأمير: بلغني أنك تكلفت كثيراً، وأقمت مأدبة في غاية البهاء والعظمة، أما وعندنا بضعة كراسٍ ذهبية مرصعة، لا قبل لأحد من الملوك اليوم بها، في مكان خارج الخزانة، نسيت أن أقول لك بأن تحملها إلى مجلسك أيضاً لتضفي عليه زينة ما بعدها زينة. إن ثمنها عشرة أضعاف ألف ألف دينار[٣٧]. هلمّ، لأسلمك إياها يداً بيد أيضاً، قبل أن يصير الضيوف إلى مجلس الشراب». وسيأتي، لا محالة، طمعاً بالمال. وحين يجيء نقطع رأسه، ثم نتداول فيما يجب فعله بعد».

وأرسل نصر في الحال اثنين من خاصة خدمه يبلغان القائد الأعلى هذا. وفي حين كان المدعوون منهمكين في الطعام، قال القائد لواحد أو اثنين منهم: «لأيّ شيء يستدعيني الأمير السّاعة؟!». قالوا له: «اذهب، وأحضر الكراسي أيضاً. فكل شيء يليق بنا اليوم. ومضى القائد إلى قصر الأمير مسرعاً. فاستدعي إلى إحدى الحجر، وأمر الأمير غلمانه، على الفور، بفصل رأسه عن جسده ووضعه في

(٣٧) أي عشرة ملايين دينار.

مخلاة. ثم قال نوح لأبيه: «لنركب نحن الاثنين ونذهب- والمخلاة معنا- إلى قصر القائد الآن. ولتتنح أنت عن العرش أمام الجيش، وتجعلني ولياً للعهد، لأتولى جوابهم عنك، لكي يظل الملك في بيتنا. إن الجيش لن يكون على وفاق معك بعد الآن، وإنك ستنجو بهذا من قتلهم وتموت موتاً عادياً». وركبا، ومضيا إلى قصر القائد على وجه السرعة. والتفت قادة الجيش، فإذا الأمير وابنه يدخلان القصر. فنهضوا جميعاً، وتقدموا إلى الأمام ترحيباً بهما، ولم يكن أحد يدري بما جرى. وقالوا: ربّما رغب الأمير في حضور الحفل. ونهض نصر بن أحمد وجلس في مكانه، ووقف حملة السلاح من خلفه، وجلس نوح من عن يمينه، وقال: «اجلسوا جميعاً، وأتموا طعامكم». فجلسوا وعاودوا الأكل، فالتهموا ما على الخوان. فقال نصر بن أحمد: «اعلموا أنني قد أُبلغت بما حاكته أيديكم وتواطأتم عليه. فنفرت منكم لأنكم كنتم تبغون قتلي. إن قلوبكم مني نافرة، وأنتم ضاغنون عليّ الآن، ولن تأمنوا بعد اليوم جانبي، أو آمن جانبكم. فإذا ما كنت قد حدت عن جادة الحق، أو اعتنقت مذهباً سيئاً، أو بدا مني ذنب، وهو ما جعلكم تتوقدون عليّ غيظاً، فها هو ذا ابني نوح. أفيه عيب؟». قالوا: «لا» فقال: «لستم بعد الآن جيشي ولست أميركم». لقد جعلت نوحاً وليًّا لعهدي، وهو الآن أميركم. أما أنا فسأشغل نفسي- سواء كنت على صواب أم باطل- باستغفار الله، عزّ وجلّ، والتوبة إليه؛ وأمّا من حملكم على ما أنتم فيه، فقد نال جزاءه». وأمر بإخراج رأس القائد من المخلاة ووضعه أمامهم، ثم نزل من على سريره، وجلس على المصلى». وتحول نوح إلى السّرير، وجلس مكان أبيه.

دهش قادة الجيش، فأخذتهم الحيرة لما سمعوا ورأوا، ولم يأتوا بأيّ عذر وحجة، بل انحنوا لنوح وهنأوه تهنئة خالصة، وألصقوا الجرم كله بالقائد الأعلى، وقالوا: «أنت سيدنا، ونحن مواليك، فالأمر لك». فقال نوح: «لتعلموا أنني، في كل شيء، نوح لا نصر. لقد فات ما فات، وحملت خطأكم هذا محمل مائة صواب. سأحقق لكم كل رغباتكم، فاصدعوا لأمري، وانصرفوا إلى شؤونكم ومعاشكم حسب». ثم طلب قيداً، وأمر بوضعه في رجليّ أبيه ونقله إلى «قهندز»[٣٨] حالاً، وحبسه فيها. ثم قال: «والآن، هيا بنا إلى الشّراب».

ولما جلسوا إلى الشراب، وشرب كل منهم ثلاثة أقداح، قال نوح: «كنتم قد عقدتم العزم، بعد أن تشربوا ثلاثة أقداح، على أن تنهبوا كل ما في المجلس. إنني لا أرتضي النهب ولا آمر به، لكنني وهبتكم كل ما فيه هبة، فخذوها جميعاً وتقاسموها، كل حسب مرتبته، لينال كل واحد منكم نصيبه

(٣٨) قهندز: معرب «كهندز». أي قلعة قديمة عتيقة (انظر: ترجمة الشاهنامه ٢ :٣٤٣).

منها». فأخذوها، ووضعوها في «الجوالق»، فختموها وأودعوها شخصاً معتمداً. ثم قال نوح: «إن كان القائد الأعلى ظن بنا ظن السوء، فقد نال عقابه، وإن كان أبي قد حاد عن طريق الصواب، فها هوذا الآن يتلقى جزاءه. أما أنتم، فاتفقتم على أن تصيروا- بعد الطعام – إلى غزو بلاساغون لقتال كفار الترك، إن في أرضنا نحن كفاراً أولى بأن يُقاتلوا. هبوا إلى جهادهم وغزوهم، واقتلوا كل من دخل في الإلحاد واعتنق المذهب الذي اعتنقه أبي في ما وراء النهر وخراسان، وحلال عليكم ثرواتهم وأموالهم ونعمهم. لقد وهبتكم اليوم ما كان في المجلس من أموال والدي، وسأهبكم غداً ما في الخزانة، فإن ثروة الباطنية حرية بالنهب. أريدكم أن تأتوني الآن بمحمد النخشبي وجلساء أبي، وتضربوا أعناقهم، ثم تنتشروا في المدينة والنواحي». فحملوا حالاً، وأحضروا محمداً النخشبي الذي كان الداعية، وضربوا عنقه، وأعناق حسن ملك، وأبي منصور الجغاني، والأشعث، وعدد من الأمراء الذين دخلوا في الباطنية. ثم انبثوا في المدينة، وشرعوا يقتلون كل من كانوا يجدونه منهم، فقد كانوا يعرفونهم جميعاً، لأن الباطنية كانوا، بقوة الأمير وعزمه، يجاهرون بمذهبهم ويدعون الناس إليه علانية».

وفي اليوم نفسه، أرسل نوح أميراً على رأس جيش يعبر به جيحون إلى مرو الروذ بأقصى سرعة، ليقبض على ابن سوادة ويقتله. ثم يشرعون سيوفهم، فيقتلون كلّ من يتعرفون عليه ويجدونه من الباطنية في خراسان، سواء كان من الجيش أم من الرعية. وأوصاهم بان يؤمنوا الناس، لئلا يقتل مسلم خطأ، وأقسم بأن من يقتل مسلماً: «سأقتله ولا أقبل له عذراً».

وقضى رجال نوح سبعة أيام بلياليها يطوفون في بخارى ونواحيها يقتلون الباطنية وينهبون ثرواتهم، بحيث لم يبقَ منهم أحد في خراسان وما وراء النهر سوى أولئك الذين لم يجرؤوا على المجاهرة باعتناقهم الباطنية. وقضي على هذا المذهب بخراسان.

خروج الباطنية بالشام والمغرب وفسادهم

ونأتي إلى الكلام على الشام فنقول: كان لعبد الله بن ميمون ابن اسمه أحمد. فلما مضى عبد الله إلى البصرة، وأخذ يدعو الناس فيها سراً، ثم مات هناك وألقي بروحه الخبيثة في جهنم، نهض ابنه أحمد وصار إلى الشام، ومنها إلى المغرب. ولما لم يلقَ فيها آذاناً صاغية، عاد إلى الشام، وأقام في مدينة يقال لها «سليمة»[٣٩] يشتغل بالبزازة[٤٠]. وولد له ثمة ابن أسماه محمداً. وأسلم أحمد الروح، فمضت

(٣٩) كذا في نسخة شعار (ص ٢٣٩)، لكنه أثبتها في تعليقاته «سلمية» وقال: «مدينة قرب حمص بالشام» (ص ٤٢٨) وفي نسخة دارك: «سلمى» (ص ٢٩٦) وفي عباس إقبال: «مسلمية»(ص ٢٧٣). لكن اسمها الصحيح كما ورد في كتب البلدان والتاريخ: «سَلَمْيَة» (بفتح الأول والثاني وسكون الميم). لتسميتها قصة ذكرها ياقوت. لكن أهل=

مسرعة إلى النار أيضاً. ولما كان ابنه محمد صغيراً، خلفه أخوه سعيد بن الحسين الذي ترك الشام إلى المغرب حيث غيّر اسمه إلى عبد الله بن الحسين، ثم بعث برجل من أصحابه هو أبو عبد الله المحتسب[٤١] نائباً عنه إلى بني الأغلب- كان أكثرهم سكان بادية- في النواحي التي كانوا يقطنونها. ودعا أهل تلك المناطق إلى هذا المذهب، فدخل فيه منهم عدد كبير. حينئذٍ أمرهم بأن: «ادعوا إلى المذهب بالسّيف، واقتلوا كل من لا تجدونه عليه». فصدعوا للأمر، وتجمع خلق كثير من بني الأغلب، وشرعوا يهاجمون المدن والنواحي ويغيرون عليها، ويدخلونها، ويعيثون في أهلها قتلاً ويستولون على المدن الواحدة تلو الأخرى إلى أن دانت أكثر بلاد المغرب لهم، وخضعت لسيطرتهم.

فما كان من زكرويه، الذي كان يقال له «صاحب الخال» والذي كان يحكم بعض مدن الشام، إلاّ أن أرسل «علي وهسودان الديلمي» قائد جيشه الأعلى- وكان سنيًّا- بجيش الشّام إلى أبي عبد الله المحتسب فجأة... ففرّ أبو عبد الله، وأعمل جيش علي السيف في بني الأغلب، وقتلوا منهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وشتّتوا شملهم في بقاع الأرض. أما أبو عبد الله، فنزل في مدينة من مدن بني الأغلب، وألقى عنه الطيلسان[٤٢]، وأخذ يعيش عيشة المتعبدين الصالحين. وكان أهل تلك المدينة يعاملونه معاملة حسنة ويكرمونه، وصاحب الخال يرسل رسله إليهم باستمرار ليبعثوا به إليه، لكنهم لم يرسلوه، بل كانوا يلتمسون لذلك الأعذار، في حين كان أبو عبد الله يخشى أن يخاف بنو الأغلب من صاحب الخال ويسلموه إليه. واستقر به المقام أخيراً في جزيرة من جزر بني الأغلب وبنى له فيها منزلاً. وظلّ بنو الأغلب يبعثون إليه بزكاتهم. ولّما مات خلفه ابنه، وظلّت قاعدة المذهب وأساسه هناك أمداً طويلاً.

= الشام لا يعرفونها إلا بسلمية. كانت بليدة من ناحية البرية من أعمال حماة وكانت تعد من أعمال حمص(معجم البلدان).

والسلمية اليوم – وكانت قاعدة من قواعد الإسماعيلية- بلدة شرقي نهر العاصي، سكانها نحو ستة آلاف نسمة. والسلمية أيضاً قضاء في محافظة حماة بسوريا.

(٤٠) البزازة: هي البز، وهي الثياب، وقيل ضرب منها. البزازة تجارة البزاز أو حرفته. (اللسان- بزز).

(٤١) هو أبو عبد الله المحتسب الصوفي الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بأبي عبد الله الشيعي الذي قيل إنه كان من أهل المشرق. (انظر: عطا ملك الجويني، تاريخ جهانگشاي- القسم الخاص بالإسماعيلية ص ١٦١-١٦٢. «الترجمة العربية»، وحواشي ٢ و٣ و ص١٦٢ للمترجم. وقد ترجم هذا القسم من الكتاب إلى العربية الدكتور محمد السعيد جمال الدين ونشره ذيلاً لكتابه: «دولة الإسماعيلية في إيران» (القاهرة ١٩٧٥).

(٤٢) الطيلسان: يقال إنه معرب «تالشان»، وجمعه طيالسة. وقيل: إنه ثوب يلبس على الكتف. كما قيل إنه ثوب يحيط بالبدن ينسج للبس خال عن التفصيل والخياطة. (فرهنگ نفيسي، ومعرب الجواليقي ٢٢٧).

خروج الباطنية في نواحي هراة وغور وهلاكهم

وفي عام ٢٩٥ لهجرة النبي (ﷺ) أرسل والي هراة محمد بن هرثمة إلى الأمير العادل إسماعيل بن أحمد الساماني، يقول«إنَّ رجلاً يكنّى بأبي بلال خرج في سفوح جبال غور وغرجه مجاهراً بمذهب القرامطة، وإن الناس- من كل الطبقات- قد التفوا حوله. لقد سمّى داره «دار العدل» وهرع إليه خلق كثير من نواحي هراة يزيد عددهم على عشرة آلاف لمبايعته. إن تتجاهل أمره أو تهمله، فسيلتف حوله أضعاف هذا العدد. حينئذٍ يتفاقم الأمر، وتشتد البلية. ويقال إن أبا بلال هو أحد ندامى يعقوب بن الليث، وهو يدعو إلى المذهب نيابة عنه»[٤٣].

لمّا بلغ الأمير إسماعيل هذا، قال: «يبدو أن دم أبي بلال هذا يغلي»[٤٤]، ثمّ أمر «زكري» الحاجب أن: «تخيّر خمسمائة غلام من بين الغلمان جميعاً، كل واحد منهم أجلد من الآخر وأشجع، وليعطوا مالاً، ثم اجعل عليهم «تيقش» قائداً، فهو غلام ألمعي؛ وليعطَ عشرة آلاف درهم. وحمِّل خمسمائة درع على البغال، ثم إيتِ بهم غداً إلى «جوي موليان»[٤٥] كيما أراهم، وتذهبوا من أمامي إلى هناك». ونفَّذ الحاجب زكري ما أمر به. ثم أمر الأمير إسماعيل، أيضاً، بكتابة رسالة إلى أبي علي المروروذي تقول: «زوِّد أعوانك بالمال، واخرج من المدينة قبل أن يصل غلماني إليك، ثم امضِ معهم إلى هراة، والتحقوا جميعاً بمحمد بن هرثمة».

وكتب إلى محمد بن هرثمة: «جهِّز جيشك، واخرج من المدينة إلى أن يصل إليك تيقش وأبو علي». وقطع لتيقش عهداً على نفسه، فقال: «سأوليك ولاية، حين تصل إليّ من محمد بن هرثمة رسالة تُنبئ بأن الفتح قد تمَّ على يديك». أما الغلمان الآخرون، فخاطبهم: «إن هذه الحرب ليست كالحرب مع علي بن شروين[٤٦]، أو عمرو بن اللَّيث أو محمد بن هارون [٤٧]، فقد كان لنا هناك عدد وعدّة. لقد

---

(٤٣) أنّى يكون هذا، وقد مات يعقوب بن الليث عام ٢٦٥هـ؟

(٤٤) ترجمة للمثل الفارسي: «چنان دانم كه أبو بلال راخون به جوش آمده ست».

(٤٥) في طبعتي شعار ودارك «جوى مولتان» (بالتاء)، وهو تصحيف. الصحيح «جوي موليان» (بالياء) كما في نسخة إقبال الذي يقول إنه كان أحد روافد جيحون قرب بخارى (حاشية ١، ص ٢٧٥). (وجوى موليان) أيضا محلة كانت ببخارى، عرفت بنقاء جوها وحسنه، وظلت قائمة إلى عهد السامانيين (الترشحي: تاريخ بخارى، ص ٤٧-٤٨، الترجمة العربية. دار المعارف بمصر).

(٤٦) علي بن شروين: كان القائد الأعلى لجيش عمرو بن الليث الصفاري. وقد وقع في قبضة الأمير الساماني إسماعيل في حربه معه. (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ٢٧٥).

(٤٧) محمد بن هارون السرخسي: كان قائد الأمير إسماعيل الساماني في فتح طبرستان. لكنه، بعد سنة ونصف من حكمه فيها، أعلن العصيان على إسماعيل الذي توجه إليه عام ٢٨٨هـ لدفعه، فغلبه إسماعيل وسيطر عليه (عباس إقبال حاشية ٢ ص ٢٧٥).

اعتمدتكم وحدكم في مهمة، وهي أن خارجاً ظهر في سفوح جبال هراة، وأظهر مذهب القرامطة علانية. إن معظم أتباعه من الرعاة والزُّراع. سأخلع عليكم الخلع وأصلكم جيعاً بالصلات، وأرفع من مراتبكم ودرجاتكم بعد الانتصار والفتح الكبير». ثم ندب كاتباً ذكياً بارعاً لتولي شؤونهم الديوانية.

لمّا وصل تيقش بالغلمان إلى مشارف مرو الروذ، انضم إليه أبو علي برجاله في الحال، واستلم مفارق الطرق، لئلاً يلقف الخارجون أخبارهم. ولما وصلوا إلى هراة، خرج محمد بن هرثمة بجيشه حالاً، واستولوا على مفارق الطرق، لئلا يعلم أبو بلال بأمرهم. ثم صاروا جيعهم إلى الجبل، وقضوا ثلاثة أيام بلياليها يخترقون المسالك الصعبة والمنافذ الوعرة، والقرامطة في سبات وغفلة. وشرعوا سيوفهم، وأعملوها في القرامطة إلى أن قتلوهم جيعاً، وقبضوا على أبي بلال وحمدان و«توزكارا»، وعلى عشرة آخرين من زعمائهم. ثم عادوا إلى بخارى في سبعين يوماً. واقتيد أبو بلال إلى سجن «قهندز»، وظل رهينه إلى أن مات.

أما الآخرون[٤٨]، فأُرسلوا إلى بلخ وسمرقند وفرغانة وخوارزم ومرو ونيسابور، وغيرها من المدن الأخرى، وأعدموا فيها شنقاً. فاستؤصلت بهذا جذورهم من غور وغرجة مرة واحدة.

وفي هذه السنة[٤٩] أيضاً، مات الأمير العادل إسماعيل، فتولى مكانه أخوه نصر بن أحمد[٥٠] الذي أسلفنا الكلام عليه، والذي كان قد صار إلى الباطنية.

خروج الباطنية من جديد بخراسان وما وراء النهر وهلاكهم

لما وضع نوح بن نصر[٥١] والده في الأغلال وألقى به في السجن، سقاه السم هناك، ليأمن قادة

---

(٤٨) ترجمت هذه العبارة عن نسخة إقبال (ص ٢٧٦) لتناسبها مع العبارة السابقة: «وقبضوا على أبي بلال وحمدان وتوزكارا، وعشرة آخرين...». أما ما جاء في نسختنا المعتمدة (ص ٣٤٢) ونسخة دارك أيضاً (ص ٢٩٩) فعلى نقيض معها، أي مع عبارة الأصل. وعبارة النسختين الأخريين الفارسية، هي:«... وبازده تن ديگر رابه بلخ وسمرقند... فرستادند». وترجمتها الحرفية: «أما العشرة الآخرون، فأرسلوا أيضاً إلى بلخ وسمرقند...» فهذه الجملة تغفل ما حدث لحمدان وتوزكارا!!.

(٤٩) أي سنة ٢٩٥هـ

(٥٠) هذا خطأ تاريخي أيضاً. فلما توفي الأمير العادل إسماعيل بن أحمد عام ٢٩٥هـ خلفه ابنه أحمد (٢٩٥-٣٠١هـ) وتلاه نصر بن أحمد عام ٣٠١هـ. لقد اختلط الأمر على نظام الملك، فخلط بين نصر بن أحمد أخي إسماعيل الذي عهد له بالحكم بعده، ونصر بن أحمد حفيد إسماعيل (أي نصر الثاني)، وهو ثاني من تولى إمارة السامانيين بعد إسماعيل، لا الثالث كما ذهب إقبال وتابعه جعفر شعار.(انظر: إقبال حاشية ص ٢٧٦، وشعار حاشية ٢ ص٣٤٢، وتعليقات دارك ص ٣٤٤).

(٥١) أي نصر بن أحمد (نصر الثاني).

الجيش شره ويرتاحوا منه إلى الأبد. وظل نوح يدير دفة الحكم سنوات. ولما انتقل إلى جوار ربه، تولى ابنه منصور[٥٢] الحكم بعده، وسار سيرته. وبعد مرور خمسة عشر عاماً على عهده أخذ الدعاة يبثون - من جديد- دعوتهم في خراسان وبخارى، ويحرفون الناس عن سواء السبيل. فكان من قتل آباؤهم وأجدادهم في سبيل هذا المذهب أكثر الناس استجابة لهم.

وفي عهد الأمير السديد منصور: كان أبو علي البلعمي[٥٣] وزيره، وألبتكين[٥٤] والخواجة سبكتكين[٥٥] قائدي جيش خراسان، ومنصور بايقرا الحاجب الكبير، وأبو يحيى بن الأشعث والياً على فرغانة[٥٦]، والسرهنك حسين والياً على اسبيجاب، وإسماعيل والياً على الشاش[٥٧]، وأبو منصور عبد الرزاق[٥٨] والياً على طوس، ووشمجير والياً على جرجان. أما الأمراء الذين كانوا في البلاط، فهم: ينداج[٥٩] (؟)، ونصر ملك، وحسن ملك، وأبو سعيد ملك، وحيدر الجغاني، وأبو

---

(٥٢) هذا خطأ تاريخي آخر، لأن الذي تولى الحكم بعد نوح مباشرة ابنه الأكبر عبد الملك الذي حكم سبع سنوات خلفه منصور بن نوح بعدها. (تعليقات دارك ص ٣٤٤)

(٥٣) هو أبو علي محمد بن محمد البلعمي، أبوه أبو الفضل البلعمي وزير السامانيين المعروف الذي وزر لإسماعيل وابنه أحمد، ونصر بن أحمد. أما أبو علي فتولى وزارة السامانيين في أواخر عهد عبد الملك بن نوح، ثم وزر لمنصور بن نوح من بعده. وكان له الفضل بأن ترجم تفسير الطبري و«تاريخه» إلى الفارسية. وفي وفاته اختلاف كبير. قيل عام ٣٦٣هـ وقيل عام ٣٨٣هـ. (دائرة المعارف فارسي، وفرهنگ فارسي)

(٥٤) ألبتكين: كان مملوكاً سامانياً في أول أمره، لكنه وصل إلى الإمارة في عهد عبد الملك بن نوح الساماني الذي، ولاه طخارستان، وكان يرافقه سبكتكين. وبعد مدة توجه برفقه سبكتكين، أيضاً، إلى غزنين وغلب واليها وتولى حكومتها لمدة ثماني سنوات. خلفه ابنه إسحاق بعد وفاته (فرهنگ فارسي).

(٥٥) سبكتكين: كان غلاماً تركياً ممن بيعوا إلى ألبتكين وأصبح صهره فيما بعد. كان يلقب بناصر الدولة، وهو مؤسس الدولة الغزنوية. توغل في الهند واستولى على خراسان وحكمها. وكانت علاقته مع السامانيين حسنة. كان أميراً شجاعاً عادلاً مدبراً. توفي عام ٣٨٧هـ (فرهنگ فارسي).

(٥٦) فرغانة: كانت فرغانة أحد أقاليم ما وراء النهر، وهو اليوم في تركستان الروسية. وقد أعادت إليه الحكومة الروسية اسمه القديم بعد أن كان يعرف إلى وقت قريب باسم «خانيّة خوقند» (بلدان الخلافة الشرقية ٥٢٠؛ وفرهنگ فارسي).

(٥٧) الشاش: معرب (چاچ) الفارسية. ناحية كانت تقع على ضفة نهر سيحون اليمنى، موضع الخرائب التي تعرف اليوم بطشقند القديمة مركز جمهورية أزبكستان السوفيتية (بلدان الخلافة الشرقية ٥٢٣، وفرهنگ فارسي).

(٥٨) هو أبو منصور محمد بن عبد الرزاق الطوسي الذي كان يرجع بنسبه إلى ملوك إيران القدماء قبل الإسلام. ولي طوس مدة، ثم تسلم قيادة جيش خراسان العليا. قتل في حربه مع أبي الحسن تيمور عام ٣٤٩هـ أو ٣٥٠ (دائرة المعارف فارسي، وفرهنگ فارسي).

(٥٩) لقد شك المحقق الدكتور جعفر شعار في رسم هذا الاسم وكتابته، فوضع أمامه علامة استفهام.

العباس الجراح، وبكتوزون[٦٠] وتكينك، وخمارتكين، وأضرابهم. وباختصار، فإن «منصور بايقرا» وأبا سعيد ملك، وأبا العباس الجراح، وخمارتكين، وتكينك، وأبا عبد الله الجيهاني[٦١]، وجعفرا، قد صاروا إلى الباطنية سراً. وكان لهذا الفريق داعيان: أحدهما، أبو الفضل رنكرز البرديجي، والآخر رجل أعور اسمه عتيق.

لقد كانت شؤون القصر والبلاط والديوان ومقاليدها بيد هذه الطائفة التي كانت تمسك بأزِمَّة الأمور في المملكة. لقد كانوا يمدون يد العون إلى أتباع مذهبهم سراً، وكانوا يصرفون الأعمال بأنفسهم ولا يولون أحداً غيرهم عملاً ما لم تزد الأعمال في كثرتها وتراكمها على طاقتهم. وكانوا يشدون أزر بعضهم في الديوان وغير الديوان، ويتعاونون ويتكاتفون. فكانوا إذا ما تورَّط أحدهم في شيء يقفون إلى جانبه، ويخرجونه من ورطته. فكانت النتيجة أن قوَّتهم وعددهم جعل يزداد يومياً. لقد كان منهم واحد في كل مكان من خراسان وما وراء النهر، فاتَّفقوا جميعاً، وتمكنوا بمساعدتهم أن يجهروا بدعوتهم. وذاع أمرهم، فظنَّ الناس في النواحي والأطراف أن أهل الحضرة، جميعاً أصبحوا باطنية. ثم دخل أبو منصور عبد الرزاق في الباطنية أيضاً.

وكتب باطنية الحضرة إلى المبيضة[٦٢] وفي فرغانة وخجند[٦٣] وكاشان رسالة تقول: «لتخرجوا، فمقالتنا ومقالتكم في أصلها سواء، وسنخرج نحن أيضاً. لتكن خطتنا القبض على الأمير أولاً، ثم ننضم إلى بعضنا، ونخضع الولايات الواقعة على هذا الجانب من جيحون ونستولي عليها، وبعد ذلك نتوجه إلى خراسان. وتآزروا، ووحدوا مع ابن بايقرا[٦٤] كلمتهم، ثم نمّوا على أبي علي البلعمي

---

(٦٠) بكتوزون: أصله التركي (بك طوسن) ومعناه العجل القوي. كان يكنى بأبي الفوارس أو أبي الحارث، ويلقب بسنان الدولة. تولى قيادة جيش خراسان على عهد منصور بن نوح الساماني. أسره أيلك خان عام ٣٨٩هـ وأُرسل إلى أوزجند ومات في حبسه هناك (دائرة المعارف فارسي؛ وأخباره في: العتبي ١ : ١٩٣، كما يذكر محقق كتاب الفرق بين الفرق. حاشية ٥ ص ١٧٦).

(٦١) أبو عبد الله الجهاني: هو أبو عبد الله، محمد بن أحمد الجهاني. تكفَّل بتأديب الأمير نصر بن أحمد الساماني وتعليمه وتربيته، وتعهد ولايته قبل أن يصل إلى سن البلوغ. يقال إنه لما نال الوزارة كتب رسائل إلى شتى الأقطار يطلب دساتيرها وقواعد الحكم فيها لينتخب أفضلها لبلاط بخارى. ويقال إنه كان له كتاب في «المسالك والممالك». وكان يتهم بالثنوية والزندقة (دائرة المعارف فارسي).

(٦٢) المبيِّضة (بكسر الياء): هم المقنَّعية أصحاب المقنَّع (انظر: الفرق بين الفرق ١٠٠ وما بعدها). سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم خلافاً للمسوِّدة (بكسر الواو) من أصحاب الدولة العباسية. (اللسان- بيض).

(٦٣) خجند أو خجندة: كانت أول مدن إقليم فرغانة من الغرب على ضفة سيحون اليسرى، وهي اليوم مركز جمهورية أزبكستان السوفياتية وعاصمتها، ويقال لها ستالين آباد (بلدان الخلافة الشرقية ٥٢٢؛ وفرهنگ فارسي).

(٦٤) أي منصور بن بقرا.

الوزير، وعلى الأمير بكتوزون إلى الأمير السديد منصور، وأوغروا صدره عليهما، لأنهما كانا مسلمين صالحين، ولأن الغلمان جميعهم كانوا بإمرة بكتوزون. فما كان إلاَّ أن أمر منصور بسجن الاثنين في «قهندز» ووضعهما في السلاسل والأغلال، فاختلت، بذلك، شؤون الدولة أيما اختلال.

لمّا رأى ألبتكين أن أكثر الأمراء الخواص، وأرباب القصر، وأهل الحضرة، قد اعتنقوا مذهب القرامطة، وأنَّ هذين الرجلين المسلمين محبي خير الملك - كما كانوا يقولون هم - أُوصدا في الأغلال بسعاية القرامطة، ترك نيسابور إلى بخارى ليطلع الأمير على حقيقة الأمر، كيما يتدبَّر الأمور ويمسك بأزمّتها. غير أن أبا منصور عبد الرزاق الذي كان أميراً على طوس، وكان ذا نفوذ وصاحب جيش عرمرم وآلات وعدة وفيرة، سارع في التصدّي لألبتكين ورصد له الطريق ليحول دون وصوله إلى البلاط، ويشتبك في حرب معه. فلما علم ألبتكين بهذا غيَّر طريقه إلى طريق «شيروره»[٦٥] إلى أن وصل إلى ساحل جيحون، ونزل في آموي (آمل). وعاد أبو منصور عبد الرزاق، ثم كتب «ملطفة»[٦٦] إلى ابن بقرا ورهطه فيها «إنما جاء ألبتكين ليفسد عليكم أمركم». فتوحد القوم، وزيَّنوا للأمير أن: «ألبتكين قد عصاك، لأنه لم يكن ليأتِ إلى القصر قط إلاَّ بعد أن تستدعيه عدة مرات. إنه إنما يجيء الآن عاصياً مخالفاً. ولقد وصل إلى شاطئ جيحون فجأة، وهو ينوي العبور. كل هذا دون أن تستدعيه». فوجَّه الأمير بك أرسلان الحميدي وحسن ملك على رأس جيش صوب جيحون، فسحبوا السفن من الطرف الآخر للنهر ليفوِّتوا على ألبتكين فرصة العبور.

ولما رأى ألبتكين أنهم لن يمكنوه من العبور، كتب إلى الأمير رسالة بيّن فيها سبب مجيئه. قال: «لقد اعتنق أكثر خاصتك وأرباب بلاطك وديوانك مذهب القرامطة الذي صار إليه العظيم والحقير، وهم يدبرون للخروج. لقد كان في دولتك كلها رجلان مسلمان، محبّان خيرك ونفعك - بقولهم هم -، لكنَّك غيَّبتهما في السجن بوشاية القرامطة. إنما جئت لأتدبر أمرهم، فإذا ما أعرضت عن كلامي وألقيت إلى القرامطة أذناً صاغية، فستلقى جزاءك غداً. اللهم إني قد بلَّغت الأمير، وهأنذا ذاهب إلى بلخ». ثم كتب رسالة أخرى إلى قاضي بخارى وعلمائها: «لقد اشتدّت شوكة القرامطة، وإنَّ خروجهم لوشيك جداً، والأمير في غفلة. لقد كتبت إليه، أما أنتم فما عليكم إلا أن

---

(٦٥) كذا أثبتت في نسختنا، ونسخة دارك (ص٣٠١) أيضاً. وقد وقف دارك عندها شاكّاً، ولم يهتدِ إلى موقعها (التعليقات ص ٣٤٤). وقد بحثت عنها في كتب البلدان فلم أوفق إلى أي شيء، وأغلب الظن أنها مصحفة.

(٦٦) الملطفة: كلمة فارسية تطلق على الرسائل القصيرة، وتكون في الأمور العاجلة على الأكثر (تاريخ البيهقي. الترجمة العربية ص ٨٠٥ نقلاً عن: غني - فياض ص ٣ حاشية ٤). والملطفة كالتوقيعات في العربية. ويبدو أنها مشتقة من «لطيف»، وهو الصغير (اللسان - لطف).

تنصحوه كي ما يظل الدين والملك ثابتين على ما هما عليه». ومضى إلى بلخ، ووصلت الرّسالتان.

لقد كان القاضي أبو أحمد وأئمّة بخارى على علم بهذه الحال، لكنهم لم يجرؤوا على قول أي شيء في الموضوع آنذاك، لأن أغلب خاصة الأمير كانوا من هذه الفرقة. وقالوا: «ربما لا يصغي الأمير إلى أقوالنا فيهم، فيتحولون، ولكل منهم ولايته وجيشه ونعمه وحشمته، إلى خصوم لنا». غير أن القاضي أبا أحمد، ذهب مع صلاة العصر هذه المرة إلى قصر الأمير والتمس الاختلاء به، فاستدعاه الأمير وجلس إليه وحيداً. فقال القاضي: «النّصح والإرشاد من واجب العلماء. لقد كان أبوك الأمير الحميد نوح، رحمه الله، يجالس العلماء دائماً، ولم يقم بأي عمل دون أن يتدبره معهم. لا جرم أنه استقام به ما كان قد اعوجَّ من الأمور. أما أنت، فلأنك لا تجالس أهل العلم إلا قليلاً، فقد اعوجَّ على عهدك ما قوَّمه هو». وعرض عليه رسالة ألبتكين، ورسالة أخرى موقَّعة من الأئمة في هذا المعنى، ليعلم الأمير أنه- أي القاضي- لا يقول هذا الكلام من تلقاء نفسه. ثم نصحه هو أيضاً، وحدَّثه في أشياء أيقظه بها من سباته. وفي اليوم التالي، وصل خبر خروج المبيضة بفرغانة، وأنهم يقتلون من يجدون من المسلمين. وفي اليوم التالي له، وصل من خراسان خبر إعلان القرامطة مذهب السبعية في طالقان وسفوحها، وأنهم كانوا يعيثون فيها فساداً وقتلاً. فما كان من الأمير السديد منصور إلا أن عرض الوزارة على القاضي أبي أحمد، لكنه أبى ذلك، وقال: «إن أتربع على الوزارة، فأنى للأمير اليوم من يمحضه النصح والإرشاد خالصاً لوجه الله؟، ثم إن ذوي المآرب والأطماع الخاصة سيقولون: إن القاضي لم يفعل ذلك إلا طمعاً بالوزارة، لا حباً في الدين والأمير». فراق منصور هذا، وقال: «كيف السَّبيل إذاً إلى الوزير الذي نريد؟». قال القاضي: «إنَّ للأمير وزيراً مسلماً كفؤاً وابن وزير، وأهلاً للوزارة أيضاً». قال منصور: «أين؟». قال القاضي: «سجين في قهندز». فأمر منصور بإحضار أبي علي البلعمي ويكتوزون من السجن. وسيّر إليهما في اليوم نفسه من أتى بهما فأعيدا إلى عمليهما السابقين بأتمّ آيات الاحترام والإعزاز والقوة.

في اليوم التالي، اختلى الأمير والوزير والقاضي ويكتوزون، فأُعلم الأمير بالأحوال من قريب ومن بعيد، واتفقوا على التخلُّص أولاً من مقنعي فرغانة والصغد[٦٧] الذين كانوا يعرفون بالمبيِّضة، ومن قرامطة الطالقان، ثم التفرُّغ إلى أبي منصور عبد الرّزاق، وأخيراً إلى الخاصة ومتصدِّي سَدَنة القصر.

(٦٧) الصغد: هو الإقليم الذي كان يشمل الأراضي الخصبة بين نهري جيحون وسيحون. وقيل إنه كان اسماً للرساتيق المحيطة بسمرقند، لأن كلاً من بخاري وكش ونسف كانت كورة بذاتها. كان الصغد يعد إحدى جنان الدنيا الأربع، وقد بلغ أوج ازدهاره في النصف الأخير من المئة الثالثة في أيام الأمراء السامانيين. (بلدان الخلافة الشرقية ٥٠٣).

وفي اليوم الثاني، مضى العلماء إلى سراي الوزير برسائل العمّال في المدينة متظلمين وطلبوا إليه أن يوافي الأمير بخروج القرامطة. غير أن أبا علي تباطأ عمداً حتى قال العلماء: «إنه لا يتوانى إذا لم يكن يناصرهم ويساندهم». فأخبر أبو علي الأمير أمام الملأ، فأمره بإقامة محفل يحضره زعماء القرامطة والعلماء ليتناظروا فيما بينهم، ثم تطبّق عليهم ما يترتب على ذلك من أحكام الشّريعة و الإسلام.

في اليوم التالي، أقام أبو علي البلعمي محفلاً في قصر الأمير دعا إليه أبا أحمد المرغزي قاضي الحضرة، وأئمتها وأعيانها كافة. وأرسل من أتى بزعماء القرامطة والمعروفين من متكلميهم. وبدا من المناظرة أنه لم تكن لدى القرامطة أقوال تتفق هي وأصول الشّرع، فكان أن جلد عتيق الأعور مئة جلدة وأرسل إلى خوارزم ليموت في سجنها، وجُلد أبو الفضل رنكرز مئة جلدة أيضاً، وأرسل وزوجه وأولاده معهم إلى آموي ليموتوا هناك كذلك.

ثم أُرسل بكتوزون وأبو القاسم، الذي كان وكيلاً لفارس وخوزستان[٦٨]، بجيش إلى طالقان. ولقد قبضا- علاوة على من قتل- على أربعمائة رجل معروفين ممن اعترفوا بقرمطيتهم، وغنما ستين ألف دينار، وأتيا بمئة ألف درهم إلى بيت المال. وأرسل الأسرى، بأمر من القصر إلى قضاة فارس وخوزستان، إلى الحضرة حيث أعدم قسم منهم، وأودع الآخرون السجن إلى أن ماتوا.

لمّا فرغوا من أمر طالقان، ندبوا إسحاق البلخي وبك أرسلان إلى فرغانة، وأرسل معهم الفقيه أبو محمد لتبصيرهم بأمور الشرع. وبعد الفتح، دخلا – إسحاق البلخي وبك أرسلان- فرغانة وهزما جموع القرامطة، فقتلوا بعضهم، وصادروا أموال آخرين، في حين أقر بعضهم بجهلهم وخطأهم وأعلنوا توبتهم. ولما عُرض عليهم الإسلام قبلوه ودخلوا فيه، وارتدُّوا عن ذلك المذهب. ثم عاد الجيش إلى بخارى بالغنائم الوفيرة، ولما سئل أبو محمد الفقيه: «كيف كان مذهب المقنّعية؟». أجاب: «كانوا يبيحون الفروج بينهم دونما حرج، وكان إذا ما أراد أحدهم أن يتزوج امرأة، فلا مندوحة من أن يدخل بها رئيسهم أولاً، ثم زوجها. لقد أحلوا الخمر، ولم يكونوا يغتسلون من الجنابة، وأباحوا مواصلة الأم والأخت والابنة، وأنكروا الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد».

ولمّا فرغوا من هؤلاء جميعاً، اجتمع الأمير السديد منصور والوزير وبكتوزون والقاضي فقط للتداول في القضاء على من في البلاط والديوان وخواص الأمير ممن اعتنقوا مذهب القرامطة، والقضاء على

(٦٨) أبدى دارك شكّه في الأصل الفارسي لهذه الجملة، وهو «وكيل بارس وخوز بود»، ورجح أنه ربما تسرب إليها التحريف والتصحيف (التعليقات ٣٤٤).

أبي منصور عبد الرزاق، وتطهير خراسان والعراق وما وراء النهر من القرامطة دفعة واحدة. واتفقوا- لخروج ألبتكين من خراسان وإقامته بغزنين، ولأنه ليس ثمة في خراسان اليوم من هو أقوى من أبي منصور عبد الرزاق أمير طوس- على تطهير الحضرة، وهي مقر الأمير، من القرامطة أولاً، ثمّ التفرغ لأبي منصور والأماكن الأخرى. ثم أسندت قيادة جيش خراسان إلى ناصر الدولة أبي الحسن سيمجور[٦٩]، واستدعى بجيش خراسان كله إلى القصر. ولما وصل إلى الحضرة استطاع الأمير وأعوانه أن يقبضوا، بقوته، على كل من صار إلى القرامطة من الخاصة والكتبة جميعاً، وسلبوهم أموالهم كافة، وقتلوهم كلهم. ثمّ بعثوا أبا الحسن سيمجور بجيش خراسان لقتال أبي منصور عبد الرزاق والقبض عليه. وكتبوا رسائل إلى أمراء الأطراف، وإلى «وشمجير»[٧٠] ليأتي من جرجان بجيش تنضم إليه سائر الجيوش، ثم تمضي معاً لمحاصرة طوس، والقبض على أبي منصور، وقتل من تجده من القرامطة فيها.

لما رأى أبو منصور- وقد كان مريضاً - الجيوش تضرب الحصار على طوس، فرّ إلى جرجان. غير أن وشمجير طلع له في الطريق، فاشتبكا في قتالٍ ضارٍ من الضحى إلى صلاة العصر، خارت معه قوى أبي منصور وفُتّ في عضده لضعفه ومرضه، فنزل عن جواده، وأسند رأسه إلى أحد غلمانه وأسلم الروح حالاً. فانهزم جيشه وأطلق السيقان للريح. وأمر وشمجير بفصل رأس أبي منصور عن جسده، ثم أخذ جيشه يطاردون فلول المنهزمين يقتلون ويأسرون إلى صلاة المغرب. واستولوا على متاع أبي منصور وخزائنه جميعاً، فبعث بها وشمجير ومعها مائة وثمانون أسيراً إلى الأمير السديد في الحضرة. ثم أطبق أبو الحسن سيمجور على الولايات من طرف، ووشمجير وقابوس[٧١] ابنه من الطرف الآخر، وأخذوا يقتلون القرامطة حتى إنه لم يبق في خراسان وما وراء النهر قرمطي واحد. وغار هذا المذهب في بطن الأرض دفعة واحدة، ولم يبقَ لأحد من معتنقيه أثر.

---

(٦٩) هو محمد بن إبراهيم بن سيمجور. كنيته أبو الحسن، ولقبه ناصر الدولة، مؤسس أسرة السيمجوريين. خدم إسماعيل بن أحمد الساماني، ثم تدرّج في المناصب من قائد أعلى إلى حاكم ولاية، لا سيّما خراسان، لكنه عانى من العزل أيضاً. خاض غمار حروب عدّة لاسيّما مع العلويين (دائرة المعارف فارسي؛ وفرهنگ فارسي).

(٧٠) وشمجير: معرّب «وشمگير» أي «صائد السّمان». (غلام حسين يوسفي: تعليقات قابوسنامه ٤٣٦). وشمجير هو ظهير الدولة أبو منصور بن زيار حكم من سنة ٣٥٦هـ تولى بعده ابنه بيستون الذي مات بعد إحدى عشرة سنة من تولّيه، فخلف أخوه قابوس (فرهنگ فارسي).

(٧١) هو قابوس بن وشمجير السالف الذكر. كنيته أبو الحسن، ولقبه شمس المعالي. كان رابع أمراء آل زيار (٣٦٦-٤٠٣هـ) في عراق العجم وطبرستان وكان أشهرهم. كان أديباً عالماً فاضلاً حسن الخط. وهو الذي ألف له البيروني كتاب «الآثار الباقية». كان كاتباً وشاعراً بالفارسية والعربية، وقد خلّف فيهما رسائل وأشعاراً. (فرهنگ فارسي).

خروج محمد البرقعي بمذهب الباطنية في خوزستان والبصرة بجيش من الزنج

في سنة مئتين وخمس وخمسين هجرية (٢٥٥هـ) خرج محمد بن علي البرقعي العلوي بالأهواز، بعد أن أغوى زنوج خوزستان وأهل البصرة عدة سنوات، ودعاهم ومنّاهم بالوعود. لقد خرج مفيداً من تلك الوعود، وانضمَّ إليه الزنوج، فاستولى على الأهواز أولاً، ثم البصرة وخوزستان جميعها. أما الزنوج فقتلوا «خواجاتهم» ووضعوا أيديهم على ثرواتهم ونسائهم وبيوتهم، وهزموا جيوش المعتمد(٧٢) مرات.

وظل البرقعي يسود على البصرة وخوزستان أربع عشرة سنة وأربعة شهور وستة أيام إلى أن قبض عليه في النهاية؛ وقُضي على الزنوج جميعاً. وفي آخر صفر من عام ٢٧٠هـ اقتيد محمد البرقعي إلى بغداد وفيها قتل. أما مذهبه، فكان كمذهب مزدك وبابك وأبي زكريا(٧٣) والخرمية والقرامطة في كل شيء.

خروج أبي سعيد الجنابي وابنه أبي طاهر - خذلهما الله - في البحرين والأحساء

وفي عهد المعتضد أيضاً، خرج أبو سعيد، الحسن بن بهرام الجنابي(٧٤) في البحرين والأحساء، ودعا أهلها إلى مذهب السبعية الذي نسميه نحن الباطنية، فأضلهم. وقوي أمره، ولما استحكم شأنه هناك أخذ يقطع الطرق ويغير على النواحي والأطراف، وأظهر الإباحة علناً. واستمر على هذا المنوال شطراً من الزَّمن إلى أن اغتاله أحد الخدم، مما حدا بهذه الطائفة أن لا تعتمد الخدم أو تركن إليهم في البحرين والأحساء من بعد.

وتولى بعد أبي سعيد ابن له كان يكنّى بأبي طاهر الذي أخذ نفسه بالصلاح حيناً، وكان يعرف شيئاً من مقالة السبعية. وأرسل أبو طاهر إلى الدعاة يستفسر عن غاية كتابهم «البلاغة السابع»(٧٥)،

---

(٧٢) أي الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ).

(٧٣) لعله يكون ابن أبي زكريا الطامي، وهو غلام فاجر ظهر في جنابة عام ٣١٩هـ ودعا الناس إلى ربوبيته وعبادة النار. وكان يقطع يد من أطفأ ناراً ولسان من أطفأها نفخاً (آثار البلاد ص ١٨٠).

(٧٤) نسبة إلى جنابة، وهي بُلَيدة على ساحل بحر فارس (آثار البلاد وأخبار العباد ١٨٠).

(٧٥) كذا في نشرات الكتاب الثلاث. غير أن ابن النديم يذكر الكتاب باسم «البلاغات السبعة»، ولم ينسبه إلى شخص بعينه. يقول: «ولهم- الإسماعيلية- البلاغات السبعة، وهي: كتاب البلاغ الأول للعامة، كتاب البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلاً، كتاب البلاغ الثالث لمن دخل في المذهب سنة، كتاب البلاغ الرابع لمن دخل في المذهب سنتين، كتاب البلاغ الخامس لمن دخل في المذهب ثلاث سنين، كتاب البلاغ السادس لمن دخل في المذهب أربع سنين. كتاب البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر». ويقول: «قد قرأته ورأيت فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات، والوضع من الشرائع وأصحابها» (الفهرست ٢٤٠).

فأرسلوه إليه. ولما قرأ الكتاب أضحى كأنه كلب ضار، فدعا كلّ من كان في البحرين والأحساء من الشباب وعشاق السلاح: «هلمّوا إليّ، فإن لي بكم حاجة». كان ذلك قُبيل موسم الحج، فتجمع حوله خلق لا يحصون عداً مضى بهم إلى مكة ووصل في وقت أداء الفريضة، وقد كان الحجيج محرمين، فأمر رجاله أن: «اشرعوا سيوفكم واقتلوا كل من تصادفونه، وأطلقوا أيديكم بالمكيين والمجاورين». واستلوا سيوفهم، وأعملوها في الناس قتلاً. فلما رأت الخلائق هذا فزعت إلى داخل الحرم ووضعت المصاحف أمامها. أما المكيون فهرعوا إلى السلاح، وتأزّر كل من كان لديه سلاح به ومضى إلى ساحة الوغى. فلما رأى أبو طاهر الأمر على هذه الحال، أخرج إلى وسط ساحة القتال رسولاً يقول: «لقد جئنا للحج لا للقتال. وكان الذنب ذنبكم إذ أفسدتم علينا إحرامنا وقتلتم واحداً منا دون ذنب، فاضطررتمونا إلى حمل السلاح. وإذا ما ذاع في العالم أن المكيين يتأبطون الأسلحة ويعبثون في الحجيج قتلاً، يعزف الناس عن الحج، وتوصد طريقه، وتسوء سمعتكم. لا تفسدوا علينا حجنا، بل دعونا نؤدي الفريضة». وخيّل للمكيين صدق قوله ولم يستبعدوا أن أحداً قد تحرش بهم، فشهر سلاحه عليهم وقتل واحداً منهم. واتفقوا على أن يعيد الجانبان السيوف إلى أغمادها، وأقسما بالقرآن الكريم يميناً لا رجعة فيها بألا يعودا إلى القتال ثانية، وأن يتراجع المكيون ويعيدوا المصاحف إلى أمكنتها في الحرم، ليتمكن الجانبان من زيارة الكعبة وتأدية مناسك الحج. وأقسم المسلمون من المكيين والحجّاج، كما أقسم أبو طاهر ورجاله- وفق إرادتهم- ثم تراجعوا وألقوا السلاح. وعاد المكيون، ثم أعادوا المصاحف إلى أماكنها، واستأنف الحجيج تأدية مناسكهم وطوافهم.

ولما رأى أبو طاهر أن حملة السلاح قد تفرقوا، أمر أعوانه أن: «هبوا إلى السلاح، واندفعوا إلى الحرم، واقتلوا كل من تلقونه في داخله وخارجه». واندفعوا بسيوفهم ورماحهم إلى الحرم بغتة، وأخذوا يقتلون كل من يجدونه في طريقهم إلى أن قتلوا المجاورين جميعاً، وخلقاً كثيرين غيرهم. وجعل الناس يلقون بأنفسهم في الآبار، ويفرون إلى رؤوس الجبال خوفاً من السيف.

أخرج القرامطة الحجر الأسود من الكعبة، وصعدوا إلى سطحها! وخلعوا ميزابها الذهبي، وهم يرددون: «لقد صار ربكم إلى السماء، وخلّى بيته - الكعبة- نهباً مضاعاً في الأرض. انهبوه ودمروه». ثم نزعوا كسوة الكعبة عنها، ونهبوها قطعة قطعة، وهم يرددون، باستهزاء، بعض الآيات الكريمة ﴿..وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً..[76]﴾ و﴿.. وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ[77]﴾. ويقولون أيضاً: «لماذا لم تأمنوا شر

(٧٦) آل عمران: آية ٩٧ .

(٧٧) قريش: آية ٤.

سيوفنا وقد دخلتم الكعبة؟! لو كان لكم إلّه، لوقاكم جراحات سيوفنا وأمّنكم من خوفها!»، وغير هذا من عبارات الكفر. ثم استولوا على نساء المكيين وأبنائهم وأخذوهم سبايا معهم. أما القتلى، فتجاوز عددهم عشرين ألفاً، فضلاً عمن ألقوا بأنفسهم في الآبار أحياء. حتى هؤلاء، أمر أبو طاهر بإلقاء القتلى فوقهم ليلقوا حتفهم أيضاً. أما غنائمهم، فكانت مائة ألف بعير، ومقادير لا حصر لها من الذهب والفضة والدنانير والقصب والمسك والعنبر وطرائف أخرى ثمينة. ولما عادوا إلى الأحساء بعثوا بهدايا من هذه الأموال إلى الدعاة في كل مكان.

لقد نزلت هذه الكارثة بالإسلام في عهد المقتدر سنة ثلاثمائة وسبع عشرة هجرية[٧٨].

ثم أرسل أبو طاهر هدية إلى «أبي سعيد» بالمغرب، وكان غلاماً يهودياً ربّاه أحد أبناء عبد الله بن ميمون القدّاح واسمه أحمد الذي كان قد تزوج أمه (أم أبي سعيد)، ثم علّمه الأدب والفضيلة، وهيأ له سبيل الجاه والثروة، وجعله ولي عهده، ولقنه أصول الدعوة وبصّره برموزها وآياتها.

ثم مضى «أبو سعيد» إلى المغرب وأقام بمدينة «سجلماس»[٧٩]، وتعاظم أمره ثمة، وفرض المذهب على رقاب الخلق بالسيف، وادعى أنه المهدي، وأنه علوي. ثم فرض على الناس خراجاً باهظاً، وأحلّ الخمر، وأباح الأم والأخت والابنة، وجعل يلعن المروانيّين والعباسيين على رؤوس الأشهاد، وأمر أتباعه بلعنهم أيضاً.

يطول بنا المقام لو ذكرنا الدماء التي سفكها بغير حق، والعادات السيئة التي سنّها، فهذا المختصر لا يتسع لها. وقد ورد في كتب التاريخ أن هؤلاء الذين يتسنمون سدة الحكم في مصر من أبناء أبي سعيد[٨٠].

لما جاء «أبو طاهر بن أبي سعيد»[٨١] إلى الأحساء، جمع الكتب السماوية من قرآن وتوراة وزبور وإنجيل أنى وجدت، ورمى بها في الصحراء، وقال: «لقد دمر الناس في الدنيا ثلاثة: راعي غنم، وطبيب، وراعي إبل[٨٢]. إني لفي غيظ شديد على الأخير خاصة، فقد كان أذكاهم وأدهاهم،

---

(٧٨) راجع في هذه الحادثة أيضاً: تاريخ أخبار القرامطة ٥٣-٥٥؛ ثم انظر: القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ص١١٨.

(٧٩) كذا في النسخة المعتمدة (ص ٣٥٥) وفي نسخة دارك (ص ٣٠٩) أيضاً. الصحيح- كما ضبطت في طبعة عباس إقبال ص ٢٧٩- «سجلماسة».وهي مدينة كانت تقع في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان في جنوبي مدينة فاس الحالية.

(٨٠) يقصد بهؤلاء الخلفاء الفاطميين في مصر (عباس إقبال: حاشية ٢ ص ٢٧٩).

(٨١) كان اسم أبي طاهر سليمان (تاريخ أخبار القرامطة في ٣٦؛ وآثار البلاد ص ١٨٠).

(٨٢) أي أنبياء الله: موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام (عباس إقبال حاشية ٢ ص ٢٧٩).

وأكثرهم شعبذة وحيلة. ثم أباح الأخت والأم والابنة، وشق الحجر الأسود نصفين، ووضعه على حافتي مرحاض، وكان يضع إحدى رجليه- حين يجلس- على نصفه، والأخرى على النصف الآخر. وأمر بسبِّ الأنبياء – عليهم السلام- ولعنهم علانية. وساء العرب جداً أمرُه الناسَ بإباحة الأم ومواصلتها، حتى إن كثيرين منهم تجرعوا شيئاً من الزرنيخ(٨٣) والكبريت الأصفر(٨٤) حباً في الموت على أن يواصلوا أمهاتهم؛ إلا أن أهل المغرب تلقوا – لجهلهم- هذا الأمر تلقياً طبيعياً وأخذوا به. وعاد أبو طاهر فهاجم قوافل الحجيج مرة أخرى ناكثاً أيمانه ضارباً بها عرض الحائط، وقتل خلقاً كثيراً. غير أنه لما علم هو ورهطه بتجمع المسلمين بخراسان والعراق وعزمهم على التوجه إلى الحجّ براً وبحراً، خافوا فأعادوا الحجر الأسود. ولما صار المسلمون إلى مسجد الكوفة الجامع، إذا الحجر الأسود ملقى هناك، فأخذوه ورتقوه بقضيب حديد وحملوه إلى مكة، وأعادوه إلى مكانه(٨٥).

واستقدم أبو طاهر «زكيره كير»(٨٦) (؟) المجوسي من أصفهان إلى الأحساء وولّاه الحكومة فيها. فشمّر الرجل عن ساقه وقتل سبعمائة من رؤساء القرامطة، وأراد أن يقتل أبا طاهر وإخوانه. فعلم أبو طاهر بالأمر، وقتله بحيلة من الحيل، وتسلّم زمام السُّلطة من جديد. ولو ذكرنا جميع مفاسد هذا الكلب وفتنه في الإسلام التي امتدت إلى خلافة الراضي(٨٧) لناء الكتاب بحملها. وفي عهد الراضي خرج الديالمة أيضاً.

لقد ذكرت هذا القدْر ليعلم سيد العالم- خلّد الله ملكه- حقيقة مذهب هؤلاء القوم الذين لا يركن إلى وعودهم وأيمانهم. فما أكثر ما عاثت به الباطنية من فساد وأعمال بذيئة في كل الأوقات التي طالت فيها أيديهم على المسلمين، وديار الإسلام. إنهم قوم شؤم كلهم، وأعداء- أيُّ أعداء- للإسلام والملك!!.

(خروج المقنّع في ما وراء النهر)

في هذه الآونة أيضاً، خرج المقنّع المرغزي(٨٨) في بلاد ما وراء النهر، ونفض الشّريعة من أيدي

---

(٨٣) الكلمة فارسية: ويقال إن معرَّبها «زرنيق» (فرهنگ واژهاى فارسى در زبان عربى ص ٣١١).

(٨٤) قد تكون معربة عن «كوكرد» الفارسية (المرجع نفسه ص ٥٦١).

(٨٥) وفي رواية أخرى أن أبا طاهر والقرامطة هم الذين أعادوا الحجر الأسود في عام ٣٣٩هـ بعد أن مكث عندهم اثنتين وعشرين حجة، بتهديد من المهدي أبي عبيد الله العلوي الفاطمي بإفريقية الذي أنكر على أبي طاهر خلعه الحجر الأسود، وأمره برده ورد ما نهبه من الحجاج وإلاّ جنّد الجنود لحربه (راجع: أخبار القرامطة ٥٤-٥٧).

(٨٦) كذا في نسختي شعار (ص٣٥٦) ودارك (ص٣١٠). وفي نسخة إقبال «كبرة كبر» (ص٢٨٠). وقد شكّ الدكتور جعفر شعار في ضبط هذا الاسم بوضعه علامة استفهام، أمامه، ولم اهتدِ إلى ما يدل عليه أو يوضحه.

(٨٧) أي الراضي بالله (٣٢٢- ٣٢٩هـ).

(٨٨) وقيل المروزي واختلف في اسمه، فقيل عطاء وهو أشهر، وقيل حكيم. لقب بالمقنّع لأنه اتخذ وجهاً من ذهب تقنّع به. (راجع في المقنّع: وفيات الأعيان ٢: ٤٢٦؛ وفي المقنّعية: الفرق بين الفرق ١٥٥-١٥٦).

قومه دفعة واحدة، فبدأ، أوَّل الأمر، بالدَّعوة إلى المذهب الذي تدعو إليه الباطنية، مثلما يفعل أبو سعيد الجنابي، وأبو سعيد المغربي، ومحمد العلوي البرقعي، ودعاتهم.

كان المقنّع معاصراً لأبي سعيد الجنابي(٨٩) وأبي سعيد المغربي، وكانت بينهم مكاتبات ومراسلات. لقد خرج المقنّع على الناس بطلسم(٩٠) سحري في ما وراء النَّهر، إذ أخرج من كل جبل شيئاً على غرار القمر. وكان أهل تلك النواحي يرون تلك الأشكال يومياً في موعد طلوع القمر تماماً. ومضت على هذا مدة طويلة.

لما تمكّن المقنّع من إخراج سكان تلك الولاية من دائرة الشريعة والإسلام وقوي شأنه، ادَّعى الألوهية، فأريقت ، لهذا، الدماء، وظهرت المفاسد، وتقدمت جيوش المسلمين من شتى الأطراف لقتاله، واشتبكت معه في حروب دامت سنوات، لو نذكر أخبارها لاحتاجت إلى مجلدات. إن أخباره وأخبار كل واحد من الكلاب الذين ذكرت تحتاج إلى كتاب ضخم كبير مكتوب بخط دقيق، ولقد اكتفيت بالقدر الذي ذكرت لئلا يخلو ذكر المقنّع من بين هؤلاء.

(تعدُّد أسماء الباطنية)

لقد كان للباطنية، في كل وقت خرجوا فيه، اسم ولقب يختلف عنه في وقت آخر. وعرفوا بأسماء وألقاب متفاوتة في كل مدينة وولاية، وإن تكن – مع ذلك – واحدة في معناها. فقد كان يقال لهم «الإسماعيلية» في حلب ومصر، و«السبعية» في قم وكاشان وطبرستان وسبزوار(٩١)، و«القرامطة» في بغداد وما وراء النهر وغزنين، و«المباركية» في الكوفة، و«الراوندية» و«البرقعية» في البصرة، و«الخلفية»(٩٢) في الري، و«المحمِّرة»(٩٣) في جرجان، و«المبيّضة» في الشام، و«السعيدية» في المغرب، و«الجنابية» في الأحساء والبحرين، و«الباطنية» في أصفهان. أما هم، فكانوا يطلقون على أنفسهم «التَّعليمية» وأمثال هذا، وكان هدفهم تقويض دعائم الإسلام والمسلمين، والعمل على غواية الخلق وضلالهم.

---

(٨٩) لقد هلك المقنّع الخراساني عام ١٦٣هـ. وليس صحيحاً أن يعد معاصراً لأبي سعيد الجنابي (عباس إقبال: حاشية ص ٢٨١). أما أبو سعيد الجنابي فقتل عام ٣٠١هـ (تاريخ أخبار القرامطة ص ٣٦).

(٩٠) يقال إن لفظة «طلسم» يونانية الأصل.

(٩١) سبزاور: ما زالت هذه المدينة تحتفظ باسمها وموقعها القديمين في خراسان. تقع بين نيسابور وشاهرود، إلى الغرب من مدينة مشهد. (فرهنگ فارسي).

(٩٢) يجب التمييز بين هذه «الخَلَفية» التي ربما سميت بهذا نسبة إلى «خلف حلاج القطن» الذي سلف ذكره والكلام عليه، و «الخلفية» إحدى فرق الخوارج، وهم أتباع خلف الذي كان من خوارج كرمان والذي قاتل حمزة الخارجي. (الملل والنحل ١ : ٥٧ والفرق بين الفرق ٢٠٣-٢٠٤)

(٩٣) المحمِّرة: هم الخرمية أو الخرمدينية، الذين ظهروا في دولة الإسلام امتداداً للمزدكية قبل الإسلام. وهما فريقان: بابكية نسبة إلى بابك الخرمي، ومازيارية نسبة إلى مازيار الذي كان من وجوه عسكر المعتصم، والذي أظهر المحمرة بجرجان. سموا المحمرة لارتدائهم الثياب الحمر في عهد بابك (الفَرق بين الفِرق ١٦٠-١٦١)؛ وقيل لأن علامتهم كانت الحمرة، وكانوا يحمِّرون راياتهم (اللسان- حمر).

الفصل السابع والأربعون

في خروج الخرمدينية[1] - خذلهم الله -

واذكر الآن نبذاً مختصرة في موضوع الخرمدينية، ليكون سيِّد العالم- خلّد الله ملكه- على علم بأحوالهم وأخبارهم.

كلما خرج الخرمية، كان الباطنية ينضمون إليهم، ويشدّون أزرهم، ويقوّونهم. وكانت الخرمية، أيضاً، تنضم إلى الباطنية كلما خرجوا، وتمدّهم بالمال والرِّجال، لأن أصل مذهبهم واحد في موضوعه وفساده، وموقفه من الدين.

ففي سنة مائة واثنتين وستين (١٦٢هـ) في خلافة المهدي قوي كثيراً أمر باطنية جرجان الذين كان يطلق عليهم أصحاب الرايات الحمر أي «المحمرة»، ووحدوا كلمتهم مع الخرمية، وزعموا: «إنَّ أبا مسلم حي[2]. وسنخلص نحن الملك، ونعيده إليه ثانية». ثم رأسوا «ابن أبي الغزا»[3] حفيد أبي مسلم عليهم، ومضوا إلى الري، فأحلوا المحرمات كلها، وأباحوا نساءهم بينهم.

وكتب المهدي كتباً إلى الأطراف يأمرهم فيها بالانضواء تحت لواء عمر بن العلاء والي طبرستان، والتوجه إلى حرب الخرمدينية. فانصاعوا للأمر، وتوجهوا لقتالهم، فشتتوا جموعهم.

---

(١) الخرمدينية: هي أصل «الخرمية». ويقال إن الخرمدينية هم «الأبو مسلمية» أصحاب أبي مسلم الخراساني الذين كان بدء الغلو منهم. وقيل إن الخرمدينية نسبة إلى «خرم آباد»، وهي قرية من قرى الري كانوا يسكنون بها. وقيل سموا بذلك لاتباع شهواتهم، لأن معنى «خرم» بالفارسية: المرح الإباحي المتوخي للملذات، الممتلىء سروراً. والخرمية نسبة إلى بابك الخرمي. (فرق الشيعة ٣٦ و٤٦ و٤٧ والفرق بين الفرق ١٦٠-١٦١). ويقال إن طائفة الخرمية البابكية نشأت من الخرمية المزدكية الذين يسمون «الخرمية الأولى» لتمييزهم عن «الخرمية الثانية» الذين ظهر منهم «البابكية» أتباع بابك.

ويذكر من أسباب تسميتها «الخرمية» أيضاً، نسبتها إلى «خرمة» أو «خرما» امرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد مقتل زوجها. (حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٢: ٩٥ مكتبة النهضة المصرية. القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٥٣).

(٢) هو أبو مسلم الخراساني. اسمه عبد الرحمان بن مسلم. قتله المنصور عام ١٣٧هـ. وقد نسبت إليه إحدى الفرق الغالية.

(٣) في عباس إقبال: «أبو الغراء» (ص ٢٨٢)، وفي دارك: «أبو المعراء» (ص ٣١٢).

وحين كان هارون الرشيد بخراسان، خرج الخرمدينيون مرة أخرى في «ترمدين»[٤] و«كابله»[٥] و«فابك»[٦] ونواحٍ أخرى من أصفهان، وتوجهت إليهم أعداد كبيرة من الري وهمذان و«دشت بيه»[٧]، والتحقت بهم، فصار عددهم أكثر من مائة ألف شخص.

ندب هارون الرشيد عبد الله بن مالك بعشرين ألف مقاتل من خراسان لحربهم، فخافوه، وعاد كل قوم إلى مكانهم. وكتب عبد الله إلى الرَّشيد، «لا مندوحة لي من مدد أبي دلف». وجاءه الجواب: «لتنضوِ تحت لوائه». فاتحد الطرفان. وكان الخرمدينية، قد جمعوا، من جديد، عدداً غفيراً من الناس، بتدبير من الباطنية وخداعها، وأطلقوا أيديهم في الفساد والنهب والسَّلب. فهاجمهم أبو دلف العجلي وعبد الله بن مالك بغتة، وكانوا غافلين، وقتلوا منهم خلقاً لا يعد ولا يحصى، وحملوا نساءهم وأبناءهم إلى بغداد وباعوهم.

خروج بابك

بعد تسع سنوات خرج بابك من أذربيجان، فقصده الباطنية للالتحاق به، لكنهم لمّا سمعوا أنّ جيشاً أرسل ليعترض طريقهم، خافوا، وعادوا أدراجهم، وتفرقوا.

وفي عام ٢١٢ هـ في أيام المأمون، خرج الخرمدينية من نواحي أصفهان، وترمدين[٨] وكابله[٩] وكرج، وانضم إليهم الباطنية، وعاثوا في البلاد فساداً، ثم مضوا إلى أذربيجان والتحقوا ببابك.

وأرسل المأمون محمد بن حميد الطائي لقتال بابك والخرميّة، وأمره، أولاً، بحرب زريق بن علي صدقة الذي كان قد عصي وتولى ولاية قوهستان العراق، وأخذ يغير على القوافل ويستولي عليها.

سيَّر محمد بن حميد الطائي جيشاً بماله الخاص، ومضى به دون أن يطلب من خزانة المأمون، شيئاً،

(٤) كذا في نسخة عباس إقبال أيضاً (ص ٢٨٢) وفي نسخة دارك: «برندين» (ص ٣١٣). غير أنني لم أعثر على هذه أو تلك في كتب البلدان.

(٥) كذا في النسخ الثلاث. لكنني لم أعثر عليها في كتب البلدان أيضاً.

(٦) كذا في النسخ الثلاث أيضاً. لكنني لم أجدها في كتب البلدان والأقاليم.

(٧) كذا في نسختنا (ص ٣٦٠) ونسخة دارك (ص ٣١٣)، لكنها في نسخة إقبال «دسته» (ص ٢٨٢). قد تكون تحريف «دستبي أو «دستوا»، وهو اسم كان يطلق على كورة كبيرة كانت مقسومة في أيام الأمويين بين الري وهمذان، وكانت دار ضرب للنقود على عهدهم أيضاً. يقال إنه لم يبق لها أثر على الخارطة اليوم، لكن موضعها يجب أن يكون جنوب قزوين. (معجم ما استعجم ٢ : ٥٥١؛ ومعجم البلدان؛ وبلدان الخلافة الشرقية ٢٥٥).

(٨) في دارك: «بريده» (ص ٣١٣).

(٩) كذا في دارك أيضاً (ص ٣١٣).

وصار إلى حرب زريق، فقبض عليه، وأهلك قومه، وشتت جمعهم. فولّاه المأمون، لذلك، قزوين ومراغة وأكثر أذربيجان.

ثم مضى محمد إلى قتال بابك، فدارت بينهما معارك ضارية استمرت ستة أشهر، قتل محمد بن حميد في نهايتها، دون أن يحرز على البابكيّة نصراً. وتفاقم أمر بابك، فأرسل خرمية أصفهان إليها. أما المأمون، فعزّ عليه مقتل قائده محمد حميد حميد الطائي جداً، وندب في الحال، عبد الله بن طاهر، الذي كان والياً على خراسان، لحرب بابك، وولاية قوهستان كلها، وما كان قد تم فتحه والاستيلاء عليه من أذربيجان. وتوجه عبد الله إلى أذربيجان فلم يستطع بابك أن يثبت أمامه، بل فرّ إلى قلعة حصينة، وتشتت جموع الخرمية.

بحلول سنة ٢١٨هـ ،خرج خرمية فارس وأصفهان وكل قوهستان وأذربيجان منتهزين ذهاب المأمون إلى بلاد الروم، وتواعدوا جميعاً على ليلة بعينها خرجوا فيها جميعهم في كل المدن والولايات، بإيعاز من بابك وتدبيره، فقتلوا عمال المدن وأعداداً غفيرة من المسلمين، ونهبوا منازلهم وسبوا أبناءهم وأخذوهم عبيداً لهم. لكن مسلمي فارس جمعوا أنفسهم، فانتصروا على الخرمية فيها، وقتلوا وأسروا منهم كثيراً. أما خرمية أصفهان، فجمعوا أنفسهم في «دارا»[١٠] و«ترمدين»[١١] وحشد رئيسهم الذي كان يدعى «علي بن مزدك» عشرين ألف رجل على مشارف المدينة، ثم مضى بهم -وأخوه معه- إلى كرج، وكان أبو دلف غائباً، ولم يكن في المدينة حينذاك سوى أخيه «معقل» الذي لم يستطع أن يقاوم بخمسمائة خيال، ففر إلى بغداد.

أما علي بن مزدك، فاستولى على كرج ونهبها، وقتل من وجد فيها من المسلمين، ثم سبا نساء العجليين وبنيهم وأخذهم معه. وتحول من هناك إلى أذربيجان للالتحاق ببابك. ثم أخذ الخرمية يتدفقون على بابك من شتى الأرجاء. لقد كانوا، بادئ ذي بدء، عشرة آلاف، ثم غدوا خمسة وعشرين ألفاً تجمعوا في المدينة التي تدعى «شارستانة» بين قوهستان وأذربيجان، وهناك التحق بهم بابك. وأعمل جيش إسحاق سيوفهم وأخذوا يقتلون، فبلغ عدد القتلى من الخرمية- غير من أعطوا الأمان- في معركة واحدة مائة ألف. أما من مضوا إلى أصفهان مع أخي علي بن مزدك فكان عددهم عشرة آلاف. وكان أخو عليّ هذا قد حمل معه النساء والأطفال، وعدّ بيوت رؤساء المدينة مُلكاً له وأدخلها في حسبانه سلفاً. غير أن علي بن عيسى أمير أصفهان كان غائباً، فتصدى قاضي المدينة ورؤساؤها وأهلها

(١٠) كذا في دارك أيضاً (ص ٣١٤)، ولم أجدها في كتب البلدان.

(١١) في دارك: «برندين» (ص ٣٢٤).

وأعيانهم لحربهم، وأطبقوا عليهم من ثلاثة جوانب، وهزموهم، وأسروا نساءهم وأبناءهم وحملوهم إلى المدينة واتخذوهم عبيداً، لكنهم ضربوا رقاب البالغين من الأبناء، وألقوا بهم في الآبار.

بعد هذا بست سنوات، تفرَّغ المعتصم للخرمية، وندب الإفشين لحرب بابك، فقاد الإفشين الجيوش ومضى بهم إليه. وهبَّ الخرمية والباطنية لنجدة بابك من كل حدب وصوب. وباختصار، فقد ظلوا يحاربون إلى جانبه سنتين دارت في خلالها رحى معارك طاحنة بين الإفشين وبابك، وقتل فيها عدد لا يحصى من الجانبين. ولجأ الإفشين، في النهاية، إلى الحيلة ففرق أكثر عسكره الذين قوضوا خيامهم في عتمة الليل البهيم، وتراجعوا فرسخين، وحطوا الرِّحال هناك. ثم أرسل إلى بابك من يقول له: «ابعث إليَّ برجل عاقل مجرِّب من رجالك لأكلمه في أمور فيها مصلحة الطرفين معاً». فأرسل إليه بابك رجلاً قال له الإفشين: «قل لبابك: إن لكل أمر نهاية، وإن رأس الآدمي ليس كراثاً ينمو من جديد إذا ما قطع. لقد قتل أكثر رجالي، ولم يبق حتى واحد من كل عشرة منهم، وهكذا الحال – فيما أعلم- بالنسبة لرجالك. هيا بنا نتصالح، فتقنع أنت بالولاية التي في حوزتك وتتربع عليها بأمنٍ وسلام، وأعود أنا، لأحصل لك على عهد أمير المؤمنين بالولاية، وأرسله إليك، وإلّا فتعال نتحارب من جديد لنرى لمن يكون الظفر».

وخرج الرَّسول من عند الإفشين، وهو يسرّح النظر في شتى الجهات ليرى حد الجيش، لكنه لم ير سوى جنود خفاف، كأنهم يمتطون أجنحة الهزيمة. ولمَّا عاد إلى بابك، نقل إليه مقالة الإفشين وأخبره عن قلَّة عدد الجيش، فإذا هي الأخبار عينها التي أنهاها عيون بابك إليه. واتَّفق بابك ورهطه على أن يشعلوها حرباً شعواء بعد ثلاثة أيام. أما الإفشين، فأرسل إلى جيوشه التي كان قد أمرها بالتراجع، يقول: «تعالوا يوم النزال ليلاً، واختبئوا على بعد فرسخ ونصف من على يمين الجبال والأودية ويسارها. وحين أتظاهر بالهزيمة وابتعد عن الجيوش مسافة بعيدة، فإن قسماً من جيش بابك سيلاحقني، ويتفرغ القسم الآخر للإغارة على المعسكر ونهبه. حينئذٍ اخرجوا من وراء الجبال، واستلموا طريق الوادي لئلا يتمكنوا من العودة والوصول إليه، وسأعود حين ذاك».

وفي يوم الحرب، أخرج بابك جيشه من المضيق، وكان عدده أكثر من مائة ألف خيال و راجل، فبدا جيش الإفشين حقيراً ضئيلاً في أعينهم، لأنه كان قليلاً بالنسبة لما كانوا قد رأوه من جيوش. ودارت المعركة، وحارب الجانبان بضراوة وقتل منهما عدد كبير. فلما رنّحت شمس الأصيل إلى المغيب لاذ الإفشين بالفرار عمداً، ولما ابتعد عن المعسكر فرسخاً، قال لحامل الراية: «قف وانصب الرَّاية هنا». وأخذ كل من يصل إلى هذا المكان من الجند يتوقف عنده. أمّا بابك، فقال لجنده: «لا تشغلوا أنفسكم

بالغارة والغنائم قبل أن نرتاح بالاً من الإفشين وجيشه نهائياً». ومضى الخيالة مع بابك في إثر الإفشين، أما الرجالة، فعاثوا في المعسكر نهباً. حينئذ، خرج العشرون ألف خيال من جيش الإفشين من وراء الجبال عن اليمين وعن اليسار، وإذا الصحراء تموج بالخرمية، فاستلموا طريق الوادي وقطعوها عليهم أولاً، ثم شرعوا سيوفهم. وعاد الإفشين بعشرين ألف خيال فأحاطوا، بهذا، بابك وجنوده، ولم تفلح كل محاولاته في الوصول إلى سبيل للفرار. ولما وصل الإفشين قبض على بابك، وظل جنده يعبثون في الخرمية قتلاً إلى صلاة العصر حتى ناف ما قتل منهم على ثمانين ألف رجل. ثم ترك الإفشين على قلعة بابك غلاماً بعشرة آلاف خيّال وراجل، وعاد هو بالأسرى وبابك إلى بغداد التي أدخلوه إليها موسوماً بعلامة خاصة. ولما وقعت عين المعتصم عليه، قال: «أيها الكلب، لماذا أضرمت نار الفتنة في الأرض؟ ولمَ قتلت آلاف المسلمين؟!»، فلم ينبس بابك ببنت شفة. وأمر المعتصم بقطع يديه ورجليه جميعاً. ولما قطعوا إحدى يديه، وضع يده الأخرى في الدّم ولطّخ به وجهه إلى أن صيّره أحمر كلّه. فقال المعتصم :«يا كلب، أي علم هذا أيضاً؟». قال بابك: «إن في هذا لحكمة». فقيل له: «قل. أية حكمة هذه؟!». قال: «إنّكم تريدون قطع يديّ ورجليّ جميعاً. إن الدم هو الذي يجعل وجنات الناس حمراً، لكنه حين ينفد من الجسم يصفرُّ الوجه. وأنا إنما حمّرت وجهي بالدم، كي لا يقال – حين ينفد دمي – إن وجهه غدا أصفر خوفاً وخشية».

وأمر المعتصم بسلخ جلد ثور بقرنيه، وأن يؤتى به طريًا. ولما جيء به، وُضِع بابك فيه بحيث ظهر فيه قرنا الثور بمحاذاة أذنيه، ثم خيط الجلد؛ ولمّا جفّ علّقوه وعرضوا بابك فيه حياً على هذا النحو إلى أن مات ميتة شنعاء.

إن أمر بابك من بدء خروجه إلى القبض عليه يتسع لمجلد كبير جداً. ولقد سئل أحد جلاديه بعد أسره: «كم شخصاً قتلت؟». قال: «كان لبابك عدة جلادين. أما عدد من قتلتهم أنا فثلاثة وثلاثون ألف مسلم، فضلاً عمن قتل الجلادون الآخرون من المسلمين في ساحات القتال».

* * *

لقد تمت على يد المعتصم ثلاثة فتوح وانتصارات كانت كلها قوة للإسلام وحصناً: أولها فتح بلاد الروم، وثانيها قضاؤه على بابك، وثالثها وآخرها انتصاره على «المازيار»[١٢] المجوسي بطبرستان. ولو أن أحدها لم يتم لفتّ في عضد الإسلام كثيراً.

(١٢) راجع عن ثورة المازيار: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي٢ : ٩٨-٩٩.

(حكاية حول المعتصم)[١٣]

في حين كان المعتصم جالساً للشراب يوماً، وكان القاضي يحيى بن أكثم حاضراً، نهض الخليفة ودخل إحدى الحجرات؛ ثم خرج وتناول شيئاً من الشراب، ونهض من جديد ودخل حجرة أخرى. ثم نهض للمرة الثالثة ودخل غرفة ثالثة، خرج منها بعد مدة ومضى إلى الحمام، فاغتسل، وخرج من الحمام بسرعة وطلب مصلّى، فصلّى ركعتين، وعاد إلى المجلس. ثمّ قال للقاضي يحيى: «أتدري ما الصلاة التي صلّيتها؟». قال يحيى: «لا». قال المعتصم: «صلاة شكر لنعمة من نعم الله - عزّ وجلّ- أسبغها عليّ اليوم». قال يحيى: «يا أمير المؤمنين، ما هذه النعمة؟». قال المعتصم: «في هذه السّاعة، افتضضت ثلاث فتيات، هنّ بنات ثلاثة كانوا خصوماً لي: «إحداهما بنت ملك الروم، والثانية ابنة بابك، والأخيرة كريمة المازيار المجوسي».

(خروج الخرميّة في عهد الواثق)

وفي أيام الواثق، خرج الخرمية في ناحية أصفهان، وعاثوا فيها فساداً، وظلوا يخرجون إلى سنة ثلاثمائة هجرية. وأغاروا على كرج ونهبوها مرة أخرى، وقتلوا خلقاً كثيراً، لكنه قُضي عليهم أيضاً.

وممن خرجوا «باريزدشاه»[١٤] الذي اتخذ من جبال أصفهان معقلاً له، فالتف حوله الخرمية والباطنية وأخذوا يسطون على القوافل، وينهبون القرى، ويقتلون الشيوخ والشباب والأطفال. ودامت فتنته ما يزيد على ثلاثين سنة، لم تستطع الجيوش في خلالها أن تحرز أي نَصْرٍ عليه، بل عجزت عن رده والتّغلب عليه لاستحكامه في جبال حصينة جداً. لكن قُبض عليه أخيراً، وعلّق رأسه في أصفهان، وأرسلت كتب إلى شتى أقطار الإسلام تبشر المسلمين بهذا النصر.

إنه ليطول بي المقام لو ذكرت أخبارهم كلها، فهي كثيرة، ومهما ذكرت منها فكأنني لم أذكر شيئاً. ومن يشأ الوقوف على ثورات الباطنية والخرمية ومفاسدهم فليقرأ: «تاريخ «الطبري» و«تاريخ أصفهان» و«تاريخ خلفاء بني العباس»[١٥].

---

(١٣) حذف الدكتور شعار هذه الحكاية لأنها غير مناسبة - أخلاقياً - في نظره (انظر: حاشية ٢ ص ٣٦٦). وقد سبقه عباس إقبال إلى حذفها لعدم لياقة تدريسها في المدارس الإيرانية (حاشية ص ٢٨٧). غير أنني ترجمتها عن نسخة دارك (ص ٢١٨)- مثلما هو الشأن في نظائرها- حرصاً على أمانة الترجمة.

(١٤) اعترف دارك أنه لم يستطع التعرف على هذا الاسم والتحقق منه (التعليقات ٣٤٥).

(١٥) لم أوفق في الاهتداء إلى اسم صاحب هذا الكتاب الذي يبدو أنه من الكتب التي لمّا تصل إلينا.

(أصول مذهب الخرمية)

الركيزة التي بنى عليها الخرمية مذهبهم، هي أنهم ألقوا عن كواهلهم كل ضروب الإجهاد والإرهاق، ونبذوا شعائر الدين الإسلامي وفرائضه من : قيام، وصلاة، وصيام، وحج، ومجاهدة أعداء الله- عزَّ وجلّ- والاغتسال من الجنابة، وتحريم الخمرة، والتمسك بالزُّهد والتَّقوى وكل ما هو فريضة.

إنهم لم يسعوا في أمور الشَّريعة، ولم يحاولوا سلوك سبيل دين المصطفى، عليه السلام، في شيء. لقد كان أول ما يتفوهون به في محافلهم ولقاءاتهم إظهار الأسف والحسرة على قتل أبي مسلم صاحب الدولة، ولعن قتلته دائماً، والصلاة على «المهدي بن فيروز» ابن فاطمة بنت أبي مسلم، الذي كانوا يدعونه «الطفل الحكيم(١٦)» أو «الفتى العالِـم».

يبدو أن أصل المذاهب الثلاثة: المزدكية، والخرمية، والباطنية، واحد، وأنهم كانوا يسعون دائماً إلى تقويض دعائم الإسلام. لقد كانوا يتظاهرون بالصدق والزهد والعبادة والتَّقوى ومحبة آل الرسول(ﷺ) أمام المسلمين بادئ ذي بدء لإيقاعهم في حبائلهم، لكنهم كانوا يسعون، بعد أن يقوى عودهم ويكثر أتباعهم، إلى الإطاحة بأمة محمد- عليه السلام - ودينه، وتقويضهما، حتى إن الكفار كانت تأخذهم الشفقة والرَّحمة على أمة محمد، عليه السلام، أكثر من هؤلاء.

* * *

لقد ذكرت هذا القدر من أقوالهم لأنهم كانوا يحفرون بئراً، ويحاولون إخفاء أمر جلي(١٧) والتستّر عليه. أما من استجابوا لدعوتهم، فكانوا ييسّرون لهم أمورهم ويخدمون أهدافهم، ويمدون إليهم يد العون، ويساند كل منهم الآخر.

لقد جعلوا سيد العالم- خلّد الله ملكه-، الذي له كل ما فيه والّذي كل العالمين عبيده، حريصاً على جمع المال، المال الذي كانوا يسلبونه من المستحقين ويظهرونه على أنه توفير!! إنه لا يمكن عمل ثوب من قصاصات سترة أو وصل كمّين معاً!! سيتذكر سيّد العالم- دام سلطانه- مقالة مولاه حين

---

(١٦) في الفارسية «كودك دانا».

(١٧) ترجمة معنوية للمثل الفارسي، «طبل مى زنند زير گليم». وترجمته الحرفية «يضربون على الطبل من تحت البساط». وهو كناية عما ترجمته أعلاه. ومن الجدير بالذكر أن المثل الفارسي جاء كاملاً في نسخة إقبال (ص ٢٨٨) لا في نسختنا التي رجّح محققها صواب ما في نسخة إقبال (انظر: حاشية ٢ ص ٣٦٨ من الأصل الفارسي). وإلى هذا ذهب دارك أيضاً (التعليقات ٣٤٤).

يقذف هؤلاء القوم عظماءَ الناس وأعزاءهم في البئر، وحين تقرع أصواتُ طبولهم الأسماع، ويظهر شرهم وفتنتهم واضحاً للملأ. وسيتذكر إبّان هذا الفساد أن ما قلته هو الصّواب عينه، وإنّني لم أضنّ - ما أمكنني ذلك- في تقديم النصح، وإظهار الحدب والخشية، ولم آل جهداً في تنفيذ شروط طاعتي وهواي لهذه الدولة القاهرة، ثبّت الله أركانها.

وقى الله، تعالى، عهد مولاي عين السوء ويد الشّر، وحال بين أعدائه وتحقيق مآربهم وآمالهم الشّريرة، ووشّح قصره وبلاطه وديوانه بأهل الدين إلى يوم الدين، ولا أخلى هذه الدولة ممن هواهم معها، ووهب ملكه النصر والظفر كل يوم.

الفصل الثامن والأربعون

في امتلاك الخزائن ورعاية قواعدها وأنظمتها

كان للملوك، دائماً، خزانتان: إحداهما الخزانة الأصل، والأخرى خزانة الإنفاق. لقد كانوا يحوّلون الأموال المتحصلة غالباً إلى الخزانة الأولى، وقليلاً ما حوّلوها إلى الأخرى. ولم يكونوا ينفقون من الخزانة الأصل إلا لضرورة قصوى، وعلى سبيل قرض يعاد إليها بعد ذلك. ولو لم يفكّروا على هذا النحو، لأنفق كل ما كان يحصّل من أموال، حتى إذا ما احتيج إلى المال بغتة، ولم يكن متوافراً فلا ينشأ عنه سوى الحيرة وانشغال البال،والتقصير في مواجهة ذلك المهم والتأخر في قضائه.

ولم يكن الملوك ينفقون مما كان يدخل الخزانة من دخل الولاية البتة، لكي تؤدى النفقات في أوقاتها، ولا يحدث أي إخلال أو تقصير في أداء الصّلات والهبات والأعطيات، لكي تظل الخزانة عامرة دائماً.

آلتون تاش وأحمد بن الحسن الميمندي

سمعت أن الأمير آلتون تاش[1]، الذي كان الأمير الحاجب للسلطان محمود، ندب حاكماً لخوارزم، وأرسل إليها، وكان معدل دخل حاصلات خوارزم ستين ألف دينار، في حين كانت رواتب جيش آلتون ضعف هذا المبلغ. وذهب آلتون تاش إلى خوارزم، وبعد سنة على وجوده فيها أرسل إليه من يطلب مالاً. فأرسل معتمديه إلى غزنين يلتمس: «اجعلوا الستين الألف هذه، وهي أحمال[2] خوارزم، رواتب لجندي بدلاً عما يدفع لي من الديوان».

ولما قرأ شمس الكفاة أحمد بن الحسن الميمندي – وكان وزيراً – الرّسالة، كتب، في الحال، الجواب الآتي:

---

(١) قتل في حربه مع علي تكين عام ٤٣٢ هـ في عهد السلطان مسعود الغزنوي(فرهنگ فارسي).

(٢) أحمال هنا: جمع حَمل «بفتح الحاء وسكون الميم»، وهو ثمر الشجر. وقد أثبتها في الترجمة لورودها في الأصل الفارسي.

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن آلتون تاش لا يمكن أن يكون محموداً(٣) بأية حال. احمل ما تعهدت به من أموال، وهاتها إلى خزانة السُّلطان، ثم اجلس إلى الناقد(٤) والوزّان، وسلّم الذهب وخذ سنداً به. حينئذٍ اطلب رواتب جندك، حتى يكتب لك ولهم عهد بمحاصيل (بُست) وسجستان. ثم امضوا إليهما وأحضروا محاصيلهما إلى خوارزم. كل هذا ليمتاز الفرق بين المولى وسيده، وبين محمود وآلتون تاش، ويظهر رونق السلطان، ويعرف حدّ الجند. يجب أن يكون كلام (خوارزمشاه)(٥) في منأى عن الخطل، فإن التماسه لا يعدو أحد أمرين اثنين، فإما أنه ينظر إلى السلطان بعين الصغار والهوان، وإما أنه يعد أحمد بن الحسن الميمندي غافلاً مبتدئاً جاهلاً. لقد عجبنا لكمال عقل خوارزمشاه وفصاحته، وقد عجب كل من سمع التماسه أيضاً. عليك أن تعتذر وتلتمس العفو، فإن سعي المولى لمشاركة سيده في الملك لخطر عظيم. والسلام».

وبعث الميمندي الرسالة بيد أحد رؤساء الحرس ومعه عشرة غلمان، إلى خوارزم، فأتوا بستين ألف دينار، وزنت وأودعت خزانة محمود، وأعطوا من ديوان غزنين عنها عهداً بمحاصيل بست وسجستان من البلوط وقشور الرمان والقطن وما إليها. وذهب آلتون تاش ورهطه إليهما فأخذوا المحاصيل وباعوها، وجاؤوا بستين ألف دينار من بست إلى خوارزم.

لقد حافظ الملوك على هذا النظام وهذه القاعدة من قواعد الملك لئلا يتسرب الانفصام إلى شؤون المملكة ومصالحها، وكي يظل صلاح الرعية وعمران الخزانة على حالها، وتقطع الأطماع في أموال السُّلطان والرَّعية.

---

(٣) أي السلطان محمود الغزنوي.

(٤) الناقد هنا: الذي يعدّ النقود وينقدها.

(٥) أي حاكم خوارزم.

الفصل التاسع والأربعون

في إجابة المتظلمين وقضاء مطالبهم وإنصافهم

يغصّ القصر دائماً بالمتظلمين الذين لا يغادرونه قبل أن يتسلموا أجوبة شكاياتهم. إن هذا قد يبعث كل رسول أو غريب يفد إليه على الظن حين يسمع صراخ المتجمعين وجلبتهم، بأن ظلماً عظيماً ينزل بالناس. لكي يوصد الباب دون هذا الظن، يجب أن تجمع شكاوى أهل كل مدينة وناحية من الحاضرين على حدة، وتوضع في مكان واحد. ثم يأتي خمسة منهم إلى القصر لبيان أمرهم وعرض أحوالهم، ويتلقون الجواب ويتسلمون الحكم، ويعودون حالاً. وهذه هي السبيل للقضاء على الجلبة والضوضاء والصراخ التي لا أساس لها.

كتاب يزدجرد إلى عمر وجوابه عنه

يروى أن الملك يزدجرد أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– رسولاً يقول: «ليس في العالم اليوم مملكة أكثر سكاناً من مملكتنا، وخزانة أعمر من خزائننا، وجيش أكثر من جيشنا؛ وليس لأحد ما لنا من آلة وعدة».

فأجابه عمر: «أجل، إن مملكتك مكتظة لكن بالمتظلمين؛ وإن خزائنك مترعة لكن بالمال الحرام؛ وإن جيشك كثير لكنه شاقٌّ عصا الطاعة. وإذا ما دالت الدولة فإنَّ الآلة والعدة لا يغنيان فتيلاً. إن في هذا كله لدليلاً على انحطاط دولتكم وقرب زوال ملككم». وهكذا كان.

***

إن الطريقة الأمثل، أن يبدأ سيد العالم– خلّد الله ملكه– بالانتصاف من نفسه، ليصير الجميع منصفين، ويقطعوا دابر الطمع مما هو محال وغير حق، مثلما فعل السلطان محمود.

رسالة السلطان محمود الشديدة

يقال: إن تاجراً أتى بلاط السلطان محمود، وتظلم إليه من ابنه مسعود في حسرة وتوجّع، وقال: «أنا امرؤ تاجر، مضت عليَّ مدّة هنا. أرغب في العودة إلى مدينتي لكنني لا أستطيع، لأن الأمير

مسعوداً اشترى مني بضاعة وأقمشة بستين ألف دينار دون أن يدفع ثمنها. أريد أن ترسلني أنا والأمير مسعوداً إلى القاضي».

رقّ قلب السلطان محمود لكلام التاجر، وبعث رسالة شديدة إلى مسعود أمره فيها: «أريد أن تقضي له حقه الآن، وإلا تعال لتمثل معه أمام القضاء، لتطبّق عليكما أحكام الشّريعة». ومضى التاجر إلى مجلس القاضي، في حين قصد الرّسول مسعوداً وأدى الرسالة. أسقط بيد مسعود، فقال للموكل بالخزانة: «انظر ما في الخزانة من الذهب نقداً». فذهب ونظر وعاد، فقال: «ليس ثمة أكثر من عشرين ألف دينار». قال مسعود: «خذها، وامضِ بها إلى التاجر، واستمهله ثلاثة أيام لباقي المبلغ». ثم قال لرسول السلطان: «قل للسلطان إنني دفعت إلى الرجل عشرين ألف دينار في الحال، وسأعطيه حقه كاملاً بعد ثلاثة أيام. وإنني لأقف الآن مرتدياً قبائي، منتعلاً موزجي في انتظار ما يأمر به السلطان». فذهب الرّسول، لكنه عاد إلى مسعود مرّةً أخرى، وقال: «يقول السلطان: إما أن تتوجه إلى مجلس القضاء، وإما أن تدفع مال التاجر إليه. واعلم أنك لن ترى لي وجهاً ما لم تؤد حق الرجل إليه كاملاً».

ولم يجرؤ مسعود على أن يضيف إلى كلامه السابق حرفاً، وأرسل رُسلاً إلى مختلف النواحي يطلب قرضاً. فما إن أزف وقت صلاة العصر، حتى وصلت إلى التاجر الستون الألف دينار. ولما تناهى هذا الخبر إلى أطراف العالم، جعل التجار ينهالون على غزنين من الصين، و«خطا»[١] ومصر، وعدن، يحملون إليها ما في العالم من تحف ونفائس. أما ملوك هذا الزمان، فلو أمر أحدهم أدنى فرّاش أو «ركابدار» بأن: «امثل في مجلس القضاء مع عميد بلخ ورئيس مرو» لما صدع لأمره، أو أعاره أدنى اهتمام!.

(جواب عمر بن عبد العزيز لعامل حمص)

كتب عامل حمص إلى عمر بن عبد العزيز: «لقد انهار سور حمص، ورمّه واجب، فبِمَ تأمر؟». فكتب إليه عمر: «سوِّر حمص بالعدل، وطهّر طرقاتها من الخوف والظلم، ولا حاجة بَعْدُ، إلى الطين واللبن والحجر والجص[٢]».

***

(١) خطأ أو «ختا»: اسم القسم الشمالي من الصين الذي كانت تقطنه قبائل الأتراك (فرهنگ فارسي).

(٢) ورد في جمهرة رسائل العرب (٢ : ٣٥١) نقلاً عن كتاب «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص ٩٠) لابن الجوزي ما يلي: كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: «أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن ير أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمّها به فعل».

فكتب إليه عمر: «أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت من أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا، فحصّنها بالعدل، ونقّ طرقاتها من الظلم، فإنه مرمتها».

وأمر الله، عز وجل، داوود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ[٣] ...﴾[٤]. ويقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ...﴾[٥].

ويقول محمد المصطفى (ﷺ) : «من استعمل على المسلمين عاملاً وهو يعلم أن في المسلمين من هو خير منه، فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين».

* * *

إن هذا العالم صحيفة الملوك، يذكر الأخيار منهم بالخير ويثني عليهم، ويذكر الأشرار بالشر والسوء ويلعنهم، يقول العنصري:

«ستؤول إلى حكاية وذكر، ولو شِدْتَ سريرك في السماء».

«ولن يبقى منك سوى الذكر، ولـو تمنطقت بالثريا».

«فحاول أن تخلّف ذكراً حسناً، ما دمت ستؤول ذِكْراً».

«واسعَ في أن تكون حكاية جيدة، ما دمت ستصير حكاية».

---

(٣) في نسختنا (ص ٣٧٦) وفي نسخة دارك (ص ٣٢٧) أيضاً: «بالعدل» ولم يتنبه المحققان إلى هذا الخطأ في الآية الكريمة في حين أنها جاءت صحيحة في نسخة عباس إقبال.

(٤) سورة ص: آية ٢٦.

(٥) سورة الزمر: آية ٣٦.

الفصل الخمسون

في تدوين حساب أموال الولايات ونسقه

إن فائدة تدوين حساب أموال الولايات ومعرفة الدخل والإنفاق تكمن في التأمل والتدقيق في الإنفاق، فيلغى حينئذٍ، ما ليس ضرورياً ويحذف. وإذا ما كان لأحد رأي في مجموع الدخل كأن أظهر رغبة في التوفير، يجب الإصغاء إليه، حتى إذا تبين صحة ما يقول يجب السعي في إثر ذلك المال وتوفيره. فبهذا يمكن القضاء على ما قد يحدث من إخلال أو تبذير في الأموال وتضييعها، ولا يظل ثمة شيء خافياً بعد ذلك.

أما موقف الملك – أي ملك– من حال الدنيا وشؤونها الأخرى فيجب أن يكون منصفاً في كل حال، وأن يجري وفق السنن القديمة، وعلى قريّ الملوك الصالحين الأخيار؛ وعلى الملك ألا يسنّ سنّة سيئة، أو يرضى بالبدع. ومن واجبه، كذلك، مراقبة العمال والمعاملات، ومعرفة الدخل والخرج، والحفاظ على الأموال، وتأسيس الخزائن، والادخار. كل هذا لتوفير المال، ودفع أذى الأعداء ومضارهم. لا يعني هذا أن يمسك يده ويغلها إلى عنقه فيصمه الناس بالبخل وينسبونه إلى الدنيا والتكالب عليها. لا يعني، كذلك، أن يتمادى في الإسراف فيقول عنه الناس إنه مبذر للأموال مذريها. عليه أن يعرف – حين العطاء– للناس منازلهم وأقدارهم، فلا يهب مائة دينار من لا يستحق سوى عشرة، أو يمنح ألف دينار من يستحق مائة. لأن هذا يحط من أقدار العظماء والمشهورين ومراتبهم، ويفسح المجال للآخرين بأن يدّعوا: إن هذا الملك لا يراعي أقدار الناس ومنازلهم، ولا يعرف لأصحاب الخدمات والفضل والمهارات والفنون أقدارهم. لذلك، يضغنون دونما سبب، ويقصرون في القيام بواجباتهم.

ويجب على الملك كذلك، أن يحارب الأعداء حرباً تترك باب الصلح مفتوحاً، وأن يصالحهم صلحاً لا يوصد باب الحرب؛ وأن يوطّد علاقاته مع الصّديق والعدو بنحو يمكّنه من أن يفصم عراها، أو يعيد بناءها أنّى يشاء.

ومما يجب عليه، أيضاً، ألا يشرب الخمر حباً في السكر، وألاّ يفرد وجهه دائماً، أو يعبس دفعة واحدة.

ومثلما يشغل نفسه بالصيد والتنزه والشرب أحياناً، يجب أن يأخذها، بين الحين والحين، بالشكر وبذل الصدقات، والصلاة بالليل، والصيام، وفعل الخير، ليجمع بين الدنيا والآخرة.

وعليه أن يتوسط في كل الأمور عملاً بقول الرسول، عليه السلام، «خير الأمور أوسطها»، وألا ينسى نصيب الحق تعالى في كل أمر، لئلا يكون ذلك وبالاً عليه. ومن واجبه أن يسعى في إطاعة أوامر الله تعالى، وتطبيق أحكام الدين وشرائعه، وأن يحرص عليها، لكي يهبه الله تعالى الكفاية في أموره الدينية والدنيوية، ويحقق له مراد الدنيا والآخرة، ويوصله إلى ما يصبو إليه من آمال وأمنيات.

«النهاية»

تمّ بعون الله تعالى وحسن توفيقه
في منتصف شهر شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة
على يدي العبد الضعيف الفقير المذنب المقرّ بذنبه المحتاج
إلى رحمة الله تعالى حسين بن زكريا بن الحاج حسين الدهستاني،
غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين إلى يوم القيامة،
وصلى الله على سيدنا خاتم النبيّين محمّد المصطفى،
وعلى آله أجمعين وأصحابه وأتباعه
وسلّم عليهم تسليماً كثيراً. متّع
الله لصاحبه بحقّ محمّد وآله.
والحمد لله[1]

(١) هذه الديباجة عن خاتمة الكتاب للناسخ، وقد كتبها بالعربية. لكن الدكتور جعفر شعار لم يثبتها في آخر الكتاب، بل اكتفى بالإشارة إليها وترجمة مضمونها في الحاشية (حاشية ٢ ص ٣٧٩) أمّا أنا فنقلتها عن نسخة دارك (ص ٢٣٠).

مصادر الترجمة ومراجعها

أولاً: العربية

١- آثار البلاد وأخبار العباد. زكريا بن محمد بن محمود القزويني. دار صادر ودار بيروت- بيروت ١٩٦٠م.

٢- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. المقدسي. الطبعة الثانية. بريل ١٩٠٦ م.

٣- أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر. من جمع علي وناجي الطنطاوي. الطبعة الثالثة. دار الفكر -بيروت ١٩٧٣م.

٤- الألفاظ الفارسية المعربة. أدي شير. المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين- بيروت ١٩٠٨م.

٥- الألقاب الإسلامية. الدكتور حسن الباشا. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٥٧م.

٦- البداية والنهاية (الجزء الحادي عشر). أبو الفداء ابن كثير (ت٧٧٤هـ). مطبعة السعادة. مصر (دون تاريخ).

٧- تاريخ وأخبار القرامطة. ثابت بن سنان وابن العديم. تحقيق الدكتور سهيل زكار. دار الأمانة- بيروت ١٩٧١.

٨- تاريخ الإسلام السياسي (الجزء الثاني). الدكتور حسن إبراهيم حسن. الطبعة الثالثة. القاهرة ١٩٥٣م.

٩- تاريخ الأمم والملوك (الجزء الثامن). ابن جرير الطبري. مطبعة الاستقامة- القاهرة ١٩٣٩م.

١٠- تحفة المجالس ونزهة المُجالس. جلال الدين السيوطي. تصحيح محمد بدر الدين النعماني الحلبي. الطبعة الأولى، مطبعة السعادة- القاهرة ١٩٠٨م.

١١- تراجم سيدات بيت النبوة. الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ). دار الكاتب العربي. بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

١٢- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. أبو منصور الثعالبي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار نهضة مصر ١٩٦٥م.

١٣- جمهرة رسائل العرب (الجزء الثاني). أحمد زكي صفوت. الطبعة الاولى. البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٧م.

١٤- حمزة بن الحسن الأصفهاني (بحث). الدكتور حسين علي محفوظ. مجلة سومر (بغداد). المجلد التاسع عشر. الجزءان الأول والثاني ١٩٦٤م.

١٥- دولة الإسماعيلية في إيران. الدكتور محمد السعيد جمال الدين. مطابع سجل العرب. القاهرة ١٩٧٥م.

١٦- عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ج٢). ابن أبي أصيبعة. ط٢: دار الثقافة -بيروت (دون تاريخ).

١٧- الفهرست. ابن النديم. تحقيق محمد رضا تجدد. طهران ١٩٧١م.

١٨- فرق الشيعة. أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي (من القرن الثالث الهجري). تصحيح محمد صادق آل بحر العلوم. المطبعة الحيدرية. النجف ١٩٣٦م.

١٩- الفرق بين الفرق. أبو منصور البغدادي (ت ٤٢٩هـ). تصحيح محمد زاهد بن الحسن الكوثري. القاهرة ١٩٤٨م.

٢٠- القاموس المحيط. مجد الدين الفيروز أبادي. المكتبة التجارية. الطبعة الخامسة. القاهرة ١٩٥٤م.

٢١- قصص الأنبياء (الجزء الثاني). الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير(ت٧٧٤هـ). تحقيق مصطفى عبد الواحد. الطبعة الأولى. دار التأليف، القاهرة ١٩٦٨م.

٢٢- قصص الأنبياء. عبد الوهاب النجار. مطبعة المدني. القاهرة ١٩٦٨م.

٢٣- كتاب ذكر أخبار أصفهان (الجزء الأول). الإمام أبو نعيم الأصفهاني. نشرة ديدرنج. مطبعة بريل. ليدن ١٩٣١م.

٢٤- كتاب قصص الأنبياء. أحمد بن محمد الثعلبي. تصحيح لجنة من العلماء. المكتبة التجارية. القاهرة (دون تاريخ).

٢٥- لسان العرب. ابن منظور المصري. الطبعة الأولى. بولاق ١٣٠٠هـ.

٢٦- مشاهير علماء الأمصار. محمد بن حبّان البستي(ت٣٥٤هـ). تصحيح م. فلايشهر. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٥٩م.

٢٧- معجم الأدباء. ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ). طبعة دار المأمون الأخيرة. مصر (دون تاريخ).

٢٨- معجم البلدان. ياقوت الحموي. طبعة دار صادر - بيروت ١٩٦٥م.

٢٩- معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع (الجزء الثاني) .عبد الله بن العزيز البكري (ت ٤٨٧ هـ). تحقيق مصطفى السقا. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٤٥م.

٣٠- المعرّب من الكلام الأعجمي. أبو منصور الجواليقي (ت ٥٤٠هـ). تحقيق أحمد محمد شاكر. طبعة الأوفست. طهران ١٩٦٦م.

٣١- مفاتيح العلوم. أبو عبد الله الكاتب الخوارزمي. الطبعة الأولى. القاهرة ١٣٤٢هـ.

٣٢- الملل والنحل. الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(ت ٥٤٨هـ). تصحيح الشيخ أحمد فهمي محمد. الطبعة الأولى. مطبعة حجازي. القاهرة ١٩٤٨م.

٣٣- وفيات الأعيان (الجزءان الأول والثاني). ابن خلكان(ت ٦٨١هـ). تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة. مصر (دون تاريخ).

ثانياً: الفارسية

٣٤- تاريخ أدبيات إيران. دكتر رضا زاده شفق. انتشارات دانشگاه پهلوي، شيراز ١٣٥٢ شمسي.

٣٥- تاريخ برامكة. لمؤلف مجهول. الطبعة الأولى. طهران ١٣١٢ شمسي.

٣٦- تاريخ سيستان (سجستان). لمؤلف مجهول. تصحيح ملك الشعراء بهار. طهران (دون تاريخ).

٣٧- حدود العالم من المشرق إلى المغرب. لمؤلف مجهول (ألف الكتاب عام ٣٧٢هـ). باعتناء دكتر منوچهر ستوده. چاپخانة دانشگاه طهران (مطبعة جامعة طهران). طهران ١٣٤٠ شمسي.

٣٨- دائرة المعارف فارسي، غلام حسين مصاحب. منشورات فرانكلين. طهران ١٣٤٥ شمسي.

٣٩- راحة الصدور وآية السرور در تاريخ آل سلجوق. أبو بكر الراوندي. تصحيح محمد اقبال. باهتمام مجتبى مينوي. أمير كبير. طهران ١٣٣٣ شمسي.

٤٠- سياست نامه: حواشي عباس إقبال. طهران ١٣٢٠ شمسي.

٤١- سياست نامه (تعليقات هيوبرت دارك). الطبعة الثانية. طهران ١٣٤٧ شمسي.

٤٢- سياست نامه (تعليقات الدكتور جعفر شعار وحواشيه). طهران ١٣٤٨ شمسي.

٤٣- فرهنگ (معجم) أدبيات فارسي. الدكتورة زهراى خانلرى (كيا). چاپخانة زر(المطبعة الذهبية). طهران ١٣٤٨ شمسي.

٤٤- فرهنگ فارسي. دكتر محمد معين. انتشارات أمير كبير. طهران ١٣٤٣ شمسي.

٤٥- فرهنگ نفيسي. الدكتور علي أكبر نفيسي(ناظم الأطباء). طبعة الأوفست. طهران ١٣٤٣ شمسي.

٤٦- فرهنگ واژهاى فارسي در زبان عربي (معجم الألفاظ الفارسية في اللغة العربية). محمد علي إمام شوشتري. طهران ١٣٤٧ شمسي.

٤٧- گزيده قابوس نامه. كيكاوس بن اسكندر. به كوكش دكتر غلا محسين يوسفي. تهران ١٣٥٣ شمسي (١٩٧٤ م).

٤٨- مزديسنا وتأثير آن در ادبيات پارسي (مزديسنا وتأثيره في الأدب الفارسي). دكتر محمد معين. چاپخانة دانشكاه. طهران ١٣٢٦ شمسي.

٤٩- نزهت القلوب. حمد الله مستوفي (ت ٧٥٠هـ ؟). الطبعة الحجرية. بومباي.

أخيراً: المترجمة

٥٠- بلدان الخلافة الشرقية. تأليف كي لسترنج. ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد. مطبوعات المجمع العلمي العراقي. مطبعة الرابطة. بغداد ١٩٥٤م.

٥١- تاريخ الأدب العربي (الجزء الثالث).كارل بروكلمان. ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار. دار المعارف. القاهرة ١٩٦٢م.

٥٢- تاريخ البيهقي. أبو الفضل البيهقي. ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت. دار الطباعة الحديثة. القاهرة (دون تاريخ).

٥٣- تاريخ جهانگشاي (القسم الخاص بالإسماعيلية) لعطا ملك الجويني. ترجمة الدكتور محمد السعيد جمال الدين. القسم الثاني من كتاب «دولة الإسماعيلية في إيران».

٥٤- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. آدم متز. ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. ط٣: القاهرة: ١٩٥٧.

٥٥- الشاهنامة. أبو القاسم الفردوسي. ترجمة البنداري. باعتناء وإكمال الدكتور عبد الوهاب عزام. طبعة الأوفست. طهران ١٩٧٠م.

فهارس الكتاب

أولاً: فهرس الآيات الكريمة

الأعراف	١٦٠	٢٣٨	﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً... ﴾
آل عمران	١٣٤	١٦٣	﴿...وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.
النور	٥٤	١٣٢	﴿... وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.
آل عمران	٩٧	٢٦٩	﴿... وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً... ﴾.
مريم	٥٣	٢٣٠	﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾.
الحجرات	٦	١٧١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.
المائدة	٥١	٢٠٢	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بعض...﴾.
الأنفال	٦٥	١٣٩	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾.
صٓ	٢٦	٢٨٥	﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾.

ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

٩٧	«أعدت للعادلين وأهليهم ومن هم في رعايتهم قصور من نور في الجنة».
٢٠٠	«إن الله تبارك وتعالى جعل لي أصحاباً ووزراء وأصهاراً، فمن سبَّهم فعليه لعنة الله والناس أجمعين لا يقبل الله لهم عدلاً ولا صَرْفاً».
٢٢١	«أنتنّ صواحبات يوسف وكرسف».
٢٠٠	«إنّه كان يبغض عثمان؛ أبغضه الله». [قاله في صاحب جنازة وترك الصلاة عليها].
١٦٧	«البخيل لا يدخل الجنة».
١٩٩	«تظهر في آخر الزمان فئة يقال لهم الرافضة، فإذا لقيتموهم فقاتلوهم».
٥٢	حديث عن سؤال المرء يوم القيامة، عمن كان مسؤولاً عنهم.
٥٢	حديث آخر عن الموضوع نفسه في الحديث السابق.
١٦٦	حديث إغداق الخبز والطعام على خَلْق الله.
٢٠٠	«الخوارج كلاب النار»
٢٨٧	«خير الأمور أوسطها».
٢٢١	«شاوروهنّ وخالفوهن».
٨٧	«العدل عز الدين وقوّة السلطان، وفيه صلاح الخاصة والعامة».

ثالثاً: فهرس الأمثال والحكم والأقوال المشهورة

رابعاً: فهرس الأشعار العربية والمترجمة

العربية والمترجمة (وقد وردت كلّها في الهوامش)

خامساً: فهرس ألفاظ الحضارة ومصطلحاتها

سادساً: فهرس الكتب (في المتن والهامش)

سابعاً: فهرس الأعلام

[ن]

[هـ]

[و]

[ي]

ثامناً: فهرس الأقوام والأسرات والملل والنحل

أخيراً: فهرس البلدان والأماكن

المحتويات

كتب للمؤلف

١- اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري:

ط ١: دار المعارف بمصر ١٩٧١.

ط ٢: (مزيدة ومنقّحة): دار الأندلس - بيروت ١٩٨١.

ط ٣: دار الأندلس - بيروت ١٩٨٦.

ط ٤: دار المناهل - بيروت ٢٠٠٧.

٢- بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث):

ط ١: دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة ١٩٧٩.

ط ٢: (مزيدة ومنقّحة): دار الأندلس - بيروت ١٩٨٣.

ط ٣: دار الأندلس - بيروت ١٩٨٦.

ط ٤: دار المناهل - بيروت ٢٠٠٧.

٣- قراءات نقدية:

ط ١: دار الأندلس - بيروت ١٩٨٠.

ط ٢: دار الأندلس - بيروت ١٩٨٢.

ط ٣: دار الأندلس - بيروت ١٩٨٦.

٤- قضايا في النقد والشعر: دار الأندلس - بيروت ١٩٨٤.

٥- الوجه الآخر: دار الثقافة - الدوحة ١٩٨٦.

٦- الترجمات العربية لرباعيات الخيام، دراسة نقدية.

٧- في العروض والقافية:

ط ١: دار الفكر - عمّان ١٩٨٤.

ط ٢: (منقّحة ومزيدة): دار المناهل - بيروت ١٩٩٠.

ط ٣: (منقّحة ومزيدة كذلك): دار المناهل - بيروت، ودار الرائد - عمّان ٢٠٠٦.

٨- الأدب العربي (من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي) (بالاشتراك): وزارة التربية والتعليم وشؤون الشباب- سلطنة عُمان. ط ١: ١٩٨٥.

٩- الأوهام في كتابات العرب عن الخيام: دار المناهل - بيروت ١٩٨٨.

١٠- من بوادر التجديد في شعرنا المعاصر:

ط ١: وزارة الثقافة والإعلام - بغداد ١٩٨٨.

ط ٢: دار المناهل - بيروت ١٩٩٥.

١١- عمر الخيام والرباعيات في آثار الدارسين العرب: دار المناهل - بيروت ١٩٨٨.

١٢- أوراق نقدية جديدة عن طه حسين:

ط ١: دار المناهل - بيروت ١٩٩٤.

ط ٢: دار المناهل - بيروت ٢٠٠٧.

١٣- في النقد الأدبي: إضاءات وحفريات:

ط ١: دار المناهل - بيروت ١٩٩٤.

ط ٢: دار المناهل - بيروت ٢٠٠٧.

١٤- منهج قراءة النص العربي (بالاشتراك): جامعة القدس المفتوحة، عمان ١٩٩٥.

١٥- العروض والإيقاع (بالاشتراك): جامعة القدس المفتوحة، عمان ١٩٩٧.
١٦- الأدب المقارن (بالاشتراك): جامعة القدس المفتوحة، عمان ١٩٩٧.
١٧- داستان من وشعر، ترجمة كتاب «قصتي مع الشعر» لنزار قباني، بالاشتراك مع د. غلام حسين يوسفي: منشورات طوس، طهران ١٩٩٧.
١٨- سياست نامه (سير الملوك) لنظام الملك الطوسي (ترجمة إلى العربية):
ط ١: دار القدس- بيروت ١٩٨٠.
ط ٢: دار الثقافة - الدوحة ١٩٨٧.
ط ٣: دار المناهل - تحت اسم: (سِيَر الملوك) بيروت ٢٠٠٧.
١٩- گزيده از أي شعر عربي معاصر، ترجمة فارسية (بالاشتراك) لكتاب «مختارات من الشعر العربي الحديث» للدكتور مصطفى بدوي: منشورات اسپرك، طهران ١٩٩١.
٢٠- قصيدة الناشئ الأكبر في مدح النبيّ ونسبه، تحقيق ودراسة: مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد (٣-٤)، كانون الثاني ١٩٧٩.
٢١- شعر ربيعة الرقي، جمع وتحقيق ودراسة:
ط ١: وزارة الثقافة والإعلام- بغداد ١٩٨٠.
ط ٢: دار الأندلس - بيروت ١٩٨٤.
٢٢- شعر زياد الأعجم، جمع وتحقيق ودراسة:
ط ١: وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق ١٩٨٣.
ط ٢: دار المسيرة - بيروت ١٩٨٣.
٢٣- شعر إسماعيل بن يسار النسائي، جمع وتحقيق ودراسة: دار الأندلس - بيروت ١٩٨٤.
٢٤- رباعيات عمر الخيام، ترجمة مصطفى وهبي التل (عرار). تحقيق واستخراج أصول ودراسة:
ط ١: دار الجيل- بيروت، ودار الرائد العلمية، عمّان ١٩٩٥.
ط ٢: دار الرائد العلمية، وأمانة عمان الكبرى، عمّان ١٩٩٩.
٢٥- نحن وتراث فارس: دمشق ٢٠٠٠.
٢٦- الرحلة المنسيّة، فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية: المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ٢٠٠٦.
٢٧- عصر أبي فراس الحمداني: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت ٢٠٠٠.
٢٨- سادن التراث، إحسان عباس: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠١.
٢٩- العين البصيرة، قراءات نقدية: (كتاب الرياض رقم ٨٦)، دار اليمامة- السعودية ٢٠٠١.
٣٠- الترجمة الأدبية، إشكاليات ومزالق: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠١.
٣١- إبراهيم طوقان، أضواء جديدة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠٤.
٣٢- عبد الله الفيصل، دراسة ومختارات: دار المناهل - بيروت ٢٠٠٤.
٣٣- عبد المنعم الرّفاعي، دراسة ومختارات: دار المناهل - بيروت ٢٠٠٤.
٣٤- فدوى طوقان، دراسة ونصوص ومختارات: دار المناهل - بيروت ٢٠٠٤.
٣٥- حفريّات في تراثنا النقدي: دار المناهل- بيروت، ودار الرائد- عمّان ٢٠٠٦.
٣٦- عين الشمس: مقاربات في النقد ونقد النقد. دار الرائد العلمية وأمانة عمّان- عمّان ٢٠٠٧.
٣٧- جماعة الديوان وعمر الخيّام: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠٤.
٣٨- حوارات إحسان عباس: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠٤.
٣٩- إبراهيم طوقان، دراسة جديدة ومختارات: دار المناهل - بيروت ٢٠٠٧.
٤٠- حوارات فدوى طوقان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ٢٠٠٧.